

١٠٠٠ كتاب

٢٧٥

# الجغرافيا والسيادة العالمية

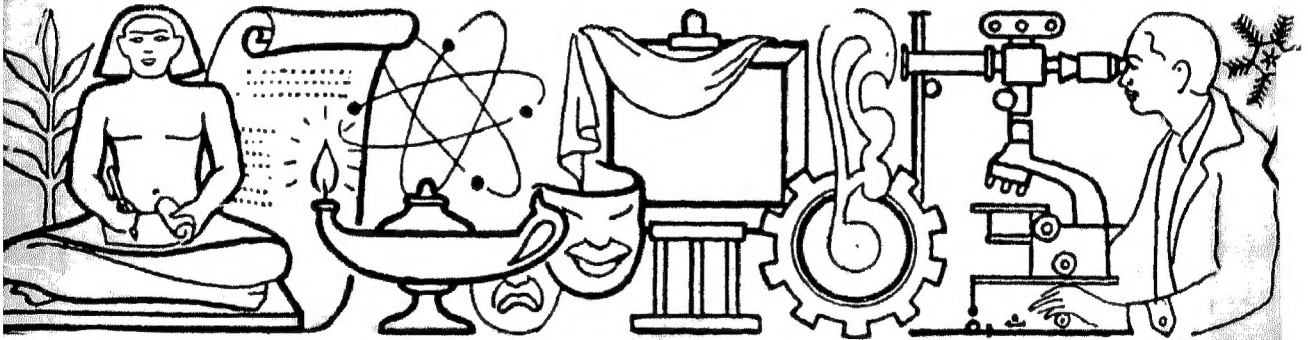
تأليف  
جيمس فريجراف

ترجمه  
على رفاعه الأنصاري

راجعه

الدكتور محمد عبد الله الشقراي

بإشراف إدارة الثقافة العامة  
بوزارة التربية والتعليم



نشرته مكتبة النهضة المصرية

اهداءات ٢٠٠٠  
ا.د. رشيد سالم الناضوري  
أستاذ التاريخ القديم  
جامعة الإسكندرية

الإلف كتاب

# الجغرافيا والسيادة العالمية



General Organization of the Alexandria Library (GOAL)  
*Bibliothèque Alexandrine*

بإشراف إدارة الثقافة العامة  
وزارة التربية والتعليم بمصر

هذه ترجمة لكتاب :

GEOGRAPHY  
AND WORLD POWER

---

JAMES FAIRGRIEVE  
University of London Press Ltd.



# الجغرافيا والسيادة العالمية

تأليف

جيمز فيلجريف

ترجمه

راجعه

الدكتور محمد عبد المنعم الشيرقاوى

رئيس قسم الجغرافيا  
بجامعة الاسكندرية

على رفاعه الأيضارى

رئيس قسم التبادل الثقافى  
بوزارة التربية والتعليم

ملزوم الطبع والنشر  
مكتبة النهضة المصرية

١٩٥٦



## تقديم

إن هذا الكتاب يمثل محاولة طيبة ترمي إلى شرح العوامل الجغرافية وتوضيح أثرها في توجيه التاريخ . وقد أسهب المؤلف في دراسة الحضارة المصرية لأنها في نظره بمثلت النور والعرفان إلى شتى نواحي العالم ، وكانت البذرة الأولى التي أخذت عنها الحضارات القديمة والحديثة في مختلف العصور . وقد نظر المؤلف إلى البيئات المختلفة نظرة صادقة ناقدة وقام بدراسة الحقائق الجغرافية فيها ووصل بهذه الدراسة إلى تكييف التطور التاريخي في كل منها .

ومعنى هذا تفسير التاريخ بأسلوب يسمو كثيراً عن مجرد سرد الوقائع والأحداث بدون إشارة إلى العوامل الجغرافية الأساسية . وقد وصل بهذا المجهود إلى بحث فلسفة الحضارة الإنسانية وكيف إنها رغم تنوعها في البيئات المختلفة ترمي دائماً إلى إسعاد البشر ورفاهيتهم ، وتدعو إلى التقارب بين الأمم وإلى توطيد روح التفاهم بينها . وإذا كان الكتاب قد طبع في عام ١٩٢٧ فإن حقائقه واستنتاجاته لا تزال سليمة نصدق في معظمها على أحوال العالم في الوقت الحاضر . أما عن الترجمة إلى اللغة العربية فيسرنى أن أشير إلى أن حضرة المترجم قد بذل جهداً محموداً يجمع بين الدقة في الترجمة وبين جمال الأسلوب العربي . ويضاف إلى ذلك أنه كان أميناً في نقل أفكار المؤلف نقلاً صادقاً حتى تصل إلى القارئ في عبارات عربية وألفاظ سهلة مختارة تؤدي المقصود منها في الأصل تماماً . وقد قمت بمراجعة هذه الترجمة مراجعة دقيقة ، وعينت في أن تكون الأسماء العربية الواردة في هذا السفر على صورتها الصحيحة حتى يستكمل هذا البحث صورته العلمية الكاملة .

بهذا نأمل أن تكون الإدارة العامة للثقافة بتقريرها ترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية قد أسدت خدمة كبرى للمكتبة العربية التي تفتقر إلى أمثال هذه المؤلفات من الكتب العلمية القيمة .

محمد عبد المنعم الشرفاوى



## تمهيد بقلم المؤلف

### ما العالم إلا مسرح كبير

في هذا المؤلف محاولة لقصة مبهوكة الأطراف تبين أن نظاماً حقيقياً ينتظم أحداث هذا السكوكب السيار وأن بدت في ظاهرها خالية من كل نظام يربط بينها . ولما كنا نتناول تاريخ العالم وجغرافيته في مثل هذا الحيز الضيق كان من الضروري أن نتحاشى ذكر الكثير من التفاصيل ، وقد تختلف الآن فيما يجب حذفه ، وقد تظهر للناس بعض الأشياء على صورة تختلف عن صورتها في نظر المؤلف ، ولكن صدق هذه النظرية في مجموعها لا يتوقف على دقة هذا التعبير أو ذاك أو على هذه النظرة أو تلك ، ويجمل بنا أن نؤكد بوجه خاص أن هذا الكتاب وهو يعالج تاريخ العالم إنما يعنى بوجه واحد منه . وغايته الرئيسية في الحقيقة هي العناية بالمسرح وإعدادة ، لا بتمثيل المسرحية ذاتها ، وهدفه هو تبين كيف كان المسرح معداً في فترات مختلفة من التاريخ العالمى ، كما يعنى بصفة خاصة بإعداد المسرح الحالى لتمثيل المسرحية في الوقت الحاضر .

وقد يبدو هذا الكتاب لأول نظرة غابرة أنه يمثل ناحية مادية ولكن ماديته في الحقيقة ترجع إلى أن طبيعة البحث تفرض العناية بالنواحي المادية . وقد تتبعنا الطرق التى أثرت بها العوامل الجغرافية فى الممثلين ، وأغفلنا النواحي الروحية للمسرحية والتي لا تبرز أثر العوامل الجغرافية ولكن هذا لا يعنى أنها غير قائمة .

محمس فيرميزيف

## محتويات الكتاب

الفصل الأول	— مقدمة .
» الثاني	— الصحراء ، فجر التاريخ ، مصر .
» الثالث	— المستنقعات والمراعى ، بل وأشور .
» الرابع	— الطرق ، فلسطين وقينقية .
» الخامس	— البحر (١) اليونان (٢) قرطاجه .
» السادس	— التناقض بين البر والبحر وبين المرتفعات والمنخفضات .
	روما .
» السابع	— السهل والقبائل المغيرة .
» الثامن	— الواحات ، الإسلام .
» التاسع	— المحيط ، الاكتشافات ، ايبيريا .
» العاشر	— المحيط ، الإمبراطورية المحيطية ، هولانده وفرنسا .
» الحادى عشر	— المحيط ، الامبراطورية المحيطية . بريطانيا .
» الثانى عشر	— الغابات (١) روسيا (٢) ألمانيا .
» الثالث عشر	— أرض الأنهار : الصين .
» الرابع عشر	— الأرض الدفيئة : الهند .
» الخامس عشر	— المراعى الأفريقية : مناطق النفوذ .
» السادس عشر	— الدنيا الجديدة ، تاريخها قبل كولومبس ، أمريكا الإسبانية .
» السابع عشر	— الفصح : الولايات المتحدة .
» الثامن عشر	— توزيعات اليابس الكبرى : العالم كآ هو .
» التاسع عشر	— احتمالات الغد .
فهرس	.

# الفصل الأول

## مقدمة

### موضوع الكتاب

وضع هذا الكتاب ليظهر كيف أن تاريخ العالم قد سيرته عوامل ووجهته ظاهرات تدخل جميعها تحت كلمة « جغرافية » ، وليبين أى الحقائق الجغرافية جوهرية حقاً وذلك بملاحظة العوامل التى لها أكبر الأثر فى توجيهه التاريخ . وفى هذه الجملة الأخيرة نجد ثلاث كلمات يجب أن ندرك المقصود منها تماماً وهى : « التاريخ » و « التوجيه » و « الجغرافيا »

١ — التاريخ : إذا تكلمنا عن التاريخ على هذا النحو فإن كلامنا ينصب بطبيعة الحال على تاريخ الإنسان على وجه الأرض ، ومع ذلك فإن التاريخ يشمل معانى عديدة منها ما يلى :

( ١ ) قد يكون التاريخ مجرد سرد لجميع الأحداث التى وقعت وفق الترتيب الزمنى لحدوثها دون أى تعليق ، وحين ندرس التاريخ تحتم الضرورة معرفة الكثير عن هذه الأحداث ، ولكن مجرد العلم بها لا يثير اهتماماً كبيراً ، بل ولن يستطيع أحد الإلمام بهذه الحوادث كلها حتى وإن تيسر له جمعها . فلا مناص إذن من أن ننتخير منها أعظمها أهمية .

( ب ) ومن ثم فنحن نخرج بفكرة أخرى عن التاريخ باعتبار أنه رواية لأكثر الأحداث أهمية حسب ترتيب حدوثها ، على أنه ينبغى عند انتخاب أهم الأحداث

أن نقارن بينها حتى نحكم أيها أكثر أهمية. ولكي نقوم بهذا العمل يجب بطبيعة الحال أن نفكر لماذا هي « هامة » . وعندئذ نجد أن الأحداث تكون هامة إذا أثرت في خير البشر إلى حد كبير ، وهي أقل أهمية إذا لم تؤثر في الإنسان إلا قليلا .

(ح) وهكذا نخطر على أذهاننا في الحال فكرة ناللة عن التاريخ باعتبار أنه قصصة للأحداث الهامة والأسباب التي سببت حدوثها والآثار التي خلفتها في الإنسان ، وعند تقدير هذه الأهمية يجب أن نذكر أن بعض الأحداث يؤثر في الإنسان أثراً عميقاً لفترة ما ولا يؤثر إلا قليلا . بعد ذلك . على حين لا يؤثر بعضها الآخر في الإنسان إلا قليلا في مبدأ الأمر ويظل تأثيرها يفعل فعله أمداً طويلا .

فإذا ما نظرنا إلى التاريخ على هذا النحو وجدنا أن بعض الحوادث التي تبدو قليلة الأهمية هي في الواقع أحداث هامة ، وفي الوقت ذاته قد تبدو بعض الحوادث الأخرى هامة جداً ولكنها في واقع الأمر دون هذه المرتبة ، ونجد أيضاً أن الأسباب والنتائج التاريخية متشابكة متداخلة حتى لتجعل من التاريخ وحدة كاملة حية ، فإن بعض الحوادث المعينة قد أدت بطبيعة الحال إلى أحداث أخرى ، وأن ما قام به فرد أو قبيلة أو أمة بعينها قد أثر في حياة أناس آخرين وأمم أخرى ، وهذا وأن دراسة التاريخ شائفة جداً ومرجع ذلك هو أنها إحدى الدراسات التي تعالج أمور البشر وعلاقاتهم بعضهم ببعض ، كما تعنى بالآثر الذي يتركه كل إنسان أو كل مجموعة من الناس في الآخرين . وأننا نعلم أيضاً من دراسة التاريخ أن جماعات من البشر ، وإن ب مدت الشقة بينها في الزمان والمكان ومع ذلك فهم يتصفون بخصائص جد متشابهة ، حتى أن بعض الأحداث المتشابهة جداً قد تحدث في مناطق جد مختلفة من العالم ، وقد يختلف زمن حدوثها بل وقد تفصل بينها عدة قرون من الزمان ، وما حدوثها نفسه إلا نتيجة هذا التشابه ، ومن هذا يبدو اتجاه التاريخ « لأن يعيد نفسه » كما يقال .

ولكن التاريخ ليس كله تكررراً بل فيه تقدم وفيه رقى . وقد نلاحظ ذلك إذا رجعنا إلى الوراء عاماً أو عامين ولسكننا لورنونا بأفكارنا إلى الوراء قروناً وشملت نظرنا العالم بأجمعه لأمكننا أن نلاحظ أن تقدماً قد حدث وإذا اتسعت



نظرتنا فشملت تاريخ العالم بأجمه ارداد ظهور هذا التقدم موضوعاً. وقد يغلب علينا الريب في التعبير عما نقصد بكلمة « تقدم » ولسكننا في الواقع «المسه على كل حال، فنحن ندرك مثلاً أن أفكار الناس عن الحق وعن الباطل قد طرأ عليها تغير إبان العصور التاريخية فتغيرت في مجلتها إلى ما هو أحسن وما هذا سوى جانب واحد من جوانب الرقي . وهناك اتجاهات أخرى واضحة يسير التطور فيها نحو التقدم فقد ارتفع مستوى معيشتنا لا من الناحيتين الأخلاقية والفكرية فحسب بل ومن الناحية المادية أيضاً فنحن الآن أفضل كساء وغذاء عما كان عليه أجدادنا منذ قرون ويتوافر لنا من أسباب الحياة أكثر مما تيسر لهم واتسع وقت فراغنا أكثر مما اتسع لهم . ولدينا آلاف من الشواهد على أننا بوجه عام أسعد حالاً في حياتنا في القرن العشرين بعد الميلاد عما كنا عليه منذ خمسة آلاف عام مثلاً .

فما هو الذي حدث ؟ وإذا تركنا جانباً كل المسائل الدينية فماذا نعني بكلمة تاريخ ؟ أليس هناك ثمة عبارة موجزة تعبر عن معنى التاريخ ؟ . قد يجاب عن هذه الأسئلة إجابات عدة وقد تثار اعتراضات على الجواب الذي ثبتته هنا . ولا شك أن لهذا الجواب حدوداً غير أنه يمكننا القول بأن « التاريخ » في أوسع معانيه من الناحية المادية هو تسجيل لقدرة الإنسان المتزايدة على التحكم في الطاقة . ونقصد بكلمة « طاقة » القدرة على أداء عمل أو بعث حركة وليس التحكم فيها ، بمعنى دفع الأشياء إلى الحركة أو إيقافها ، سواء أكانت قطارات أم ساعات أم طواحين أم بشرأ . وهكذا نحتاج إلى الطاقة في كل عمل . وإنما تقوم حياة الإنسان على سعيه إلى الحصول على أكبر قدر ممكن من الطاقة والانتفاع به ، وتقليل الضائع منها بقدر الامكان . وكل وسيلة تكسبه طاقة أكبر أو تنقص من خسارته منها هي علامة تقدم ورق ولها أهميتها في تاريخ العالم . وكل اكتشاف توصل به الإنسان إلى كيفية صنع الأشياء بل وكل ما نسميه اختراعاً مما يمثل مراحل متميزة من الرقي ليست مجرد حقائق — هامة إلى حد ما — لا صلة لها بالتاريخ ، بل أن سجلتها به وثيقة للغاية فاختراع الكتابة الهروغليفية مثلاً والحروف الأبجدية والأرقام

الحسابية والطباعة والبوصلة والفأس والمجلة والآلة البخارية وورقة النقد «  
هذه كلها أشياء لها أكبر الأثر في مجرى التاريخ العالمى ، وأهميتها تتركز في أنها  
مكنّت البشر من استغلال الطاقة واقتصادها .

ومن ثم يتضح لنا أن للطاقة أهميتها البالغة فيما نسميه « التاريخ الاجتماعى »  
بل ومن الضرورى أن نبرز أنها لا تقل في أهميتها أيضاً للتاريخ الحربى والدستورى —  
أى التاريخ الذى يعنى بالقوانين والمعارك ويؤرخ للدولك والجمهوريات . وقد يكون من  
المفهد أن نضرب لذلك مثلاً استغلال الطاقة المتولدة من الفحم المحترق أو من المياه  
الساقطة ، فهى لا تستغل كلها فى أن تحفظ للآلات دورانها بل أننا نستغلها فى  
فى نواحي أخرى . وقد يبدو فى الظاهر أنها تذهب سدى إذا استخدمت بقصد  
الحصول على طاقة أكبر فيما بعد . ويجرى هذا النحو بأساليب تشبه إلى حد كبير  
تلك التى تراها تعمل عملها على نطاق واسع فى التاريخ السياسى والاجتماعى .

١ — فقد تستخدم الطاقة فى إبدال أجزاء جديدة من آلة بأخرى قديمة  
أو فى إضافة أجزاء أخرى أكثر صلاحية لهذا العمل فستنفد الطاقة فى صناعة الجزء  
الجديد وفى تركيبه وضبطه ، وقد يبدو هذا مجهوداً ضائعاً ، كذلك الأمر عند  
ما توضع نظم جديدة للحكم ، فليس ذلك سوى ادخال تحسينات فى آلة الحكم .  
وكل تغيير تدريجى فى وسائل الحكم هو بمثابة إضافة أو تجديد فى هذه الآلة بينما  
الثورات التى تطوح بنوع من الحكومات وتحل محلها آخر هى بمثابة إحلال آلة  
جديدة محل أخرى قديمة . ومنع ذلك ، فإن مثل هذا الاستبدال نادر ويكاد يكون  
غير معروف على أى نطاق واسع ، ذلك لأن قدراً كبيراً من النظام القديم يبق  
عادة ويدخل فى تركيب النظام الجديد حتى فى أشد الثورات عنفاً .

٢ — وقد تبذل طاقة فى تشحيم الآلات ، وكل طاقة تستخدم فى صناعة  
الزيت وتنقيته واستعماله تبدو جهداً ضائعاً ، ولكن استعمال الزيت يمكن الآلة من  
أداء عملها أكثر مما تستطيعه بدون هذا الزيت . وعلى نفس هذا النمط يمتنع الجهاز  
الحكوى بمجهود عدد من الرجال هم بمثابة الزيت للآلة حتى يتسنى لها أن تدور  
فى سهولة ويسر . وعلى مر الزمن يزداد الانتفاع بالطاقة لصالح الأفراد الذين يعينهم

الأمر . وإن البنوك والأسواق المالية (البورصات) والصحف التجارية هي كلها بمثابة الزيت الذي بفضل تسير شئون العالم التجارى في مجراها بسهولة ، كما تيسر بطريقة غير مباشرة شئون العالم الإجماعى والسياسى .

٣ — وقد يحدث في بعض الأحيان أن تذهب طاقة الآلة سدى فتنتطلق هاربة دون أن تؤدي عملاً نافعاً — وهى عادة على صورة طاقة حرارية وعندئذ يضع المهندس بعض الوسائد حول بعض أجزاء الآلة ليمنع تسرب الحرارة منها . كما تتطلب الآلات نوعاً من الحماية لكي يمنع عنها الصداً وللمقاومة ماقد تحدثه لها قوة الهواء من أضرار . وفي كلتا الحالتين فإن ما يبذل من الجهد في حماية الآلات قد يبدو ضائعاً غير أنه على مدى الزمن يؤدي إلى كسب قدر من الطاقة أكبر مما استنفد . ولهذا الغرض عينه تقام المباني سواء أكانت لحماية الآلات أم لحماية الناس . كذلك الحال في قوات البوليس والجيش والأسطول وغيرها من الهيئات فإنها تشبه عمليات الحماية والوقاية التي يقصد بها منع تسرب الطاقة هباءً أو لتحول دون أن تحدث لها أضرار أو لتمنع المؤثرات الخارجية من أن تحول بينها وبين مواصلة عملها بانتظام .

وهناك نظرية هندسية أخرى لها أثر عميق جداً في التاريخ إلا وهى نظرية المحولة السكاملة أو الجمل الأقصى . ومعنى هذا أن إدارة عدد من الآلات مجتمعة يتطلب طاقة أقل مما تتطلبه إدارة كل آلة على حده ، لأن الآلات لا تعمل قط بأقصى قوتها في وقت واحد . ولنضرب لذلك مثلاً النقل بالترام . فإن تسيير قطارات الترام جميعاً بواسطة محطة مركزية لهو أكثر اقتصاداً من تسيير كل منها على حدة بقوة خاصة بها . وهناك وفي كثير من آخر علاوة على الاقتصاد الناتج عن إنشاء عدد أقل من الآلات ، ألا وهو إن العربات لا تعمل جميعها باقصى سرعتها في وقت واحد . هذه النظرية مثل غيرها تطبق على نطاق واسع في التاريخ الاجتماعى ويرجع إليها الفضل في نمو المدن في الوقت الحاضر . كما أن المخازن الكبرى وبيوت الأعمال المعظمى والنقابات تدين لهذه النظرية بأهميتها ، بل ولدرجة ما يمكن أن يرجع إليها بعض الفضل في وجود القوميات والامبراطوريات .

( ٥ ) وهكذا تولد لدينا الآن فكرة رابعة عن التاريخ ، فعندما نتكلم عن تاريخ العالم بأوسع معانيه نقصد وجود علاقة منظمة بين أحداث تبرز كيف تمكن الإنسان بالتدريج من أن يستخدم من الطاقة قدراً متزايداً ، هذا مع بيان أسباب هذه الأحداث ونتائجها .

وتتصل بنظرية المحولة الكاملة نظرية هندسية أخرى وهى « القصور الذاتى » والقصور الذاتى هو مقدرة الجسم على استمرار التحرك إذا ما بدأ فى الحركة وليسكن هذا الجسم قطاراً أو مؤسسة أو مدينة أو صناعة القطن فى لنكشير أو الامبراطورية البريطانية ، وكلما عظم الجسم عظمت معه قوة القصور الذاتى . وعلى العموم فمن السهل أن نحافظ على حركة الجسم عن أن توقف حركته لأن إيقاف الأشياء يتطلب بذل طاقة ؛ وإذا ما كفت الأجسام فجأة عن الحركة نشأ عن ذلك ضرر ، وإذا ما منعنا عن جسم متحرك القوة الدافعة له فإنه لا يكف عن الحركة فى التوالى لحظة كما أنه لا يصل إلى أقصى سرعته فى لحظة إطلاق هذه القوة عليه مرة أخرى . والآلة المتحركة لا تسكن سكوت الأموات إذا منعنا عنها مورد البخار ، كما أنها لا تقفز إلى الدوران فى أقصى سرعتها إذا ما أعيد إليها موردها من القوة . وإذا لم يتوافر لها القدر الكافى من الطاقة لدورانها فإنها تبطئ فترة ثم تقف ، ولكنها لا تقف فجأة . وقد ظلت الامبراطورية الرومانية تعيش ثلاثمائة عام بعد أن نقصت قوتها الدافعة نقصاً خطيراً .

٢ — التوجيه : ويجب أن نحدد معنى كلمة « توجيه » . قد يساعدنا على فهم معناها ذكر ما لا ينطوى تحتها وضرب بعض الأمثلة على ذلك . فالتوجيه لا يعنى صنع الأشياء أو خلق أسباب وجودها فهذا بعد من أن يتضمنه معناها . فنحن توجه الحصان ونضبط سيره أو نحدد فى أى الاتجاهات يسير أو نوقفه ، ولكننا لا نحقق الحصان ولا الطاقة التى يستخدمها فى استجابته لتحقيق رغباتنا ثم إن الناس قد يستطيعون ضبط مجرى مائى فى انحداره من سفح تل من التلال ويبلغ تحكمهم فيه أنهم يحفرون له قناة ويدنون له شواطئها بالأحجار ليحولوا دون فيضاتها على الجوانب أو يضعون الأنابيب لنقل بعض مائها أو كله إلى حيث يريدون . ولكنهم لا يستطيعون

خلق النهر نفسه بمعنى خلق الماء ذاته ، كذلك يستطيع الإنسان أن يتحكم في الاقادة من الطاقة المتولدة من الفحم سواء في التدفئة أو في تسيير قطار بما يحمله أو في إدارة آلة تدير مصنعاً للنسيج ، ولكنه لا يستطيع أن يخلق الفحم ذاته .

وهكذا إذا قلنا أن التاريخ توجهه وتحدده الجغرافيا فإننا لانعني أن الإنسان مضطر بحكم الجغرافيا إلى أن يزيد في إستخدام الطاقة شيئاً فشيئاً ، ولكن معناه أن الجغرافيا تحدد إلى مدى كبير الطريق المعين الذي قدر للإنسان أن يسلكه في هذا الاستغلال .

٣ — الجغرافيا — ويجب أن نحدد أيضاً معنى كلمة « جغرافيا » وأن نحدد القول بأن العلم بالجغرافيا لا يحوى إلا المعرفة بأسماء الأماكن أو مواقعها أو أن نعرف عن هذه الأماكن بعض المعلومات الطريفة ، فما هذا سوى جزء واحد بالغ الأهمية من بين أجزاء الجغرافيا ، وهو الجزء الذى يماثل معرفة الأحداث في علم التاريخ ولكن لا يعدو أن يكون جزءاً ، كذلك يجب أن يكون معروفاً أن الجغرافيا ليس معناها معرفة كل ما على سطح الأرض — وإذا كان كل ما على الأرض يتصل بالجغرافيا فليس معنى هذا أن العلم به من الجغرافيا في شيء . ويتضح من دراسة الجغرافيا معرفة مواقع الأشياء كالمدن والجبال والأنهار بل والناس واحوالهم وكذلك تعرف كيفية توزيع الأشياء على سطح الأرض وكيف ينتظم اليابس والماء وأين تسقط الأمطار بهزارة وأين ترتفع درجة الحرارة وأين تنخفض وأين تنمو أنواع الحياة النباتية على إختلافها وأين تهب العواصف وأين تهدأ الرياح وأين يعيش الناس بمختلف أجناسهم .

ولما كانت أكثر الأحوال الجغرافية هي نتيجة لظروف جغرافية أخرى فإننا كثيراً ما نضمّن دراستنا الأسباب والنتائج ، فنعرف لماذا وجدت غالبية الأشياء التي نحن بصددتها حيث هي ، وكيف أثر وجودها أو انعدامها في حياة الإنسان ، ولقد فرضنا عند التعرض لتعريف ماهية التاريخ أن الأحداث تحدث نتيجة لأعمال البشر فيما مضى ولسكننا هنا في الجغرافيا نفرض أن الأحداث إنما تحدث بالشكل أو الأسلوب الذي تحدث به بسبب عوامل أخرى مسيطرة .

أما وقد تبيننا معنى هذه الكلمات الثلاث ألا وهي التاريخ والتوجيه والجغرافيا فانذا نستطيع أن ندرك أن هذا الكتاب قد وضع ليبين الطريق الذى يسر للانسان استغلال الطاقة شيئاً فشيئاً وكيف أن طريقه قد حددته التوزيعات الجغرافية على سطح الأرض .

وهكذا تتكون لدينا فكرة عن المسرح العالمى الذى يمثل عليه البشر الآن أدوارهم فى الحياة .

### العوامل الكبرى البعيدة الأثر مع بساطتها

وقبل أن نمضى فى تتبع أثر العوامل الجغرافية فى مجرى التاريخ فجعلت ظروفًا وحوادث معينة تتوالى بعضها أثر بعض فى ترتيبها الزمنى ، يحسن بنا أن نبين أثر بعض العوامل الأساسية البارزة والمألوفة لنا إلى حد قد يمكن فيه خطر نسيان أهميتها القصوى ، وذلك لأنها قائمة على الدوام ومألوفة لكل إنسان ، فلم تعد تستلفت النظر ، ولما كانت تعمل عملها فى صمت وتؤثر أثرها على الدوام وفى البشر جميعاً — وفى جميع مراحل المدنية ، أصبح من الصعب تصور الأثر العميق الذى تتركه فى الحياة .

أولاً — المكان : — من الواضح أن لكل حادث مكانا يقع فيه ، وفكرة المكان وهى أبسط ما توحى به الجغرافيا ، ترتبط بأبسط فكرة عن التاريخ ارتباطاً وثيقاً بل أن الأحداث التى تحدث فى مكان معين أو فى إقليم بالذات لها علاقاتها المحددة فى غالب الأحيان ببعضها بعضاً وترتبط عادة فيما بينها بنوع ما من العلاقات ولا تتصل اتصالاً وثيقاً بالأماكن التى تخرج عن نطاق حدودها ، وتؤخذ مثل هذه الحقائق فى تتابعها على أنها تاريخ تلك البقاع أو الأمكنة . فنتكلم عن تاريخ إنجلترا أو تاريخ فرنسا أو تاريخ اليونان أو تاريخ لندن . وهذه طريق هامة إن لم تكن بديهية تحمكت بها الجغرافيا فى التاريخ وسندرك أهميتها البالغة فيما بعد ولكننا نعلم أن تواريخ هذه البقاع وهذه الأقاليم لا يمكن أن تدرس بمعزل عن غيرها فاننا لانستطيع الوقوف على جزء كبير من تاريخ لندن مالم نكن على علم

إلى حتما بتاريخ إنجلترا . وأن الإنجليز كانوا على اتصال بالفرنسيين لفترة طويلة من الزمان وأن تاريخ إنجلترا قد تأثر بتاريخ فرنسا الذى تحكم فيه إلى حد ما . ومثل هذا القول يصدق على جميع التواريخ وكل منها يستند إلى حقيقتين : الأولى أن تاريخ الأقليم يمثل وحدة قائمة بذاتها لسبب أو لآخر . والثانية أن سكان الأقليم يتأثرون بظروف حياة سكان الاقاليم الأخرى قربت أم بعدت . ولكل منها وحدة الخاصة وهذه هى الظاهرة الغالبة فى الأزمنة الحديثة ولكنه ينطبق أيضاً على التاريخ القديم .

ثانياً — الطاقة — ومادمننا قد قررنا أن التاريخ يعنى زيادة معرفة الإنسان بطرق استخدام الطاقة وتوفيرها فإن التاريخ مسير بحكم توزيع الطاقة فى صورها المختلفة وبحكم توزيع أى عامل قد يحول دون استخدامها أو ما قد يحفز الإنسان على زيادة الإلتفاع بها .

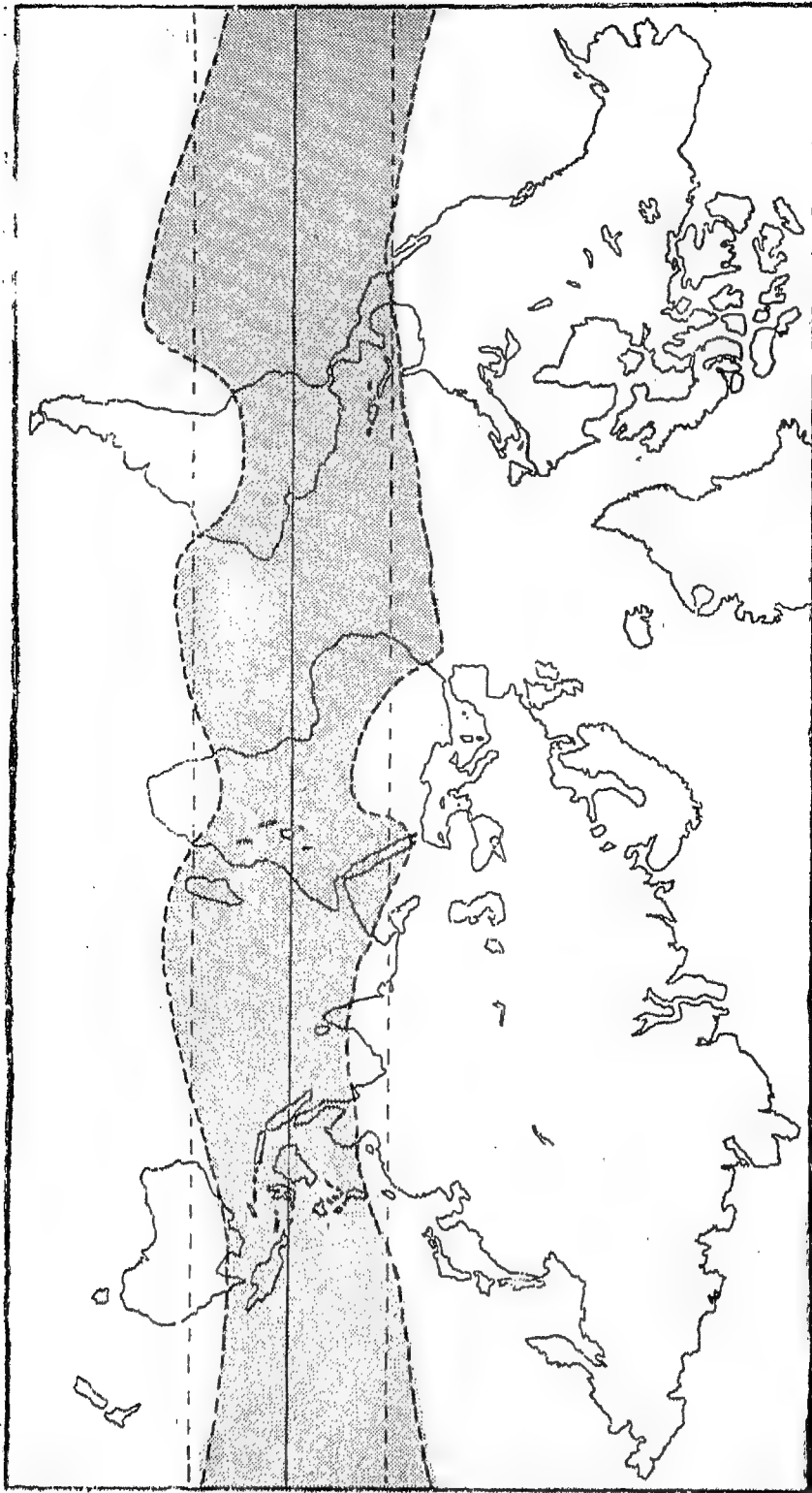
وكل طاقة على سطح الأرض مصدرها الشمس أما فى شكل حرارى أو ضوئى وربما فى أنواع أخرى من الإشعاع وبفضل هذه الطاقة استطاع البشر أن يصنعوا الأشياء ويعمشوا بالحركة فيها ، فهم يتسلطون على هذه الطاقة ويخضعونها لإرادتهم وتصبح جزءاً منهم ، فهم يأكلون الخبز المصنوع من القمح أو من الحبوب الأخرى والتي ما كانت تنمو وتزدهر لولا حرارة الشمس وضوؤها ، كما أصبح الحب دقيقاً مطحوناً بفضل استخدام الفحم الذى هو فى الأصل نبات نما بفضل حرارة الشمس ، وقد يطحن الدقيق بقوة مستمدة من المياه وهذه مصدرها الأمطار حين تنحدر على سفوح الجبال ، وهى أصلاً قد تصاعدت فى صورة أبخرة من المحيط بفضل حرارة الشمس ثم حملتها الرياح إلى اليابس ، وللشمس الفضل الأول فى حركة الرياح ، كما أن البشر قد يستمدون طاقتهم من لحم الحيوان الذى يأكل النبات فى غذائه بعد نموه بفضل أشعة الشمس ، وقد يستطيع البشر الإستغناء عن بعض الطعام وتدفئة أنفسهم بالنيران التى وقودها المواد النباتية كالفحم أو الخشب أو الزيت وهى جميعاً تستمد طاقتها الكامنة من الشمس . وقد يحاول البشر اقتصاد بعض الطاقة بارتداء الملابس والفضل فى وجودها مباشرة أو غير مباشرة عائد إلى الشمس ، ومن اليسير

أن يتبين في جميع هذه الحالات الجوهرية وفي حالات أخرى كثيرة تكاد لا تقل عنها أهمية أن الطاقة التي يسيطر عليها الإنسان مستمدة من الشمس مباشرة وأن قليلا من التفكير يظهر أن الشمس هي المصدر الأول لذلك القدر الهائل من الطاقة التي نحتاج إليها في قضاء آلاف المطالب العديدة اللازمة للحياة اليومية ومن هذا يتبين أن توزيع الطاقة على الأرض هو في الجملة توزيع للطاقة الشمسية فالأما كن التي تقع مباشرة تحت الشمس تتلقى قسطاً من الطاقة أوفر من تلك التي تستقبل الإشعاعات بميل أو بانحراف ، وبعبارة أخرى أن الأما كن القريبة من خط الاستواء هي في مجموعها أوفر حظاً من تلك التي تقع قرب القطبين ولعل هذه الحقيقة هي أهم حقائق التاريخ العالَمي وأبقاها ، ومدى الاستفادة من هذه الطاقة متأثر بتوزيعات أخرى عديدة بدرجات متفاوتة وفي أزمنة مختلفة ولكن توزيع الطاقة يظل في جميع مراحل التاريخ هو الأساس الأول الذي تقوم عليه جميع الأحداث . ويمكن أن نبين بجلاء الأثر الذي تتركه هذه التوزيعات في تاريخ العالم إذا تصورنا الكرة الأرضية بما عليها من قارات ومحيطات كما نعرفها اليوم ، تدور حول الشمس ، وهي تدور لها دائماً وجهاً واحداً فقط ، لو حدث مثل ذلك لتركزت الحرارة والضوء في نصف واحد من الأرض وبصفة خاصة في وسط ذلك الجزء من الكرة الأرضية وبطبيعة الحال لن يتلقى النصف الآخر شيئاً من هذه الإشعاعات ، ومن الواضح أن الحياة لن تصبح ممسورة كما هي حالنا اليوم ، ولو أنها قد تصبح ممسورة في أما كن تستحيل فيها الحياة اليوم استحالة مادية . ثم إذا تصورنا الأرض تدور كما تدور الآن ولكن ميل محورها يختلف عن ميله في الوقت الحاضر فإن قليلا من التفكير يرينا كيف تختلف الأحوال عندئذ اختلافا جسيما عن الظروف السائدة فعلا الآن ، وإن كانت هذه فروضاً فيها تعسف ولكنها تؤكد كيف أن توزيع الطاقة في حالته الراهنة يتحكم في التاريخ .

وقد يقال أن التوزيع النظري للطاقة على سطح الأرض قد تأثر ببعض العوامل البشرية أو بما يعرف أحيانا بالتعادل البشري<sup>(١)</sup> غير أن هذا التوزيع للطاقة يتأثر

(١) يقصد المؤلف هنا تناسب طاقة البشر مع الطاقة الطبيعية — فكلما نقصت الطاقة الطبيعية كلما ازدادت الطاقة التي يبذلها الإنسان في حياته والعكس بالعكس — المترجم .



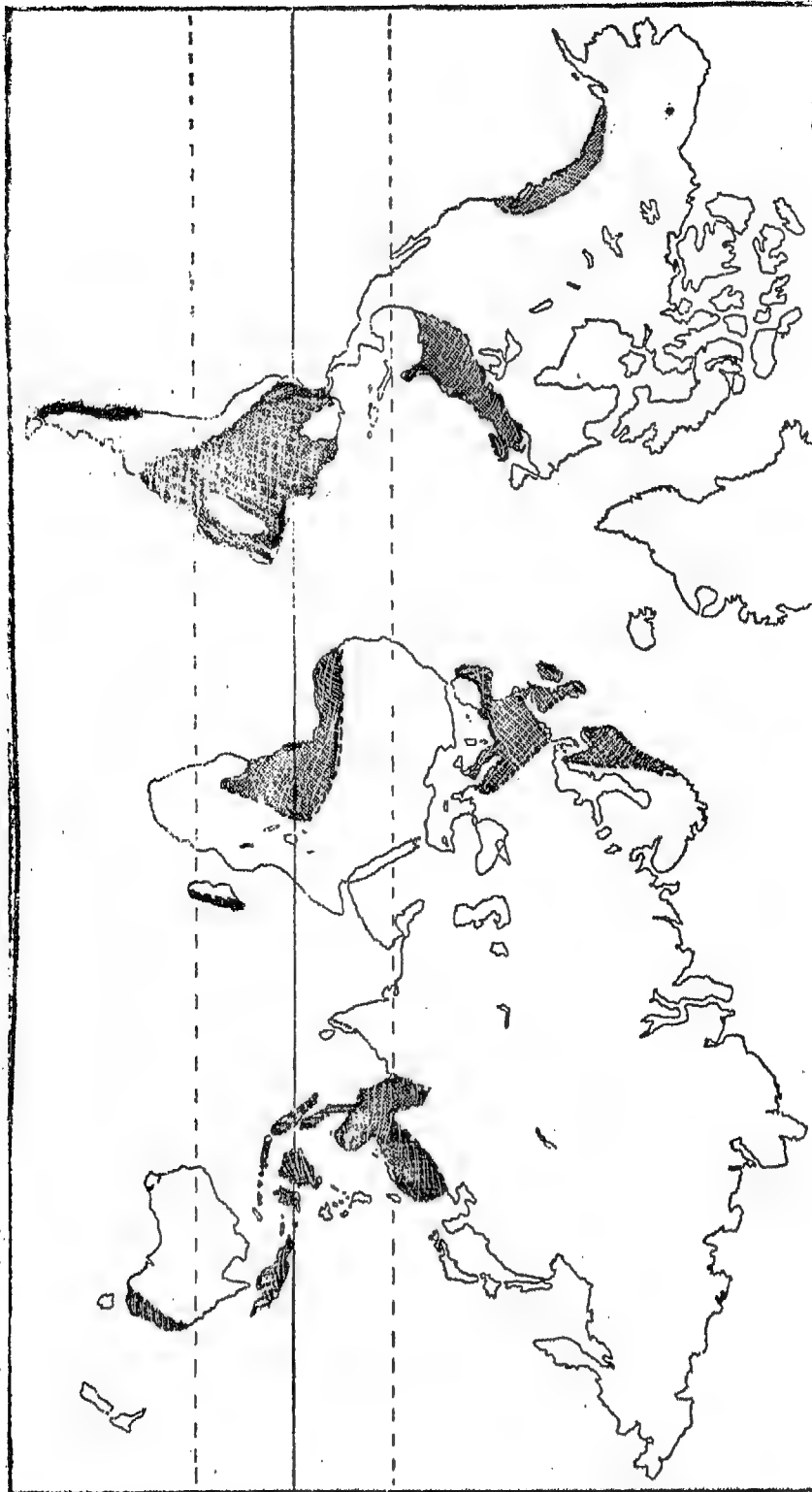


الخريطة رقم ١ - المنطقة ذات المناخ الحار  
 تبين المساحة المظلمة الأماكن التي لا تنخفض فيها درجة الحرارة إطلاقاً عن ٥٠ فهرنهايت  
 إبان السنوات العادية

إلى حد ما بموامل أخرى مختلفة ومثال ذلك أن الأماكن القريبة من خط الاستواء تتلقى بصفة عامة قسطاً من الطاقة أوفر من تلك التي تجاور القطبين ولكن هذا النقص في الطاقة لا يسير على وتيرة واحدة فبعض الأقاليم يتلقى فعلاً قسطاً من الطاقة أكبر من أقاليم أخرى تقع على مقربة من خط الاستواء بسبب اختلاف توزيع الهواء والتيارات الهوائية أو ما نسميها بالرياح .

(١) ومن الأهمية بمكان ملاحظة التوزيع الفعلي للهواء، ومن المعلوم أنه كلما ارتفعنا عن سطح الأرض نقصت درجة الحرارة أو بعبارة أخرى قلت الطاقة التي يمكن الاستفادة منها وهذا يتصل بحقيقة أخرى وهي أنه كلما ارتفعنا كلما نقص الهواء نفسه . وهكذا تصبح الابعاد الرأسية ذات أهمية بالغة مع أن هذه الابعاد عينها قد لا تستحق الذكر لو أنها اتخذت على مقياس أفقي وذلك بسبب هذا النقص في الطاقة . وحده، فالقمح مثلاً وهو غذاء رئيسي يمكن أن ينمو في بريطانيا في منطقة تمتد شمالاً إلى انفرنششير ( Invernesshire ) ولكنه لا ينمو في إنجلترا نفسها على ارتفاع ألف قدم بسبب نقص الحرارة الكافية اللازمة لنضوجه لأن درجة الحرارة تنقص بمعدل درجة فهرنهايت واحدة لكل خمسين أو ستين ميلاً حين نتجه نحو القطبين ولكنها تنقص بنفس المعدل لكل ٢٠٠ أو ٣٠٠ قدم يرتفعها الإنسان عن سطح الأرض .

(ب) ولا يقل توزيع التيارات الهوائية أهمية عن عامل الارتفاع بل وقد يفوقه أهمية فإلى فمل الرياح ودفعها للتيارات المائية يرجع الفضل في أن إنجلترا أدفأ مناخاً من لبرادور وأن الحياة ميسورة فيها عموماً لأن تياراً مائياً دفيئاً يأتي من الجنوب الغربي فيرفع من درجة حرارة المناخ فوق المعدل المعتاد لمثل هذه العروض وهي تتراوح بين ٥٠ و ٦٠ درجة بينما الحياة في لبرادور تكاد تكون مستحيلة بسبب تأثرها بالمياه الثلجية الآتية من الشمال المتجمد ولو قارنا خريطةين إحداهما تمثل الرياح والأخرى تمثل التيارات المحيطية لاتضح أن التيارات تدين بوجودها



المناطق المظللة. يزيد فيها  
المطر عن عشر بوصات طول العام

( الخريطة رقم ٢ )  
توزيع مناطق الأمطار النزيرة الدائمة

إلى الرياح ، ولو أمكن مقارنة الحربطين بخرائط أخرى تمثل الحرارة لانتضح لنا أن نظام الرياح مسئول عن عمران أو جذب الأراضي التي تقع في نطاق ٢٠° عرضية جنوبي الدائرة القطبية الشمالية .

ومعنى هذا أن نظام الرياح قد تحكم تحكما فعالا في مجرى التاريخ بطريقة أخرى ، وقد سبقت الإشارة إلى اعتماد الانسان في حياته على غذائه وحيثما يكون الانسان فإنه يأكل ليعيش ، وطعامه إما أن يكون مستمداً من النبات وأما من الحيوان . ولما كانت الحيوانات تعتمد آخر الأمر في غذائها على النباتات أدركنا بوضوح الأهمية البالغة التي للمواد النباتية . حقا أن مجتمعات قليلة جداً قد تعيش على الأسماك . وهذه بدورها تعتمد على أنواع خاصة من النباتات المائية أو على مخلوقات أخرى تعيش معتمدة على الأنواع النباتية الدنيا ولكن أغلب البشر يعتمدون في غذائهم على المنتجات النباتية التي تنمو بفضل المطر فإنه لا يكفي أن توجد الطاقة ( الحرارة ) بل أن وجود المطر أساسى حتى يتيسر للنباتات أن تنمو ، أى أن الأمر لا يقتصر على وجود الطاقة فحسب بل على إمكان الاستفادة منها ، أى أنه متوقف على وجودها بالظهر أو الشكل الذى يمكن الانسان من استخدامها ، والمطر هو الأبخرة الآتية إلى اليابس من المحيط ، والرياح هى الناقل الوحيد لها فإذا هبت الرياح من البحر إلى اليابس تهبأت الفرصة للأرض التي تهب عليها لأن تستفيد من طاقتها فتصبح صالحة للسكنى والحياة . أما إذا هبت من اليابس إلى البحار كانت الأراضي التي تهب منها جافة قاحلة لا يقبل الناس على العيش فيها .

يتضح مما سبق أن الظروف الجغرافية قد تحكمت في التاريخ تحكما حقيقيا لا مجازا ، فهى التي جعلت بعض الأماكن تلائم بوجه عام حياة البشر أكثر من غيرها ، ولكن الظروف الجغرافية تحكمت في التاريخ بمعنى آخر أدق يمكن اجماله بالقول بأنها وجهت التاريخ في مجراه توجيهاً فعلياً .

هذه الظروف وآثارها هى التي نحن بصدد دراستها .

## الفصل الثانى

### الصحراء — بدم التاريخ — مصر

لقد رأينا مما سبق أن عوامل جغرافية تتحكم فى التاريخ وتسيره بمعنى أنه بفضل توزيع الحرارة والرطوبة أصبحت الحياة أكثر يسراً فى بعض بقاع الأرض عن غيرها . وعلينا الآن أن نبحث الظروف الجغرافية الأخرى التى تحدد السهل التى سار عليها التقدم والرقى .

أولاً — ينبغى أن نلاحظ أن الظروف الجغرافية هى التى خلقت الحافز الذى دفع الإنسان إلى التقدم ومتابعته، حقا أن الأقاليم الإستوائية بما توافرها من الحرارة والرطوبة قد تيسر أسباب الحياة للحيوان إلى أقصى حد، غير أن من الحقائق الراهنة أن الإنسان فى الأقاليم المعتدلة لا فى الأقاليم الإستوائية قد بلغ الغاية فى قدرته على التحكم فى الطاقة . والتاريخ الجدير بهذا الاسم لا نجد فى أفريقيا الإستوائية وإنما نجد فى أوروبا المعتدلة . ويرجع هذا إلى عاملين جغرافيين ترجع أهمية كل منهما للأثر الذى يتركه فى عقل الإنسان كما يتركه فى جسمه .

(١) يأتى فى المرتبة الأولى أنه ليس فى العروض الإستوائية ما يحفز الإنسان أو الحيوان إلى بذل الجهود أكثر من أن يتناول الطعام الضرورى الذى يحفظ عليه الحياة . وما ذلك إلا لأن الحياة ونعنى بها الحياة الحيوانية ميسورة فى هذه العروض ، وأما فى العروض المعتدلة ، فكلما ابتعدنا عن خط الإستواء أصبحت الحياة أكثر صعوبة ، ولهذا السبب إذا ما قدر للمخلوقات فيها أن « تعيش » وتستمر كان من الضرورى لها بذل قدراً كبيراً من الجهود والنشاط .

وليس للهمج من سكان أفريقيا الإستوائية من حاجة إلى ارتداء لباس ما ولو كان غطاء من الجلد . ومثل ذلك فى الغذاء فهو صعب المنال فى أوروبا ويتطلب الحصول

عليه جهداً ونصباً . وعلى ذلك فإنه حتى في ذلك الزمان الذى كانت الأجناس البشرية جميعاً على درجة من التأخر والهمجية نجد متوحشى أوروبا أرقى من متوحشى أفريقيا لا لسبب إلا لأن الحياة في أوروبا تتطلب نشاطاً ذهنياً أكثر بسبب النقص في الطاقة الشمسية .

(ب) ثم يأتى في المرتبة الثانية أن الأيام في الأقاليم الإستوائية تكاد تشبه بعضها بعضاً ولكن الأيام تختلف فيما بينها كلما اتجهنا شمالاً فلا تشبه بعضها بعضاً .

وبحكم تتابع الفصول في العروض المعتدلة تصبح فيها أيام للصيف وأخرى للشتاء . وهى تختلف تبعاً لاختلاف كمية الطاقة الحرارية أو تبعاً لاختلاف مقدار الرطوبة في هذا الفصل عن ذاك . وفي أى من الحالين فن المؤكد أن يكون الطعام شحيحاً في فترة وموفوراً إلى حد ما في فترة أخرى .

ونشأ عن ذلك أن اليوم أصبح دورة الحياة في إفريقيا الاستوائية حيث يعزف الأفراد والأجناس عن النظر إلى المستقبل البعيد ويقصرون حياتهم على الزمن الحاضر وحده ولا يحتاطون للمستقبل بينما السنة هى دورة الحياة في الأقاليم المعتدلة ومن ثم عنى الناس بالتفكير في أمر مستقبلهم .

هاتان المجموعتان من الظروف الجغرافية ، شأنها شأن كثير من الظروف الجغرافية إن لم يكن أغلبها ، واضحتان وضوحاً يخشى معه أغفال شأنهما أو التقليل من خطرهما في تاريخ العالم ، ولكنهما تعملان في إصرار وإلحاح ولهما صفتا الاستمرار والتأثير على مدى الزمان في كل رجل وكل امرأة وكل طفل في كلا الاقليمين . هاتان الظاهرتان بمفردهما ، أو بالاشتراك مع غيرها ، تفسران اختلاف تاريخ الاقليمين ، « تقدم حضارة أوروبا » و « جهالة » القارة المظلمة » .

وتبدو أهمية هاتين الظاهرتين في خلق الحافز الذهني الذى يدفع بالإنسان إلى توفير الطاقة في المناطق التى نطلق عليها اسم الأقاليم المعتدلة ، إذا ما قدر للحياة فيها أن تبقى مستمرة ، فإن ارتداء الملابس يحول دون إشعاع الطاقة الحرارية ويوفرها لتستغل في غرض آخر والعروض التى تتأثر بالتغير الفصلى تتطلب أن تحدّد أوقات معلومة للصيد والحصاد وأوقات معلومة للازهار والثمار ويصبح من الضروري

كان توفير الطاقة الغذائية من الأيام السمان للانتفاع بها في الأيام المعجاف . والإنسان يستهويه أن يجد أقل قدر من المقاومة ، سواء في الأقاليم الاستوائية أو في الأقاليم المعتدلة ولكنه في واحدة منها يجد دافعاً أو حافزاً للعمل قد يصل به إلى درجة الحاجة التي هي أم الاختراع بينما ينعدم عنده هذا الحافز في الإقليم الآخر . ولما كان الحافز إلى التفكير في اقتصاد الطاقة يكاد يكون معدوماً في العروض الاستوائية ، فإننا نجد فيها أجناساً بشرية أكثر انحطاطاً من غيرها من السلالات التي تسكن المناطق الأخرى حتى بعد أن تقادمت الجهود على ارتقاء هذه السلالات الأخيرة وارتفاعها عن مستوى معيشة الحيوان . ومن ثم يجب ألا ننتظر من هذه السلالات تقدماً ، وبالتالي يجب ألا ننتظر منها تاريخاً ، أما في العروض المعتدلة فبفضل وجود هذا الحافز واستمراره نرى الأجناس توالى تقدمها وتضيف لنفسها قوة على قوة . وهذا يبين لنا السبب الذي يفسر الحقيقة التالية وهي أن تاريخ العالم هو في معظمه تاريخ المناطق المعتدلة التي تقع على وجه التقريب بين خطي عرض ٣٠° و ٦٠° .

ثانياً — ويبرز أثر هذا الحافز كاملاً في بعض الأماكن أكثر من غيرها تبعاً للظروف الجغرافية . ولما كان الإنسان يتحكم في الطاقة وسيطر عليها سواء يتناول الأطعمة ذاتها كما هو الحال في البيئات البدائية أو باستخدام الفحم كما هو الحال في بيئة القرن العشرين ، ففي استطاعته أن يسخر هذه الطاقة بطريقتين : أما بالإفادة منها بتسخير طاقة أكبر منها ، وأما بتبديدها دون فائدة ، بل وقد يسخرها في تدمير وسائل الانتفاع بها . وقد يتبع الطريقتين في وقت معاً إلى حد ما ، وقد يبدل بجهوده الخاص لينتفع بجهود غيره وفي هذه الحال تزيد قدرة الفرد ولكن لا تزيد كمية الطاقة التي يتحكم فيها مجموع البشر .

ومن البين أن أقدر الجماعات على توفير الطاقة هم أولئك الذين يعيشون في وئام وسلام ، والفضل في تضامهم مع غيرهم مبعثه تزايد قدرتهم على توفير الطاقة ، الأمر الذي ييسره لهم اتحادهم ، ولا ينتظر أن تظهر مثل هذه الجماعات لأول مرة في الأقاليم الإستوائية لا لمجرد انعدام الحافز الذي يدفع بها إلى التفكير في المستقبل ولكن لأن الأفراد والقبائل لا تعيش في سلام بسبب ما تفرضه عليها الطبيعة من انحطاط

في مستوى حضارتها — نعم قد تعيش قبائل — لأن الفضل في وجودها يرجع إلى عوامل غير جغرافية — ولكن القبيلة ، في غير المناطق الإستوائية تنمو وتصبح نظاماً أكثر تعقيداً .

بل حتى في المناطق التي يتوفر للانسان فيها هذا الحافز يحتاج أيضاً إلى نوع من الحماية كي يتيسر له الرق . وقد تأخذ الحماية أشكالاً شتى ، فقد يحمي الرجل نفسه . وقد تحمي الأمة نفسها باستخدام جزء من طاقتها في الدفاع ، ومن الواضح أنه من الأفضل لو أمنت أمة الدفاع عن نفسها دون تنفق في هذا طاقتها كأن تتكفل ظروفها الجغرافية فتدفع عنها شر العدوان . ويجب أن نتصور أن مثل هذه الجماعة أو القبيلة أو السلالة سرعان ما تخرج من مرحلة التأخر والمهمجية وهو الدور الذي تكفلت فيه الطبيعة بحمايتها . وقد تكفلت الظروف الجغرافية بحماية أمم مختلفة في عهود مختلفة وفي أحوال مختلفة ، غير أن أنواع الحماية تتغير تبعاً لتغير الأحوال وما يعد حماية في عصر من العصور قد لا يصبح حماية كافية في عصر آخر — ويعد درعاً واقياً في أي عهد من العهود كل ما يحول دون تدخل القبائل أو الأجناس الأخرى . وتعد من أنواع الدفاع الخاصة تلك الظواهرات الجغرافية التي يتعذر على الناس تخطينها أو عبورها في يسر ، ويزيد الدفاع مناعة كلما زادت الطافة التي يبذلها الإنسان في هذا السبيل .

وتقوم بهذا الدور ظواهرات جغرافية كثيرة كالأنهار والبحيرات والجبال والسفوح الشديدة الانحدار والمستنقعات، ولها جميعاً أثرها في حماية المجتمعات الصغيرة، ولكن الظواهرات الكبرى التي لحمايتها أثر في مجرى التاريخ العالمي هي الهضاب الواسعة التي تبلغ حداً من الارتفاع يتعذر معه نمو النباتات ، أو الصحراوات المترامية الشديدة الجفاف لدرجة تفقدها كل قدرة على الإنبات ، أو البحار التي لا يتيسر للانسان أن يتخذ فيها مقراً . ويقتضي التغلب على كل من هذه العقبات بذل الجهود بالإضافة إلى أنها — تكاد تفتقر إلى أول مقومات الحياة البشرية . ولا بد للانسان أن يكون على قسط كبير من المدنية قبل أن يصيب نجاحاً في التغلب عليها . ولهذا هيأت في العصور الأولى حماية كاملة للمجتمعات التي احتضنتها . لقد كانت هذه الظواهرات مجهولة خيفة وكان البحر أكثرها غموضاً وزعماً .



ثالثاً — كما يجب أن نذكر أثر هذه الظروف الجغرافية باختصار ونوضحها  
كموامل موجهة للتاريخ ، ذلك أن مجرى التاريخ بأسره ، بما في ذلك بداياته ، قد  
تأثر بصفات الأفراد والأجناس وميزاتهم ، وبعض هذه الصفات يرجع إلى  
عوامل جغرافية وبعضها الآخر لا يرجع الفضل فيه إلى مثل هذه العوامل ولسكننا  
فأخذها قضية مسلمة ، كما أن أحداث التاريخ بكل ما أستتبعته من نتائج وحدوثها  
في الأزمان التي قدرت لها — بل أن مجرد حدوثها وحده — كل هذا يرجع إلى  
إرادة الإنسان ورغبته في العمل . ولو حرم الإنسان قوة الإرادة لما حدثت هذه  
الأحداث إطلاقاً . غير أن أعمال البشر من ناحية أخرى تتكيف طبقاً لمقتضيات  
الظروف المحيطة بهم كما تتكيف حسب تكوين أجسامهم . والاتجاهات التاريخية  
الكبرى لم تتأثر إلى حد كبير بالصفات المميزة للأفراد ، لأن الظروف الجغرافية  
على مر العصور أقوى أثراً من عبقرية الأفراد ، وأمد مدى من المميزات الجنسية  
ما لم تكن هذه المميزات وليدة عوامل جغرافية وهكذا بدأ التاريخ حيث بدأ بفضل  
هذه الظروف الجغرافية .

ومن الواضح أن معامنا عن صور الحضارات الأولى ناقصة وفي أغلب  
الأحيان قليلة ، ومن الطبيعي ألا يكون لدينا سجل للتقدم التدريجي الذي حدث  
خلال العصور الطويلة قبل أن يخرج الإنسان من ظلمات الوحشية ، وأقصى ما نأمل  
في البحث عنه هو بقايا هذه الحضارات القديمة ، تلك البقايا التي صمدت للدهر وطويلا  
لأنها متينة في تكوينها ، ولا شك أن أنها بقايا حضارة متقدمة إلى حد ما .

ومن الطبيعي أيضاً ألا تصل الحضارات الأولى التي سمعنا بها إلى ما وصلت  
إليه إلا بعد عهد قد يقدر بعشرات الآلاف من السنين لأن نمو هذه الحضارة  
كـنمو الأشجار بطيء في مبدئه لو قورن بنموها فيما بعد حين يتيسر للشجرة أن  
تدوم في أجزاء كثيرة منها ، ويجب أن نذكر أنه حتى في تلك الأزمان التي نبدأ في اعتبارها  
أزماناً تاريخية سبقتها تاريخ بدائي على نطاق ضيق كان يجري منذ زمان سحيق  
وقد يمتد فيزيد طويلاً عن عمر التاريخ كله ولسكن أيضاً يجب أن نذكر أنه قليل  
الأهمية محدود النطاق من وجهة نظر التاريخ العالمي .

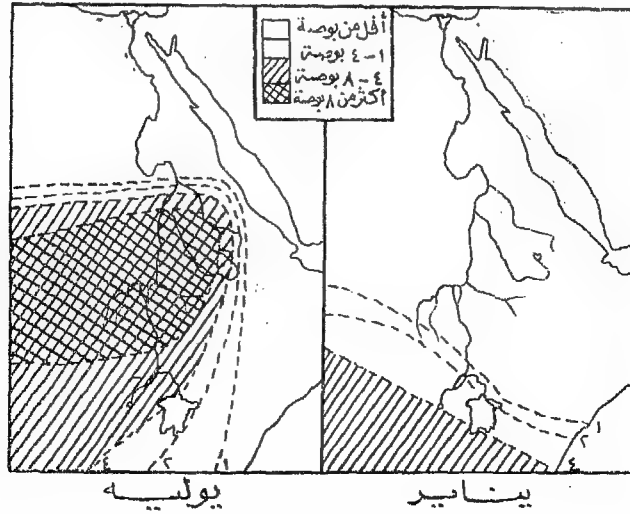
هذا البطء في النمو هو نتيجة طبيعية لعوامل فرضتها الجغرافيا . ولما كانت الظروف الجغرافية هي عوامل موجهة أو ضوابط وليست في حد ذاتها قوى دافعة . فهي تستغرق زمناً طويلاً لتجعل أثرها محسوساً . وبمرور الزمن تبدو نتائج هذه الضوابط أكثر وضوحاً وربما أفعال تأثيراً . وقد أثرت بمضى الوقت بطريقها الخاصة . لأن أحوالاً معينة كانت سائدة ، ولأن أحوالاً أخرى غابت عن الميدان فمثلاً يستغرق شخص أو جنس من الأجناس في اكتشاف حقيقة ما وقتاً أطول مما يستغرقه تلقينه . إياها ، ولهذا الحقيقة مزايا ، فالكشف الأنسان الحقيقة معينة يدل على أنه قد وصل إلى المستوى العقلي الذي يمكنه من الاستفادة بكاء من اكتشافه لها ، وليس هناك أشد خطراً من فرض حضارة زائفة أي حضارة منقولة على هذا الجنس إذ أن ضررها يزيد على نفعها .

ولتأخيض ما سبق ذكره نقول أن أول بوادر الحضارة ظهرت حيث الحياة . سهلة ميسورة إلى حد ما ، وحيث دورة الحياة ليست اليوم أو النهار ، وحيث يتحتم على الانسان أن يعمل من أجل حاضره ومستقبله . وأكثر من هذا نجد الأجناس الأولى المتحضرة عاشت في بعض الأماكن في جماعات أكبر نسبياً من الأسرة ، ومن القبيلة ولكنها مجتمعات صغيرة بحيث تكون في حد ذاتها وحدة تشعر بكيانها ، وذاتيتها . هذا على أن يتوافر لها قسط من الحماية ضد عدوان الأعداء ممن تفوق قدرتهم على التخريب قدرة هؤلاء على الانشاء . وحين تبدأ معرفتنا بهذه الأجناس ، لابد وأن تكون قد استغرقت زمناً طويلاً حتى نجحت في الخروج من مرحلة الهمجية التي كانت تعيش فيها .

\*\*\*

هنا نرى مصر تتمتع بمناخ بديع — فهي وإن خلت من الأمطار فأحاطتها الطبيعة بصحراء على كلا الجانبين إلا أنها تستمتع بمورد من الماء العذب — وهو على دوامه ذو دورة فصلية ، وقد لا ندرك هذه الظواهرات المتناقضة إلا إذا درسنا جغرافية مصر ، فلهياه النيل مصدران — أحدهما إقليم المطر الاستوائي الدائم حيث يستمد النهر ماءه بعد أن تنظمه مجموعة من البحيرات والمستنقعات فيخرج

منها ذا تصرف ثقيل منه ذبذبة المستوى خلال العام كله ، والمصدر الآخر مرتفعات الحبشة — وهى بلاد تمتاز بموسم مطير إذ يسقط عليها فى أواخر الربيع وأوائل الصيف طوفان من الأمطار فتتجدر من المرتفعات إلى السهول ثم من السهول إلى الأراضى الجافة فى شمالها .

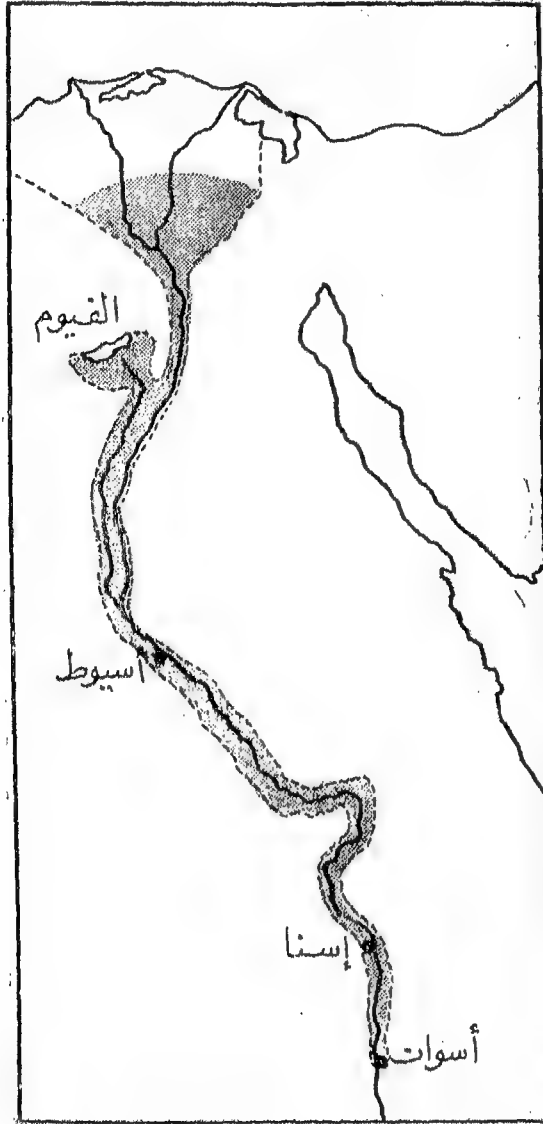


الخريطة رقم ٣

سقوط الأمطار فى حوض النيل  
تبين الخريطة أن الروافد الجنوبية تعتمد ماءها صيفاً وشتاءً بينما تعتمد الروافد الشرقية كيات كبيرة من الماء خلال شهور الصيف فقط

وما مصر سوى دلتا النيل وواديه الأدنى إلى مسافة سبعمائة ميل من مصبه  
فهى شريط ضيق ، لا يصل عرضه فى أغلب الأحيان أكثر من عشرة أميال ،  
يتمدد بمحاذاة مجرى النهر العظيم حتى البحر — يروية النيل وتحميه الصحراء من  
كل جانب وقد وقفت حاجزاً لايسهل عبوزه — وفى حقيقة الأمر فإن هذه  
الحماية أكمل مما تبدو — فإن النيل فى مجراه الأدنى يجرى خلال أراض من  
الحجر الجيرى حفر فيها واديه فى أول الأمر ، ثم ملأه بعد ذلك بما جلبه معه من  
طمي نحتته الفيضانات المتوالية من جبال الحبشة ، وهو يجرى فى الجنوب ابتداء  
من موقع أسوان الحديثة فوق طبقات من الحجر الرملى ترتكز على كتل كبيرة  
من الصخور الصلبة ، والنهر هنا لم يكون وادياً حقا لمسافات شاسعة بل اقتصر

على عدد من الخواثق تفصل بينها الجنادل وقد لا يبعد شاطئ النهر عن الصحراء  
الجرداء أكثر من مسافة متر أو مترين لا تصلح لأن ينمو فيها شيء في الواقع  
وليس فيها ما يغرى على الإقامة ، وهكذا عزلات مصر من الجنوب تماماً كما  
عزلات من الشرق والغرب .

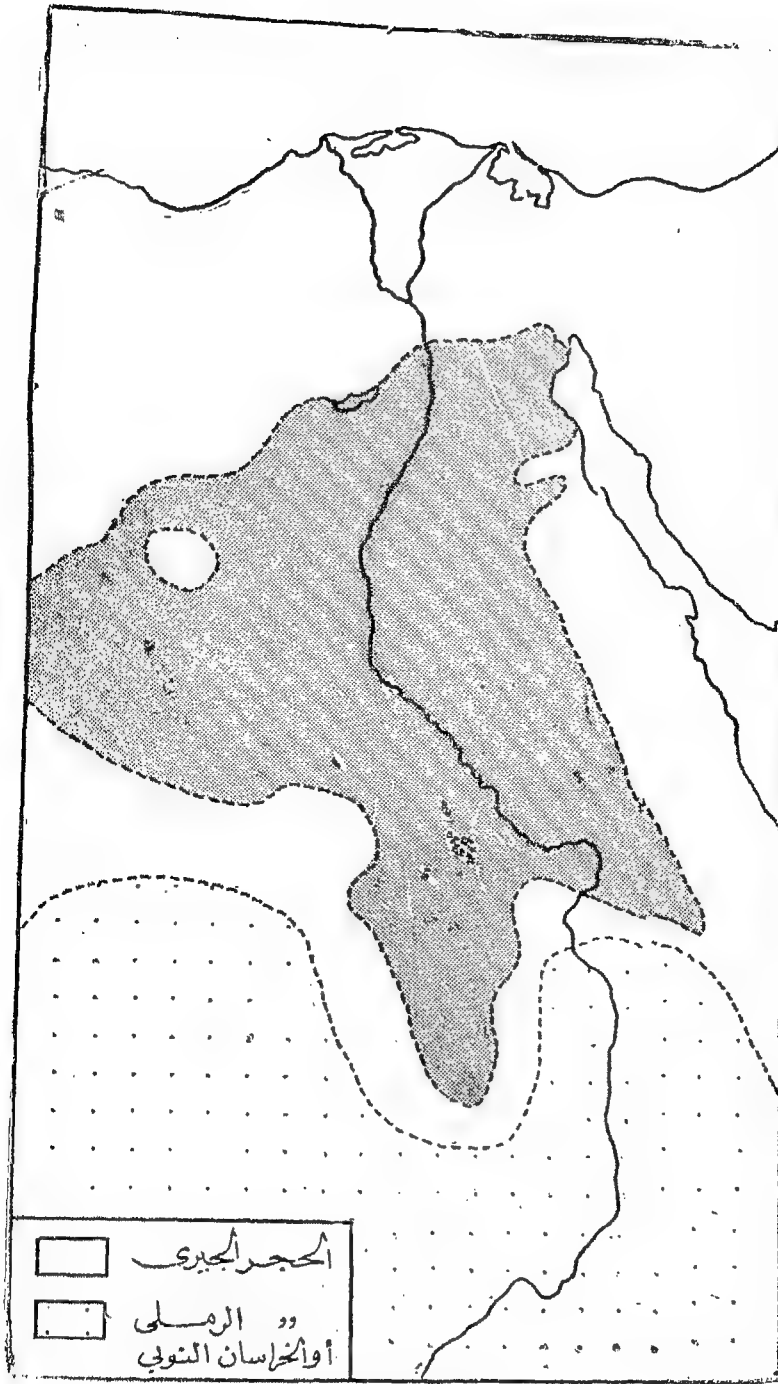


الخريطة رقم ٤  
مصر

وفي الشمال يوجد البحر . وفي الأيام الخوالي كان البحر مجهولاً ولذا وهب لمصر حماية كاملة شأنه شأن الصحراء تماماً ، ولا نجد مثل هذه الظروف موفرة في جهات أخرى توائم فيما بينها نشأة حضارة مبكرة وترعاها بدرجة لاتداني .  
ويتبين من المعلومات الضئيلة الأولى عن تاريخ مصر الطويل أنه كان يسكنها جنس بشري لم يكن على أية حال في الدرك الأسفل من الهمجية والتأخر . وما كاد هذا الجنس يظهر حتى اختفى ليحل محله جنس آخر أرفع شأنوا في حضارته .  
غير أننا لانعرف عن هذا الجنس الأخير إلا قليلاً ، وقد أقامت هذه الشعوب في وادي النيل وعاشت هادئة مطمئنة زهاء ألفي عام قبل أن يظهر على المسرح أولئك الذين يطلق عليهم اسم قدماء المصريين .

ولما بدأ المصريون يسيطرون على البلاد حوالي عام ٤٥٠٠ قبل الميلاد اقتبسوا بدورهم حضارة أولئك الذين سبقوهم في سكنها ، وارتفعوا بمستواها في شيء من السرعة حتى أنه لم تحل سنة ٣٧٠٠ قبل الميلاد حتى كان ملوك الأسرة الرابعة يحكمون البلاد جميعاً من الجندل الأول إلى البحر وبلغوا درجة من التنظيم مكنتهم من تشييد الأهرامات العظيمة .

ثم حدث إنحطاط ملحوظ — كما يحدث عادة في غير مصر — ويبدو أن الأداة الحكومية قد أصابها البلى فضعفت قوة الحكومة المركزية خلال عهود أسرات عديدة ، ثم انقسم وادي النيل إلى أقاليم ومقاطعات مختلفة بحكم طوله وضيق اتساعه ، وأخذ حكامها يستأثرون بالسلطان على حساب الملك واتجهت الأمور شيئاً فشيئاً نحو الفوضى مما أخر تقدم البلاد ، إلا أن الحضارة المصرية ظلت تتابع سيرها الخيث ، وإن كان بطيئاً خصوصاً في النواحي التي تميزت بها ، والتي اعتمدت على تحسين وسائل الري . ونظراً لأن مقر الحكومة المركزية إبان هذه العصور الأولى كان يقع قرب رأس الدلتا دائماً ، كان من الطبيعي ، حين تنشب ثورة من الثورات في مقاطعة صغيرة أن تأخذ في نشر نفوذها في المقاطعات المجاورة لها ، ولا بد وأن تكون القوة الناشئة أو الثائرة بعيدة ما أمكن عن مقر الحكومة المركزية .



جولوجية القطر المصري  
يبدأ وادى النيل الأدنى حيث تبدأ طبقات الحجر الجيري

ولما استعادت مصر مجدها حوالى عام ٢٥٠٠ قبل الميلاد تحت حكم الأسرة الثانية عشرة كانت طيبة — لا هرقليوپوليس أو منف — هى القلب فى جسم الحياة المصرية . وعم الرخاء القطر المصرى تحت حكم هؤلاء الملوك وأقيمت مسروعات الرى الكبرى وزادت الثروة القومية حتى لممكننا أن نقول أنها بلغت ذروة تقدمها فى ذلك الحين .

ثم ضعف الحكم الوطنى مرة أخرى وكان من الطبيعى أن ينتقل الحكم أخيراً دون غزو بالمعنى المعروف من أيدي الوطنيين إلى ملوك الهكسوس ، وهم قبائل من الرعاة جاءوا إلى مصر ، أما لأن الدلتا قد اجتذبتهم إليها بما فيها من خيرات وإمالاتهم لجأوا إليها اضطراراً يبحثون عن مأوى يقيمهم شر أعدائهم . وقد اتخذت هذه القبائل بصفة خاصة حضارة البلاد حضارة لها ثم اندمجت بالسكان الذين عاشت بين ظهرانيهم ، ثم قام أمراء طيبة بفضل بعدهم عن مركز سلطان الهكسوس فى الدلتا ، وانتزعوا السلطة من أيدي هؤلاء الحكام وطردوا جزءاً من السكان من أرضهم ودانت لهم زعامة البلاد .

ولأول مرة فى تاريخ مصر يطرد منها غزاة ، وإن كانوا قد دخلوها مسالمين ، ولأول مرة فى تاريخها تبدأ مصر غزواً خارجياً حوالى عام ١٦٠٠ ق . م . تحت إمرة ملوك الأسرة الثامنة عشرة ممن تسموا بأسماء تحتمس وامنجوتب . واستمر هذا الغزو حتى امتدت السيطرة المصرية شمالاً إلى جبال أرمينية .

وهكذا يظهر التاريخ المصرى ثلاث فترات بلغت مصر فيها ذروة المجد ، وتعد عصوراً ذهبية بارزة ليس فقط لأن التقدم التدريجى فى حضارتها كان أوضح ما يكون فى هذه الفترات وإنما لأنها أضافت إلى كفايتها ما اقتصدته فى الطاقة بفضل مركزية حكومتها ، وإلى هذا الاقتصاد يرجع بعض الفضل فيما أحرزته البلاد من تقدم سريع آخر . وتعتبر الفترة الذهبية الثالثة أرفع ذروة وصل إليها مجد مصر فى نواحي الثروة والرخاء المادى . ثم أخذت الحضارة المصرية والقوة المصرية فى الهبوط على الرغم من مجيء العاصمة فيما بعد وقامت ظروف أخرى ليست كلها جغرافية قللت من أثر العوامل الجغرافية وهى التى ظلت تتحكم أو تسود الموقف حتى هذا

العصر ، وبدأت ظروف جغرافية أخرى تحدث أثرها . ولما تم لسنجاريب هزيمة ملوك مصر لم تكف هذه سوى بداية سلسلة من الفتوحات خضعت مصر معها تحت حكم أمم مختلفة كالآشوريين والبابليين والفرس واليونان والرومان والعرب والأتراك والبريطانيين . ولم تر مصر الاستقلال منذ عام ٣٣٠ ق م .<sup>(١)</sup>

وليس تقدم الدولة المصرية راجعاً إلى العبقرية الموروثة لسكانها فإنه على الرغم من الحماية التي كفلتها الطبيعة للبلاد نجد جنسين إن لم يكن ثلاثة أجناس منفصلة قد استوطنت البلاد على التوالي في عصور تاريخية وكان كل منها على جانب رفيع من الحضارة بالنسبة للعصر الذي عاش فيه ولكنه بلغ في مصر مستوى من المعيشة أرفع مما بلغه سكان البلاد الأخرى في نفس الوقت .

أما كان التقدم وليد الظروف الجغرافية التي ذكرناها آنفاً بما توافر لمصر بصفة خاصة من حماه ممتازة . لقد غرقت البلاد ولكن يجب ألا يغيب عن الذهن أن الفزوات كانت قليلة في عددها وفي طول مدتها بالنسبة لطول التاريخ المصري ومن المحتمل أنه تصل فترة استقلال مصر إلى أربعة آلاف عام لم يشهد المصريون خلالها عدواً غازياً لهم في عقر دارهم ، (أي بما يزيد بألف وخمسمائة عام عن المدة التي تفصل زماننا عن زمانهم) وساد حكم الملوك الوطنيين طوال تاريخهم فيما عدا فترة لم تتجاوز بضع مئات من السنين ، حقاً اعتري الملوك الوطنيين الضعف والانحلال بعد عام ٢٥٠٠ ق م وحل محلهم لفترة ما حكام من أصل أجنبي ، غير أنه بعد أن طردهم ملوك الوجه القبلي من المصريين وهم الذين لم يخلعوا عن عروشهم لاعترافيهم بسيادة ملوك الهكسوس عاشت مصر نحو ألف عام ، وهي أمبراطورية مترامية الأطراف ، قبل أن تدول دولتها وتحل محلها حضارات ساهمت مصر بقسط كبير في خلق الحافز الأول الذي بعث بها إلى الوجود .

ولو قارنا تاريخ مصر بتاريخ دول العالم الأخرى لوجدنا أنه ما من واحدة منها عاشت نصف ذلك الزمان بدون غزو أو اجتياح . وأن طول العهد الذي لبثته

---

(١) يمكن الرد على هذا بحقائق تاريخية ثابتة تؤكد استقلال مصر فترات طويلة بعد هذا التاريخ .  
المترجم



الدولة المصرية إنما يرجع الفضل فيه إلى استحالة الغزو الأجنبي أو احتمالاته ، وهذا بدوره يرجع إلى الحماية التي كفلتها الصحراء — تلك الحماية التي سمحت بالنمو الطبيعي للحديث لنواحي الحضارة المختلفة دون أن تضطرب بسبب تدخل عناصر أجنبية من حين إلى آخر .

ولما سقطت مصر من برجها العالى استمرت الأحوال الجغرافية تؤثر في تاريخ البلاد — وليست الصحراء في حمايتها بأقل شأنًا من غيرها إذ اعتاد سكان مصر أن يثقوا في حمايتها مدى أربعة آلاف عام فمعجزوا عن أن يدفعوا المدوان . ولما أخذت العوامل الجغرافية تنتج مدنيات أرفع شأوا أصبحت مصر كالعصبة المرضوضة كما تنبأ بذلك النبي المبرى<sup>(١)</sup> .

وتدل المظاهر الخاصة التي تمتاز بها الحضارة المصرية بوضوح على أثر العوامل الجغرافية ومن الطبيعي أن يدرك سكان وادى النيل مقدار الطاقة التي يوفرها لهم رى الأراضى ، غير أن الأمر لم يقتصر على ادراكهم الجانب المادى للحياة فإن مسلكهم العقلى يبدو أكثر وضوحاً بطريقة أخرى — فمن البين أن الفكرة الجديدة ، فكرة الاستعداد للمستقبل ، قد سيطرت على عقول المصريين بوحى التغيير الفصلى ، حتى أن أهم الآثار التي تركوها كانت قبوراً ومعابد ، معابد يعرف الأحياء بوساطتها متى يتوقعون الفيضان ومتى تحل بهم التحاريق ومتى تجيء أيام البذر وأيام الحصاد — وقبوراً يحفظون فيها أجسامهم الرقيقة مدى عصور لا حصر لها — وكان تراثهم الأدبى الأكبر « كتاب الموتى » مما يؤكد لك أن المصريين .. أمة وهبت نفسها لتدبير الحياة المقبلة .

---

(١) يبدو تأثر المؤلف في هذه الفقرة بالثوراف .

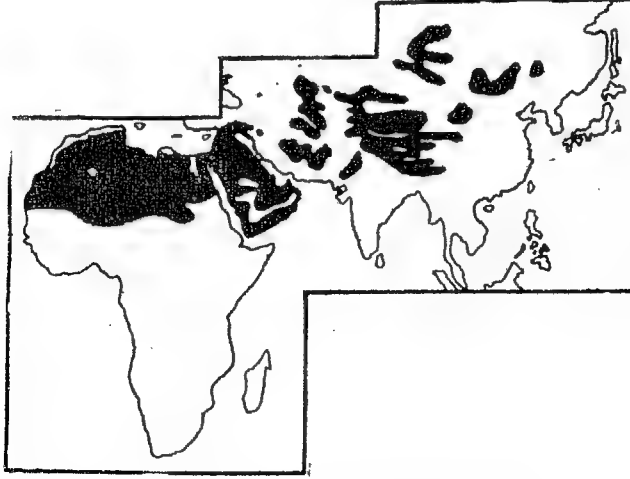
## الفصل الثالث

### المستنقعات والمراعى - بابل وأشور

رأينا أن أول تباشير المدنية ظهرت في مصر وهي بلاد حبتها الطبيعة ومنحتها وفرة في الماء والدفع . وليس من المؤكد معرفة أى عصر من العصور بدأت مصر ما يصح أن نسميه تاريخاً ، ولكن مما لا شك فيه أنه قبل أن يحل عام ٥٠٠٠ ق.م. كان سكان مصر على قسط كبير من الحضارة وكانوا قد قطعوا شوطاً في المدنية بعد بهم عن مرحلة الهمجية البدائية ، ومن المؤكد أنهم توصلوا إلى استخدام الأحجار في بناء المقابر إن لم يكن في بناء المنازل أيضاً .

ولنلق الآن نظرة على الخرائط لنرى إن كانت هناك أقاليم أخرى ، لها مثل هذا التاريخ العريق وتشابه أحوالها أحوال مصر . ولنترك جانباً العروص القريبة من القطبين وكذلك القرية من خط الاستواء إما لعدم توافر الطاقة السكافية لتقدم الحضارة وإما لانعدام الدافع الذى يحفز الإنسان إلى استغلالها . أما وقد عرفنا أن الصحراء تكفل الحماية للبلاد التى تحتضنها فمن الطبيعى أن نوجه نظرنا إلى المنطقة الصحراوية لنرى إن كانت تحوى أقاليم أخرى ذات موارد من الماء تهيئ لها الخصب . فإلى الغرب من نهر النيل على طول الصحراء الكبرى لا نجد إقليماً يمكن أن يقارن بمصر ، أما إلى الشرق منه فإن النطاق الصحراوى يتجه شمالاً نحو قلب آسيا وهو منطقة جافة لأن الرياح حين وصولها تكون قد تخلصت من رطوبتها مرورها فوق الجبال المحيطة بهذه المناطق . ولكن الصحراء هنا ليست بالقسوة التى عليها الصحراء المحيطة بمصر ، وليست الأحوال المناخية ملائمة لبناء الحضارة كما هى الحال في مصر إذ أن مصر فذة في مزاياها . نعم قد نجد في بقاع أخرى أرضاً محمية وتخضع للتنوع الفصلى ، وفرة الماء والحرارة ولكنك لن تجد إقليماً

تجتمع فيه كل هذه الزايا مثل اجتماعها في مصر إذ أنها انقردت بهذا كله بين  
أقاليم العالم .



الخريطة رقم ٦ — النطاق الصحراوي في العالم القديم

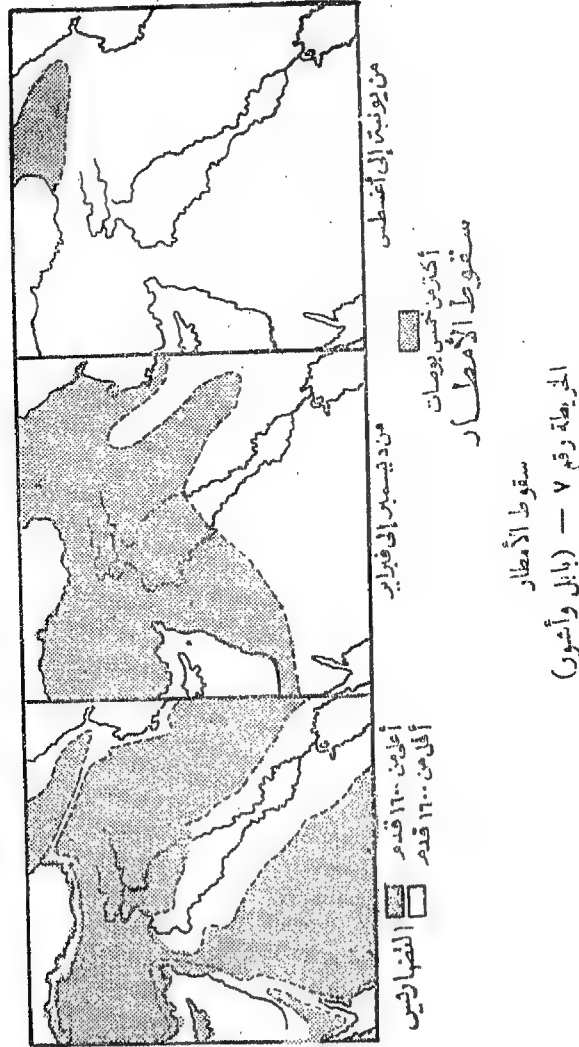
وليس هناك نهر كنهـر النيل بمنبعيه أحدهما في إقليم المطر الدائم والآخر في إقليم  
المطر الفصلي . ولـسـكـنا نجد نهري دجلة والفرات يجريان من منطقة الأمطار الشتوية  
الخفيفة وتقع منابعهما في مرتفعات تغذى نهريـن صيفاً بماء الثلوج الذائبة والتي  
تساقطت عليها إبان الشتاء السابق . فـجـمـعـا الميزتين إذ يجري بهما الماء الدائم  
في جميع الفصول ويتأثران كذلك بالتغيرات الفصلية . وهكذا تبدو الظروف  
الطبيعية هـنـامـشـابهة لظروف مصر وإن اختلفت عنها اختلافاً أثر بالفعل في تاريخ نهريـن  
ففي مصر يجري النيل في واد ضيق ينخفض انخفاضاً فجائياً عن مستوى الصحراء  
ببضع مئات من الأقدام — وتقاس بالياردات المسافة الفاصلة بين الصحراء  
الجرداء والتربة ذات الخصوبة الزاخرة . فكل أرض تصل إليها مياه النيل تنتج  
النبات على حين يسود الجذب كل أرض أخرى لا تـصـيـب مطراً . ومن ناحية  
أخرى لم تنخفض سهول دجلة والفرات كثيراً عن مستوى الأراضي التي تحيط  
بهما فإن الجزء الأدنى بادئاً من شمال موقع بغداد سهل مـيـض رـسـوبـي مـتـسـع ، كونه  
النهران وليست هذه السهول المنخفضة جميعها بخالية من الأمطار . ومن ثم لا يجري

نهر دجلة والفرات خلال صحراوات وإن كانت الصحراوات تحيط بسهولة من الجانبين — حقاً إن بادية الشام وصحراء النفود تمتدان إلى الجنوب الغربي ولكنهما لا تقربان النهر إلا في نقاط محدودة بعيدة هنا وهناك . ويفصل بين النهر والصحراء عادة منطقة من مراعى (الاستبس) . إما إلى الشمال الشرقى فالصحراوات تسود الجزء الأوسط من هضبة إيران ، وتعتمد منطقة المراعى إلى قرب سفوح الجبال وهى خالية من الزراعة إلا في بعض بقاعها التى تصلح لها . وهذه المراعى بوجه عام ليست خالية تماماً من السكان بينما اوديان الجبلية تصلح في مجموعها لأن تعمل عدداً كبيراً من البشر ، والجزء الشمالى الغربى من السهول إقليم رعوى أيضاً غير أن الجفاف يسود فيما بين الأنهار حتى ليكاد يكون شبه صحراوى وإن كانت نسبة الرطوبة فيه ترتفع قليلا عند سفوح الجبال وعلى طول مجارى الأنهار .

وهكذا نرى أن الظروف المصرية تسود تلك البيئة بشكل مخفف . وتشمل فيما تشمله ظاهرة أخرى موجودة في مصر وإن كان أثرها في مصر قد طغى عليه الدور الذى لعبته الصحراء ، فعندما يقترب الدجلة والفرات من البحر ويأخذان في الجريان على السهل الفيضى تنتشر مياههما على شكل برك ومستنقعات توفر قدراً كبيراً من الحماية للأراضى الخصبة من ثلاث نواح لأن المستنقعات المترامية تهى حماية فعالة للمجموعات الصغيرة فالإنسان يستطيع قطع الأراضى سيراً على الأقدام ويستطيع عبور المجارى المائية في القوارب ولكن المستنقعات عقة كأداء إلى حد كبير . ومن الميسور أن تنشأ حضارة مبكرة في ظل حماية هذه المستنقعات . أضف إلى ذلك أن الأنهار فيما بين المستنقعات ، بفروعها المتداخلة تكفل حماية طيبة كما أن الأراضى التى تمتد وراء الأنهار والمستنقعات قليلة السكان وتندرج إلى صحراء جرداء . وقد هيأ البحر في الجنوب الشرقى حماية أخرى لوادى دجلة والفرات شأنه هنا شأن البحر في مصر هذا مع العلم بأنه كان هنا أكثر اتساعاً في الزمن النابى عما هو عليه اليوم لأن كلا من النهرين كان يقذف إليه بمائه من مصب منفصل مستقل .

هذه هى أرض بابل — وهنا كما هو الحال في مصر نرى أن طبيعة السكان بظروفه الخاصة تمثل الحقيقة الكبرى في تاريخها . هذا على الرغم من أننا لا نعلم

علم اليقين إلا بالقليل عن تاريخ بابل خلال أربعة آلاف عام التي تلت سنة ٧٥٠٠ ق. م. ومن المعروف أن جنسين من البشر كانا مصدر ارتقاء الحضارة



فيها بالشكل الذي عرفت به وأن الجنس الذي جاء أولاً أتقن كثيراً من فنون الحياة قبل أن يتصل بالجنس الآخر.

وفى العصور البدائية تكفى الحماية الجغرافية لأن تصد الأعداء وتسمح بالتطور والنمو غير أن هذه الظروف ذاتها دفعت بابل إلى الانقسام إلى أجزاء صغيرة .  
فبالرغم من أن بابل قد أخذت من المدنية بقسط كبير منذ زمن قديم وقد تصل فى عرافه حضارتها فتعاصر الحضارة المصرية بل وقد تفوقها قدماً إلا أن توحيد البلاد هنا تأخر نحو ألف عام عن العصر الذى ظهرت فيه مصر كدولة موحدة .  
ولم تتحد بابل قبل أن تقوم امبراطوريتها الأولى تحت قيادة سرجون الأكادى عام ٣٨٠٠ ق.م. إذ عاش البابليون قبل هذا التاريخ عيشة زراعية مطمئنة فى دويلات صغيرة مستقلة . وقد أمنوا شر الأعداء المتوحشين وراء خطوط دفاعهم ، وأخذوا يرقون بنظم حياتهم فى ببطء شديد استغرق منهم آلاف السنين . فعرفوا كيف يصنعون الآجر ويبنّون المنازل والسدائن ويحفرون القنوات قبل أن يحفرها المصريون ولكنهم لم يتحدوا تحت حكم ملك واحد ؛ وحتى بعد أيام سرجون كانوا يميلون إلى اعتبار نظام الحكم عندهم كأنه حلف مرن بين دويلات مختلفة تربط بينها المصلحة المشتركة أكثر من كونهم يمثلون دولة واحدة تحت حكومة مشتركة .  
ولما تحسنت أحوال المعيشة كان من الطبيعى أن ينشئ البابليون علاقات مع جيرانهم ، وتدرجت حضارتهم من حضارة تعتمد على الزراعة فى أساسها إلى حضارة تحتل التجارة فيها المقام الأول . وكان لهذا نتائج هامة ، فطالما كان البابليون يحبون حياتهم وراء خطوط دفاعهم ويفضون مشاكلهم الصغيرة بأنفسهم كان حرياً بهم أن يحرزوا تقدمهم دون تدخل خارجى . ولكن توسعهم فيما وراء حصونهم سبب ضعف مركزهم وأضحى تاريخ سهول دجلة والفرات منذ عام ٢٥٠٠ ق.م. هو تاريخ للمحاولات التى بذلها السكان المحيطون بها ليمضوا أيديهم على قلب البلاد الخصيب . لقد كانت المستنقعات كثيفة بإبعاد الهمجيين فى العصور البدائية الأولى حين كانت حمايتها كافية أو تكاد تكون كافية ، غير أنها لم تكن مستحيلة العبور خاصة مد أن نقصت مساحاتها بفضل جهود البابليين . وقد كان وراء هذه المستنقعات بقاء تصاح للسكنى وتسكنها فعلاً أجناس تمدنت قليلاً باتصالها بمثل الحياة البابلية ونظرت هذه الأجناس بعيون ملؤها الحقد والحسد إلى الأراضى

الخصيبة التي كانت في متناول أيديهم . فتناوب حكم البابليين جنس بعد آخر . وكان حكم الأسر الوطنية قصيراً غير ذى بال فسكن الميلايون الجبال التي تحد بابل من الشرق وتحف بهضبة إيران وسكن القاصيون Kassites إلى الشمال منهم على امتداد نفس هذه المرتفعات . وسيطر كل منهم على أراضى بابل لمدة طالت أو قصرت، وحينما هبطوا إلى السهول اقتبسوا الحضارة التي وجدوها هناك وانفصلوا عن ذويهم في الجبال وفقدوا خصائصهم بالتدريج وأندمجوا في سكان السهول الآخرين .

وبعد ذلك برزت دولة آشور من بين المراكز الشمالية الغربية . ويرجع أنها قامت على شاطئ دجلة الأوسط الذي كان خاضعاً لبابل وأن تأسيسها كان على يد البابليين أيام توسعهم، ولما كانت آشور بعيدة عن بابل وتفصلها عنها مساحات شاسعة بعضها مراعى وبعضها يكاد يكون صحراء اتجهت نية آشور إلى الاستقلال وفرض سيطرتها على البلاد الخصيبة الواقعة قرب سفوح الجبال . وحين بدأت بابل تسقط تحت أقدام الملوك الأجانب كانت آشور قوة يحسب حسابها .

وطالما كانت بابل مركز الحضارة كان تاريخ ما بين النهرين في مجملته تاريخ سلم وهدوء إذ اعتمد أهلها على الزراعة والتجارة ولم تكن بهم حاجة كبرى أو حافز قوى يدفع بهم إلى الغزو والفتح واستمر الحال على ذلك حتى خضعت بابل لحكم الآسرات النازحة من التلال الشمالية الشرقية ثم اختلفت الأحوال حينما سيطرت آشور وسادت .

ويرجع السبب إلى الظروف الجغرافية ، فإن آشور لا تصلح للزراعة إلا في بقاع صغيرة . ولم يتيسر لها التوسع في زراعتها . أما بابل فالأراضى فيها مسطحة وهى تعلو قليلاً عن مستوى مجارى الماء . ولذلك أمكنها فى يسر حفر القنوات التى استخدمت فى أغراض الرى والتجارة . ولكن الأمر مختلف فى آشور إذ الأنهار فى معظم حالاتها تنخفض عن مستوى الأرض انخفاضاً يضيع معه معظم فائدتها . حقاً أن الجزء الصالح للزراعة من أراضى آشور كان مضرب الأمثال فى الخصوبة إلا أنه أصغر من يعول عدداً كبيراً من السكان . ولم يتوافر له من الحماية أكثر ( م — ٣ الجغرافيا )

مما هيأته له أراضى المراعى المحيطة به . وهذه ليست صحراوية إلا فى الجنوب الغربى فقط . ولهذا وقع عبء الدفاع عن آشور على كواهل أهلها أنفسهم — وهم وإن لم يكونوا من البابليين إلا أنهم اقتبسوا حضارتهم من حضارة بابل التى كانت تسبق زمانهم ، وكانوا قادرين على الدفاع عن أنفسهم بنجاح . ومن الأفضل طبعاً أن تقوم بالدفاع حكومة مركزية قوية ، ولهذا قامت فى آشور منذ أول الأمر حكومة ملكية موحدة مقرها نينوى ثم نمت بغزو القبائل المجاورة لها التى لم تبلغ بمدى درجة تدانيتها فى فنون الحرب ، ولم يتجلى عام ١٤٠٠ ق . م . حتى خلعت آشور عنها رباط الولاء الذى كانت تدين به لبابل ، بل وأكثر من هذا فإنها استطاعت أن تغزو بابل نفسها فى عقر دارها .

والآشوريون قوم مطبوعون على القتال ، وحب القتال فيهم خصلة تجرى فى دمائهم . وكان الدرس الذى لقيته إياهم الظروف الجغرافية هو أن يفيدوا من نشاط غيرهم ما داموا لا يجدون ما يبقى بمحاجاتهم . ولما كانت الجبال تحدد أطرافهم من الشرق فإنهم اتجهوا غرباً وفرضوا الجزية على بابل وسوريا وفلسطين وفينيقيا . ورغم مرور المهود الطويلة لم تبتدع آشور نظاماً للحكم للاستفادة من الولايات المفتوحة على خير وجه . فقد استولت جيوشها على كافة الدول المجاورة لها وأخذت ثوراتها إن ثارت ، ولكنها كانت تترك هذه الدول وشأنها ما دامت تدفع الجزية لها وما دامت كلمة آشور قوية نافذة ، وظلت الحال على هذا المنوال إلى أن كانت سنة ٧٥٠ ق . م . فى عهد ما نسميه الإمبراطورية الآشورية الثانية حين بذلت المحاولات لتأمين الفتوحات واستغلال الدول المقهورة على أمرها كي تسيطر آشور على تجارة العالم الشرقى بأكمله .

وكان هذا هو الهدف الأسمى للحكومة إلى حد ما . ولكنها فشلت فى محاولة تأسيس إمبراطورية تجارية تقوم على القوة العاشمة وحدها كما فشلت فى محاولة توطيد أركان إمبراطورية تجارية دون أن تستعد للدفاع عنها . لأن الدول التابعة لها أخذت تنثور على سلطانها واحدة إثر أخرى . حقاً أخذت بعض الثورات ولكن حين غابت الجيوش الآشورية عن الميدان اشتعلت الثورات من جديد . وقد أحاطت



بأشور أجناس وحد بينها شعور الكراهية للغزاة وإن لم يوحد بينها شئ غير .  
وهاجت هذه أشور حتى دمرتها تدميراً .

ومن ثم تعلمت بابل درساً تاريخياً قيميا أدركت منه معنى الإتحاد فأسست  
إمبراطورية بابلية على أنقاض أشور وقام بتأسيسها والى بابل الاشورى السابق .  
غير أن الخطر سرعان ما بدا يهددها من هضبة ميديا لأن أشور بمشروعاتها  
التجارية فتحت أبواب الاتصال بالعالم الخارجى كما تمدن أهل ميديا بفضل اتصالهم  
بسكان السهول المجاورة لهم فيما وراء جبالهم ومن ثم انحدروا إلى السهول  
واستولوا عليها .

فى كل هذا التاريخ تبدو العوامل الجغرافية واضحة وإن كان تاريخ بابل وأشور  
ليس بالبساطة كتاريخ مصر لأن الظروف الجغرافية فيهما أكثر تعقيداً . ولكن  
الحقائق الأساسية ظاهرة وقد تهيأت لبابل الفرصة لانماء حضارة خاصة بها  
فى أول الأمر وليدة لظروفها المناخية التى وفرت لها من الطاقة ما يكفيها وانعكست  
آثارها على صفحات عقول سكانها فعملوا على استغلال الطاقة ما أمكن ، ذلك  
بالإضافة إلى الحماية الطبيعية التامة ، ثم أخذت آشور بمقاييد الأمور لأن الظروف  
الجغرافية حفزت أهلها ليدفعوا العدوان عن أنفسهم . وكما أن الشعور بالحماية  
الطبيعية والاعتماد عليها خلق فى مصر وبابل سكاناً عاجزين عن حماية أنفسهم  
كذلك كان التعرض الطويل للعدوان حافزاً للدفاع عن النفس وباعثاً للإيمان عند  
بعض الشعوب بأن القتال فى حد ذاته هو إحدى ضرورات الحياة .

ومنذ أن سقطت نينوى والعوامل الجغرافية لم تنقطع عن عملها . وبعد أن فشلت  
أشور فى إقامة إمبراطورية تعتمد على القوة توحدت سهول الدجلة والفرات وكانت بابل  
أهم أجزائها ولكن الناس هنا كما هم فى مصر لم يكن من اليسير أن ينسوا  
الدرس الذى ألقته عليهم الطبيعة مدى آلاف السنين واستمرت الأشياء تجرى  
على طبيعتها وكان جريانها قويا غلاباً ، فلم تستعد بابل استقلالها قط وبقيت أرضاً  
مفتوحة لكل من حدثته نفسه بالاستيلاء عليها واستغلال أراضيها كل حسب  
الاستطاعته وكيفما كان يسمح به زمانه فبعد أن سيطر عليها العيلاميون والقاصيون

والاشوريون تبعهم أهل ميديا وفارس واليونان ثم الرومان والعرب والأتراك ودام استعبادها زهاء ثلاثة آلاف عام لم تمد خلافاً وسائلاً للدفاع القديمة عقبات أمام أقوام ارتفع بهم مستوى معيشتهم، فليس بمعجيب بعدئذ أن تعود بابل اليوم فتصبح مستنقعاً راكداً كما بدأت في غابر الزمان..

وقد تستصلح أراضيها اليوم . وفي مقدور هذه البلاد أن تصبح بستاناً ينتج الفاكهة على نطاق أوسع مما كانت في الماضي ، وقد تبنى بها الخزانات الكبيرة كما هو الحال في مصر فتخزن بها المياه من الفيضان إلى التجاريق ، وقد تتخذ احتياطات فعالة للحيلولة دون الفيضانات الخطيرة المدمرة التي تفرق الأراضى وتسبب المستنقعات ولو تيسر لها حكم صالح لا أصبحت جنة من جنات الأرض ..

---

## الفصل الرابع

### الطرق - فلسطين - وفنية

لقد أشرنا فيما سبق إلى نشأة مركزين للحضارة في مصر وفي بلاد النهرين لأن الظروف الجغرافية فيهما قد هيأت لسكان الإقليمين مزايا لم تتوافر لغيرهم من سكان البلاد الأخرى . ولقد تأثر سكان الأقاليم المجاورة بقيام الحضارة في هاتين المنطقتين وعلى الأخص في المنطقة الثانية . ومن الطبيعي أن يشمل التأثير أولئك الذين يعيشون بين المنطقتين فيتأثرون بهما تأثيراً متصلاً على توالى الأيام . وربما لم يبلغ تأثرهم بإحدى هاتين الحضارتين نفس الدرجة التي تأثر بها غيرهم من سكان البلاد الأخرى لو أننا قصرنا المقارنة على عهد من العهود .

وعلى الرغم من أن مصر تحيط بها الصحراء من كلا الجانبين وهى صحراء قاسية منيعة يصعب اجتيازها إلا أن إطاراً ساحلياً يمتد من الركن الشمالى الشرقى من مصر على طول ساحل البحر المتوسط وهو أقل جذباً من بقية الصحراء ويتدرج شمالاً إلى شريط ضيق من السهول الساحلية والتلال الداخلية الحصينة فى مجموعها والتي تستمع بمورد من الماء لا بأس به . هذا الإقليم هو موطن الفلسطينيين والعبرانيين والفينيقيين وهذا الشريط هو حلقة الاتصال بين مقر الحضارتين العريقتين ويرجع إلى هذه الحقيقة وحدها الفضل فى أهميته العظمى .

وهكذا يظهر خلال دراستنا لتقدم الحضارة وسير التاريخ ، أننا نواجه عاملاً جغرافياً آخر ، ذلك أن الناس لا يعيشون فقط حيث الحياة أسهل ما تكون بل ويتحركون فى اتجاهات حيث الحركة أسهل ما تكون ، ويبدلون فيها أقل طاقة ممكنة . والانتقال دائماً يتبع أقل قدر ممكن من العقبات أو الحد الأدنى

للمقاومة كما يقال دائماً ، وحيثما توجد الطرق يسير الناس ، وقبل أن توجد الطرق بزمان طويل كانت هناك دروب استخدمها الناس في انتقالهم لأن الانتقال عليها ، بفضل ظروف جغرافية خاصة ، كان أكثر سهولة . وهذه في الواقع سبل وليست طرقا فالطريق قد تبلغ عرضها عدة أقدام أو ياردات على حين ليس للسبيل بالمعنى المعروف عرض محدود وهناك مثلا سبيل من باب الحجرة إلى موقد النار أى السبيل الذى يسلكه الانسان ليتجنب ما قد يوجد أمامه من عقبات ولكنه لا يعتبر طريقاً . وقد يكون هناك سبيل واحد وعدة طرق — فإن السبيل أو الممر بين لندن واسكتلند يجرى شمالا بين نهر الهبر وجبال البنين مخترقا سهل يورك ونيوكاسل وبسير في محاذة الساحل حتى أدنبره — ويمكن اعتبار الطريق الشمالى العظيم أنه كان ولا يزال صورة له ، كما أن سكة حديد الشمال وما يتصل بها تمثل المظهر الحديدي لهذا الطريق .

ولما لم يكن في ذلك الوقت بين مصر والعراق طريق ظاهر فقد كانت هناك دروب محددة جدا تكون في مجموعها طريقاً واحداً في معظم المسافة بين القطرين . وكان من الميسور إلى حد ما الانتقال من بابل والاتجاه شمالا على طول وادى الفرات ثم الهبوط إلى وادى نهر العاصى بين سلسلتى جبال لبنان الداخلية ولبنان الساحلية ثم الانحدار إلى سهل الليطاني أو البقاع إلى أعلى الأردن مخترقين سهل اسرائيل أو مرج ابن عامر مارين بمجادو التى كانت ملتقى الجيوش في هذا العالم الصغير كما يسهل اختراق أرض فلسطين على طول امتداد سواحل البحر المتوسط ثم على طول الشريط الصحراوى الضيق إلى أرض مصر وقد كان اختراق الطرف الشمالى لبداية الشام إلى واحة دمشق رأساً أقصر طولاً ولكنه أقل يسراً ولذلك كان يوفر بعض الطاقة عندالتجار الذين بلغوا قسطنطين الحاضرة والمدنية . وكانت دمشق هى نقطة الابتداء لمن أراد اختراق الصحراء شرقاً وهى نهاية المطاف أو المرسى الأخير لمن قصد عبور الصحراء غرباً إلى الجزء الأكبر من سورية . وأيا كانت الجهة التى جاءوا منها فقد كانوا جميعاً يعمرون مرج ابن عامر وفلسطين .

ولم تبرز أهمية هذا الطريق فجأة بل نمت شيئاً فشيئاً تبعاً لثمو البلاد التى تربط

بينها وتبعاً لازدياد أهميتها . وينبغي ألا نتصور أن حركة النقل التي جرت على هذا الطريق كانت تعادل ما يجري الآن على أى طريق من طرق الريف الانجليزى ومع هذا فقد كان هذا الطريق هو الذى تجرى عليه أكبر تجارة شهدها العالم فى ذلك العهد .

ومن الطبيعى ألا يكون تاريخ البلاد التي تمر بها هذه الطريق عريقا فى القدم كتاريخ مصر أو العراق . ذلك أن بينها وبينهما عهداً بعيداً ولا بد أن تكون الحضارة قد بلغت شأواً عظيماً فى كليهما وانتشر نفوذها قبل أن تتصل احداها بالأخرى . ومع ذلك يبدو أن اتصالهما المبكر كان أمراً عارضاً ومن قبيل الصدفة البحتة إذ أرسل ملوك الأسرة الرابعة فى مصر حوالى عام ٣٨٠٠ ق م . كما أرسل الملك سارجون الأكادى فى بابل الحملات والبعوث من كلتا الدولتين بقصد استغلال مناجم النحاس فى صحراء سيناء واقتطاع الأحجار المناسبة لأعمال النحت والتمثيل . وعلى مر الزمن سارت التجارة فى هذا الطريق كما سیرت الجيوش حتى انه لمدى ثلاثة آلاف عام التي كانت مصر والعراق خلالها أهم أقاليم العالم كتسبت سواحل بلاد المشرق الخصيبة ( الليفانت ) درجة من الأهمية لا تتناسب وحجمها الطبيعى . ولما كان هذا الموطن موطن الفلسطينيين والإسرائيليين هو الممر الموصل بين امبراطوريتى العالم القديم فلا عجب إذن أن يظهر سكانه كثيراً على مسرح التاريخ على الرغم من أن فلسطين نفسها صغيرة فى مساحتها لا تتجاوز مساحة مقاطعة ويلز فى بريطانيا حتى أن النبي إيليا — كما جاء فى الكتاب المقدس — عبرها من جانب إلى آخر فى يوم واحد .

وقد حاولت مصر والعراق السيادة عليها فى مختلف العصور . — وحتى فى حالة استقرار هذه السيادة فعلاً لأحد الطرفين فهي لم تكن دائماً سيادة مباشرة وفى غالب الأحيان كانت تسكن الأراضى التي يمر بها هذا الطريق شعوب لم تدن بالولاء لأحد وكانت فى بادئ الأمر دائماً تحارب بعضها بعضاً ثم تحضرت بالتدريج وأدركت المزايا التي تسكتسبها من مرور التجارة فى أراضيها .

ولم يتيسر لبني اسرائيل إلا حوالى عام ١٠٠٠ ق . م السيطرة على الطرق التجارية بنجاح . أى فى عصر النبيين داود وسليمان حينما تدهورت قوة مصر وآشور وتمكن سكان تلال فلسطين الإسرائيليون من السيطرة على الطريق التجارية بنجاح ، الأمر الذى لم يتيسر للفلسطينيين من سكان السواحل — واستطاعا تأسيس امبراطورية فى عهدهما يمكن أن تقارن بالامبراطوريات التى نشأت فى العالم القديم . ولما انقسمت تلك الامبراطورية إلى قسمين فقدت سيطرتها الفعالة على الطريق التجارى ثم عادت سيرتها الأولى دويلة صغيرة بين جيرانها تسكن فى شعاب تلالها . حقاً كانت دولة اسرائيل ذات مركز متوسط ولكنها كانت تافهة الأثر من الناحية السياسية . تضالع هذه الامبراطورية العظيمة آناء وتضالع الأخرى آناء آخر حتى سحقت أثناء الصراع بين الامتين الجبارتين . ولما دالت دولتا مصر والعراق وانتقل السلطان إلى غيرها قلت الأهمية الجغرافية للطريق الموصل بينهما ولأن القدس احتفظت دائماً بأهمية عظيمة لأسباب لا محل هنا لدراستها .

\*\*\*

وقد تأثر تاريخ العالم بظاهرة جغرافية أخرى تتصل بما سبق وترتبط بتوزيع اليابس والماء . فمن البديهي أن البشر يعيشون على اليابس وأن الدول تقوم على اليابس لا على الماء وأن التاريخ مرتبط فى أساسه بالجزء اليابس من الكرة الأرضية ولا يتيسر لجماعة كبيرة من الناس العيش دواماً على سطح البحر . ولا يتيسر لهم أن يستغلوا طاقتهم بنجاح وتوفيق وأن يسجلوا لأنفسهم تاريخاً بحرياً خاصاً بهم ، غير أن الانتقال بعكس الاستقرار أيسر على البحر منه على اليابس . إذ أن بعض العقبات تقوم على اليابس فتعوق الاتصال ولا بد للإنسان من أن يتغلب عليها أو يدور حولها ليتجنبها وفى كلتا الحالتين يستنفد هذا المجهود جزءاً من نشاطه دون أن يفيد منه شيئاً ذا بال . وليس الأمر مقصوداً على هذا وحده بل أن أى مقدار من المتاجر يحتاج فى نقله على الماء إلى طاقة أقل بكثير مما يتطلبه نقله على اليابس ، ومعنى هذا أن الماء أصالح من اليابس كطريق لانتقال الإنسان والبضائع من مكان إلى آخر . وقد عرفت هذه الحقيقة الامبراطوريتان العريقتان فى حضارتتهما إذ لم يقتصر

دور أنهار النيل ودجلة والفرات على أمداد الإنسان بمحاجاته المباشرة من الماء وكفاية مطالب الرى ولسكنها كانت طرقا للسفر والانتقال فاستخدم الإنسان فى أول الأمر أبسط انواع العائمات الطوافة المصنوعة من القصب والغاب والأعشاب ثم تدرج منها إلى استعمال القارب لأنها أقدر على الطفو من غيرها ثم توصل الإنسان أخيراً إلى استخدام القوارب الخفيفة . وبفضلها غامر التجار البابليون حوالى عام ٣٠٠٠ ق . م . وخرجوا بها إلى مياه الخليج الفارسى الهادئة . ومن المؤكد أيضاً أن المصريين استعملوا عدداً قليلاً من المراكب أو السفن فى البحر الأحمر فى إحدى المناسبات بعد هذا التاريخ بنحو قرن أو قرنين . غير أن هذه المحاولات كانت استثنائية وكان العالم ينظر إليها بعين العجب لأن استخدام القوارب كان دائماً مقصوراً على مجارى الأنهار .

على أن النقل على الأنهار وإن كان يتطلب طاقة أقل منه على اليابس إلا أن له بعض العيوب منها أن الإنسان مضطر إلى السفر حيث يجرى النهر خصوصاً فى حالة الأنهار القليلة الروافد كالفرات والنيل وحتى لو حفرت لها قنوات فهى ليست بذات فائدة تضارع البحر . فإذا ركب الإنسان البحر أصبح فى ميسوره أن يصل إلى أقصى أطراف المعمورة ، وهكذا يصبح توزيع اليابس والماء من الأهمية بمكان . وأهم ظاهرات ذلك التوزيع تتجلى فى الحقيقة الواقعة وهى أن الاتصال بالبحر سهل ميسور لأن البحر كل متصل واليابس أجزاء متقطعة .

وفى ذلك الزمن الغابر ، حتى بعد أن تحضر الناس آلافاً من الأعوام ، ظل غموض المجهول يحول بينهم وبين معرفة البحر معرفة كاملة ، والناس بطبيعتهم يألفون اليابس ولسكن الأجزاء الخصبية المعمورة بالسكان فى العالم القديم تفصلها المستنقعات عن البحر ولقد ألف الناس رؤية الأنهار لأنها تجري بينهم ولسكنهم لم يدركوا البحر وظلوا يخشونه إن خاطروا بركوبه . ولهذا يعتبر اكتشاف البحر أعظم الاكتشافات العالمية أثراً ، ومن ثم دخل البحر فى نطاق التاريخ ولم يعد ذلك الحاجز المنيع الذى يفصل بين البشر وأضحى همزة الوصل بين جميع الأقطار التى تحف به .

ومما هو حدير بالذكر أن يقوم بهذا الكشف لأول مرة الأقوام التي عاشت حيث ينتهى الطريق البرى الأعظم إلى شاطئ البحر . إذ امتد بمجاذات الجبال سهل ساحلى خصب ضيق النطاق يمتاز بحره بعمق مياهه وبخلوه من المستنقعات ولم ينب البحر قط عن بصر سكان هذا الساحل ، يفكرون فيه دائماً وينزلون قواربهم إلى اليم العميق مباشرة دون أن يكلفهم ذلك شططاً كما كان يتطلب من غيرهم من سكان البلاد الأخرى .

وقد كان من الاهمية البالغة أن يكون البحر المتوسط أول البحار التي اكتشفها الإنسان وقد أجمع السكثرون على أنه كان المدرسة الأولى لتعليم الملاحة البحرية لا مجرد الملاحة النهرية وهو كما يدل عليه اسمه يقع وسط اليابس فهو بحر داخلى يخلو من آثار العواصف التي تكثر فى عرض المحيطات ، أضف إلى ذلك أن أهميته بالنسبة للملاحى العهود الغابرة ترجع إلى خلوه من حركات المد والجزر حتى أنه مهما اختلف المكان وفى أى وقت من الأوقات كانت السفن الصغيرة تستطيع أن ترسو إلى شواطئه فى سهولة ويسر ، علماً بأن سفن القدماء كانت فى جملتها صغيرة . ويشارك البحر المتوسط فى هذه المزايا البحر الأحمر والخليج الفارسى ولكنه يزهأ جميعاً فى مساحته الواسعة وينفرد دونها بمزايا لم تتوافر لأى من البحارين الآخرين ذلك أن شواطئه على العموم أكثر خصباً ولا تنقصها المرافق الطبيعية الجيدة ، وتتصف بوجود الرؤوس الأرضية البارزة والسواحل كثرة التماريح والجزر المبعثرة الظاهرة فوق سطح المياه ولا يغيب البر فيه عن نظر الملاح ، والمأوى دائماً قريب إن جد الخطر ، فهو بهذه المزايا يصبح المثل الأعلى لتربية رجال البحر .

ولما عرف الناس هذا البحر كطريق للاتصال تهيأت الفرص للفينيقيين من سكان صور وصيدا وغيرهما لأن يلعبوا دورهم فى تاريخ ذلك العالم الصغير فى العهد القديم ، لأنهم يسكنون أرضاً هى همزة الوصل بين البلاد المختلفة ، وهى بمثابة لوحة القفز إلى عرض البحار . ومن البين أيضاً أن تتأخر الحضارة المؤسسة على البحر فى نموها عن الحضارات التي تكلمنا عنها آنفاً ، ومن الطبيعى كذلك ألا تنمو هذه



الدويلات إلا بعد أن يتعرف أهلها على هذا الطريق ومن ثم يمضى عهد طويل قبل أن تتحفز عقول سكانها إلى العمل من أثر الأفكار التى نشأت عن هذه المعرفة . وعلى أنه حال لم يحل عام ١٦٠٠ ق . م . إلا وقد عُرف الفينيقيون كأمة من تجار البحار ، ولا بد أنهم بدأوا مغامراتهم فى هذا السبيل قبل ذلك زمن بعيد ، لأنهم جاءوا فى الأصل من بابل بعد أن قطعوا الطريق العظيم وبعد أن عرفوا القوارب واشتغلوا بالتجارة وقد أغرتهم السماء الصافية فى بيئتهم الأولى بدراسة علم الفلك ولا غرو فإن فوائده للملاحة الليلية لا تحصى .

وهكذا حفزتهم بيئتهم الجديدة إلى التقدم فى اتجاهات جديدة . وقد بدأت صيدا تملك زمام الأمر ثم تبعها صور من بين المدائن الكبيرة المبعثرة على طول السواحل ومن هاتين المدينتين كات تخرج السفن إلى البلاد المتأخرة على بعد المسافة بينها . وربما كان دافع الفينيقيين فى أول الأمر البحث عن بعض الأسماك الصدفية التى كانوا يحتاجون إلى كميات كبيرة منها لصنع الملابس الملصكية باللون الأحمر الأرجوانى الذى اشتهرت بصناعته مدينة صور .

ومن الجائز أن البحث عن الأصباغ لم يكن هدفهم الوحيد ، فالتجارة ، من أى نوع كانت ، محببة إلى نفوسهم ما دامت تجزى عن المتاعب التى بتجشمونها . ولكى يتابع الفينيقيون أعمالهم التجارية فى أمن وهدوء أنشأوا المستعمرات على طول سواحل البحر المتوسط من طرف إلى آخر ولم يأت عام ١٠٠٠ ق . م . حتى كانت مجموعة الحلف الفينيقي تكون وحدة يعمل لها حساب وإن كانت ضعيفة . الروابط فيما بينها . حقاً ، ملك الفينيقيون بقاعاً صغيرة فى مساحتها لأنهم كانوا فى قراره نفوسهم تجاراً لا يحتاجون إلى مساحات واسعة من الأرض الخصبة ليزرعوا ما يحتاجون إليه من الغذاء ولكنهم كانوا يفضلون شراءه بما تدره عليهم مهنتهم من كسب وفير .

لقد حكمت صور وصيدا وقرطاجنة مناطق صغيرة فيما حولها ولم تكن دولتهم قطراً واحداً متديجاً كدولة مصر أو بابل ، بل كانت عبارة عن مستعمرات متفرقة على سواحل البحر المتوسط الذى كان يربط فيما بينها ، وكون من وحداتها ذلوة تختلف فى طبيعتها ونظمها عن أى دولة سبقتها فى الوجود .

ولم يكن حكم الفينيقيين وحده هو البدعة الجديدة ، بل إنهم كانوا أنفسهم  
يمتازون بسجايا ذات طابع جديد فرضته عليهم ظروف بيئتهم . ولا بد أن سلوكهم  
العام كان يفرض على الغير احترامهم والخضوع لهم بدليل بقاء أسواق الممّج  
المتأخرين مفتوحة لهم زمناً طويلاً . والتجارة في جوهرها مهنة وديعة . ومهما  
تقدم المصريون والبابليون فقد بذم الفينيقيون في هذا المضمار . وفي الحق كانت  
الشجاعة من أخص صفاتهم ولم يكونوا كالأشوريين مجرد مقاتلين، كما تركت فيهم  
الأسفار الدائمة وسط البحار المتلاطمة وعلى ظهور سفنهم الصغيرة صفة التعلق  
بالحرية إلى جانب ميزة الشجاعة الفريدة التي تكلمنا عنها مما مكّنهم من أن يقفوا  
بالمرصاد ليدفعوا عن أنفسهم محاولات آشور المتكررة للقضاء عليهم .

\* \* \*

وبالرغم من فشل آشور في القضاء على التجارة الفينيقية فقد سببت هذه  
المحاولات لها عجزاً وشللاً . وقد ضعف بضعفها الفينيقيون في فينيقيا الأصلية  
منذ القرن السادس ق . م . حقاً لم تسقط بلادهم نهائياً حتى اضطرتهم الظروف إلى  
مواجهة قوة بحرية أخرى سندرسها فيما بعد

# الفصل الخامس

## حضارة البحر

### ١ - اليونان

رأينا كيف قامت الحضارات القديمة في مصر والعراق بفضل اجتماعهما بالصحراء والمستنقعات وكيف اكتسبت جهات أخرى أهميتها نتيجة للاتصال الطبيعي الذي حدث بين الدولتين ورأينا كيف أصبح البحر أداة للاتصال بين الدول بعد أن كان حاجزاً يفصل بينها ، وقد استطردنا في تتبع هذه الحقائق استطراداً طبيعياً . وعلينا الآن أن ندرس أثر البحر في جهات أخرى غير مصر وفينيقيا وتبين كيف كان البحر عاملاً مؤثراً كفل الحماية في أول الأمر ثم أصبح أداة للاتصال فيما بعد .

وأما أولئك الذين سنعلمهم بدراسة أوطانهم فهم من أطلقوا على أنفسهم في عصور متأخرة اسم الهلنيين والذين نسميهم الإغريق . أما وطن أولئك الهلنيين فهو هلاس . أو بلاد اليونان كما يحلو لنا تسميتها . فأينما عاش الإغريق فهم كانوا يعيشون في هلاس . وبلاد هلاس هي التي ينبغي علينا دراستها . غير أن هناك خطأ شائعاً يجب أن نتجنبه . إذا ما ألقينا نظرة على خريطة سياسية حديثة رأينا بلاد اليونان تحتل الطرف الجنوبي الغربي لشبه جزيرة البلقان حيث تبدأ السلاسل الجبلية في الانخفاض والاختفاء تحت سطح البحر ، واسم بلاد اليونان تعبير صحيح لو قصدنا به مملكة اليونان الحديثة فقط ولكنه خطأ إن عنيينا أنه الوطن الوحيد لليونانيين حتى للمحدثين منهم ، بل ونعني في الخطأ لو ظنناهم وطن قدماء الإغريق الذين نحن بصدد تاريخهم .

ولو أننا نظرنا إلى خريطة توزيع الأجناس في الشرق الأدنى رأينا أن بلاد اليونان الحقيقية أو الوطن الحقيقي لليونانيين يشمل اليوم كل السواحل والبحر

وأشباه الجزر في بحر إيجه . وبحر إيجه دون أجزاء البحر المتوسط جميعاً يحوى من الجزر المتناثرة على سطحه أكثر من أى بحر آخر وفيه من أشباه الجزر والعوس ما يمنع انظام سواحله أكثر من أى ساحل آخر من سواحل البحر المتوسط وقد انتشرت فيه الجزر انتشاراً كثيفاً حتى أن اسم إيجه أو الأرخبيل الذى أطلقه اليونانيون عليه ، وهو بحرهم الرئيسى ، أصبح يدل فى معناه على مجموعة من الجزر . وهو إن دل على شئ فهو يؤكد الميزة التى جعلت لهذا البحر أهميته لأن أول حضارة عرفت فى أوربا قامت على تلك الجزر وأشباهها فى بحر الأرخبيل .

هنا نجد أرضاً كفلت لها الظروف الجغرافية حماية وتهيأت للشعب فرصة لأن يشيد حضارة خالصة من التدخل الخارجى . فقام فى هذا الإقليم نوعان متنافسان من الحضارة . وليس لدينا سبيل إلى الجزم أيهما كان أسبق فى الوجود من الآخر .

أول — فمن ناحية ارتفاع مستوى المعيشة تدريجياً فى جزيرة كريت الكبيرة المساحة وفى البلوبونيز وهى جزيرة تقريباً وفى بقعة أو اثنتين من البقاع الملائمة حيث توافرت للحضارة فيها فرصة النمو والإزدهار بفضل حمايتها كاملة من الغزو والعدوان .

وتحسنت تدريجاً ظروف الحياة لسكانها حتى أنهم قبل أن يأتى عام ٢٠٠٠ ق.م . كانوا قد شيدوا مباني حجرية عظيمة ومارسوا فنوناً وصناعات من نوع بدائى . وانشأوا المدن فى داخل البلاد ما أمكنهم حتى يبعدوها عن التعرض لأخطار رجال البحر الذين قد يغيرون على سكان الشواطئ والذين كانوا قليلي الثقة بانفسهم إذا ابتعدوا عن بيئتهم الأولى ألا وهى البحر .

ثانياً — ومن الناحية الأخرى فقد وُجد رجال البحر حتى فى ذلك الزمان الغابر ومن الجائز أنهم جاءوا من الجزر الصغرى التى لم يغب البحر فيها عن الأبصار ، فأصبح بطبيعة الحال مألوفاً لديهم وربما يكون هؤلاء قد بنوا القوارب وركبوا متن البحر وانتقلوا من مكان إلى آخر وأحرزوا قصب السبق فى هذا المضمار قبل الفينيقيين .

فإذا ما نمت وتطورت هذه الحضارة وهى التى اتخذت مقرها فى مناطق محمية ، كان من المنتظر كلما ازدادت معرفتهم بالبحر أن تحتفى الأحوال التى كان ينسبها سكان اليابس إليه . فلما بلغت هذه الحضارة أوجهاً تقريباً حين عاصرت الأسرة الثامنة عشرة فى مصر حوالى عام ١٦٠٠ ق م كانت قد انتشرت فى جميع جزر بحر إيجه وعلى شواطئ آسيا الصغرى وتركت آثارها فى البلاد التى سميت فيما بعد بإيطاليا وصقلية على حين كانت سفن كريت بكل تأكيد معروفة فى مصر ، وكان ملوك الفراعنة يستقبلون فى بلاطهم البعوث والسفارات السكرتية . ومهما يكن من شئ فقد كانت هذه حضارة تنتشر لا امبراطورية تحكم وتسود .

كان البحر حاجزاً فى الأزمنة الغابرة فتهيأت لليونان ظروف جغرافية لامت نمو حضارة عريقة ، مثلها فى ذلك مثل مصر وبابل . ويجب أن نلاحظ بدقة أوجه الشبه وأوجه الاختلاف بين هذه الحضارات . فكما اختلفت بابل عن مصر لأن بابل كانت محاطة بمستنقعاتها ، ومصر بصحراواتها — كذلك اختلفت اليونان عن كل منهما بفضل حماية البحر لها . فإن مصر بسبب طولها انقسمت طبيعياً إلى مصر العليا ومصر السفلى ، أو مملكتى الشمال والجنوب ، كما كانتا تسميان ، أى الدلتا والوادي ، وانقسمتا بدورها إلى أقاليم صغرى أو مديريات وإن لم يفصل بينها أى حاجز طبيعى ذى أهمية تذكر ولهذا خضعت مصر فى أغلب تاريخها للحاكم (واحد) ومن آن لآخر لحاكمين اثنين ، وفى الأحوال الشاذة لسلطات متعددة منقسمة على بعضها ، هذا إذا ما استقلت أقاليمها ومديرياتها . أما بابل فعلى الرغم من أنها كانت أكثر اندماجا وأحكاما من مصر إلا أنها كانت أكثر من مصر استعداداً للانقسام إلى دويلات صغيرة لأن الفواصل بين الأقسام الصغرى فى بابل كانت أبرز وأفعل أثراً ، كما أن أثر النهر فى ربط البلاد وتوحيدها لم يشعر به البابليون إلا قليلاً . ولما كانت هذه الحواجز غير مانعة كان من الطبيعى أن تضطر الدويلات البابلية إلى الدخول فى نوع ما من الاتحاد أما الجزر وأشباه الجزر اليونانية فقد انفصلت تماماً عن كتلة اليابس بل وعن بعضها بعضها حينما كان البحر حاجزاً . وبعد أن أصبح البحر طريق الاتصال ظلت مساحات من البحر

تفصل فيما بين الجزر وبعضها وليست الحدود هنا خطاً فاصلاً بل هي مساحات واسعة والواقع أن هذه الظروف لم يقتصر تأثيرها على توجيه مجرى التاريخ بصفة مباشرة بأن جعلته يسلك أيسر السبل ويفضلها على غيرها، وإنما أثرت في التاريخ أثراً لا يقل عمقاً بصفة غير مباشرة بفضل انعكاسها على تفكير الإغريق أنفسهم : إذ اختلفت نظرتهم إلى البحر عن نظرة الفينيقيين . فقد كان البحر في نظر الفينيقيين وسيلة تطرقها التجارة حين أنه كان في نظر الإغريق وسيلة للدفاع عن استقلالهم ، فالبحر قبل كل شيء طريق بالنسبة للفينيقيين ولحكمه ميدان دفاع بالنسبة للإغريق ، ولهذا السبب الرئيسى كان الشعور العميق بالاستقلال من أكبر ميزات الحضارة الإغريقية ، إذ شعرت كل دولة من الدويلات اليونانية برغبة في الاستقلال ليس فقط عن كل شعب أجنبي عنها بل وعن الدويلات اليونانية الأخرى ، وقد ازداد هذا الشعور قوة من جراء الاختلافات الكبرى بين مختلف الأجزاء حتى بين الأجزاء المتجاورة في كتلة الأراضي اليونانية الأصلية ، مما نشأ عن اختلاف الظواهر الطبيعية وما يستتبعها من تنوع في المناخ ، وهكذا خالج كل دولة شعور قوى بوحدها وشخصيتها وكان من نتيجته أن التاريخ لم يسجل قط قيام امبراطورية يونانية .

لم يك هذا أثراً عابراً ، فحوالى عام ١٠٠٠ ق . م ، طرأ تغيير على طراز الحضارة الذى ساد البقاع التى نطلق عليها الآن اسم بلاد اليونان . إذ غزتها قبائل من الشمال واعتري حضارتها تأخر ظاهرى لفترة من الزمان لم تدم طويلاً لأن الدم الجديد ساعد على سرعة نمو طراز الحضارة الإغريقى الخالص وعمل على بلوغه درجة عالية من النضوج والازدهار ، وليس هنا مجال التعرض للسكلام عن هذا التطور ، بل ينبغى أن نلاحظ أن أثر الظواهر الجغرافية قد اختلف قليلاً واختلف توزيع الدويلات ، وكل ما حدث من تغيير إنما يرجع إلى اختلاف الأثر الذى طبعته العوامل الجغرافية على عقول اليونانيين الذين أصبحوا — دون وعى منهم — أكثر دراية بأساليب اقتصاد الطاقة والجهد ، وهكذا انتشرت الحضارة اليونانية الحديثة في الجزر وأشباه الجزر المبعثرة في بحر إيجه بنفس

الطريقة التي انتشرت بها الحضارة اليونانية السابقة وإن كانت هذه أسرع في انتشارها لأن اليونانيين أصبحوا أكثر دراية بالبحر وإدراكاً لقيمتهم كطريق للاتصال بين الأجزاء المختلفة ، ويبرز في تاريخ اليونانيين سواء في المجهود المتقدمة أم المتأخرة ، ذلك الدرس الذي لقنهم الطبيعة إياه وهو أن البحر وسيلة دفاع وحماية بكل ما ينطوى عليه هذا الدرس من معان ظاهرة في الحاضر كما كانت في الماضي .

ويعصور لنا التاريخ الداخلي لهلاس — أى الوطن اليونانى — مدى سيطرة الظروف الجغرافية . حقاً قامت دول يونانية جديدة فأصبحنا نسمع عن إسبرطة وعن أثينا بدلاً من أرجولس وطيبة ، وجرى التاريخ في مجراه المنتظراً أينما تطوراً مستمراً متعدد الألوان يلم بالوحدات الصغرى بسبب اختلاف مصالحها خلال الثلاثة أو الأربعة القرون التي برزت فيها اليونان أمام أبصارنا ، فلم يقر قرار لأى وحدة منها إلا قليلاً ، وتردد نفس الشعور من عدم الاستقرار في نفس كل مواطن في كل وحدة ، وأحس بضرورة تقدير حقوقه الفردية . وفي هذا كله يتضح الدور الأساسى الذى يلعبه البحر فإن التاريخ الداخلى لهذه الدول اليونانية — أو دول اليونانيين بمعنى أعم — ما كان إلا صراعاً بين مجموعتين من الأحلاف بين مجموعة أحلاف دول المدن التي قامت على اليأس وبين مجموعة الأحلاف الأخرى التي كان البحر عمادها . ومن الطبيعى أن يكون النصر لفترة طويلة من الزمان حليف الحلف الذى يعتمد على البحر — كما نرى ذلك بيننا في هذه الأيام . ولكن النصر في هذه المرة كان قصير الأجل بسبب ميل اليونانيين الطبيعى إلى التفرقة والانفصال .

ويبرز التاريخ الخارجى لمجموعة الدول اليونانية هذه الحقيقة أيضاً ، فقد رأينا أن البحر كان وسيلة دفاع بالنسبة للأغريق وأنه كان طريق تجارة بالنسبة للفينيقيين ، ولم يكفل في نظر الفينيقيين إلا قدراً ضئيلاً من الحماية لأن الخطر لم يأتهم من البحر بل من البر ، وقد خلا البحر من المنافسين لهم وهم في غمرة حماسهم ، ولم ينازحهم سلطانهم إلا بعض سفن للقرصان في أسوأ الظروف وهكذا ركب الفينيقيون متن البحار ( م ٤ — الجغرافيا )

وانتشرُوا فيها انتشاراً واسعاً ، ولم تبلغ فينيقيا قط درجة التكتل والاندماج التي بلغتْها اليونان ، هذا على فرض أن اسم فينيقيا كان يشمل كل الأراضي التي خضعت لنفوذ الفينيقيين ، وما حدث ذلك إلا لأن فكرة القوة البحرية لم تكن قد ولدت بعد ولم يخطر على بال الفينيقيين أن التجارة كالزراعة ، سواء بسواء ، في حاجة إلى الحماية والدفاع ، وأن السفن التجارية التي تجرى في عرض البحار تحتاج إلى الدفاع المنظم كالمدن والدول المستقرة على اليابس ، ومن الطبيعي أن يتجه الفينيقيون في تفكيرهم هذا الاتجاه ما داموا لا يجدون في البحر منافساً أضف إلى ذلك أنه على الرغم من ضرورة الدفاع عن التجارة فإن البحر خلو من الحصون الطبيعية وأبنا وجد البحر أصبح السبيل ممهداً للجميع وغير ممنوع على أحد ، والدفاع الوحيد هو في كفاية رجال البحر أنفسهم ، فإن تساوت الظروف كانت الغلبة في جانب العدد الراجح . وحين نظر الإغريق إلى البحر كيدان حرب لم يظهروا أى ميل للسماح لغيرهم بأن يشاركهم ميزاته ومنافعه ، وكانوا أقدر على فرض إرادتهم وتنفيذها ، وليس بعجيب إذن أنه لما أصبح الإغريق تجاراً في آخر الأمر كانوا أكثر حذراً في مزاوله أعمالهم التجارية في مناطق لا يتمتعون فيها بالنفوذ الأكبر ، ومن ثم استطاعوا أن يقتصبوا من الفينيقيين تجارة بلاد كميرة كان الوصول إليها أمراً ميسوراً إلى حد ما بالنسبة للإغريق ، ولم يعن الفينيقيون قط بالقتال حبا في القتال لذاته ، فإذا ما شعروا بوطأة المنافسة تركوا المكان إلى غيره إيماناً منهم بأن في ميدان التجارة متسعاً للجميع . وهكذا أضخى الإغريق تجاراً مقتدين بالمثل الذي ضربه لهم الفينيقيون أو كنتيجة طبيعية للظروف الجغرافية ، وربما كان احترافهم للتجارة مبعثه العاملان في وقت مآ ، وأخيراً تمكنوا من طرد منافسيهم من شرق البحر المتوسط وجعلوا منه بحراً أغريقياً خالصاً .

ومهما يكن من شيء ، فلم يكن الفينيقيون وحدهم هم الذين اضطروا اليونانيون إلى صراعهم ، فقد رأينا أن ميديا قد سيطرت على أكثر أجزاء الإمبراطورية الآشورية بعد سقوط نينوى وجاء الفرس في أعقاب الميديين وهم شعب جبلي هبطوا من حافه هضبة إيران وسيطروا على كل أراضي الإمبراطورية الآشورية



وامتدت حدود بلادهم في جميع الاتجاهات تقريباً ، ولأول مرة في التاريخ صارت  
امبراطورية برية أخرى بحرية ، لأن بلاد اليونان شملت سواحل آسيا الصغرى ،  
واقتربت فارس من هذه الشواطئ زاحفة من الهضبة الداخلية لإيران بعد غزو  
مملكة قارون التي لم تخضع قط لدولة آشور ، ومن الجائز أن يحكم فارس قد  
ساورتهم الظنون بأن سكان السواحل سوف يسارعون إلى الخضوع شأنهم في ذلك  
شأن الفينيقيين من قبل ، لأن هؤلاء الفينيقيين لم يقدرُوا فرص الدفاع التي هيأها البحر  
لهم فأحنوا رءوسهم للعاصفة ودفعوا الجزية واستمروا يزاولون تجارتهم وكأنهم لم يحدث  
شيء ، وقد كان هذا التصرف في نظرهم حكماً طبيعياً لأن في الخضوع كسباً تجارياً ،  
ولكن نظرة الأغريق للأمر اختلفت عند معالجة هذه الأزمة بالذات ، وهنا تبدو  
حقيقة هامة وهي أن المسلك العقلي للإنسان أو للأمة هو ما تفرضه الظروف الجغرافية  
فرضاً وأن الاستقلال في نظر الأغريق يفوق التجارة في قيمته حتى في نظر سكان  
شواطئ آسيا الصغرى من اليونانيين فإن سواحلها لم تسكن إلا جزءاً من بلاد  
اليونان ، وانظار أهلها تنو إلى البحر وتعزف عن البر ، يفضون الطرف عن فارس  
ولا يتجهون نحوها ، ولم يتيسر للفينيقيين من سكان الشاطئ الفنيقي أن يتلقوا  
المدد أو المساعدة من المستعمرات الفينيقية خارج بلادهم ، على حين أن ذلك كان  
ميسوراً بالنسبة للأغريق من سكان آسيا الصغرى فكانوا يتلقون المساعدات باستمرار  
من إخوانهم فيما وراء البحر وقد تدور الدائرة فترة ماعلى اليونانيين من سكان الكتلة  
اليابسة أمام عدوان جيش من الجيوش بينما يظل باقي الأغريق في قواعدهم فيما وراء  
البحار وفي جزائرهم بعيدين عن متناول أية قوة برية لا يتوافر لديها أسطول ، ذلك  
أن الشعب البحري لا تقهره إلا قوة بحرية ، ولما تيسر لفارس آخر الأمر تسخير  
سفن الشعوب التي سيطرت عليها وعلى الأخص سفن فينيقيا ومصر وصقلية حاولت  
غزو اليونان عن طريق البحر ، وقاد أجزر سيس جيشه خلال الأقطار المختلفة ،  
ولعله كان أكبر جيش رآته الدنيا لعدة قرون مضت ولعدة قرون تلت زمانه .  
أشاع الذعر معه في كل مكان وانتشرت ظاهرة الخضوع دون قتال بين أغاب بلاد  
اليونان ، غير أن الموقف انقلب رأساً على عقب في موقعة سلاميس إذ أحرزت

دولة أثينا البحرية النصر بعد أن تملكها اليأس ، فألحقت بأسطول أجورسيس . هزيمة منكرة وحالت أثينا بين الإمبراطورية الشرقية العظمى وبين السيطرة الفعلية . على البحار ، ويجب ألا يغيب عن الدهن المعنى الكامن في تصرف الملك الفارسي . ومصدره انعدام الألفة بينه وبين البحر ، ولهذا العامل أثره الحاسم في مجرى القتال . فليس مرجع الهزيمة النقص في السفن الفارسية وعددها لأنه تبقى لأجورسيس . في نهاية المعركة عدد من السفن الصالحة للقتال أكبر مما تبقى للاغريق . ولكن أجورسيس جاء من بلاد تنظر إلى البحر نظرة استغراب ولم يكن هو شخصياً من رجال البحر ، ولهذا فقد الثقة بالبحر وعاد مهزوماً ، ولو فرضنا أن أسطوله دمر عن آخره لكان التقهقر لا يعنى أكثر من أن رحى الحرب قد دارت في غير مصالحته وأنه قد يعود إلى الميدان مرة أخرى ، ولكن تقهقر أجورسيس ومعه أسطول يفوق أسطول أعدائه في عدده ، يحمل في طياته اعترافاً بأن البحر أبعد منا لا من أن يمتد إليه الحكم الفارسي .

حدث هذا في عام ٤٨٠ ق . م . وقد تركز العصر الذهبي لبلاد اليونان في أقل من قرن ونصف من الزمان وهو العهد الذي عاش فيه أقطاب اليونانيين الذين خلدوا ذكر الثقافة اليونانية ، وكان أثر البحر بارزاً خلال العهد كله سواء أكان بطريق مباشر أم غير مباشر ، ويتضح هذا من أسطورة لعلها أكثر الأساطير شيوعاً في التاريخ اليوناني ، وهي تلك التي تروى « مغامرات عشرة آلاف جندي » قضوا شهوراً في التجول والمغامرة حول بحر أيو كسين<sup>(١)</sup> فلما وقعت أبصارهم على البحر لم يتألموا أنفسهم من الصياح . « البحر ! البحر ! » هذه الأسطورة . تلفت النظر إلى أن البحر هو الظاهرة الكبرى في حياة اليونانيين ، ومما يبعث على الدهشة أن تأتي هذه الصيحة من جيش يتكون في غالبيته من أهل اسبرطة . وهم أقل اليونانيين تقديراً للبحر .

ومن الطبيعي أن تكون أثينا وهي أكثر الدويلات اليونانية اعتماداً على البحر هي القوة الفعالة في إلحاق الهزيمة بجيوش أجورسيس وأساطيله ، فلم يكن

(١) الاسم القديم للبحر الأسود — المترجم ..

يد من أن تتولى أثينا الزعامة في بلاد اليونان فترة من الزمان أطول مدى من أى دويلة أخرى ، ولكن زعامتها في ذلك الحين كانت قصيرة الأجل نسبياً إذ لم ترد عن السنتين عاماً ، فبدأت سياسة من التوسع البحري أفقدتها أسطولها مرتين ، المرة الأولى فقدت أسطولها في صقلية على أيدي رجال بحر آخر فضاعت مكانتها في التو واللحظة ، والمرة الثانية فقدت أسطولها في الدردنيل أثناء محاولتها حماية طرق تموينها بالقمح الوارد إليها من البحر الأسود ، ولم تكن أثينا قد استجتمت بعد من صدمتها الأولى فلم يتوافر لقوتها الناقصة شئ من المناعة يحملها تحتمل الصدمة الثانية فخضعت أثينا جوعاً ولم تعد بعدئذ شيئاً مذكوراً .

وخلفت اسبرطة أثينا لفترة تزيد قليلا عن الجيل الواحد وخلفت طيبة اسبرطة لمدة تبلغ نحو عشر سنوات قبل أن تنشط عوامل الانحلال فتعمل عملها ولم تسيطر قط على البحر بينما دانت لاسبرطة السيادة البحرية لبضع سنوات بعد سقوط أثينا ، ثم استعاد الأثينيون السيادة البحرية لحد ما وشاركهم فيها دول المدن اليونانية في آسيا الصغرى كما شاركهم فيها الفينيقيون وهؤلاء كما سبق أن رأينا قد انطوا تحت جناح فارس ، وظلت دول المدن اليونانية الأخرى في آسيا الصغرى نفسها في حالة من الضعف والانقسام على الرغم من أنها كانت تتطلع في بعض الأحيان إلى البلاد اليونانية الأخرى طالبة معونتها فكان رجالها يتحقق أحيانا ، ويخيب أحيانا غير أن حكومات المدن اليونانية ظلت منقسمة على بعضها بعضاً يخالف بعضها ملك فارس وزودوه بالمساعدة مما مكن الفرس في فترتين من فرض نوع من السيطرة على جميع البلاد الإغريقية وإن تعذر القول بأنهم مارسوا هذه السيطرة فعلا .

ولا بد من توافر شرطين أساسيين لإمكان قيام وحدة تضم جميع اليونان وهما السيطرة الكاملة على البحر والسيطرة السكاملة على البر ، لأن بلاد اليونان بطبيعتها تتكون من جزائر وأشباه جزائر ، ولن تتحد الجزر إلا بالسيطرة على البحر وفي هذه الحالة تظل أشباه الجزر معرضة للهجوم من البر ، فإذا قامت إلى جانب السلطة البحرية قوة برية منظمة اضطرت الدويلات المختلفة في بلاد اليونان إلى الاعتراف بسلطة واحدة عليها لفترة من الزمان ، أى إذا اجتمعت إلى القوة البرية

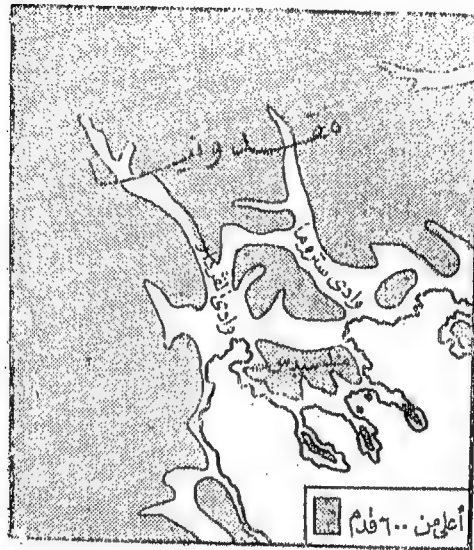
أخرى بحرية قامت دولة لها من السلطان ما يجعلها تسود كل بلاد اليونان وتحكم: لعهده قصير كل أنحاء العالم المعروف آنئذ والذي كان له شأن يذكر في ذلك الزمان. وتبين الفتوحات المقدونية التي قام بها فيليب والاسكندر مدى الأثر الذي تركه. بعض الشخصيات البارزة في مجرى التاريخ — وعلى كل حال فإن العوامل الجغرافية — وإن لم تتضح هنا تماماً كما وضحت في حالات أخرى — ذات أثر محسوس في كل حال وقد ازداد أثرها وضوحاً لو أننا تذكرنا أن العوامل الجغرافية تعمل عملها بالتأثير في عقول البشر.

كان العالم المعروف للبشر وقتئذ — أى للمتحضرين من البشر — عالمًا صغيراً قوامه مصر والعراق واليونان وما بينهما، أما فيما وراء هذه الدائرة فتقع بلاد وبحار يعرفها في شيء من الغموض من يقطنون داخل الإطار الصحراوي الجبلي فإن سكان الجبال من أهل ميديا وفارس هبطوا في الشرق إلى أرض العراق. ثم زحفوا منها غرباً حتى حالت البحار والمرتفعات الأغريقية دون تقدمهم، وقد لفت هذا الزحف أنظار اليونانيين وعلى الأخص يوناني أوربا إلى وجود قوة متحضرة عظمى إلى الشرق منهم، ومن ثم بدأ الإغريق يوجهون أبصارهم إلى الشرق ويدركون شيئاً فشيئاً أن التقدم شرقاً أمر ميسور بل هو أسهل نسبياً من زحف الفرس غرباً وإن أسطورة العشرة آلاف جندي توحى بأن غزو الشرق ممكن وأن الإغريق يتفوقون على أهل آسيا بطيب عنصرهم الإغريق ويمتازون عليهم بالتدريب العسكري فبدأ أجيسلاوس من أسبرطة عزواته، وداعبت الأحلام «جاسون» في تساليا فصورت له إمكان غزو فارس لو اتحد اليونانيون ولكنهما أخفقاً في تحقيق أحلامهما لأن الوطن اليونانيين ممزق شرمزيق. ومن ثم يتضح أن فكرة غزو الهيلينيين للشرق حين ظهرت لم تكن بدعة جديدة وإعماهى نتيجة طبيعية للظروف الجغرافية.

كذلك كان تنفيذ هذا الغزو أمراً تحتمة الظروف الجغرافية فليست مقدونيا بإغريقية خالصة فهى تبعد عن البحر أكثر من أية مدينة يونانية أخرى وفيها: يجرى أكبر أنهار بلاد اليونان وأكبر وديانها ولم يكن أهل مقدونيا رجال بحر

كأهل اليونان بل كانوا في غالبيتهم رجال بر وسكان جبال تحضروا إلى درجة لا بأس بها بفضل اختلاطهم بحيرانهم من اليونانيين ، غير أنهم احتفظوا بكثير من عاداتهم البدائية ، بفضل بعدهم عن البحر ، واحتفظوا على الأخص بطاعتهم لسلطان رؤسائهم مما جعلهم جنوداً ممتازين خصوصاً حين أصبح القتال علماً أكثر منه أى شىء آخر ، وبعد أن تعلم المقاتلون طرق الاقتصاد في الجهود والطاقة ما أمكنهم ، وحين أصبح الجيش أداة تدريب لبضعة آلاف من الرجال يعملون في نظام وانسجام وكانهم رجل واحد ، فلما جاء الأوان كان من الطبيعي أن ينتج المقدونيون في فرض سلطانهم على جميع بلاد اليونان بفضل بعدهم عن مواطن الهجوم عليهم ، الأمر الذى عجزت عن تحقيقه جميع المدن اليونانية الأخرى .

ولم ينقص مقدونيا العلم بالبحار كبلاد فارس لأن توسعها فيما وراء الوديان والأنهار جعلها على اتصال بشبه جزيرة خلقيدية التى تبرز كثيراً داخل البحر بما اشتملت عليه من مدن تجارية كثيرة تعتمد في حياتها على البحر ، وكلما ازدادت مقدونيا اتساعاً كلما أصبحت في موقف يهيئ لها السيطرة على هاسبونت ( الدردنيل ) .



الخريطة رقم ٨ — مقدونيا

وهكذا كانت مقدونيا في موقفها تختلف كل الاختلاف عن كل من فارس أو اسبرطة وهما القوتان اللتان قامتتا في أساسهما على اليابس وحاولتا فرض السيطرة على بلاد اليونان . حاولت الأولى على بعد الدار أن تسيطر على المدن البحرية في آسيا الصغرى ، وقبضت الثانية (اسبرطة) على هلسبونت لفترة قصيرة من الزمان رغم أنها لم تكن سيدة البحار في واقع الأمر، أما مقدونيا فتفضلهما كقوة بحرية تسود البحر ، فليست هناك جزر حول شبه جزيرة خلقيدية تصلح لكي تتخذها قاعدة لها أية قوة بحرية معادية والشاطئ كله في متناول مقدونيا .

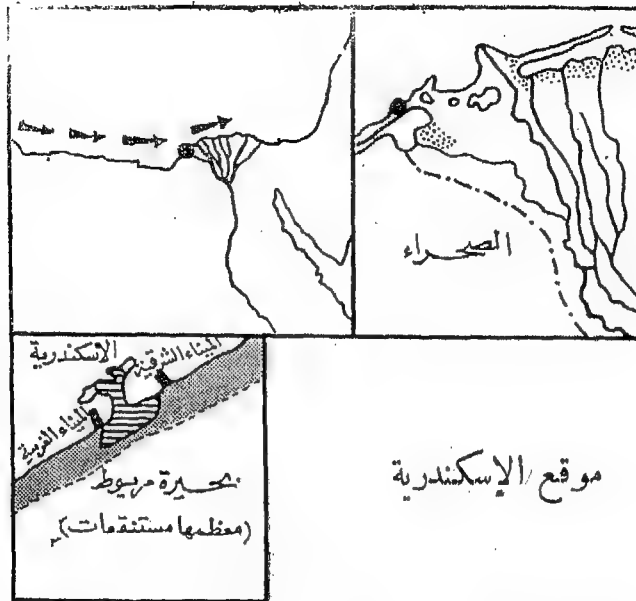
وبعد أن تعلمت هذه الجماعات من سكان الجبال درساً جديداً في الحياة لقننها إياه الظروف الجغرافية كان من المنتظر أن يسجل التاريخ أثرها في عالمها الصغير ، ومن المعقول أن تنجب دويلات يونانية أخرى رجالاً يأتون بمثل ما أتى به فيليب والإسكندر ، وما دام من المقدر لجيوش من أصل يوناني أن تحتاح العالم فمن الطبيعي أن تأتي هذه الجيوش من مقدونيا إذ تقف وراءها قارة من اليابس، ومن الطبيعي أيضاً أن تستهوى فكرة إنشاء امبراطورية برية لقلب الحكام المقدونيين، ومن الواضح أن الجيش هو أداة التوسع البري . أضف إلى ذلك أن هؤلاء المقدونيين لا يمتورهم شعور الخوف من البحر وهو الشعور الذي يتردد عادة في قلوب أهل اليابس . وهذه حقيقة يدركها كل من أوتى قسطاً من الذكاء وعلى أية حال فإن السيطرة على البحار شرط أساسي لتكوين الامبراطوريات .

وقد استغل فيليب شعور الغيرة عند اليونانيين فاتخذ منه أساساً لربط مقدونيا بكل الوحدات اليونانية المتفرقة وتمكن الإسكندر الأكبر من إيجاد التعاون بين الأسطول والجيش الأمر الذي يطبق الآن بنجاح على نطاق واسع ، ففتح الإسكندر تقريباً كل البلاد التي يمكن أن نصفها بالتحضر ، وأطلق فيض الحضارة اليونانية من عقالة على كل من آسيا الصغرى ومصر والعراق وهضبة فارس وطوران واستطاع أن يوقف شعوب الهند لفترة من الزمان، وهي التي قبعت في عقر أوطانها تبني حضارتها في بقاء شديد .

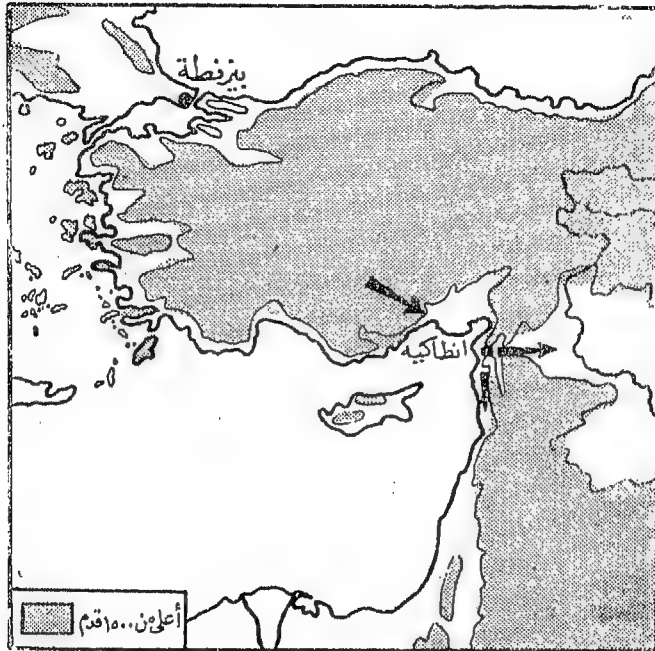
كان المثل الأعلى عند الإغريق سياسة لا حكماً وقد قامت الإمبراطورية على

أكتاف رجلين اثنين إذ ظلت مواهب الحكم غند الإغريق جامدة لم تتطور، فليس بمعجيب أن تتفرق امبراطورية الاسكندر بعد موته أجزاء وأن تخضع إلى مصير مختلف كل وحدة طبيعية جغرافية كمصر والعراق وفارس وآسيا الصغرى واليونان وتراقيا ، ومن الطبيعي أن تبتمد كل من هذه البلاد تدريجاً عن الأخرى إبان الفوضى التي أعقبت موت الاسكندر على الرغم من أن الحكم فيها قامت به أسر يونانية أو مقدونية . ومن الطبيعي أن يسود الشقاق الداخلي بلاد اليونان نفسها ، ولأن نطل طويلاً حتى تبتلعها الامبراطورية الناشئة في الغرب .

ومع ذلك ظل البحر العامل الذي يوجه التاريخ اليوناني وقد انتشرت الحضارة اليونانية في كل الحوض الشرقى للبحر المتوسط وقامت في البلاد الأجنبية مدن يونانية وانتقلت عاصمة مصر لأول مرة في تاريخها إلى جوار البحر فقد كانت العواصم القديمة كطيبة ومنفى داخل البلاد، ولكن اليونانيين اضطروا حين حكموا البلاد إلى أن يشيدوا عاصمتهم الإسكندرية حيث يتيسر لهم تلقى الأمداد من قواعدهم فيما وراء البحار في الوطن الهلاسي .



- ١ — تقع الإسكندرية في المدخل الغربى لوادى النيل — لتتجنب الرواسب التى يقذف بها النهر ثم يحملها تيار البحر إلى الشرق .
  - ٢ — كما تقع بين المستنقعات والصحراء على أول بقعة من الأرض الصلبة حيث تهبى الطبيعة ميناء صالحاً .
  - ٣ — وبُنيت على جزيرة ( اتصالات منذ ذاك الأوان بالكتلة اليابسة ) تستند في ظهرها إلى بحيرة — فهى بهذه الظروف تستمتع بموقع حصين جداً فهى في أحسن الظروف مواءمة للدفاع عنها .
- كما تدین انطاكية أيضاً بنموها وبأهميتها لوقوعها في البر بين مرتفعات الشمال والجنوب حيث يمهّد نهر الفرات الطريق إلى بابل ، وقيامها لا فضل فيه للطريق البحرى ولكنه وثيق الصلة بالطريق البرى الذى يتبعه المسافر من بزنطة فيدور حول قلب آسيا الصغرى الصحراوى الجاف حتى يصل إلى انطاكية وعندما يضطر المرء إلى أن يحسم أمره فيختار أحد الطريقين إما إلى بابل وإما إلى مصر .



الخريطة رقم ١٠ — موقع انطاكية



وعلى الرغم من أن اليونانيين عاشوا في أراضي مصر وسوريا كطبقة منفصلة: سواء كانوا تجاراً أم حكاماً إلا أنهم أوحوا بفكرة الوحدة الاجتماعية التي ربطت جميع أجزاء العالم وقتئذٍ، حتى أنه حين تدهورت الإمبراطورية الرومانية بعد قرون عدة ظلت بيزنطة عاصمة للإمبراطورية شرقية وورثة للتراث العظيم الذي خلفته. حضارة ترواده وسيطرت بيزنطة على شواطئ بحر إيجه والبحر الأسود وهذه الشواطئ بالذات كانت آخر أجزاء الإمبراطورية الشرقية في اختفائها تحت طوفان السلالات التركية .

وقد بقيت هذه المتناقضات إذ بقي اليونانيون يسكنون شواطئ بحر إيجه وحزره وكانت اليونان الحديثة أول الأمم في تحررها من الحكم التركي وقد تسبب لها اسئقلاها بعد معركة بحرية وقعت عند ثقاريتو بالقرب من شواطئها الغربية ، وعاد الحكم اليوناني مرة أخرى إلى خلقيدية وسلونيك ولكن سواحل آسيا الصغرى بسكانها اليونانيين بقيت في يد دولة تتخذ الياباس قاعدة لها<sup>(١)</sup>

## ٢ — قرطاجنة

رأينا كيف تمتعت بعض الحضارات القديمة بالسلم فنمت وازدهرت بفضل توفر الحماية لها من وجوه كثيرة ذلك أن الظروف الجغرافية وفرت لها الحماية وتحكمت في الاتجاهات التي تحتم على هذه الشعوب اتباعها في توجيه طاقتها ، أما بتحديد الإتجاهات التي يجحد فيها الإنسان أقل قدر من المقاومة وإما بتأثيرها في العقل البشري ليختار مسالك معينة ، وأن كانت في أول الأمر عسيرة غير أنها على ممر الأيام تصبح أكثر يسراً وسهولة . وعلينا الآن أن نذكر حقيقتين حتى ندرك سير التاريخ بعدئذٍ وكيف أثرت فيه العوامل الجغرافية .

أولاً : — الحقيقة الأولى هي أن الشعوب التي سكنت الأقاليم التي ذكرناها آنفا خضعت لهذه العوامل الجغرافية مدى عصور عديدة واستقرت تحت تأثيرها

---

(١) كان هذا قبل اتفاق لوزان عام ١٩٢٣ وقبل أن يتم تبادل السكان بين تركيا واليونان الذي أجرى بمقتضاه . المترجم

أخلاقهم وأذواقهم وعاداتهم وطرق معاشهم حتى أنه بمرور الزمان لما هاجرت بعض سلالاتهم إلى أراض أخرى سواء كان ذلك طوعية أم اضطراراً انتقلت معهم إلى أحفادهم خصائصهم التي اكتسبوها خلال الأجيال الطويلة ، ولا يهملنا هنا كيف تم هذا الانتقال ، ففي بعض الحالات كان الانتقال بالوراثة المباشرة ، وفي بعض الحالات الأخرى كان يتم ذلك الانتقال بالتعليم والتلقين بأسلوب ما .

ومن ذاك الوقت فصاعداً لم يعد التاريخ بالبساطة التي كان عليها في مراحله الأولى إذ اضطر الناس إلى تعديل المثل أو القيم التي لقنوها لإياهم ظروف معينة حتى يواءموا بينها وبين حياتهم في ظروفها الجديدة ، لأن هذه الظروف على الرغم من أنها تتحكم في تصرفات الإنسان إلا أن عملها قد يعتريه التعديل أو التحسين بسبب استمرار سيطرة الظروف الجغرافية القديمة على عقول تلك الجماعات وأن قوة القصور الذاتي الذي تكلمنا عنه في الفصل الأول لم ي من الأهمية بمكان في هذه الأحوال .

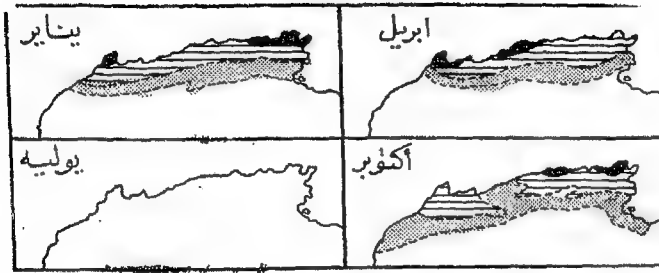
ثانياً — والحقيقة الثانية هي : ولو أن بعض الشعوب قد حبتها الطبيعة فسبقت غيرها في الإفادة على خير وجه من الطاقة أو الموارد التي وفقت إليها وأنها برزت بروزاً واضحاً وضربت المثل في كيفية اختزان الطاقة وتوفيرها إلا أن شعوباً وأجناساً أخرى كانت ترتقى فتعرف كيف تنتفع بالحياة على خير وجه وربما كان حافظها إلى ذلك الاقتداء بغيرها من الشعوب الأكثر تحضراً . وهكذا أخذ مستوى الحضارة العالمى في الارتفاع تدريجاً . ولكن الشعوب التي تنقل وتقلد غيرها دون إبداع وابتكار تقل في قيمتها ووزنها عن تلك التي تبشركم التقدم ابتكاراً ، وقبل الفترة التي نحن بصدها بلغت شعوب كثيرة درجة من الحضارة تفوق حضارة الشعب المصرى الذى سمعنا عنه أولاً . غير أن شعوباً أخرى ضربت في تقدمها بسهم أوفر ، والسيادة والسيطرة تؤلان دائماً إلى الشعوب التي تسبق غيرها في ميدان الحضارة والرقى ، ومن ثم كان تاريخ العالم

مسيراً توجهه الشعوب الأكثر تحضراً ، وإن كان المظهر الذى يتخذ ذلك الرق  
تشككه دائماً الظروف الجغرافية .

فإذا تذكرنا هاتين الحقيقتين رأينا أن المرحلة التالية هى مرحلة رق وتقدم طبيعيين .  
وأن الظروف الجغرافية تحكمت فى هذا الرقى بصفة مباشرة وغير مباشرة . فقد ذهب  
الفينيقيون إلى احترام التجارة البحرية تحت إغراء موقعهم الجغرافى ، ولما كانوا  
تجار بحر وجدوا من الملائم تأسيس المحطات المؤقتة أو الدائمة على الشواطئ التى  
كانوا يرتادونها ، يجلبون إليها السلع والبضائع أو ينقلونها منها ، وهكذا تنشرت  
مراكزهم التجارية على طول شواطئ البحر المتوسط .

وقد رأينا الإغريق يطردون منافسيهم تدريجاً من جميع المراكز التى سيطروا  
عليها فى بحر إيجه وحين سيطر الإسكندر على ذلك البحر بأجمعه باستيلائه على  
شواطئ المشرق حتى الإسكندرية كان يدق السمار الأخير فى نعش التجارة الفينيقية .  
فى شرق البحر المتوسط .

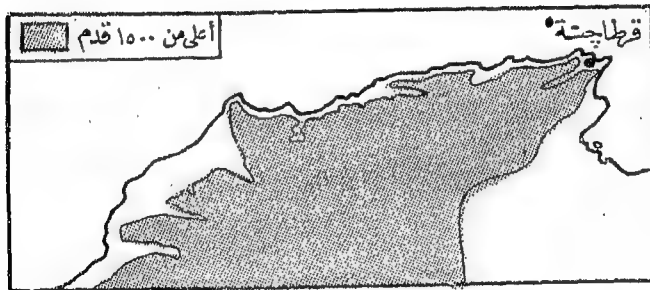
وعلى أية حال ، ظلت الجاليات التجارية المكونة من عناصر فينيقية ،  
تعيش فى غرب البحر الأبيض المتوسط فى مستعمرات أسسها الفينيقيون المهاجرون  
من فينيقيا الأصلية متخططين النفوذ الإغريق وكانوا يستزيدونها قوة المرة بعد المرة  
يزودونها بجهات من المهاجرين من شواطئ المشرق كلما استبد بهم حكاهم .  
فى وطنهم الأصلى وظلت هذه المستعمرات عهداً طويلاً وهى مؤسسات تجارية .  
فقط كذلك التى أنشأها البريطانيون فى الهند . وكانت أهمها مجموعة المدن التى  
أسست فى موقع مدينة تونس الحالية ، فإذا ألقينا نظرة على خرائط إفريقيا نرى  
فى شمالها الغربى بين الصحراء والبحر نطاقاً من الياض معرضاً خلال جزء من العام  
للرياح الغربية المطيرة ، وهو فى أساسه مرتفعات وهضاب ، وهو أشبه بجزيرة .  
تختلف عما يحيط بها — وتتميز فيه الفرصة لنوع مامن الحضارة لتنمو وتزدهر —  
وهو كتلة كبيرة فى مساحتها فلا تستطيع السيطرة عليها أقوام لم تبلغ من التنظيم  
قدراً محترماً وتسودها فى الوقت عينه عناصر الوحدة والتشابه فلا يسهل تجزئتها  
أجزاء صغيرة ، غير أن طرفها الشرقى والغربى يتميزان عن الوسط فهما يضمنان .



أقل من بوصة واحدة  
من بوصة إلى بوصتين  
من بوصتين إلى أربع بوصات  
أكثر من أربع بوصات

( الخريطة رقم ١١ سقوط الأمطار في شمال أفريقيا )

سهولا وأودية ، فأسس الفينيقيون مستعمراتهم في الطرف الشرقي ( أى الطرف التونسي ) وهو الأقرب إلى وطنهم ، وكان سكان هذه المستعمرات على ود وصداقة مع الوطنيين من أصحاب البلاد الأصليين ولم ينظروا إلى أنفسهم كأنهم أصحاب الأراضي فقد كانوا تجاراً ، وتجار بحر على وجه الخصوص ، واعتبروا امتلاك الأراضي أمراً غير ضرورى . ولم يكن عزوفهم عن امتلاك الأراضي مزجعه احترام أى وضع قائم ولكنه كان نتيجة لتأثرهم بالظروف الجغرافية التي تعرضوا لها في أوطانهم الأولى في سابق الأيام ، هذا على الرغم من انقطاعهم عن التعرض لها وقتئذ ، وحفزهم إلى اتخاذ هذا الموقف وجود الطريق في وطنهم الأصلي على حين لم يوجد طريق برى مماثل له في غرب البحر الأبيض المتوسط .



الخريطة رقم ١٢

شمال أفريقيا — التضاريس — جزيرة الأمازيغ [ المنطقة العربية ]

وبالطبع كان للظروف الجغرافية القائمة أثرها الخاص أيضا فهم في وطنهم الأصلي كانوا محصورين امبراطوريتين عظيمتين مقرها النيل ودجلة والفرات وقد ألفوا رؤية غيرهم يحكمون الأراضي وهم يتاجرون برأ وبحراً ، ولكنهم في بيئتهم الجديدة كانوا الشعب الممتاز ولم يكن هناك سادة ينظرون إليهم على الأقل كمنظراء لهم ذلك أن الوطنيين في تلك الأراضي التي استقروا بها والذين تاجروا معهم لم يمارسوا أى سلطة فانهكست هذه الظروف الجغرافية على التاريخ فلم يقتصر الأمر على أن تقوم مدينة واحدة بالزعامة كما حدث لصور وصيدا في فينيقية بل قامت قرطاجة بأكثر من ذلك فأقامت إمبراطورية وأخضعت لسلطانها مدناً أخرى ومدت حكمها المباشر على منطقة نونس الحديثة بتمامها .

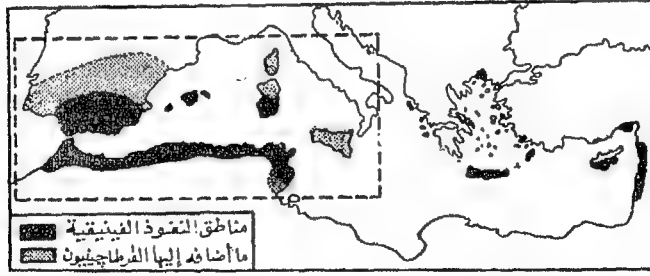


( الخريطة رقم ١٣ ) — تقع جزيرة الأعراب بين البحر والصحراء

وكانت النتيجة عيناها فيما وراء البحار فقد استسلم الفينيقيون في شرق البحر الأبيض للاغريق دون مقاومة تذكر بينما رفضت قرطاجة وقد استتقر أهلها آمنين على أراضيهم وسيطروا على مساحات من اليابس بالقدر الذي أرادوا ، وأقاموا امبراطورية بحرية تعتمد على التجارة وتشمل كل غرب البحر المتوسط . وخضعت للحكم القرطاجي كل شواطئ شمال افريقية وغرب صقلية وكورسيكا وجنوب أسبانيا ، ولم يجروا تاجر أجنبي أن يخطر فيما بينها من بحار .

كما حددت العوامل الجغرافية نوع الحكم أيضاً ، فإن الساحل المتصل وانعدام الجزائر الصغيرة في غرب البحر المتوسط كل ذلك أدى إلى انعدام روح الاستقلال الفردي التي كانت مصدر قوة الحصار الهلينية ومصدر ضعفها في الوقت ذاته ، وعندما قامت امبراطورية قرطاجة كانت أكثر ثباتاً واستقراراً ، وقد

كسبت قرطاجة بفضل موقعها المنعزل ميزة عدم التعرض للهجوم من البر ، كما يؤيد الواقع ذلك إذ اقتصرَت الهجمات التي شنت عليها من البحار فقط .



( الخريطة رقم ١٤ ) — الأراضي الفينيقية والقرطاجينية

وفي موقع قرطاجة نقطة ضعف أيضاً ، فإن الشعوب التي دخلت تحت لوائها لم تبلغ مثل درجتها من المدنية بسبب الظروف الجغرافية في غالب الأحيان ، ونظر الفينيقيون إلى الأهالي كشعوب متأخرة وحكموهم كما حكمت أشور رعايا فتوحاتها بيد من حديد . وكلما تمت امبراطورية قرطاجة اختفى شعور الود والصداقة بين الوطنيين والتجار واستبدل به شعور الحقد والكراهية للغزاة ، ولما قدر لقرطاجة أن تواجه امبراطورية أخرى تقوم على أسس أخرى في الحكم وتتبع أساليب أخرى في الانتفاع بالطاقة البشرية في سبيل تحقيق غاية أسمى عجزت قرطاجة عن مواجهتها وسقطت لأن القرطاجيين كانوا أسوأ موقفاً ، على الرغم من تشابه الظروف الأخرى . تقريباً ، وعلى الرغم من أن الطرفين كانا قد استعملا بكاء أساطيلهما وجيوشها ، ذلك أن جيوش الفينيقيين كانت مكونة من رجال لم يتبادلوا الود مع ساداتهم وكانوا ينصرون قرطاجة طالما أجزلت لهم العطاء ، وهذه كانت تجمع أرباحها التجارية لكي تصرف منها في هذه الأوجه ، وأموالها هي عبارة عن الطاقة التي اقتصادها القرطاجيون ، فلما اختفت تلك الأرباح التجارية فقدوا السيطرة على البحر ، وخانهم جنودهم الجشعون ، إذ لم يتردد في جوانحهم قط شعور بالوطنية ، وحين فقدت قرطاجة سيادتها البحرية سقطت نهائياً واختفى الفينيقيون من المسرح .

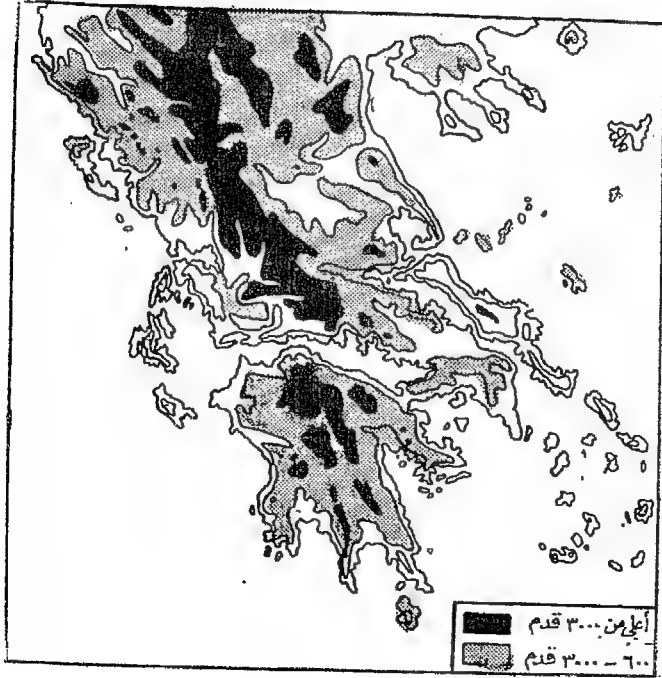
## الفصل السادس

### التناقض بين البر والبحر وبين المرتفعات والمنخفضات

#### روما

إن المرحلة التالية من تاريخ العالم أشد تعقيداً في أسبابها من أية مرحلة سبقت لذا دراستها ، فليس الأمر فيها قاصراً على ملاحظة مجموعة واحدة من الظروف الجغرافية ، ولكنها سلسلة من المجموعات تتابعت وكانت كل منها في دورها أبرز أثراً من الأخريات . أضف إلى هذا أنه يجب أن نضع نصب أعيننا دائماً الآثار المتجمعة التي تخلفت عن حوادث التاريخ السابقة . وربما لم يدرك الرومان تلك العبر عن دراية وبصيرة ، ولكنهم أخذوا بها واتبعوها خاصة وأنه قد تجمعت في الإمبراطورية الرومانية جميع الإكتشافات الكبرى التي سبقتها إليها شعوب مجيدة في تاريخها ، وتضافرت هذه الإكتشافات لدرجة هيأت لروما الفرصة في أن تترك طابعها على التاريخ في مجراه بشكل لم تدانها فيه أمة أخرى . فلولا الإمبراطوريات السابقة لم تصل روما إلى ما وصلت إليه — وهكذا أثرت العوامل الجغرافية بصفة غير مباشرة ، لأن هذه الإمبراطوريات القديمة إنما تدين بأصل وجودها إلى ظروف جغرافية إلى حد كبير .

كما يرجع إلى العوامل الجغرافية الفضل في إمكان الجمع بين هذه الدروس التي استخلصتها روما عن هذه الإمبراطوريات السابقة . لقد رأينا إلى الآن ثلاث إمبراطوريات قامت تعتمد كل الإعتماد على اليابس وهي مصر وبلاد الكلدان وأشور . وقد وفرت الظروف الطبيعية الحماية لاثنتين منها وتعلمت الأخيرة كيف تحمي نفسها بنفسها ثم رأينا تتابع ثلاثة شعوب دانت لها سيادة البحر وهم الفنيقيون والإغريق والقرطاجيون فعاش الشعب الأول دون حماية طبيعية وأحتمى الثاني بالبحر واعتمد الشعب الثالث على نفسه في الدفاع عن وطنه . ثم أدرك رجل واحد قيمة البر والبحر لفترة قصيرة وأخضع العالم بفضل بصيرته النافذة . وعبقريته الفذة . فليس بعجيب إذن أن يحدث التطور التالي في أرض تمتد كثيراً داخل البحر وتعرض كثيراً لتأثير قوى مختلفة كان التاريخ من صنعها .



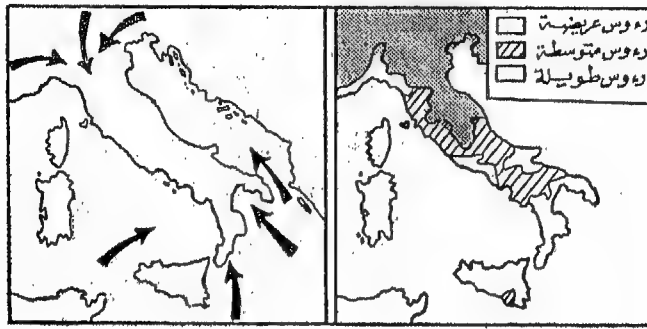
الخريطة رقم ١٥  
بلاد اليونان الحديثة  
التضاريس  
تظهر الخريطة العمود الفقري والشعاب المتفرعة عنه

ومن الطبيعي أن يقوم في إيطاليا مركز عظيم جديد للحضارة فإن إيطاليا بحكم تضاريسها وموقعها الجغرافي متصلة بالحضارات القديمة ومنفصلة عنها في نفس الوقت ، ولكن قليلا من التعمق في دراسة تفاصيل تكوينها يظهر لنا بوضوح إلى أى حد كان نمو هذا المركز طبيعياً ، ولوقارنا إيطاليا باليونان لظهر الفرق واضحاً بينهما . في بلاد اليونان نرى شبكة كاملة من سلاسل الجبال ترتفع فتصبح العمود الفقري في وسط شبه الجزيرة ، ثم تنحدر انحداراً فجائياً نحو البحر فتقسم البلاد إلى جزائر وأشباه جزائر صغيرة في مساحاتها وإلى سهول ساحلية تقع على رؤوس الخلجان . أما في إيطاليا فنجد كتلة المرتفعات تنحني محدودبه إلى الجنوب الغربي وتأخذ في الارتفاع شرقاً ، أطوارها الخارجى يواجه بحراً ضخماً ممتداً إلى الشمال الغربي وقد امتلأ برواسب الصخور المتفتتة من الجبال فارتفع تدريجياً حتى أصبح سهلاً



مستويًا هو سهل لباردنيا ، وقد خلت البلاد إلا من القليل من الجزائر وأشباه  
الجزر فيما عدا حيث تنقطع أوصال تلك المرتفعات عند اختفائها تحت سطح البحر  
في الجنوب ، وليس هناك من حاجز يقف عقبة كؤودا في سبيل المواصلات أو  
يصلح لأن يكون خطا للدفاع . هذا على الرغم من وجود التلال داخل المنخفضات  
الجبال : فنجد المرافئ تكثرت في الجنوب ويقل عددها في الشمال ، ومن ثم وجد  
المهاجرون من وراء البحار من الأسباب ما يحفزهم إلى الهجرة إلى جنوب إيطاليا  
مستخذين منها موطنًا لهم ومقامًا ، كما وجد أهل كتلة الياپس من سكان القارة  
ما يغريهم إلى الهجرة جنوبًا ، ومن الطبيعي أن تتقابل الجماعتان في نقطة ما من  
الإقليم وأن تقوم حضارة حيث تتقابلان وأن يترك شعلتها الجانبان في وقت معًا .  
وهذا هو ما حدث تمامًا ، فنجد اليوم سكان الشواطئ في شمال إيطاليا من سلالات  
الأقوام التي كانت تسكن إيطاليا من قبل التاريخ وقد اضطرت إلى استيطان تلك  
البقاع تحت ضغط الجماعات المهاجرة من الكتلة الياپسة بينما الوضع عكس ذلك  
في الجنوب ، إذ نجد أقدم السكان هم الذين يقيمون في داخل البلاد .

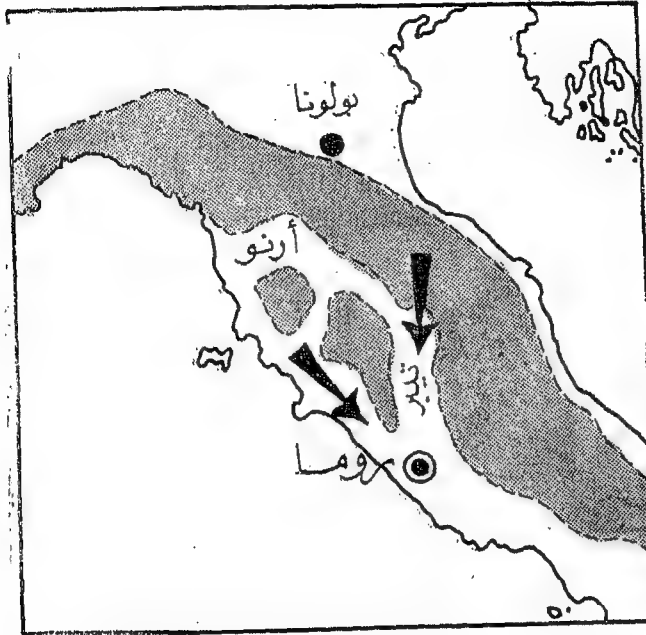
ولم يكن التقاء هذه القوى في روما بالذات صدفة واعتباطًا ، وكذلك لم تكن  
نشأتها كقلب للحضارة الجديدة أمرًا عارضًا حتى تبرز غيرها من المدن الصغيرة أو من  
الحكومات الأخرى ، ونظرة واحدة إلى الخريطة ترينا أن جبال الأبنين الأثرورية



الخريطة رقم ١٦

المدخل الشمالي من ناحية الياپس والمداخل الجنوبي من ناحية البحر وواضح أيضاً  
أن سكان الجنوب هم في مجملهم طوال الرؤوس وسكان الشمال عريضو الرؤوس كما يتضح أن  
طوال الرؤوس على الشواطئ وعراض الرؤوس في الداخل . وهكذا يبدو أن عراض الرؤوس  
جاءوا من الياپس بينما جاء طوال الرؤوس من البحر ..

تقل في ارتفاعها عن جبال الإبنين الليجورية إلى الشمال الغربي منها ، كما تنخفض عن كتلة المرتفعات العريضة الواقعة بين روما والبحر الأدرياتي في الشرق . إلا أن كتلة المرتفعات الجنوبية تنحدر انحداراً فجائياً نحو البحر لدرجة تضع العقبات في طريق المواصلات على طول السواحل الشرقية ويزيدها وعورة وجود المجارى المائية الكثيرة التي يتحتم على المسافر عبورها في انتقاله من الشمال إلى الجنوب . ولهذا اضطر المهاجرون عند قدومهم برأ من البقاع الواقعة في شمال شبه جزيرة إيطاليا إلى عبور جبال الأبنين الأتروية متتبعين أودية الأنهار الموجودة فيما بين بولونيا ومتاوروس Metaurus وإذا ما عبروها وجدوا طريقهم ممهداً على طول وادي نهر التير الممتد على الحافة الغربية لجبال الإبنين الوسطى . ولو فرض أنهم عبروا بعيداً عن التير أى إلى الشمال منه كان عليهم أن يتابعوا سيرهم بحذاء وادي الأرنو الأعلى ثم على طول السهل الساحلى الممتد بين الأرنو والتير . وعلى كل حال فما لاريب فيه أنهم واصلون إلى روما أو إلى موقع يقرب منها بين البحر والمرتفعات . ومن



الخريطة رقم ١٧ — موقع روما

يبين الرسم كيف أن روما تقع حيث تقابل الطرق الآتية من الشمال وحيث يستطيع الجنوبيون الوقوف للدفاع عن أنفسهم .

المؤكد أنهم سيتصلون هنا بالمؤثرات البحرية الصادرة عن أشباه الجزر والموانئ الواقعة في جنوب إيطاليا . وهكذا تضافرت الظروف الجغرافية فأدت إلى اجتماع الأسباب التي مهدت للحضارات البحرية والقوى البرية أن تتقابل في إيطاليا ، وفي مكان ما في وسطها ، وعلى التحديد في موقع روما أو بالقرب منها .

وليس من الضرورة أن ندرس الأمر أكثر تفصيلاً ، ولكن هناك نقطتين توضحان تاريخ الامبراطورية الرومانية توضيحاً ما ، ومن الخير أن نلخصها . فإذا كانت لمنطقة لاتيم (Latium) ميزة ما على باقي إيطاليا فقد امتازت روما على هذه المنطقة بأجمعها ، ذلك أنها تقف على نهر التيبر في موقع يمكنها من الدفاع عن نفسها . وإن تعرضت دائماً للهجوم ، ومن الطبيعي أن يكون أهلها على أهبة الدفاع دائماً حتى . وإن تطلب الأمر منهم تضحيات ، ومهاجمات الآلام التي لا قوها على أيدي العصابات المغيرة في تجوالها فقد في لا تبلغ تضحياتهم مبلغ تضحيات سكان المدن الجنوبية ، ولما كان أهل روما أشد قوة من جيرانهم آلت الزعامة لمدينتهم في منطقة لاتيم . وعلى الرغم من أن تاريخ روما الأول يشوبه الغموض والاضطراب إلا أن هذا الغموض وذلك الاضطراب هما نتيجة متوقعة للظروف المحيطة بها ، ومهما يكن من شيء فالحقيقة الوحيدة الموثوق بها هي أن نشأة المدينة ترجع إلى استقرار جماعات من قبائل مختلفة ، استوطنت بعض التلال التي تشرف على السهل المحيط بروما وأدركت تلك الجماعات أن خير وسيلة للدفاع عن نفسها هو الاعتماد على قوة سواعد أفرادها . وهكذا أدرك أهل روما ما لم يدركه أهل أثينا من أن الإنسان ليس مستقلاً بنفسه استقلالاً مطلقاً . وإن عليه أن يضع موضع الاعتبار أفكار الآخرين وتصرفاتهم . ومن الجائز ألا يكون الرومانيون كأفراد قد أدركوا هذا المعنى ، ولكنهم عملوا به كجماعات فوجدوا بالخبرة والتجربة أن من صالحهم ومن خيرهم أن ينحوا هذا النحو .

ولما بدأت مدينة روما تمد سلطانها ونفوذها على الجماعات المجاورة كانت أوفر قدرة على إخضاعها ، ولكنها أقل ميلاً إلى التحكم فيها تحكماً لا مبرر له ، فقد كانت روما المدينة الوحيدة على وجه التحديد في وسط إيطاليا جنوبى نهر التيبر وهي تفضل أثينا في موقعها ، علاوة على أن السكان المحيطين بروما كانوا كأهلها تماماً على

مسط من المدنية ، وبالتالي أصعب مراسا في إخضاعهم من الشعوب المتأخرة الأخرى ، التي كانت على اتصال بالقرطاجيين ، وحين تم إخضاعهم عاملهم الرومانيون كمنظراهم لهم ومواطنيهم . وقد يبدو الرومانيون الأوائل في أعيننا قساة غلاظ القلوب ، ولكن قسوتهم في غالب الأحيان تقل عن قسوة غيرهم ، ولم تكن حبا في القسوة لذاتها ، أى بقصد إيقاع الأذى بالآخرين ، ولكنها كانت قسوة وضعت خططها وحسبت نتائجها من قبل مستهدفة الحكم الصالح وترى في غايتها البعيدة إلى توفير الجهود والطاقة ، وهكذا كانت الحكومة الرومانية أكثر ثباتا واستقرارا من حكومات المدن اليونانية بل ومن حكومة قرطاجة أيضا .



لقد رأينا كيف تضافرت الظاهرات الكبرى مع الظروف المحلية على أن تجعل من روما مقراً لحضارة من طراز أسمى من أية حضارة ظهرت على الكرة الأرضية . حتى ذلك الحين وعملت على ازدهارها فيها . ولولا هذه الظاهرات الكبرى لما كان للعوامل المحلية أثر كبير ، وبازدياد توسع السيادة الرومانية أخذت مجموعة أخرى من العوامل تظهر أهميتها المتزايدة . فإن لتنوع التضاريس في إيطاليا تنوعاً كبيراً واختلاف أحوالها أثرا في تاريخها . وقد رأينا كيف تختلف إيطاليا عن شبه جزيرة اليونان كما يبدو تباينها مع أشباه الجزر الأخرى كاسبانيا والدانمارك . فاسبانيا في غالبها مرتفعات ، والدانمارك في غالبها منخفضات وسهول ، بينما تحوى إيطاليا المرتفعات والمنخفضات بنسبة متساوية تقريبا . واختلفت نظرة أهل إيطاليا إلى الحياة باختلاف الظروف الجغرافية التي ترجع إلى البحر أو البر . ولذا كان يقطن شواطئها الجنوبية جماعات من الإغريق ظلت على اتصالها بالبحر لدرجة استحققت تسميتها « باليونان العظمى » وكان سكان هذه المدائن تجاراً يعيشون في مجبوحة من الرخاء . بينما قامت في الأراضي الشالية مدنية لم يلعب البحر فيها إلا دوراً بسيطاً ، وتعرضت لمؤثرات ليس للبحر فيها شأن يذكر . أضف إلى هذا أنه كان من بين سكان إيطاليا الجماعات الرعوية التي تعيش في أعلى الجبال والجماعات الزراعية التي تعيش في السهول ونشأت بين النوعين اختلافات كبرى : فإلى الشمال من

روما سكنت الجماعات الأمبرية « Umbrian والأتروبرية ، وإلى الجنوب منها مدن تارنم وتورى ، وبالقرب من سهول وادى التير الأدنى وقفت تلال ساين Sabine وأراضى سامنيام Samnium المرتفعة قليلا : فلما اتسعت رقعة الدولة الرومانية كانت مشا كلها من طبيعة مشاكل مدينة روما ذاتها ، فطبق أهلها ما اكتسبوه من خبرة فى المدينة فكانوا أقدر على خلق نظام للحكم ، مما مكنتهم من الإستفادة على قدر الأمكان من جهود الجماعات المتنوعة التى اعترفت بسيادة روما وسيطرتها .

وهكذا ولدت الظروف الجغرافية آراء وأفكاراً جديدة عن الحكم والحكومة وتركت هذه أثرها فى التاريخ بطرق ثلاث :

فقد قامت الإمبراطورية الآشورية على فكرة الغزو بقصد الحصول على الجزية التى تجبى من البلاد المفتوحة ، ولكن الأمر اختلف فى روما عن الأزمنة القديمة . حينما كانت تقاليد الحكم فى دور التكوين ، وكانت الفكرة العامة فى روما صبيغ الوحدات المختلفة بالصيغة الرومانية وجعلها كلا واحداً وإن اعترفت روما . بالاختلافات فيما بينها فى نفس الوقت ، وسارت عملية الصبيغ أو الإدماج بطيئة فى بادئ الأمر ، ولكنها فى إتقان وكمال فيما بعد ، حتى خلقت فى وسط إيطاليا نواة صلبة تشعر شعوراً رومانياً خالصاً ، وبسبب هذه الحقيقة أطلق اسم المدينة على الدولة الحاكمة . ولم تك قط متاعب الحكومة الرومانية راجعة إلى الثورات على روما . نفسها ، ولكنها كانت بسبب محاولات ترمى إلى اكتساب قسط أوفر من مزايا الحكم والنفوذ . ولقد كانت روما شيئاً جديداً مختلفاً أشد الاختلاف عن قرطاجة أو آشور .

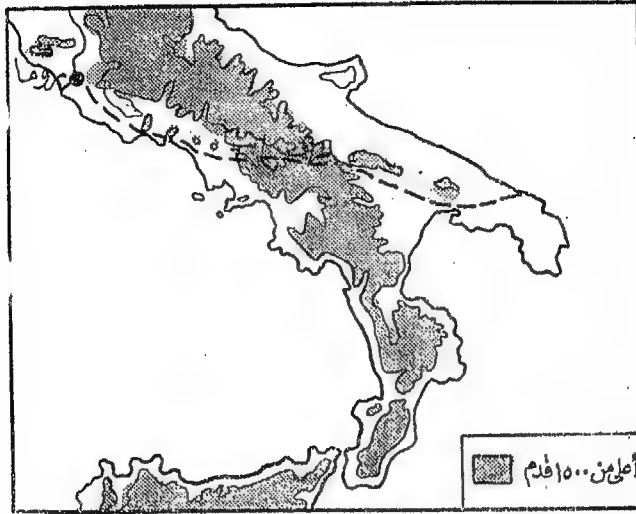
ولم تفتقر روما إلى الوحدة والإنسجام فى العمل كما افتقر إليها الإغريق أو الفينيقيون . ولم تك روما مجرد مدينة كصور أو صيدا ، زعيمة بين نظيراتها ، ولا كأتينا مدينة تزعم عصبية تربطها مصالح مشتركة ، بل كانت أكثر من هذا . وكان على أهالى روما عبء الدفاع عن أنفسهم ، فليس لمدينتهم حماية ما ، ولو أن موقعها يلائم الدفاع عنها كل الملاءمة . فهناك إذن فارق شديد ، ذلك أن إحدى الظاهرتين تبعث على شدة المراس والأخرى لاتبعث عليها كما رأينا فى مصر وبابل .

وقد اعترفت الحكومة الرومانية بضرورة احترام خصائص الأفراد ومميزاتهم. ولكن هذا الاعتراف لا يعنى تطبعهم بالجبن والتخث وإشاعة الرغبة فى التخلّى عن الواجبات التى يفرضها عليهم الموقع الجغرافى ، فكان على روما أن تتولى مقام الزعامة والسيادة . ولم يقتصر هدفهم على تحقيق غاية مشتركة وهدف واحد بين المواطنين ، بل تعداها إلى قيام حكومة مركزية موحدة .

كما يرجع اكتشاف الرومان وسائل توفير الجهود البشرية إلى نفس هذا المسلك العقلى . ويتفق هذا مع ما نراه من أن الطرق المعبدة المشيدة تشييداً أنشئت لأول مرة على أيدي الرومانيين لتخدم أغراضاً حربية أو تجارية . ويتفق هذا مع ما نراه من أن أبليس كلوديس<sup>(١)</sup> الرومانى الأصل كان أول من شيد طريقاً معبداً من روما عبر جبال ألبا ليصل إلى السهول المترامية وراءها لأن اقتصاد الطاقة الذى يهيئه وجود حكومة مركزية يقتضى أن يكون المركز سهل الاتصال بالأقاليم المجاورة . والطرق هى أسهل وسائل المواصلات ما دام الانتقال محدوداً باليابس . غير أنه فى ذلك الزمان الغابرين لم تكن الطرق المعبدة معروفة فى العالم كان الناس فى بلاد السككدان ومصر مضطرين إلى الانتقال من دولة إلى أخرى متتبعين الدروب المختلفة ، وكان الإنسان والحيوان يقطعان المسافات مشياً على الأقدام ، ويحمل الإنسان ما يحتاج إلى حمله على ظهور الدواب . ثم اكتشف الفينيقيون أن الانتقال على الماء أسير جهداً من الانتقال على اليابس وأن الشراع والمجداف يأتیان بأفضل النتائج نظير مجهود محدود . أما الرومانيون فقد توصلوا إلى اكتشاف من نوع آخر . ذلك أنهم أدركوا أن الإنسان والحيوان أسهل حركة على سطح صلب مستو ناعم منهما على سطح لين خشن غير مستو ، وأن العجلات يمكن أن تأتى بفائدة أكبر لو أحسن استخدامها ، فيستطيع الحيوان أن يجزأه لا تزيد فى وزنها عما يستطيع حمله . ولا شك أن كلا من الطرق المعبدة والعجلات كان معروفاً من قبل ، ولكن فضل استخدامها على نطاق واسع يعود إلى الرومانيين . والظروف الجغرافية مسئولة عن ذلك مباشرة أو غير مباشرة . فإن سهول مصر وكلميا الفيضية الرسوبية لا تؤائم تشييد الطرق

إلا قليلا ، وتنقصها الأحجار وعلى الأخص في كلديا ، مما يجعل تشييد الطرق أمراً يكاد يكون مستحيلا . وليس هناك ما يحفز الإنسان إلى إنشاء طرق معبدة لأن حركة الانتقال في أحسن ظروفها كانت قليلة ضعيفة ، وإذا ما أنشئت الطرق فإن رمال الصحراء سرعان ما تسفها وتمحوها . وأهم من هذا كله أنه لم يكن هناك تركيز في الجهود يجدر معه إنشاء الطرق . ولم تكن أشور بأحسن حالا . أما الفينيقيون سواء كانوا في فينيقيا ذاتها أم في قرطاجة فإنهم حصروا نظرتهم إلى البحر باعتباره طريقاً لهم بدرجة لم تترك حيزاً في عقولهم للتفكير في إنشاء طرق على اليابس . أما اليونان فإن افتقارها إلى الوحدة الجغرافية والسياسية كان سبباً كافياً لعزوف اليونانيين عن إنشاء الطرق — لقد أرادوا أن يقصموا روابطهم بجيرانهم لا أن يزيدوها توثيقاً — أما في روما فهناك إغراء يدفع إلى إنشاء الطرق يقوم في أساسه على حقيقة واحدة هي انعدام وسائل الاتصال الطبيعية كالصحراء أو البحر . وكان وجود الأحجار عاملاً جغرافياً مساعداً لتحقيق هذا الغرض .

( الخريطة رقم ١٨ )



طريق آيسا

يتبع طريق آيسا أقل الجهات لارتفاعاً في عبوره سلاسل الجبال .

وقد وفقت روما إلى توحيد شبه جزيرة إيطاليا بأجمعها تحت سلطانها بعد عام ٣٠٠ ق . م . بقليل ثم واصلت توسيع حدود امبراطوريتها لتشمل البلاد والبحار المجاورة . وظلت تتقدم على هدى الخطوط التي اتبعتها من قبل والتي مكنتها من مواصلة التقدم . والواقع أن تاريخ السلطان الروماني يرجع إلى تفاعل عاملين جغرافيين هما اليايس والماء ، أو البر والبحر ، فقد نمت القوة الرومانية على الرغم من اتخاذها روما مركزاً لها ، ومن ثم كانت آثارها أكثر تعقيداً .

**أورو —** لقد اكتسب إيطاليا أهمية جديدة بالنسبة لظروفها الخاصة بغض النظر عن ظروف المدينة التي قامت على نهر التيبر ، لأن القوة الرومانية أصبحت شيئاً أكبر من مدينة روما بعد أن تحكمت في شبه الجزيرة بأجمعها . فإن مدينة روما تدن بمعظم الفضل في وجودها ونشأتها إلى تقابل مؤثرات البحر ومؤثرات البر في الموقع الذي قامت فيه . ولما أصبحت الدولة الرومانية مرادفة ومطابقة لشبه جزيرة إيطاليا بأجمعها اكتسبت هذه المؤثرات نفسها أهمية جديدة ، إذ أصبحت الدولة الرومانية ذات علاقة مباشرة مع الشمال ومع الجنوب ، فاتصلت من الجنوب ببحر فيه من الجزر ما يصلح لأن يتخذ العدو قواعد له في هجومه ، وفي الشمال أصبحت ذات علاقات مباشرة بأراض ، المهجوم منها ميسور لو قام به أعداء في أعداد وفيرة ، يشنون على إيطاليا هجماتهم من أوطانهم الواسعة فيما وراءها ، حتى وإن كانوا أقل مدنية وتحضراً . فاضطرت روما كما اضطرت فارس من قبل إلى إعداد أسطول تنزع به سيادة البحر ممن يحتفظون بقواعد معادية قريبة من شواطئ إيطاليا . وفي الوقت عينه كان من الطبيعي أيضاً أن يتجه التوسع نحو اليايس ، وكان هذا الاتجاه جديداً في التاريخ .

**ثانياً —** ومع ذلك ظلت الظروف المحلية بحكم القصور الذاتي لها أكبر الأثر في التاريخ الروماني ، لأن روما ما زالت مركز الحكومة ، ولتقاليد أهلها من الاعتبار ما يودى بغيرها .

( ١ ) من ذلك أن البحر لم يسكن غرباً على أهل روما كما كان بالنسبة للملك



فارس ، لأنه يحف بشواطئ لا تبعد عنها أكثر من بضعة أميال — كما أن المدن الجنوبية التي خضعت لسيطرة روما كانت تعتمد اعتماداً كلياً على البحر . بل وأكثر من ذلك فإن الأساطير الرومانية تشير إلى نوع من الحكم القديم فرضته روما على المدن الواقعة على شواطئ منطقة لاتييم — ولولا هذه الألفة العريقة المستمرة بين الرومانيين والبحر لتملكننا الشك في أن يكون لوجود الجزر وأشباه الجزر الجنوبية هذا الأثر السريع وبالكيفية التي تم بها .

(ب) ومن جهة أخرى تختلف إيطاليا عن اليونان . فأن روما هي المركز الذي اعترفت له باقي إيطاليا بالسيادة والزعامة . ولم يتيسر لروما موقف كموقف مقدونيا — فليس الحكم فيها كله من صنع رجل واحد أو رجلين اثنين فقط — وكثيراً ما تطلب الأمر استدعاء عدد من المواطنين ليقودوا الجيوش أو ليتولوا مقاليد الأمور في الدولة ومن الطبيعي ألا يكون جميعهم جديرين بهذه المهمات . ولكن حقيقة واحدة تبقى واضحة ، وهي أن الأكفاء من الرجال القادرين على مواجهة الأزمات قينون بالظهور عند ما تتحرج الأمور . ولمثل هذه الأسباب كانت أداة القتال الرومانية أكفأ نسبياً من الأداة المقدونية .

وكانت حكومات الأقاليم الرومانية المفتوحة أكثر ثباتاً واستقراراً . ويرجع الفضل في استمرار هذه الأحوال في واقع الأمر إلى القصور الذاتي التاريخي وإلى اتجاه الظروف القائمة نحو الاستقرار والثبات .

(ح) أن المثل العليا التي وضعها أهل روما نصب أعينهم في أيامهم الأولى أثرت في تاريخهم المتأخر فيما بعد . فلم تك روما كقرطاجة هدفها التجارة بل كانت غايتها استمرار فرض السلطان الروماني على الأراضي التي تنتج المحاصيل الأساسية لمقومات الحياة .

هذه هي نتائج الظروف الجغرافية التي أثرت في تاريخ الدولة الرومانية فأدت إلى توسعها توسعاً عظيماً .

هذه العوامل جميعاً يجب أن نذكرها . فقد إنغمست روما على التوالي في عداوة مع قرطاجة ومع اليونان بسبب إرتباطها بالجزر وأشباه الجزر الجنوبية . وكانت

جيوشها متفوقة على جيوش مقدونيا وقرطاجة ، وأثبتت أساطيلها آخر الأمر تفوقها على الأساطيل التي عبثت ضدها ، وما وافى عام ١٤٦ ق . م . إلا وقد دمرت قرطاجة تدميراً وأجبرت اليونان على الاعتراف بسيادة روما . ولما لم تعد اليونان وقرطاجة دولاً بحرية مستقلة خلا البحر ممن ينافس روما على سيادته ، وأخذت البلاد المطلة على البحر المتوسط تسقط صرعى في يد القوة التي آلت إليها سيادة البحر . ومع ذلك فلم يحاول الرومان احترام التجارة إلا قليلاً ، وظلت جزيرة رودس بموقعها الجغرافي بين اليونانيين والفينيقيين المقر الرئيسي للبحاليات التجارية لعهود طويلة ، ولم تحاول روما أن تسحق هؤلاء التجار ، فهم ليسوا منافسيها في شيء . غير أن الفوضى كانت تشيع إذا ما غابت السيطرة الكاملة على البحر . وفي بادئ الأمر لم تكن الفوضى محسوسة ، لأن تدمير الحملات العسكرية بطريق البحر كان سهلاً ميسوراً ، ولأن قرصان البحر الذين ظهروا من قبل كانوا يتجنبون مهما جتها . ولم يجد الرومان ضرورة لتطهير البحار منهم إلا حينما بدأوا في جلب أغذيتهم ومؤناتهم من بلاد لا تخضع لهم . وعندئذ اتخذ هؤلاء القرصان من الجزر الشرقية مخابىء وفواعد لهم ، وقد نمت القرصنة بسبب عزوف الرومان عن معالجتها في أول الأمر على الرغم من توفر القوة البحرية لديهم . ويبدو هذا واضحاً في أن القضاء عليهم لم يستغرق من القائد بومبي سوى فترة قصيرة لم تزد على أربعين يوماً ، فقد كانت السيطرة على البحار في مقدور روما لو أرادت . ومن الواضح أن قوتها البحرية كانت أوسع نطاقاً مما كانت عليه قوة اليونان أو قرطاجة . وظل البحر المتوسط طيلة قرون عديدة وهو بحر روماني خالص . حقاً دارت فيه معارك مشهودة ولكنها كانت بين متنافسين على السلطان في الدولة لا بين روما وأعداء لها من الخارج .

وهكذا أصبح الاتصال سهلاً بين الممتلكات الرومانية ، وعلى الأخص بطريق البحر وأن لم يكن ميسراً في جميع الأحوال . وأكثر من هذا فإن ممتلكات روما فيما وراء البحار لم تكن مجرد مساحات ضيقة من الشواطئ ، ولكنها أقاليم واسعة برمتها يقتضى حكمها حفظ الاتصال بينها وبين الحكومة المركزية . وهكذا كان اليابس عاملاً

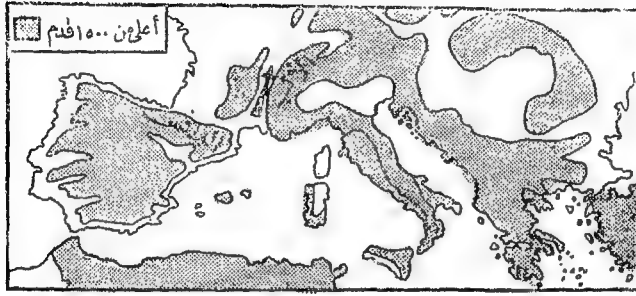
فعلا في التاريخ الروماني شأنه كشأن البحر سواء بسواء

\*\*\*

ويحق علينا أن نزن عاملا جغرافيا آخر عظيم الأثر . فالى جانب التباين العظيم بين اليابس والماء كان هناك تناقض آخر بين المرتفعات والمنخفضات ويلاحظ أن التباين هنا ليس تبايناً بين تلال ووديان ولكنه بين مرتفعات ومنخفضات . فهناك مناطق قد لا يرتفع مستوى الأرض فيها عن سطح البحر إلا قليلا ، ومناطق يرتفع مستواها نحو نصف الميل أو الميل الواحد ، بل قد يبلغ ارتفاع بعضها المليون . وليس هذا البعد شيئاً يؤبه له لو أنه كان بعداً أفقياً . ولكنه ذو أهمية كبرى لأنه ارتفاع رأسى وهذا يؤدي إلى النتيجة الراهنة : وهي أن الحياة تختلف اختلافاً كلياً على سفوح المرتفعات ، فهي أقل هواء وأقل حرارة وأقل رطوبة ، وظروف الحياة في الأقاليم المنخفضة تظل دائماً مختلفة عن ظروف الحياة في المرتفعات وتؤثر حتى في أجسام البشر . فلا يستطيع الزنوج مثلاً الحياة طويلا على ارتفاع ثلاثة أرباع الميل . وربما كانت العلة في ذلك اختلاف مقادير الهواء وهذا مظهر واحد من مظاهر التباين . كما تختلف ظروف إنتاج النباتات وظروف اختزان الطاقة في عمومها . فليسكان المرتفعات مهن وعادات وغذاء ومثل عليا وقيم حيوية وطرائق في التفكير تختلف عما لدى سكان السهول . فإن وجد شعبان يمشان في أراضى منخفضة على جانبي مرتفعات فلا تفصلهما عن بعضهما الجبال فقط بل يفصل بينهما شعب يختلف اختلافاً بيناً عن كل منهما في كل منحنى من مناحى الحياة . وهكذا يصبح كل شعب من الشعوب الثلاثة وحدة قائمة بذاتها . فجبال الألب مثلاً ترتفع في أعلى قممها إلى ثلاثة أميال وفي متوسطها إلى الميل الواحد ، وتبلغ نحو ١٢٠ ميلا في عرضها . وهذا ينطوى في معناه على حقيقة عظيمة الأهمية ، فليست الألب سلسلة من الجبال بقدر ما هي منطقة من المرتفعات ، وليست سويسرة الحديثة والتيروول وسافوى سوى ولايات جبلية واقعة على الألب وأهلها يختلفون منذ الأبد عن الشعوب التي تعيش على كلا الجانبين . والآن وقد رأينا إيطاليا مكونة من مناطق مرتفعة وأخرى منخفضة يتضح

أن الاختلاف بين الشعوب التي حكمتها روما يرجع إلى التناقض القائم بين المرتفعات والمنخفضات كما يرجع إلى تناقض البر والبحر . وهكذا استطاع هذا العنصر من البشر الذي ربي في نفسه صفات الحكم على نطاق ضيق في إيطاليا - استطاع انجاب طائفة من الحكام لمختلف البلاد المفتوحة التي دانت له حتى أن الامبراطورية الرومانية في أواخر أيامها ضمت وحدات كثيرة كان أهلها يتبادلون بطبيعتهم العداوة والبغضاء . بيد أنها اتخذت في سبيل توحيد هذه الشعوب نفس الوسائل التي اتبعتها في توحيد إيطاليا . ولما كان البحر لا يصلح طريقاً مؤدياً إلى كل مكان ، شيدت الطرق في جميع جهات جنوب أوروبا وغربها حتى أضحت مضرب الأمثال فقول « أن جميع الطرق تؤدي إلى روما » . ويلاحظ مرة أخرى الاتجاه نحو المركزية الحكومية ، لأن جميع الطرق كانت تؤدي إلى روما وتتفرع منها في نفس الوقت ، ولم تقاطع إلا في مواضع قليلة مما قلل فرص اتصال مختلف الوحدات بعضها ببعض كلما أمكن ، فندرت أو انعدمت فرص تضامنها وتأزرها في ثوراتها ضد السلطة الحاكمة . وشيدت هذه الطرق بالطبع في أماكن تقل فيها مقاومة الطبيعة ، أي أنها اتبعت الحد الأدنى للمقاومة . وأنشئت حيث اقتضى إنشاؤها أقل طاقة ممكنة . ولهذا السبب كان لتوزيع المرتفعات والسهول في المناطق المحيطة بإيطاليا أهمية بالغة .

وأن نظرة واحدة نلقها على خريطة أوروبا كفيلة بإظهار أن نطاقاً من المرتفعات يمتد على طول المسافة الواقعة بين غرب البحر الأسود إلى وادي الرون ولا يمر فيها إلى السهول المترامية وراءها إلا بالصعود فيها إلى ارتفاعات عالية . فأسبانيا هضبة عالية ، كما تقع في الشجرة بين جبال الالب والبرانس كتلة جبلية منعزلة بحافتها المنحدرة نحو الجنوب ولا يمكنها لا تملق هذا المدخل تماماً فترك وادي الرون ليكون منفذاً إلى الأراضي الممتدة فيما وراء ذلك النطاق وهو الطريق البري الوحيد من البحر المتوسط إلى الشمال ، ولما كانت مرتفعات الالب مسكونة بقبائل معادية لروما فليس بغريب إذن أن يحرص الرومانيون أشد الحرص على الاحتفاظ بهذا المدخل الذي هو في متناول أيديهم عن طريق البحر وأن تخضع منطقة فرنسا الحديثة بأجمعها إلى الحكم الروماني .



الخريطة رقم ١٩ — مدخل وادي الرون  
وادي الرون هام جداً لأنه النفذ الوحيد السهل  
من البحر الأبيض المتوسط إلى البلاد الشمالية

ثم امتدت الامبراطورية شمالاً بشرق وشرقاً حتى أنه في بدء التاريخ الميلادي أضافت روما إليها كل البقاع الواقعة إلى الغرب وإلى الجنوب من نهري الراين والدانوب . هذا إلى جانب ممتلكاتها التي كانت تحف بالبحر المتوسط والتي تمكنت بفضل سيادتها البحرية من فرض سلطانها عليها كما اعترفت بسلطانها آسيا الصغرى والأراضي الممتدة إلى الغرب من نهري دجلة والفرات . هذه هي الامبراطورية الرومانية وقد هيا لها السلم الروماني<sup>(١)</sup> الذي سادها ثلاثة قرون أو أربعة الفرس لنمو حضارتها وازدهارها في مساحات مترامية متنوعة ليس بينها انسجام طبيعي سوى تلك الروابط التي نتجت عن خضوعها إلى القوة الرومانية والإدارة الرومانية فاستطاع أهلها أن ينعموا بالسلم والأمان وأن يفيدوا من المزايا التي هيأتها لهم طبيعة أوطانهم دون أن يضيّعوا الجهود في الحروب .

وقد قامت الامبراطورية على سلطان تركّز في روما ، ومعظم الفضل في تماسكها وانسجامها راجع إلى العبقرية العسكرية والإدارية التي امتاز بها الشعب الروماني والتي هي وأيدة عوامل جغرافية — ولما كان المنصر الروماني يمتاز بتلك العبقرية التي لم تقتصر

(١) Pax Romana كلمة السلم الروماني أصبحت تعني السلم المؤسّس على القوة .

على فرد دون فرد لم تكن الامبراطورية الرومانية فترة عابرة في التاريخ مثل الامبراطورية المقدونية — بل استمرت قوية واسعة النفوذ حتى القرن الخامس للميلاد . ثم استمرت تحت اسم الامبراطورية البيزنطية حتى سقطت بسقوط القسطنطينية في عام ١٤٥٣ م . ثم استمرت إما دون مسمى حتى جاء اسكندر جديد ( نابليون ) طوح بالتقاليد القديمة في أوروبا ، وفي هذا تبدو قوة القصور الدائرية فبقدر ما كانت روما في قوتها بقدر ما عاشت إلى ذلك الزمن . ثم انحدرت الامبراطورية الرومانية إلى نهايتها شأنها شأن غيرها من الامبراطوريات التي فرضت حكمها على العالم ، ولكنها اقتربت من نهايتها تدريجياً كما نمت تدريجياً لأن العوامل الجغرافية العظمى بدأت تؤثر تأثيرها على نحو آخر .

١ — ذلك أن البحر المتوسط ضيق على طوله . ومن ثم كانت الامبراطورية الرومانية وهي المكونة من أراضى تحف بهذا البحر ؛ طويلة ضيقة تصل في طولها إلى ضعف عرضها تقريباً كما أن الصحراء في الجنوب لم تترك بينها وبين البحر إلا مريطاً ضيقاً في أكثر الأحوال . فلو قصرنا النظر على الأراضى الواقعة شمال البحر المتوسط باعتبار أنها هي الجزء الأهم من الامبراطورية لوضح لنا عدم التناسب الكبير بين طولها وعرضها ومن ثم كان هناك اتجاه طبيعي نحو الانقسام إلى قسمين إذا ما بدأت السلطة التي تجمع بينهما في الوهن .

( ب ) كما أن الطرف الشرق للبحر المتوسط يختلف عن الطرف الغربى منه لمجرد بعده عن المحيط ولأنه يحوى واحات في الصحراء كمصر والعراق ولأنه يشمل اليونان بجزرها ، ومن ثم اختلف الشرق عن الغرب من نواحي كبيرة يسهل التعرف عليها . وظل الاختلاف بينهما قائماً على مدى الأيام بل لقد كان الاختلاف قائماً حتى قبل أن تتحول الجمهورية الرومانية إلى الامبراطورية الرومانية وبقى مستمراً طوال التاريخ وليس من قبيل الصدفة العارضة أن تجرى مواقع اكتيوم وليبانتو ونفارينو وأن تدور رحاها في غربى بلاد اليونان حيث تتقابل قوى غرب البحر المتوسط مع قوى الشرق منه .

لقد جمعت الامبراطورية الرومانية الجزأين معا ولكنهما انفصلا حين وهنت وهنت قوة الروابط التي تجمعهما .

(ح) ثم أن الصحراء وقفت إلى الجنوب من البحر المتوسط ولم يُخش مع وجودها هجوم من تلك الناحية ووقف المحيط إلى الغرب وإلى الشمال الغربى من الامبراطورية فلم يشن من هذه النواحي هجمات مافى العصور الغابرة .

غير أنه امتدت إلى الشرق والشمال الشرق الكتلة اليابسة العظمى المكونة من قارتى أوروبا وآسيا ، ولم تحكم منها روما إلا أطرافها ومن هذه الأنحاء يستطيع الأعداء المجيء — وقد أتوا فعلا — وكان طبيعياً أن يقتفل مركز الحكومة إلى الشرق قريباً من الجهة التي تتطلب الحماية والدفاع حتى يسهل الكفاح عنها . غير أن مدينة روما ظلت على ما هي عليه ، لأنها عريقة في ماضيها وتاريخها ولم تنهقر إلى مدينة من مدن الأقاليم أو الأرياف ، فلما أنشأ قسطنطين عاصمته الجديدة أصبح في داخل الامبراطورية مدينتان امبراطوريتان ، إحداهما في الشرق والأخرى في الغرب فأضافتا دافعا جديداً إلى الميل الطبيعي للانقسام .

(د) وأخيراً لما كانت روما تدين بفضل وجودها إلى مقدرة أهلها على الدفاع عن أنفسهم ، ولما كانوا قد بمدوا عن مواطن الخطر ولم يتعرضوا لهجوم يشنه عليهم أعداؤهم من خارج الامبراطورية فقد التأخرون منهم تدريجياً مقدرتهم على الدفاع ومقدرتهم على الحكم — فلما تعرضوا للألوان من الهجوم أخيراً تجاوزت الجحافل الهمجية البربرية عن المدينة الفتية الحديثة ( القسطنطينية ) ، وسقطت روما المدينة القديمة العتيقة تحت أقدامهم .

وهكذا انقسمت الامبراطورية الرومانية تدريجياً إلى قسمين أخذ الانسجام بينهما يقل شيئاً فشيئاً فظل القسم الشرق يحتفظ بالتقاليد القديمة بعد التعديل والتحويل مدى ألف عام ولكن القسم الغربى يسقط روما نفسها اعوزته الحكومة وانفصل عن جسم الامبراطورية الشرقية . ثم تطور إلى وحدات منمزلة وفي غالب الأحيان متعادية .

ثم أخذت العوامل الجغرافية توجه التاريخ بطريقة تختلف عما وجهته اليه من قبل لأن ميدان تحكمها أضفى مختلفا .

لقد ظلت إيطاليا بعدئذ ألمعوبة في يد التاريخ قرونا عديدة وهي تقف بين قوات البر والبحر ولا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا — فهي تارة في يد هذه السلطة وتارة في يد الأخرى خضعت للإمبراطورية الشرقية حينما من الدهر كانت تستعبد لها فيه كلها أو بعضها كلما استطاع رجال البحر أن يتخذوا منها موطئا ومرفئا وتفقدوها كلما استطاع رجال البر أن يتخذوا منها مقرا — وقد تمزقت أوصالها بين القوط واللبارد والتوتون في الشمال وبين الوندال والعرب والبيزنطيين في الجنوب ، وليس عجبا بعدئذ ألا يكون لإيطاليا تاريخ موحد ، هذا بالإضافة إلى مياها الطبيعية إلى الانقسام ، الأمر الذي يفرى به اختلاف المرتفعات عن المنخفضات ذلك الاختلاف الذي كان مصدر قوتها الأولى حتى أنه في الستين سنة الأخيرة ظلت العداوة المستمرة بين الأجزاء التي تتكون منها إيطاليا الحديثة أكبر ظاهرة تلفت النظر في تاريخها .

كما أن تناقض المرتفعات والمنخفضات التي تسكون منها الامبراطورية ذاتها لم يعد عاملا مسيطرا على التاريخ وموجها له فقد ظلت الوحدات على ماهي عليه واقتصرت تاريخ المصور الوسطى على تسجيل تكوين هذه الوحدات وإعادة تكوينها ثم إعادة ترتيبها وهي تكافح في سبيل شئ من النوازن والاستقرار في أوروبا الحديثة . فقد تسببت الامبراطورية الرومانية مباشرة أو غير مباشرة في خلق عدد كبير من الوحدات الجغرافية وولدت هذه الوحدات في عالمنا وكل منها على درجة من المدنية ولكنها تختلف الواحدة عن الأخرى ، كما أن تاريخ المصور الوسطى بما فيه من خلط وشوش هو في أساسه تاريخ المحاولات التي بذلتها في سبيل استقرارها . هذه الوحدات الصغيرة المختلفة والممثلة حقا ومنافسة .

وقد تصادف أن كانت وحدات أوروبا الغربية صغيرة وعديدة لأن المنخفضات والمرتفعات موزعة على مساحات صغيرة نسبيا وسكانها يتبادلون الغيرة والبغضاء .



وينبغي ألا ننسى أهمية عامل القصور الذاتي في التاريخ . ولما كان التاريخ يعالج أموراً فكرية تنبت في عقول البشر فإن للاراء قوة تصنع التاريخ فقد خلقت الظروف من روما إمبراطورية ، وتوصل الرومان إلى حقيقة كبرى وهي أن الحكومة المركزية تؤدي إلى توفير الجهود وظلت فكرة الامبراطورية ووسائل الحكم فيها حية في عقول الناس كأنها المثل الأعلى وكان أثرها أكبر مساعد على ربط الوحدات المتفرقة ربطاً وثيقاً . ثم جاءت حقبة أخرى أضفت على هذه الفكرة أهمية جديدة ، ذلك أن شهرة روما ومكانتها القديمة بالإضافة إلى ذبوع الفكرة الرومانية ونأصلها ، كل ذلك وضع في يد أسقف روما قوة لا نظير لها ، فلما أهملت السلطة الزمنية ظلت السلطة الدينية تنمو وتزداد مادامت لا تجد ما يمرضها من السلطات الزمنية ، وبما سلطان رجال الدين في الاقاليم في الوقت الذي أنهارت فيه السلطة الزمنية انهياراً تاماً ، وقد كانت السلطان مرتبطين ببعضهما أوثق الارتباط . وهكذا انتشرت المسيحية في القسم الغربي من الامبراطورية الرومانية أكثر مما انتشرت في القسم الشرقي منها وكانت المسيحية فيها ذات مذهب خاص روماني في سدها ولحمته .

هذا الزواج بين النظامين المتحالفين — الامبراطورية والكنيسة — ولد قائماً على الاختلاف الطبيعي بين الوحدات المنوعة وهو الملة الأولى والمستول الأول عن تاريخ المصور التي أعقبت سقوط روما .

---

## الفصل السابع

### السهول والقبائل الغازية

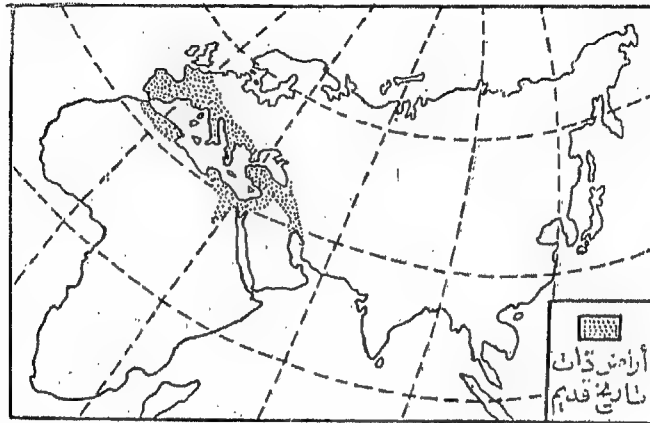
إن التاريخ الذى تتبعنا مجراه حتى الآن يرجع فى سماته العامة إلى تحكم عاملين، جغرافيين فى تصرف الإنسان، يضبطان اتجاهاته أو يحفزانه إلى اتخاذ مواقف معينة. وهما البحر والصحراء، وقد كفل كل منهما الحماية لمجتمعات بدائية فى تنظيمها، لم تكن ترتبط ببعضها فى بادئ الأمر بروابط وثيقة. وقد ألحنا إلى عوامل أخرى لم يتمد فعلها تخفيف أثر هذين العاملين العظميين، وترجع نشأة الحضارات الأولى إلى هاتين الحقيقتين أى وجود مناطق خصبة تحيط بها الصحراوات ووجود جزر تحيط بها البحار.

ثم فامت مجتمعات أخرى تتصل بهذه المجتمعات المتقدمة وتدين بوجودها إلى الظروف الجغرافية ذاتها بصفة مباشرة إلى حد ما، وكانت بحكم جيرانها. للمجتمعات الأصلية قريبة من البحر والصحراء.

نعم لم تنشأ هذه المجتمعات فى المناطق الاستوائية حيث الحافز إلى التقدم قليل. الأثر، ولم تنشأ فى الشمال ذى المناخ البارد حيث قست صعوبات المناخ على الإنسان. الأول فلم يستطع بمفرده أن يصيب مجاحاً يذكر فى التغلب عليها، بل نشأت فى غالبيتها على طول شواطئ البحر المتوسط، فى الأجزاء التى استطاع الإنسان سكناها غير أنه فامت مجتمعات متقدمة أخرى إلى الشرق من البحر المتوسط ولعبت الإمبراطورية الرومانية دورها بعد ذلك إذ عملت على وصل غرب أوروبا وصلاً مباشراً بالمدن القائمة وقتئذ فى شرق البحر المتوسط، وهكذا لم يكن بد من أن تصبح أوروبا وعلى الأخص جنوبها هى البلاد التى لتاريخ شعوبها أهمية عظيمة للعالم، وما ذلك إلا لأنه امتد هنا وهنا فقط نطاق من الصحراء ونطاق من البحار تبعثرت فيه الجزر وقسمته أشباه الجزر.

ولقد فرضنا أن توزيع اليايس والماء والبرودة والحرارة والمطر والجفاف كان كما هو اليوم — وظل ثابتاً طوال العصور التاريخية ، هذا لو قصدنا بكلمة العصور التاريخية تلك العهود التي نعرف تاريخها غير أن هناك من الأسباب الوجيهة ما يجعلنا نفترض أن هذه الظواهر لم تكن ثابتة منذ ظهور الإنسان على الأرض ، ولما كانت الأحداث التاريخية تؤثر دائماً فيما يتلوها كما رأينا من تاريخ القرطاجيين والرومان أصبح من الواضح أن الظروف الجغرافية فيما قبل التاريخ ولا بد وأنها تركت أثرها في العصور التاريخية التي تلتها ولا بد أنها وجهت التاريخ وتحسكت في مجراه على الرغم من أنها قد زالت من الوجود وحلت محلها ظروف أخرى أحدث منها عهداً — وقد يحسن بنا أن نلاحظ كيف أن أقاليم معينة نعرفها اليوم حق المعرفة خضعت لمؤثرات تختلف عما يسودها اليوم .

أما اليوم نرى . حسب الظروف القائمة . أوروبا تتصل اتصالاً مباشراً بكل من آسيا وأفريقيا ، وأن لهذا الاتصال أهمية عظيمة ، ونرى أوروبا أوثق اتصالاً بالقرتين من أى منهما بالأخرى ، ولو ألقينا نظرة على نموذج للكرة الأرضية لتبين لنا أن أوروبا وآسيا وأفريقيا تكون متوازيات للأضلاع عظيم المساحة ، وأن أوروبا تقع بين جزء كبير من آسيا وجزء كبير من أفريقيا ، كما يظهر لنا أن الأراضي التي نعيش بتاريخها الآن



الخريطة رقم ٢٠  
متوازي أضلاع العالم القديم  
تقع البلاد ذات التاريخ القديم على محور الكتلة اليابسة الكبرى وبين آسيا وأفريقيا

تقع على محور يمتد بين زاويتين عبر الكتلة اليابسة الكبرى التي تتكون من آسيا وأوروبا وأفريقيا .

وهكذا تصبح أوروبا — وهي مهد المدنية القديمة — بسبب موقعها بالنسبة إلى توزيع اليابس — معرضة لمؤثرات تصل إليها من اتجاهين من الجنوب أى من أفريقيا ومن الشرق أى من آسيا .

وفي الوقت الحاضر كما كان الحال طوال العصور التاريخية — يقف البحر المتوسط والصحراء حاجزين بين أوروبا وأفريقيا ، وليس البحر المتوسط في واقع الأمر ، هو الحاجز المنيع ، ولكنها الصحراء هي التي تفصل الجنس الأبيض عن الجنس الزنجي . وحتى الآن يستغرق عبورها من الإنسان نحو ثلاثة أشهر في أحسن الظروف المواتية ، ونستطيع أن ندرك مدى كفايتها كعامل للحماية لو أننا لاحظنا الحقيقة التالية : فإلى الجنوب من الصحراء تجوب القبائل المتنقلة طول القارة وعرضها ، كذلك لم يخل ميل مربع واحد في أوراسيا لم يردد أصداً خطى الجحافل الغازية ، تغزو البلاد أبناً حلت وتبحث عن مواطن جديدة لها ، ولكن الصحراء بوقوفها عقبة كؤوداً لم تخترقها جماعات ذات خطر سواء أ كان ذلك حرباً أم سلباً . هذا باستثناء أفراد قليلين جاءوا مسالين فتمكنوا من عبور الصحراء .

وهكذا لعبت أفريقيا دوراً بسيطاً في تاريخ أوروبا خلال العصور التاريخية ، ذلك أن الشعوب الجنوبية الأفريقية وهي بطبيعتها متأخرة في مدنيّتها بسبب افتقارها إلى الحافز الذي يدفعها إلى الرق عجزت عن عبور الحاجز العظيم واقتصرت تأثيرها على الدور الذي كان في استطاعتها فلم تقض على المدنيّات التي نمت وازدهرت في الشمال منها ، وهكذا كفلت الصحراء الحماية من العدوان لا لمصر وحدها ، ولكن لكل البلاد التي نشأت فيها مدنيّات البحر المتوسط مثل فينيقيّا واليونان وقرطاجة وروما .

ولكن الأمر كان على عكس ذلك في علاقة أوروبا بآسيا كما سنرى ذلك . مفصلاً فيما بعد وخصوصاً في الأزمنة التاريخية إذ لم يقف بينهما حاجز عسير العبور ، فكان أهل آسيا قادرين على أن يقدفوا بأنفسهم إلى قلب أوروبا . يتجشم شئ من

الصعاب وأن تطلب ذلك منهم بعض المهارة والبراعة . وعلى كل حال فالوقوف لم يكن كذلك في عصور ما قبل التاريخ بمد ظهور الانسان على الأرض وكانت الظروف الجغرافية تختلف بعض الاختلاف عنها اليوم ، لأن شمال أوربا كان فيما يبدو وقتئذ أشد ردا عنه في الوقت الحاضر كما أن بريطانيا وإيرلندا والنرويج والسويد وشمال أوربا وروسيا وألمانيا وجميع البحار التي تفصل بينها كانت تزرع جميعا طوال عصور مديده تحت غطاء كثيف من الجليد وامتد إلى الشرق وإلى الجنوب من هذا الغطاء الجليدى بحر عظيم لا تزال بعض بقاياه ممثلة في بحر الأرال وبحر قزوين واختلقت الأحوال الجغرافية في الجنوب ( أى فى أفريقيا ) عما نهمده فيها اليوم ، فلم تكن الصحراء الكبرى جرداء كما هى الآن ، ولكنها كانت أرضا رطبة مناخا ، وهناك من الشواهد ما يؤكد أن البحر المتوسط لم يكن حاجزا منيعا بين أوربا وأفريقيا وأن الاتصال بينهما كان ميسورا ، ومن هذا يتبين أن أوربا كانت أكثر اتصالا مباشرا بأفريقيا وأقل اتصالا مباشرا بآسيا عما هى اليوم وأن شمال أوربا كان أقل صلاحية لسكنى الشعوب الأولى عنه في العصور المتأخرة .

وعلى كل حال فما لا شك فيه أن جماعات تنتمى إلى جنس واحد هاجرت في عصور ما قبل التاريخ من الأقاليم المدارية الأفريقية وأتجهت شمالا إلى أوربا — ولكنها لم تتصل بالجماعات الآسيوية — وهى تقل في عددها كلما اتجهنا شمالا أو كلما ازداد المناخ قسوة .

وبالطبع تنقصنا معامات مسجلة عن هذه العهود فلمس لها تاريخ يمكن الرجوع اليه ، كما خلا المسرح من العوامل التى تحفز الانسان فى تفكيره وأعماله إلى التقدم فأنعدم بذلك أى احتمال للرقى والواقع أنه طالما لم توجد صحراء لم يولد تاريخ جدير بالذكر .

ولما بدأت الأحوال المناخية الحديثة تظهر فى الوجود أخذت جماعات هذا الجنس المتجانسة قليلا أو كثيرا والتي كانت تسكن أجزاء من أوربا ومن أفريقيا — أخذت تنقسم عن بعضها وفصلت بينها ثلاثة حواجز كبرى وربما لم تكن هذه الحواجز الثلاثة إلا أعراض لظاهرة واحدة .

أولها — أن الطريق الآتى من آسيا أصبح مفتوحاً إلى حد ما إلى أوروبا ، وجاء إليها جنس بشرى من سكان المرتفعات استقر في مرتفعات آسيا الصغرى والبلقان والألب وهكذا دق أسفين من سكان المرتفعات بين سكان السهول على كلا الجانبين .

وثانيها — أن البحر المتوسط أصبح حاجزاً أكثر مناعة عما كان من قبل .  
وثالثها — أن الأحوال الصحراوية في الصحراء الكبرى أصبحت أكثر وضوحاً وبذا قامت أعظم العقبات .

\* \* \*

هذه الحواجز الثلاثة قسمت السكان الأصليين إلى أربع مجموعات ، تعرضت كل منها لمناخ مختلف ولمؤثرات جغرافية مختلفة فتأقلمت في بيئاتها وتميزت بخصائصها شيئاً فشيئاً .

( ١ ) فإلى الشمال سكنت الأقوام النوردية وكانت قليلة في عددها في بادية الأمر ولم تسود بشرتها بسبب عدم التعرض لكثير من أشعة الشمس .

( ب ) وإلى الجنوب من مرتفعات الألب سكن جنس في أقاليم امتازت بسماؤها الصافية ونباتاتها الطبيعية الجميلة فنمت فيه حاسة الذوق الفنى وتقدير الجمال في الأجسام والألوان .

( ح ) وظل البربر محصورين بين البحر المتوسط والصحراء الكبرى ولم تسمح لهم ظروفهم القاسية بالنمو والتطور كما سكن المصريون مصر وقد تأثروا بطبيعة النظام الحولى الذى يتبعه مورد هم المائى .

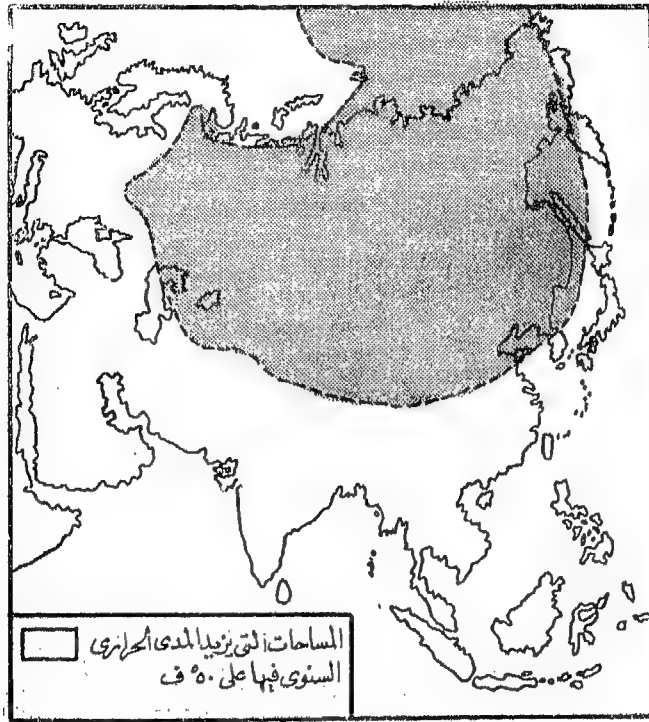
( د ) وإلى الجنوب من الصحراء الكبرى قطن الزنوج وقد اسودت بشرتهم واستطاعوا مقاومة الشمس الحارقة .

وإننا سنتكلم فيما بعد عن الأراضى الفسيحة الممتدة جنوب الصحراء الكبرى وقد تكلمنا فيما سبق عن الأراضى الممتدة بين الصحراء الكبرى

وجبال الألب ، ولنلق الآن بنظرة على الأراضي الممتدة شمال جبال الألب .  
لم يقتصر أثر تغيير الأحوال المناخية أن أصبحت أفريقيا الجنوبية كتلة منفصلة  
من اليابس بل أن أوروبا ذاتها قد انفتحت على مصاريحها المؤثرات الآسيوية .

\*\*\*

أن خرائط أوراسيا تظهر لنا أن نطاقاً عظيماً من المرتفعات يحيط بحافاتهما  
من الشرق والجنوب والغرب وأن سهلاً عظيماً مثلث الشكل تقريباً يقع فيما بين  
هذه المرتفعات معزولاً عن البحر من جميع الاتجاهات إلا في الشمال المتجمد وأنه  
يرتفع قليلاً عن مستوى ٦٠٠ قدم فوق سطح البحر ، وهو أعظم سهول الدنيا ،  
ولقد لاحظنا الفروق الأساسية بين المرتفعات والسهول فيما سبق — كما رأينا أن  
تنوع الظواهر في أوروبا الغربية كان له أثره في التاريخ — ويجب أن نلاحظ أن  
الأحوال الجغرافية في آسيا هي بعينها في أوروبا غير أنها أكثر شمولاً لمساحات  
شاسعة ، فالسهل بعيد عن البحر وليس الأمر مقصوراً على البعد ، بل أن نطاقاً من



الخريطة رقم ٢١  
البلاد المتطرفة في درجة حرارتها

المرتفعات يتدخل بينهما وهكذا تفقد الرياح الآتية من البحار جزءاً عظيماً من رطوبتها قبل أن تصل إلى السهول ومن ثم يصبح المطر نادراً في سقوطه على المنطقة بأكملها . فلم تنم فيها إلا الحشائش وأصبحت إقليمياً رعوياً ، وللبعد عن البحر أثر آخر ، ذلك أن الهواء لقلة الرطوبة فيه لا يخفف من حرارة الشمس حين تضيء ولا يحتفظ بحرارتها حين تختفي وهكذا عم المنطقة جميعاً نوع واحد من المناخ المتطرف .

ولقد أثرت هذه الأحوال في سكان السهول بخمس طرق مختلفة ؟

١ — إذ أوجدت في السكان حافزاً يدفعهم إلى التقدم بسبب تتابع الفصول بانتظام فالصيف القاطن يمضي ليحل محله شتاء زمهرير — واقتضى الأمر أن عاش في السهل أناس ليسوا على درجة من الوحشية كأولئك الذين يسكنون السهول الاستوائية ، بل كانوا شجعاناً ممتلئاً الأجسام وهبتهم الطبيعة قسماً من قوة الاحتمال البدنية .



الخريطة رقم ٢٢ — الأراضي الباردة



٢ — ولما كانت الأراضي في تلك السهول هي مساحات واسعة منبسطة خالية من وسائل الدفاع الطبيعية كالتي كفلتها الصحراء لمصر أو كالتى وهبتها المستنقعات لبابل — كما انها خلت من المواضع التى تصلح حصونا طبيعية مثل الموقع الذى إستغله أهل روما فى الدفاع عن مدينتهم، لذلك تحتم على هؤلاء أن يعتمدوا على أنفسهم فى الدفاع عنها ، كذلك الأحوال المناخية قد تقسو لدرجة تشر الهلاك بين الأفراد والعائلات لو أنهم تركوا لأنفسهم ، وتطلب منهم الدفاع عن أنفسهم وضد الأحوال المناخية نوعاً من التنظيم ومن ثم عاشت هذه الأقوام وهى تعيش إلى اليوم تتبع فى حياتها نظام القبيلة .

٣ — ولما كانت الحشائش هى النبات الرئيسى ، وهى فى معظم الأقاليم الانتاج النباتى الوحيد كان من الضرورى ألا تعتمد القبائل فى حياتها مباشرة على ما تنتجه الأرض فقط ، وتطلب الأمر أن تكون الشعوب قادرة على استغلال الموارد على أية حال بطريقة أكثر تركيزاً — أى أنهم اضطروا إلى أن يعيشوا على الحيوان وما ينتجه — وهكذا كانت هذه الأقوام — وما زالت — رعاة أغنام وماشية وراكبي خيول يعيشون على اللحوم والألبان والزبد .

٤ — فإذا ما أصبح المرعى فقيراً فى مكان ما وأتلفته الرمال التى تذررها الرياح القوية اضطرت القبائل إلى الهجرة من مرعى إلى آخر — رغم صعوبة الانتقال الطبيعية على الأرض بسبب احتكاك وسائل المواصلات بالأرض فى غالب الأحيان — إلا أن هذه الصعوبة لم تقف أمام قوة أعظم منها شأنها ، ألا وهى قوة الحرص على الحياة . ولما لم تتمزقة على غيرها فى وسائل الدفاع لم توجد المغريات التى تبحث على البقاء فى مكان واحد بل وجدت الأسباب التى تدفع القبائل دائماً إلى الحركة والهجرة التى تخلق فيهم روح الرعى والتجول وأصبحت هذه الصفات جزءاً من كياناتهم .

٥ — أما وقد حرموا كل حماية لهم فى العصور الأولى عدداً حمايتهم لأنفسهم فأنهم اضطروا إلى القضاء على أعدائهم الذين ينتصرون عليهم قضاء مبرما وذلك حتى يأمنوا الحياة لأنفسهم لو قلب الدهر لهم ظهر المجن . وهكذا كانوا جنساً اشتهر بقسوته بين البشر .

وسواء أكان سكان هذه السهول الوسطى مدفوعين في ترحلهم بالجفاف المتزايد أم أنهم هاجروا بدافع قلقهم الطبيعي فحسب ، فإنهم ظلوا طوال العصور التاريخية ، مبعث القلق بين الشعوب التي استقرت نوعاً ما واستوطنت جوانب هذا السهل ، فكانت تظهر جموعهم من وقت إلى آخر المرة بعد المرة من وراء الحافة الجبلية وهي تنشر الخراب والتدمير لا الانشاء والتعمير . ولقد رأينا أن الامبراطورية الآشورية قد أصابها الضعف نتيجة لغزوات القبائل الشمالية وسرعان ما تقوضت دعائمها ، وربما كان خطر هذه القبائل أسبق من أشور عهداً ، فقد تجمع لدينا من الآثار ما يدل على تقدم هؤلاء الرعاة من وراء الجبال نحو البلاد الواقعة إلى الشرق من مراعيهم ، كما خضعت المدينة الأغريقية القديمة فترة ما لغزوات جاءت إليها من الشمال . ومهما كان الأمر فما لا شك فيه أننا كلما أنعمنا النظر في الوقائع التاريخية الثابتة في العالم وجدنا أثر هذه القبائل المهاجرة أكثر وضوحاً وظهوراً .

الآن وقد عرفنا أن أوروبا كانت منعزلة إلى حد كبير عن آسيا أبان عصور ما قبل التاريخ ولم يكن السهل سهلاً واحداً بل سهلين منفصلين ومن المشكوك فيه أن تعرضت الجماعات في كلا السهلين في هذه العصور السحيقة لأحوال متماثلة ولدت فيهم الصفات التي تميز بها سكان المراعى — وهم ينتمون إلى أجناس مختلفة — فكان الغزاة المتدفقون من السهول على نوعين ، سكان شمال أوروبا وهم من ذوى اللحى ويسمون بالتيتوتون ، وسكان آسيا وهم مرد الذقون ويعرفون بإسم التتار والمغول ، هذا الاختلاف في الجنس صاحبه اختلافات أخرى مردها أسباب وعوامل جغرافية — فإن شعوب النصف الأوربي من السهل — كما حدث فعلاً — كانوا أكثر اتصالاً بالمؤثرات الحضارية عما كان عليه سكان النصف الآسيوي . على حين لم يصب سكان جنوب آسيا ، تقدماً يذكر لأسباب سننتولى مناقشتها فيما بعد . وعلى أية حال فإن نطاق المرتفعات في آسيا أكثر عرضاً عنه في أوروبا مما يجعل منه حاجزاً أشد مناعة أمام حركات الإنسان وأمام انتقال الثقافات ، فاشتدت عزلة النصف الآسيوي من السهل عن مراكز الحضارة الأخرى كما أن الأحوال المناخية تشتد في فسوتها في الشرق عنها في الغرب . والسكتلة

الآسيوية أعظم اتساعاً من كتلة أوروبا ، وهكذا بعد قلب آسيا كثيراً عن مؤثرات البحر وتطرفت فيه درجات الحرارة والبرودة - كما حال اتساع المرتفعات الآسيوية وارتفاعها دون وصول الأمطار إلى داخل القارة إلا في كميات قليلة كما أن البعد عن المحيط وخصوصاً المحيط الغربى جعل سقوط الأمطار أقل حدوثاً في آسيا عنه في أوروبا .

وهكذا أصبح سكان السهول في أوروبا -- ولو أنهم على درجة من التأخر -- أكثر رقياً أو بمباراة أخرى أقل همجية من إخوانهم الآسيويين . فسكان الخصائص المميزة لسكان السهول أقل بروزاً فيهم وأصبحوا أكثر ارتباطاً بالأرض من الآخرين وبالتالي قل ميلهم إلى الهجرة - وقد يخيّل إلينا أن الأوروبيين كانوا أعلى صوتاً في العصور السحيقة من غيرهم ولكن هذا يرجع في أغلب الظن إلى أن غزوات الجحافل الأوروبية في معظم الأحوال كانت بسبب اضطراب الرعاة الآسيويين الذين كانوا يضغطون على مؤخرتهم أكثر مما ترجع إلى أية رغبة جامعة فيهم نحو الهجرة .

وما من قبيلة من هذه القبائل الرعوية كانت كثيرة العدد ويتحتم عليها أن تكون على شئ من التنظيم لا غنى عنه لبقائها نفسه ، وليس من المحتمل أن تبلغ عصابة متحركة درجة عالية من التنظيم بحيث تضم عدداً كبيراً من الأفراد دون أن يعترها شئ من الفوضى ونجد من الخير لها أن تعمل على توفير المريع لعدد أقل نسبياً من قطعان الماشية التي تتوقف عليها حياة أفرادها ومهما كان عدد القبيلة صغيراً فهو يفوق عادة عند نقطة وصولها أعداد القاطنين من الشعوب المستقرة ، فيضطر هؤلاء المستوطنون إلى أن يخضعوا ويستسلموا ثم يضغطون بدورهم على آخرين وقد يفضل هؤلاء الانسحاب أمام ذلك الهجوم .

وهكذا بقدر ما تكون هذه القبائل عريقة في بداوتها بقدر ما تسبب دماراً بين الجماعات المستقرة وتقضى على نظمها وتترك طابعاً ضئيلاً تافهاً في التاريخ ، لقد مروا كالمصيفة الهوجاء وسرعان ما اختفوا .

فإذا تذكرنا كل هذه النتائج المتمخضة عن الظروف الجغرافية فلننظر الآن إلى التاريخ في تفاصيله .

ليس لدينا قبل ظهور روما إلا فكرة غامضة مشوشة عن أثر هؤلاء الناس في تاريخ البلاد المتمدنة — وقد سمعنا حقاً عن القبائل الشمالية الغامضة التي كان المتحضرون القدماء من أمثال الآشوريين والفرس واليونان ينظرون إليها نظرة خشية وخوف . ثم نجحت روما أبان سطوتها ولمدة قرون في إيقاف تيار البرابرة وصدده وراء أنهار الراين والپونة ، ولما انقسمت الإمبراطورية إلى جزأين ، وحلت القسطنطينية محل روما مرقت هذه القبائل كالسهم إلى جميع الأراضي التي كانت تدين لروما بالولاء إما لأنها اضطرت إلى ذلك اضطراراً بحكم تحرك القبائل الهمجية فيما وراءها ، وإما لأنها اجتذبتها إلى الإمبراطورية أمل في السرقة والنهب .

وكان من الطبيعي أن تجيء القبائل الجرمانية أولاً مثل قبائل شاتي والمانى والقوط والواندال — وكانت غارات هذه القبائل الضربة القاصمة التي وُجِعت إلى القوة الرومانية الغربية فأسسوا في داخل الإمبراطورية الغربية ممالك تدين بالولاء في أول الأمر لرئيس روماني ، ولكنها أخذت تفصم تدريجياً تلك الروابط التي كانت تربط أجزاء الإمبراطورية بعضها ببعض .

وفي القرن الثالث جاءت قبائل الفرنجة وأشاعت التفرقة لفترة من الزمان في إيطاليا وأسبانيا ، ولكنها سرعان ما اخفقت في معمعان بقية الشعوب ، وإنا لا نستطيع الجزم ، أي من هذه القبائل الأولى المهاجرة كانت متأثرة إلى حد كبير بضغط واقع عليها من السهول فيما وراءها ، ولكننا نعلم أن القوط في أواخر القرن الرابع بدأوا يضغطون على الفرنجة والألمان والرومان وأنهم كانوا بدورهم واقعين تحت ضغط أخطر شأناً وهو ضغط قبائل الهون عليهم وفي بداية القرن الخامس غزا القوط بقيادة أرك إيطاليا ونهبوا روما باسم الولاء للنظام والقانون . ولما مات أرك وكانت روما لا تزال تحتفظ ببقية من الاحترام والرهمة انسحب خليفته إلى جنوب بلاد الغال وإلى شمال أسبانيا مؤسساً مملكة عمرت ثلاثة قرون ،

كانت تعترف بسُلطان روما طالما بقي للمدينة الإمبراطورية ظل لسُلطان .  
ثم جاء الهون من الشرق في أواسط القرن الخامس تحت قيادة أتلا وهو  
المعروف باسم ( سوط الله ) وسار بجموعه مخترقاً أوروبا حتى قلب فرنسا الحديثة  
إلى أن تصدت له قوات أوروبا فردته على أعقابها في معركة شالون وهى من أعظم  
المعارك العالمية شأنًا .

ثم جاءت من الشرق موجة أخرى من القوط بعد خمس وعشرين سنة من  
هذا التاريخ وأقامت في إيطاليا مملكة لهم على أنقاض الإمبراطورية الرومانية .

في خلال القرن السادس ظهرت الجماعات السلافية على حدود الإمبراطورية  
الشرقية وانتشرت في الأراضي الواسعة الممتدة شمالاً إلى بحر البلطيق ولم يكد  
هؤلاء يظهرون حتى برزوا هم الآفاروهم أخطر الغزاة الذين أغاروا على أوروبا  
وأمنوا في النهب والتخريب . وقد جاؤا إليها قادمين من مسافات بعيدة فأوقفوا  
امتداد المستعمرات الألمانية على الدانوب وطردها قبائل اللومبارد من مساكنهم  
فاضطروا هؤلاء إلى غزو إيطاليا حيث أفاوا مملكتهم واطلقوا اسمهم على السهل الممتد بين جبال  
الألب والأبنين الشمالية — أى سهل لمبارديا وقد كان احتلال الآفار سهل المجزؤة تكوينهم  
مملكة عاشت حتى القرن التاسع بمثابة دق أسفين بين السلاف الشماليين والسلاف  
الجنوبيين لقد هاجر السلاف الجنوبيون إلى جنوب الدانوب في داخل الإمبراطورية  
الرومانية وكانوا لها درعا وافيها ضد أعداء أشد منهم مراسا . وكان هذا بداية تكوين  
سلسلة من الدول السلافية الصغيرة بقيت حتى اليوم ، تارة مستقلة وتارة خاضعة لسُلطان  
قوة أكبر منها وما الصرب وكرواتيا وكارثيا ودالماسيا إلا مستعمرات صقلبية ترجع في  
أصلها إلى السلاف الذين جاؤا في القرن السابع وكانوا على درجات متفاوتة من الاستقرار .  
وتعاصر غزوات الآفار تقريبا حركات قبيلة البلغار التي أسست مملكة في الأراضي  
الواقعة بين الدانوب وأرض هايموس ولا تزال يطلق عليها اسم هذه القبيلة ، ومنذ  
ذلك الوقت أحرز سكان هذه البلاد حريتهم مراراً وأسسوا ممالك بلغارية استمرت  
سنين عديدة ولكن البلغار — مثلهم مثل الآفار ومثل النورمانديين في إنجلترا  
— فقدوا مميزاتهم واختلطوا بالشعوب التي سيطروا عليها .

وفي القرن التاسع حدثت حركات أخرى كان مصدرها الأول مراعى الأستبس الآسيوية ولكنها أثرت في التاريخ الأوربي تأثيرا ماديا . فقد قدمت من الشرق قبائل الخزر فطردت أمامها الباتزناك من إقليم الفلججا الذى استوطنوه قبل ذلك بخمسين عاما ، وساق هؤلاء أمامهم المجريين وطردوهم غربا ، وهكذا اضطرب العالم الغربى مرة أخرى بسلسلة من الغزوات — وتميز هجوم المجريين أو (الهنگاريين) بالنهب والسلب وبعد فترة قصيرة قامت بينهم حكومة منظمة فى سهل المجر وهو أشبه بجزيرة من المراعى تحتضنها جبال الكربات — وقد بقى فية المجريون الى اليوم ورغم أنهم شعب شرقى الأصل غير أنهم دخلوا فى حظيرة الأمم التى تدبى بمثل الحضارة الغربية ، أما الباتزناك والكومان الذى حلوا محل المجريين فى جنوب روسيا فقد استمروا حتى القرن الثانى عشر قوة تخشاهما الأمباطورية القائمة على شواطئ البوسفور ولكنهم اندثروا بعدئذ .

وفي القرن الثالث عشر خضع السهل بأجمه لسلطان رجل واحد هو جنكيز خان العظيم — وقد احتفظ أحفاده وخلفاؤه لمدى ثلاثة قرون بالسيطرة على مساحات اتسمت كثيرا أوقليلا فى أواسط آسيا . كانوا يرسلون الجيوش المتعاقبة لنهب الدول القائمة على حافة هذا السهل ولتخضعها مددا طالت أم قصرت وقد أجتاح روسيا وبولندا والمجر قائد من قواد الخان الأكبر فخر بها تخريبا . وبعد قليل غزا العراق (قبلاى خان) وهو لا يقل عن الخان الأول سمعة وشأنا ، أما فى القرن الرابع عشر فقد حكم تيمورلنك جزءا كبيرا من آسيا وفى القرن السادس عشر غزا أحد أحفاده الهند وأسس بها الدولة المغولية الكبرى .

وأخيرا جاء الأتراك مفضلين طريق مراعى آسيا الصغرى على الممر الواقع بين جبال الأورال وبحر قزوين<sup>(١)</sup> ولم ينتصف القرن الحادى عشر حتى سيطروا على هذه البلاد بأجمعها . وحدث أبان العصر الذى حكم فية وليم الفاتح انجلترا أن أضاف الأتراك الى ملكهم مساحة كبيرة من الأراضى امتدت جنوبا حتى مدينة

---

(١) ربما كان السبب فى هذه الحركة هجرة الخزر الذين كان لهم أثر فعال فى بدء غزوات المجريين

القدس . وكان هذا سببا في بدء الحروب الصليبية في ذلك الوقت وعدا هذا لم يؤثر في السياسة الأوروبية حتى وقت متأخر جدا — لأن قوة البيت الحاكم التركي الأول — أى الأتراك السلاجقة — كانت قد أضعفتها غارات المغول على جبهتهم الشرقية في القرن الثالث عشر ولم يستأنفوا تقدمهم نحو أوروبا إلا على أيدي الأتراك العثمانيين حين قاموا كمصبة تخدم السلاجقة في أول الأمر في كفاحهم مع المغول ثم قبضوا على السلطة بأنفسهم ، وعلى الرغم من أن جزءاً كبيراً مما يسمى الآن بتركية أوروبا سقط في أيديهم قبل منتصف القرن الرابع عشر إلا أنه مرّت مائة عام قبل أن يستولوا على القسطنطينية ويتقوضوا قضاء نهائياً على الإمبراطورية الرومانية الشرقية في عام ١٤٥٣ وفي القرن السادس عشر خضعت المجر للحكم التركي وبقيت خاضعة لهم حتى نهاية القرن السابع عشر عندما استردت حريتها .

وهكذا نرى ظاهرة تتكرر دائماً ألا وهي خروج جماعات من السهول تنشر الدعر والإضطراب بين القاطنين على حافاتها لا في أوروبا فحسب بل وفي غرب آسيا وفي الهند وفي الصين .

واستمر ذلك منذ عصر ما قبل التاريخ حتى فبيل بدء عصرنا الحالى ببضعة قرون — ولو أننا استعرنا تعبيراً كيميائياً لقلنا أن رعاة السهول كانوا يقومون بدور السائل المذيب للشعوب المستوطنة على اطار هذا السهل — وأن عملية التباور تتأخر بذوبان البلورات التي سبق تكوينها قبل ذلك الحين ولا تلبث أن تتكون بلورات جديدة أكبر حجماً من السابقة ، وهكذا تحل وحدات جديدة أقل عدداً وأكبر حجماً محل الوحدات القديمة المتعددة ، وتسكنها شعوب مستقرة وتسودها حكومات ثابتة .

ولقد تأثرت مصر قليلاً بالعاة بسبب بعدها عن السهل الأعظم ولكن أشور واليونان وروما كما رأيناها كانت تنظر في هلع نحو الجبال الواقعة على حدودها الشمالية خشية أن تظهر من بين ممراتها ودروبها شعوب مدفوعة في تحركها بحافز من بيئة المراعى التي تركوها وراءهم ، وكانت الإمبراطورية الرومانية أكثر الدول القديمة تعرضاً لغزوات هذه القبائل لأن حدودها تزامنت الى الشمال وإلى الشرق وراء جبال

أوروبا الجنوبية وبقيت جهاتها أكثر تعرضاً للهجوم من أى من الإمبراطوريات القديمة ، ولهذا أصبح تاريخ روما المتأخر وثيق الارتباط بتاريخ الشعوب القاطنة في ذلك السهل وحتى بعد أن تكونت دول عظيمة في غرب أوربا ظل شرق أوربا قرونا معرضا لهجوم القوات القادمة من المرامي ، كما أن الإمبراطورية الشرقية كان مصيرها كشفيةقتها الغربية الانهيار أخيراً تحت سنايك غزوات الرعاة .

ويبدو دور هذه الشعوب في تاريخ العالم واضحاً ، لأن ظروفها جغرافية متعددة الألوان تضافرت فأدت إلى هذه النتيجة ، ولبر الآن هل أصاب البشر تقدما ؟ وهل استطاعوا فعلا توفير الطاقة واختزانها ؟ لاشك أن هناك مجهوداً ضائعاً ، فقد تهنمت الإمبراطورية الرومانية بنظمها العتيدة العظيمة فهل عوض عنها الشر خيراً ؟ هل كان تدمير جزء كبير من الإمبراطورية الرومانية عبثاً ضائعاً ؟ أو أنه كان بمثابة إزالة آلة مهمة كان من الواجب إزالتها قبل أن تركب مكانها آلة جديدة أفضل منها ؟

لقد حدث التقدم في ثلاث نواحي :

أولاً : أن البرابرة الآسيويين والغربيين كانوا شجعاناً أقوياء البنية وكانت أغلب الشعوب القديمة كالمصريين والبابليين واليونان والرومان والفينيقيين تعيش في أحوال جغرافية موانية ، غير أن الرعاة من سكان السهول كانوا يعيشون تحت ظروف جغرافية قاسية ، قاسية لأن السهل بامتداده شمالاً تقل فيه الثروة الطبيعية ، فاختصف الناس فيه بصفات أسمى من صفات سكان الجنوب ، إذ أهلته هذه المميزات لاحتراز قسط أوفى من التقدم والرق ، لأن الشجاعة الفردية لازمة للإنسان في صراعه مع المناخ وقسوته كل يوم ، وفي جهاده مع التربة الجافة ، كما تلزمه في قتاله مع أعدائه من البشر . وبالجملة فإن الأجناس الشمالية كانت تفوق في شجاعتها سادة إيطاليا بعد القرن الثاني الميلادي ، فقد نسي هؤلاء منذ أمد بعيد كم تفيد شجاعة الفرد الشخصية ومدى أثرها كعامل عظيم في استقرار الدولة .

ثانياً : كذلك برزت الروح الفردية بين الأمم التيوتونية في مظاهر شتى . فإن



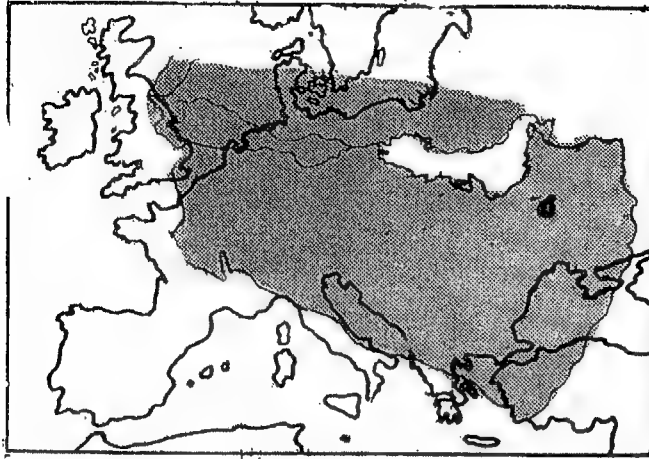
حرية الفرد على ضرورتها يجب أن تخضع للصالح العام إلى حد ما — وحدث مزج بين الفكرتين في زمان متأخر أبان نمو النظام الاقطاعي . فكرة احترام الحرية الفردية وفكرة التضحية بها في سبيل الصالح العام . وكانت الظروف الجغرافية الأولى ملائمة لنمو المسلك العقلي الذي يشجع على الحرية الفردية تحت نظام الحكم الإغريقي ثم سارت الفكرة نظام الحكم الروماني — وتتجلى الروح الفردية في خلق صفات خلقية أخرى تدعو إلى التقدم فإن حب العائلة بما ينطوى عليه من فضائل أكثر ظهوراً في الشمال عنه في الجنوب .

ثالثاً : أن غزو البرابرة الآسيويين على الرغم مما خلفوه من تدمير لم يمض دون أن يترك أثره في خلق تقدم مادي عظيم فقد اتسعت النظرة إلى العالم وأدخلت هذه الغزوات إلى عقول الأمم الغربية فكرة أخرى عن العالم وهي أنه أكبر واتساعاً من بلاد البحر المتوسط ، ووصل الرحالة فعلاً إلى الصين وعادوا يقصون القصص عنها ، وأصبح العالم الذي يهتمون به متسع الأرجاء . ونمت بنموه كمية الطاقة التي تصاح للاستغلال ، وليس بكثير أن قلنا أن القبائل الغازية بأشاعتها تلك النظرة كان لها أثر بارز في خلق مجموعة من الظروف أدت إلى الاكتشافات التي قام بها كولومبس واتباعه .

## الفصل الثامن

### الواحات والإسـلام

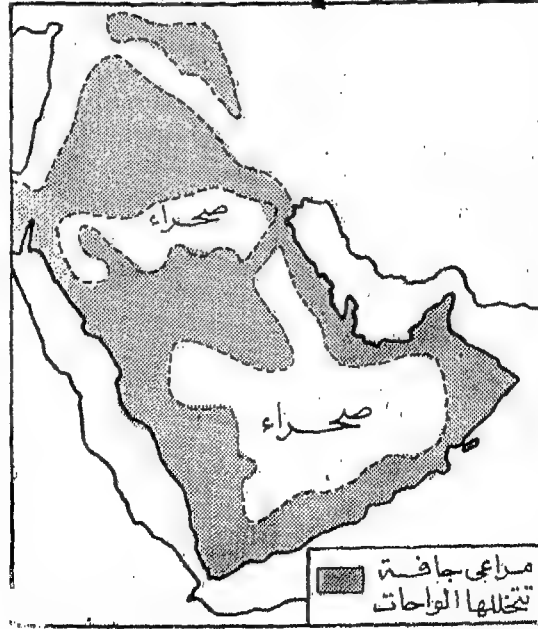
لقد رأينا في الفصل السابق كيف أثر السهل الأعظم في مجرى التاريخ وهناك مراعى أخرى (استبس) لاتصل في مساحتها إلى مساحة السهل الأعظم على كبر حجمها. وقد أثرت بدورها في مجرى التاريخ ولكنها تركت فيه أثراً مختلفاً بسبب اختلاف الأحوال الجغرافية ، إذ أن الصحراء تشغل من السهل الأعظم جزءاً بسيطاً بالنسبة لما تشغله مساحات المراعى الواسعة أو التي تفضلها نوعاً ما — ولكن البلاد العربية على النقيض من ذلك تحتل الصحراء فيها مساحات واسعة ويكاد يكون الباقي كله من المراعى .



الخريطة رقم ٢٣  
مقارنة مساحة بلاد العرب بالنسبة لأوروبا  
( مقياس الرسم واحد في الحالتين )

تبلغ بلاد العرب ١٥٠٠ ميل في طولها تقريباً أى نحو طول المسافة من لندن إلى بلاد القوقاز ، وتبلغ في عرضها نصف ذلك البعد تقريباً ، وهى ليست كلها صحراء بل أن جزءاً كبيراً منها مراعى جافة ، وفى داخلها بقاع من الواحات على

درجات متفاوتة من الخصوبة ، وفي بعض الأماكن تتدرج المراعى شيئاً فشيئاً إلى أن تصبح صحراء جرداء . هذه هي الجزيرة العربية ، أى بلاد العرب وهي مجموعة من الواحات والأراضي الجافة ، ولهذه الظروف الجغرافية نتائج عدة .



الخريطة رقم ٢٤ — بلاد العرب هي صحراء ومراعى

لما كانت بلاد العرب مراعى في غالبيتها كان من الطبيعي أن يصبح أهلها رعاة .

١ — ولكونها أشد جفافاً من مراعى آسيا لم تحتل أن تعمل من السكان إلا عدداً قليلاً نسبياً لو قورنت بغيرها من المناطق المشابهة لها .

٢ — ولأنها تحوى بعض الواحات فقد رغب بعض السكان في الاستقرار بها .

٣ — وهكذا وجدت طبقتان متميزتان ، البدو والحضر أى سكان البادية وسكان الواحات . ولم يكن الأخيرون بالعدد الكبير على أية حال لتركوا في مجتمعاتهم أثراً كبيراً فتركزت السلطة غالباً في أيدي البدو الذين سادوا المراعى الواقعة فيما بين الواحات . ولما كان الرعاة العرب يعتمدون في حياتهم بعض الاعتماد على واحات معينة فإن سكان المراعى منهم أصبحوا أكثر ارتباطاً ببقعة معينة من الأرض عما جرت عليه عادة الرعاة الخالص . ومن الطبيعي أن تقوم هنا وهناك سلطات صغيرة تفرض سيطرتها لفترة ما على بضع واحات وعلى المراعى التي تتخللها .

٤ — ونظراً لأن المرامي في الجزيرة العربية محاطة فعلاً بالصحراء وبالبحور وكلاهما كان عسير الاجتياز في اليهود القديمة- أصبح سكان بلاد العرب شعباً منعزلاً ، وتوفرت لهم وسائل الحماية من الغزو الأجنبي ، كما أمسوا ضعاف الأثر في الشعوب الأخرى ، عاجزين عن التدخل في الشؤون الخارجية ما دامت السلطات القائمة في المرامي ضئيلة ولا انسجام بينها .

وليس بعجيب إذن أن يترك سكان السهل الأعظم أثراً محسوساً مستمراً في التاريخ لمدة قرون وألا يؤثر سكان بلاد العرب في تاريخ العالم إلا في زمن متأخر من المصور التاريخية ، على الرغم من قرب مواطنهم من مصر وفلسطين وبابل وبلاد اليونان ، هذا على الرغم من أن العرب كانوا يميلون إلى الانتشار في البلاد المجاورة إلا أن هجرتهم إليها كانت متغيرة متقلبة ولم تتخذ شكلاً محدداً .

وقد يمتزنا السؤال الآتي : « ولماذا ترك العرب إذن في التاريخ أثراً ؟ » ولأن نجيب على هذا السؤال يجب أن نزن النحو الآخر الذي جرت عليه الظواهر الجغرافية ، وقد رأينا أن الناس قد يتقدمون أو يتأخرون بسبب الأحوال الجغرافية التي تؤثر في أجسامهم وبالتالي في صفحات عقولهم ، وقد رأينا أن حماية الصحراء التي كفلت الرخاء للمادى المصريين القدماء وللبابليين أوحى آخر الأمر إليهم بالثقة في حمايتها لهم ، كما رأينا أن الأحوال الجغرافية السائدة في بلاد الإغريق ، وما تمخض عنها من نشأة حكومات المدن العديدة مستقلة بعضها عن بعض ، رأيناها تؤثر في عقول اليونانيين وتخلق منهم رجال سياسة .

كذلك أثرت الأحوال المادية بالطريقة عينها في عقول العرب وكان تأثيرها مباشراً فإن تنقلهم في بطاء شديد من واحة إلى واحة فوق مراعي وصحاري مع تكرار المنظر الطبيعي ونمطيته حيث تخاو الطبيعة من كل ما يلفت النظر أميالا وأميالا ، كل هذا دفع بهم إلى التأمل والتفكير ، فهم أن حلوا بالصحراء شعروا شعوراً آلياً ودون وعي منهم بعجز الإنسان الشديد ، وأن حلوا بالواحات أذكروا أنها تقبل الإصلاح والتحسين وأنها تستجيب للمجهود الإنساني الذي يبذل فيها فتزداد الجميل إنتاجاً متزايداً . بينما الصحراء لا تستجيب للمجهود ما ولا يمكن التغلب عليها .

قط ، هنا شعر العرب بوجود ظاهرة عظمية صامتة تسمو على كل عظيم من الأشياء « وأدركوا — تحت ضغط ظروف الحياة — إدراكا متفاوت الدرجات ، أنهم ليسوا أحراراً فيما يريدون ، والناس دائماً على مختلف ألوانهم يعتقدون ديانات يحاولون أن يفسروا بها في وضوح متفاوت درجته ما عجزوا عن إدراكه من أسرار العالم المحيط بهم . ويفسرون على الأخص الغاية التي خلقوا من أجلها ، وأغلب الأجناس والقبائل تحس أنها معرضة لمؤثرات مختلفة وأن أمامهم حقائق شتى تتطلب منهم تفسيراً وحقائق عديدة تبدو لا ارتباط بينها في ظاهرها ، وهكذا عبدوا آلهة متعددة . إلا أن الظواهر الطبيعية في الصحراء كان تأثيرها ساحقا على سكانها حتى أنهم في الوقت الذي كانوا يعترفون فيه بآلهة متعددة كان اتجاههم العام يسير بهم نحو الاعتراف بآله واحد عظيم ، وليس مما يبعث على الدهشة أن تخرج من بلاد العرب أو من البلاد المحيطة بها الديانات العالمية الثلاث الكبرى التي تدعو إلى التوحيد ، ألا وهي اليهودية والنصرانية والاسلام . وليس بمعجيب أيضاً أن تكون أبرز تعاليم أحداها موجزة في عبارتين إثنين : « عليك أن تفعل هذا وإياك أن تفعل ذاك » وهي مجموعة من الأوامر والنواهي (١) كما أدرك سكان الصحراء أن التقدم متمدر في بعض نواحي الحياة ورأوا في الدين قيساً يضيق لهم سرها ، كما رأوا أن جهود الإنسان في نظرهم عبث ضائع ما لم توجه توجيهاً معيناً وأن العقل الإنساني الذي يتحكم في استعمال الطاقة يجب أن يربي تربية خاصة تتجه به نحو إدراك هذه الفكرة عن الحياة .

وليس المفروض دائماً أن يتمسك الناس بمقائدهم لدرجة تجعلهم متعصبين يرغبون في تحويل البشر كافة إلى دينهم ، فإن المتوحشين الذين يحترمون آلهتهم خوفاً ورهبة لا يحاولون نشر دياناتهم عادة . وتختلف درجة حماس الناس في نشر دينهم بقدر ما يرون في بعض الأشياء منكراً يجب النهي عنه لأنه خطأ أو لأنه عبث لا طائل تحته بمعنى الزمن ، وبقدر ما يرون أن بعض الفضائل يجب أن يتحلى بها الناس لأنها صواب أو لأنها توفر لهم الجهود لو طال بهم الأمد ، وكلما تعمقوا في إدراك معنى الحياة أي كلما زاد القدر الذي يفهمون به دينهم ، كلما اشتدت رغبتهم في أن ينبذ الآخرون دياناتهم وأن يقبلوا على اعتناق أسلوبهم

(١) يقصد الديانة اليهودية ووصاياها العشر .

في التفكير . هذه الفكرة لا تكاد تختار ببال الهمج المتأخرين ، وعلى الرغم من أن الشر شنوا حروباً عديدة في الأيام الخوالي إلا أن الحروب الدينية البهتة كانت قليلة العدد — وكلما تقدم بنا التاريخ وجدنا الحروب والخلافات الدينية تزداد عدداً ، وقد يبدو في هذا نكسة لتقدم الإنسان ، ولكن الأمر عكس ذلك ، لأن هذه الظاهرة تسجل حقيقة واضحة وهي أن الناس أخذوا يدركون ولو في غموض أن للحياة هدفاً ، وأن أوجه استخدام الطاقة وتوجيهها أكبر قيمة من الطاقة في حد ذاتها

من هذا نرى لماذا نجحت الديانات الراقية في اجتذاب عدد كبير إليها ، بينما قل عدد من يتحولون إلى الديانات المنحطة ، ونرى بوجه خاص لماذا خرج العرب من ديارهم يبعثون نشر الدعوة المحمدية عندما اقتنعوا بما آمنوا به تحت تأثير تعاليم النبي محمد ( صلعم ) . .

ولقد عرفنا لم كان العرب شعباً منعزلاً ولماذا آمنوا بديانة تقوم على التوحيد ، ولماذا برزوا ليبشروا بهذا الدين ينشرونه وينشرون معه سلطانهم الزماني وأن جاء ذلك عرضاً ولكنه كان أمراً لازماً — هذه كلها نتائج لظروف جغرافية — وعلمنا أن نلاحظ الآن في دقة كيف يحج العرب في تحقيق مارموا إليه .

لندرس أولاً الزمان الذي بذلوا محاولتهم أبانه وظروف العالم الذي كان مسرحاً لهذه المحاولة ، فقد فشل العرب في نشر الاسلام في العالم أجمع ، بسبب عوامل القصور الذاتي الجغرافية وبعض هذه العوامل طارئ ، وبعضها دائم ، ولقد رأينا آنفاً أن فلسطين تدين في أهميتها لموقعها الجغرافي بين مصر وبابل ، ويبدو طبيعياً أن قلنا أنها أمة نصف شرقية في طبيعتها لأنها تحف بالبحر الأعظم ، وأهلها منذ فجر التاريخ ينظرون غرباً كما ينظرون شرقاً ، وفي الأيام السحيقة أرسلت فينيقياً بحارتها يجوبون الغرب البعيد كما دخلت فلسطين في حظيرة الفتوحات الأغريقية وأخذ أهلها اللغة الأغريقية لغة لهم إلى حد كبير ، فلما ظهرت المسيحية في الوجود لم تكتب الكتب المقدسة بالأغريقية فحسب بل إن البلاد ذاتها كانت جزءاً من الامبراطورية الغربية العظمى — امبراطورية روما —

وإذا كان من المقرر أن تنتشر المسيحية كان من الطبيعي أن تنتشر في داخل

الامبراطورية الرومانية وبفضل سبقها أصبح أسقف روما معترفاً به كرئيس ينافسه في الواقع بطريك الامبراطورية الشرقية في القسطنطينية فأنتشرت المسيحية على اختلاف مذاهبها شرقاً وجنوباً : شرقاً إلى العراق وبلاد فارس وعبر السهول العظمى إلى الصين ، وجنوباً إلى الحبشة والهند وسيلان ولا يزال حتى اليوم في الحبشة والمبار مسيحية من مذهب ما ، حقاً اختلفت المسيحية التي انتشرت في داخل الامبراطورية عن المسيحية التي انتشرت خارجها ونظمت السلطة الكنسية في داخل الامبراطورية على منوال حكومة الامبراطورية ذاتها ، وبقيت قوية زمناً طويلاً حتى بعد أن زالت قوة روما وأصبحت اسماً على غير مسمى : هذه المسيحية التي انتشرت في بلاد الامبراطورية هي مسيحية من مذهب واحد متجانس على غير ما انتشر منها على حدود الامبراطورية كالشام ومصر حيث ضعف الولاء لكل من الكنيسة والدولة وأصبحت المسيحية في خارج الامبراطورية تتعارض مع المسيحية المنتشرة في داخلها مارقة على تعاليمها غير متأصلة في نفوس أهلها جميعاً .

لقد كان الدين في هذه البلاد كنسياً تبشيراً هزيلًا نتيجة لهذه العوامل كما أدى اختلاف الظروف اختلافًا طبعياً إلى تحوير في المسيحية وإلى ضعفها وانقسامها ولذا نجحت البلاد التي كانت رومانية في مقاومة الاسلام بينما استسلمت له البلاد الأخرى .

ثم أثر القصور الذاتي الجغرافي في تاريخ تلك الفترة على نحو آخر ولعل المسيحية أثرت على نحو ما في تفكير النبي محمد فجعلته يدرك معنى الحياة وأوحت إليه بالبداية برسالاته<sup>(١)</sup> على أنها لم تكن إلا الثقاب الذي أشعل النور لاني قلب الرسول فحسب ، بل وفي قلوب من تبعه ، ولولا أن عقولهم كانت مهيتة لوحى الصحراء مدى أجيال طويلة لما قبلوا الدين الجديد القبول الذي حدث ، ويجب أن نلاحظ أيضاً أن بلاد العرب - ونقصد جزيرة العرب نفسها - توفرت لها الحماية من المؤثرات الخارجية

---

(١) لا يزال يبدى المؤلف تعصية للمسيحية — وقد نكرر ظهور هذا الشعور في مواضع مختلفة — المترجم

ولا بد أن تكون المسيحية التي وصلت إليها مسيحية مشوشة ممسوخة . لقد عاشت طويلا تلك المسيحية التي انتشرت في اللبار مثلاً، على الرغم مما أصابها من تحوير في بيئتها الحديدية لجرد أنها امتازت على الأديان الموجودة فيها . كذلك سما الدين الجديد الذي أتى به محمد على أى دين وجد في الأراضى المحيطة ببلاد العرب .

والآن يجب أن نفرق بين انتشار الإسلام وبين الفتوحات العربية فإن الإسلام انتشر في بلاد تفوق في مساحتها رقعة الأراضى التي فتحها العرب على عظم اتساعها ، وقد زود الإسلام العرب بقوة دافعة فانتشروا يبعون غزو العالم ، وترددت فيهم رغبة في نشر الإيمان بالله الواحد الذى يحاسب الناس جميعاً عن حياتهم وعمائاً تونه من خير أو شر ؛ واستمر الإسلام ينتشر حتى بعد أن وصل العرب إلى ذروة فتوحاتهم فانتشر بين الكفار ممن سيطروا على العرب بدورهم ، وإن مانهم به في المقام الأول ليس انتشار الإسلام بقدر اهتمامنا بالفتوح العربية .

لقد قاوم سكان جنوب أوربا الفتح العربى لأنهم كانوا مسيحيين ولأنهم كانوا قد نظموا أنفسهم ليقاوموا هذا التقدم . أما في الشرق فلم تكن الدول المسيحية على شىء من التنظيم ، فكانت مقاومتها هزيلة تافهة ، وما هذه الحالة سوى نتيجة للظروف السياسية التي سبقت هذا العهد وعوامل القصور الذاتي الجغرافى أما الفتوحات العربية إلى الجنوب العربى من بلاد العرب فقد خضعت لعامل جغرافى بحث هو وجود الصحراء التي يصعب على أية جماعة من الناس اختراقها ، لهذا اقتصر نفوذ العرب السياسى على الامتداد على طول حافة أفريقيا الشمالية .

وهكذا اتجه الفتح العربى شرقاً وغرباً وكان شاذاً في سرعته عبر مراعى متفاوتة في جفافها ونباتها وتلائم الحركات التي ألفها العرب في موطنهم الأول ، فإن العربى لا تربطه بالأرض رابطة ، سريع التنقل معتمداً في غذائه على الحيوان الذى يحمله ويحمل متاعه ، ومادامت البيئة الجديدة بيئة مراعى فهي مأوفة له تطيب له فيها جميع منازلها ، فكل منزل عنده لا يفضل الآخر ، هكذا كانت الأراضى التي غزاها العرب في أول الأمر محددة بحكم جغرافيتها وبحكم ماضيها التاريخى .

ولنبعث الآن الوقائع التاريخية : لقد توحدت بلاد العرب تحت زعامة الرسول في الثلاثين سنة الأولى من القرن السابع الميلادى وغزا العرب في العشرين سنة التالية مصر



وسوريا والعراق وبلاد فارس وطوران وجزءاً صغيراً من الهند وحولوا أهلها جميعاً إلى الدين الإسلامى ثم توقفوا قليلاً أمام بعض العقبات ، ولما كانت آسيا الصغرى على النقيض من سوريا قد تحولت تماماً إلى المسيحية وخضعت لسيطرة الامبراطورية الشرقية لم يستطع العرب قط أن يوطدوا أقدامهم بصفة مستمرة في الشمال الغربى من جبال طوروس ، أضف إلى هذا أن العرب في أساس عنصرهم رجال بروا الهجوم من البر على دول شمال إفريقيا وما وراءها أمر عسير خاصة وأن الإمبراطورية الشرقية كانت لا تزال تملك اسطولا و تستطيع أن تسدى بعض المعونة لمستعمراتها البعيدة ولهذا تأخر فتح العرب لها إلى أن بسطوا سيطرتهم على مهد الملاحة البحرية في مصر وفينيقيا وتمكنوا بعد مرور خمسين عاما أخرى أى في أوائل القرن الثامن من أن يضيفوا إلى سلطان الخلفاء الساحل الشمالى لإفريقيا بفضل حملاتهم البحرية ، وأكثر من هذا ، لقد عبر العرب مضيق جبل طارق وفتحوا أسبانيا في سنين قليلة ، وهى أبعد بقاع الإمبراطورية عن الحكم الرومانى المركزى ، وفرضوا سلطانهم على كل البلاد الأسبانية ما عدا أجزاء جبيلية في شمالها الغربى استمسكت بالمسيحية ، وكان لهذا الاستثناء هنا أهمية خاصة .

أقيم هذا الملك العريض في فترة تقل قليلا عن قرن من الزمان ، وكانت بلاد الجزيرة العربية هى مهده ، ثم لم تعد ملائمة لما تلى ذلك من ظروف السلطان والسيادة شأنها في ذلك شأن غيرها من المهاد ، فاخترت على التوالى دمشق وبغداد كعواصم للحكم الإسلامى .

وكان هذا الملك طويلا ضيقا بسبب وجود الدول المسيحية إلى الشمال والصحراء الكبرى إلى الجنوب ، وأنه لمن الصعوبة بمكان أن تحكم البلاد الطويلة الضيقة من مركز واحد ، مثلها كمثل مصر القديمة والإمبراطورية الرومانية ، ويزيد الأمر صعوبة أن مقر الحكم ليس في وسط هذا الملك العربى فكان من الطبيعى أن ينقسم إلى جزأين كل منهما تحت إمرة خليفة يدعى أنه الوارث الشرعى للنبي محمد والحاكم لجميع أراضى المسلمين وكان هذا في أواسط القرن الثامن حين انفصلت أسبانيا عن بقية الدولة العربية واستقلت في نفس الوقت.

بلاد البربر استقلالاً حقيقياً وهي التي تفصلها عن العاصمة مسافة شاسعة ، وقد بقيت رغم هذا الانفصال تمنتق الدين الإسلامى ، وفى أقل من قرن ونصف من الزمان إستقلت بلاد العرب وما تبقى من البلاد الإفريقية وكونت بذاتها خلافة ثالثة ضمت اسمياً ولايات البربر فترة من الزمان .

وهكذا إنقسم العالم الإسلامى إلى أربعة أقسام وهي أسبانيا وبلاد البربر ومصر وباقى الخلافة الشرقية ، وسار كل قسم منها فى تاريخه الخاص لا يربط بينها إلا عقيدة واحدة وإنها كانت فى يوم من الأيام إحدى الفتوحات العربية . ولم يكن الغزاة المسلمون لهذه الأجزاء جميعاً من عنصر واحد بقدر ما كانوا من عناصر متفرقة قذفت بهم الفتوحات السابقة فاختلفوا بالجحافل العربية المغيرة ، ولقد إزدادت الفروق الطبيعية الناشئة عن العوامل الجغرافية وتجسم التناقض بين الوحدات واشتعلت نار العداوة بينها ولم تتمكن وحدة الدين من إطفائها . ولقد عمرت الخلافة العربية فى أسبانيا واستمرت قوية حتى بداية القرن الحادى عشر حين تفتت إلى دويلات صغيرة عديدة وظلت تنتقص من أطرافها على الدوام أمام تقدم الدويلات المسيحية فى الشمال حتى لم يتبق منها فى النهاية إلا مملكة غرناطة فى الجبال الجنوبية وقضى عليها نهائياً فى أواخر القرن الخامس عشر وعادت شبه الجزيرة بأكملها إلى حظيرة الحكم المسيحى .

أما فى الخلافة الشرقية فقد استمر الحكم العرب يمارسون سلطتهم من مقرهم فى السهول القاسية المحيطة ببغداد ولهم ظل من السيطرة الاسمية على الأقطار المختلفة حتى سنة ٨٠٠ ميلادية حين اضطروا إلى الاعتماد شيئاً فشيئاً على العصابات المرتقة من الأتراك ممن استأجروهم ليخضعوا بهم البلاد التي كانت تشق عصا الطاعة دائماً . وانتقلت السلطة بطبيعة الحال من أيدي العرب إلى الأتراك ، واستأثر الولاة الأتراك تدريجياً بالسلطة الفعلية ، ومارسوا سلطانهم بأسماء مختلفة بل وقامت دول تركية مستقلة فى الهضبة الإيرانية على الرغم من أن الخلافة العربية ظلت قائمة فى بغداد حتى منتصف القرن الثالث عشر حين قضى المغول عليها القضاء الأخير ، ولقد رأينا أن الأتراك فى هجرتهم من السهل الأعظم جاءوا كفرزة زنادقة ، ومن أسعدها

الحظ عنهم تلقى بعض الوعظ المشوش في الدين المسيحي . فلما اتصلوا بالإسلام اعتنقوا الدين الجديد ورحبوا به ، وهكذا لم يؤد تقويض الحكم العربي إلى زوال السلطة الإسلامية بل كان امتداداً لها في آسيا الصغرى التي لم يفتتحها العرب قط إذ أصبحت تدريجياً بلاداً تركية إسلامية ، كما أن الأتراك الذين نزلوا بالهند أقاموا بها حكماً إسلامياً ثابتاً أكثر استقراراً من الحكم الذي أقامه العرب بها .

ولما لم يمد البحر المتوسط بحيرة رومانية ظلت الأراضي الإسلامية الممتدة على طول شمال أفريقيا وكذا شبه جزيرة العرب رديحاً طويلاً من الزمان وهي بعيدة عن الاتصال بالأمم المسيحية كما أنها لم تكن قوية السلطان فتد سيطرتها الزمنية على الصحراء الكبرى ، ولكن الدين الإسلامي وهو دين سكان الصحراء أخذ ينتشر فيها تدريجياً من مصرى إلى مصرى ومن واحة إلى واحة فازداد الحاجز الصحراوى مناعة على مناعته أمام الأمم المسيحية بسبب وجود قبائل معادية ، وزاد الطين بلة أن اعتنقت هذه القبائل المعادية ديناً مناهضاً للمسيحية أيضاً .

وهكذا تغيرت وظيفة البحر المتوسط ، لقد كان في الأيام الخوالى حاجزاً ثم أصبح فيما بعد طريقاً تجارياً عند القينيين وكان بمثابة حصن دفاع عند اليونانيين ثم اتخذ الرومان قاعدة لأساطيلهم البحرية التي أخضعوا بها كل البلاد التي تحف بشواطئه ، ثم ضعفت القوة البحرية بضعف روما ذاتها ، وما تحولت أسبانيا وبلاد البربر إلى الحكم العربي إلا لأن الأساطيل البحرية للإمبراطورية الشرقية لم تتوافر لها القوة الكافية لتسيطر على البحر كله ، كما لم يستطع المسلمون أن يحرزوا لأنفسهم السيادة البحرية ، ومن ثم أُنحِت الحال شبيهة بالأيام الأولى التي استمر فيها النزاع بين روما وفرنطاجنة ، وأصبح البحر المتوسط كالخندق الذى يفصل بين عدوين ، ورجحت كفة كل فريق حيناً من الدهر ، وتوالى على الجزر الواقعة بينهما الحكم الإسلامى تارة ثم الحكم المسيحى تارة أخرى ، واستولى المسلمون على كريت وصقلية عدة قرون قبل أن يستعيدهما الحكم المسيحى إلى حظائره فيما بعد .

أما الخليج الفارسى والمحيط الهندى فقد جدت عليهما ظروف جديدة إذ خلا

الجو فيهما للأساطيل العربية من كل منافس لها ، وقد كان لانتشار الحكم العربي في أول الأمر في مساحة واسعة تمتد من شواطئ المحيط الأطلسي إلى البحر المتوسط وإلى الخليج الفارسي والبحر الأحمر وإلى المحيط الهندي كما كان للسيطرة العربية على مفاتيح الطرق بين الشرق والغرب البرية منها والبحرية أكبر الأثر في أن يحترف العرب التجارة من أي نوع كانت ، وهكذا أصبحت سيلان في القرن الثامن مركزاً للتجارة العربية على الرغم من أنها لم تخضع قط لحكم عربي . وظلت التجارة العربية مزدهرة لم تتأثر بتمزق القوة الإسلامية أو انقسام الخلافة أو استقلال مصر وبلاد العرب وبلاد البربر استقلالاً فعلياً ، إلا أنه لما ضعفت الخلافة الغربية في الأندلس في بداية القرن الحادي عشر قامت حكومات مدن جديدة كجنوا ويزنا والبندقية على أنقاض الأمبراطورية الرومانية وأخذت تستأثر بالتجارة البحرية وتبني الأساطيل البحرية ، الأمر الذي كان وقفاً على العرب حتى ذلك العهد ، وقد مكنتها هذه السيادة البحرية من أن تنقل بطريق البحر حملات الصليبيين لتهاجم القوة الإسلامية في فلسطين ذاتها حين حل الحكم التركي الغاشم محل الحكم العربي .

ومع ذلك ظل المسلمون في الجزائر ومراكش يسيطرون سيطرة من نوع ما على غرب البحر المتوسط ومارسوا فيه أعمال السطو والقرصنة لعدة قرون . وأهم من هذا كله أن التجارة العربية لم تقابل منافسة ما في المحيط الهندي فترة من الزمان لأن حاجزاً من اليأس وقف يفصل بين الشرق والغرب ، والواقع أن زوال ذلك الحاجز في الأيام الحديثة هو الذي أدى إلى انهيار التجارة العربية نهائياً<sup>(١)</sup>

وهكذا نرى تأثير الصحراء على التاريخ فإن النطاق الصحراوي الكبير كان وما زال منبع الدين الإسلامي ومصدر قوته بامتداده من الصحراء الكبرى إلى بلاد العرب إلى قلب آسيا ، والأصل في وجوده يرجع إلى الظواهر المناخية الطبيعية ، وقد أعقب الفتوحات الإسلامية تقدم في استغلال الطاقة لأنه أتيحت لقوة واحدة السيطرة على البحر المتوسط والمحيط الهندي في آن واحد فألف رجال الغرب الطرق البحرية إلى الشرق كما سبق أن ألفوا الطرق البرية إليه بسبب

---

(١) يفصل المؤلف اكتشاف الأوربيين لطرق الملاحة الكبرى في نهاية القرن الخامس عشر

الغزوات التي شنّها رجال السهول على أوروبا ، وهكذا نمت الموارد الصالحة للاستغلال والفضل في هذه النتيجة هو لموقع الصحراء بالنسبة للطريق المائي الواقع على امتداد محور الكتلة اليابسة الكبرى المكونة من أوروبا وآسيا وأفريقيا . ولما كان النطاق الصحراوي متداخلاً في هذا الطريق المائي ومقطعاً إياه إلى أجزاء ، ونظراً لأن اليابس كان كتلة متصلة في ذلك الأوان بعكس البحار ظلت القوة البحرية في أيدي العرب ، ومن الطبيعي أن تؤثر الصحراء على عقول ساكنيها بتعرضهم لمؤثراتها عهوداً طويلة ، وهؤلاء يؤثرون بدورهم في غيرهم من الجماعات التي لم تتعرض لمثل هذه المؤثرات ، وقد حفز ذلك الاحتكاك الناس إلى أعمال الفسك واتساع النظرة إلى العالم عما ألفوه من قبل فأخذوا يبحثون في علل الأشياء ، وهكذا جرى التاريخ في تطوره الحديث .

---

## الفصل التاسع

### المحيط : الاكتشافات : إبيريا

إن لشكل الأرض دائماً أهمية كبرى في التاريخ لأن توزيع الحرارة والبرودة والمطر والجفاف والغابات والمراعى متوقف في أساسه على الكيفية التي تدور بها الأرض حول محورها وعلى موقعها بالنسبة للشمس ، وقد وصلنا الآن إلى مرحلة يصبح فيها شكل الأرض ذا أهمية في تاريخها على نحو آخر .

يتضح مما سبق أن الانسان لم يهتم حتى المرحلة السابقة في قليل أو كثير بشكل الأرض سواء كانت مسطحة أم كروية — بل كانت مسطحة في نظر معظم الناس تقريباً — غير أن الراسخين في العلم كانوا يعرفون أن العالم كروي الشكل حتى أن أراتوستينس الإسكندري حسب أبعاده وكانت فكرته عن شكل الأرض أدق من فكرة كولومبس عنها وكانت عملية حساب حجمها عنده يسيرة سهلة لأن المسافة بين مدينتي سين (أسوان) والأسكندرية كانت معروفة على وجه الدقة لأن مصر بترتها الغالية الغنية وفيضانها السنوي في حاجة دائمة لتعرف مساحة أراضيها بدقة وعناية . ومهما يكن من شيء ، فإن شكل الأرض لم يكن ذا أثر مباشر في التاريخ إبان عهد أراتوستينس ، بل كان حقيقة علمية ليس لإدراكها أهمية عملية في حياة البشر . ولما أصبح الناس قادرين على الاستفادة من معلوماتهم عن كروية الأرض بدأ شكلها يتحكم في التاريخ على نحو آخر .

غير أن اكتشاف شكل الكرة الأرضية كان ذا أهمية لأنه اتصل بحقائق أخرى — ذلك أن سيادة العرب كما رأينا كانت تعتمد اعتماداً جزئياً على سيطرتهم على البحار التي امتلكوا ناصيتها — وكانت الإمبراطورية الرومانية تدين بعظمها لنفس هذه الحقيقة كما اعتمدت سيادة الفينيقيين واليونانيين اعتماداً يكاد يكون تاماً على أساس إتقانهم فنون الملاحة البحرية — وكان البحر المتوسط هو

منبع هذا النشاط الملاحي وإن كانت السفن تشق طريقها بمحذاء السواحل الأخرى ومن الجائز أن تكون السفن الفينيقية قد أبحرت نحو الهند ومن المؤكد أن التجار العرب قد وصلوا إلى الصين ودار أجريكولا بنفسه حول اسكتلندا وعبر قراصنة بحر الشمال إلى الجزائر البريطانية وإيسلند وربما وصلوا إلى جرينلند أيضاً وأسسوا في أوائل العصور الوسطى مستعمرات على جميع شواطئ أوروبا الغربية دامت قليلاً أو طويلاً .

ولا اكتشاف البحار أثر بعيد في تاريخ العالم ، ولقد تكلمنا آنفاً عن سهولة الحركة على الماء بمقارنتها بالحركة على اليابس ولكنها كانت محدودة بمحدود ، فإن الملاحين القدماء اقتصرُوا في رحلاتهم على البحار الداخلية والملاحة الساحلية على هامش المحيطات بسبب ما تردد في نفوسهم من رهبة البحار المجهولة ، وأهم البحار لديهم هو البحر الذي يقع وسط أجزاء اليابس ، وهكذا كان لتوزيع اليابس أثر يتحكم في التاريخ ومنذ أربعمئة عام بسبب قصور المعرفة الإنسانية ، كان اليابس كتلة واحدة والبحر بحارا عدة والكتلة اليابسة المكونة من أوروبا وآسيا وأفريقيا تمنع في امتدادها شمالاً حتى لا تجرد في حافاتهما الشمالية ممراً خالياً من الجليد ، وتعتمد أفريقيا جنوباً حتى خشى الناس خطر المغامرة في الدوران حولها على الرغم من أن كثيراً من قدماء الجغرافيين اعتقدوا بسهولة ذلك ، حقا كانت هناك فكرة أن العالم كتلة من اليابس يحيط بها « إطار من المحيطات » ولم يخطر ببالهم قط أن أرضاً واسعة تقع في أحضان ذلك المحيط وكانوا يفرضون دائماً في تحقيق جميع أغراضهم العملية وجود محيطين عظيمين تفصلهما كتلة من اليابس .

وليس الأعمال التي تمت في نهاية القرن الخامس عشر مجرد كشف طريق إلى جزر الهند أو مجرد كشف أمريكا أو مجرد دوران مجلان حول رأس هورن ، بل أن رحلات فاسكودى جاما ومجلان أثبتت أن البحار متصلة ببعضها البعض كما أثبتت رحلات كولومبس وماجلان أن المحيطات مأمونة العاقبة في عبورها ، وهكذا اكتشف شكل الأرض ووحدة المحيطات ، ومن ثم تراجعت الملاحة الساحلية إلى المرتبة التالية بعد الملاحة المحيطية . وفي ميدان السياسة احتلت سيادة

المحيطات المكانة التي كانت لسيادة البحار . وهكذا كان لهذه الاكتشافات نتائج مختلفة بعضها ظهر عقب إتمامها مباشرة وبعضها لم نحس به إلا في صدر العصر الحاضر . وعلينا الآن أن ندرس كيف أن شكل الكرة الأرضية وحقيقة اتصال المحيطات ببعضها البعض تحكمنا في مجرى التاريخ .

لقد رأينا كيف اتسع العالم تدريجيا ، وكيف نمت المعرفة الإنسانية فوسعت بحارا وأراضى جديدة وكيف استفاد البشر في جميع أنحاء العالم من حاصلات البلاد المختلفة ، لقد نجحت غزوات القبائل المغيرة في نشر بعض الأفكار عن كنه هذا العالم ، كما نجح العرب في نشر المعلومات عن البحار الشرقية ، وحفز تقدم العلم في هذين الميدانين العقول البشرية على التفكير ولكن فكرة الوصول إلى الشرق عن طريق البر والبحر ، كانت أفعل تأثيرا في مجرى التاريخ ، لأن الحركة على الماء أسهل منها على اليابس ، لقد قام ماركوبولو برحلته الخالدة إلى الشرق متخذنا طريق البر في ذهابه والبحر في إيايه كلما أمكنه ذلك .

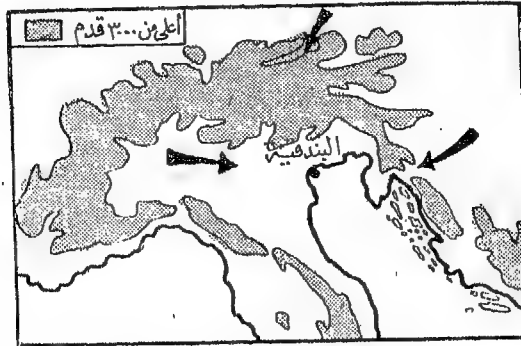
ويجب ألا يغيب عن الذهن أن قوة العرب الزمنية ، وقوة المسلمين عامة لم تقم على القوة العسكرية فحسب بل قامت على أساس التحكم أو السيطرة في مساحة واسعة ذات أهمية تجارية ، وكان هذا التحكم ممكنا لأن كتلة اليابس كانت متصلة والبحر غير متصل اتصالا ينفع كل أغراضهم العمالية ، وكان تحكم العرب في هذه المنطقة التجارية شاملا باحتلالهم الأراضي ذات الموقع الهام بين البحر المتوسط من جهة والخليج الفارسي والبحر الأحمر من جهة أخرى .

وفي واقع الأمر لقد ورث العرب كل أعمال نقل التجارة التي مارسها الرومان والآشوريون والفرس وأهالي أواسط آسيا وشمال شرق أفريقيا ، ولوقارنا تجارة الماضي بتجارة الحاضر لوجدنا الأولى قليلة الحجم نسبيا لأن النقل في تلك الأزمان كان أعسر منه في هذه الأيام ، وعلى أي الأحوال لقد جمع العرب في أيديهم تجارة العالم كيفما كانت ثم أخذت التجارة تنتشر باطراد وأخذ البشر يدركون فوائدها ، وقد وجدوا بالتدريج أنه من الخير أن يتبادلوا منتجات اقليم بمنتجات اقليم آخر ، وإن هناك وفرا في الطاقة لوبدلوا بعض الجهود في نقل الحاصلات من



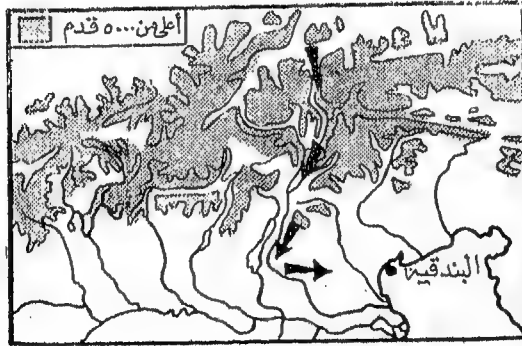
الأقليم الى آخر عما لو أنتجت جميع الحاصلات في الأقليم ذاته حتى ولو كان ذلك ميسورا وأخذت تطرق عقولهم فكرة وجود طريق مائي يمتد الى الهند وجزرها . أضف الى هذا أن الإمبراطورية الرومانية كانت قد تحضرت وقد نشأ زعماءها وابطانهم على والترف والنعيم وأسرفوا في استغلال الطاقة لتحقيق أغراضهم الخاصة كما ألفوا جمع الموارد والثروات بدرجة تفوق مقدرتهم على استيعابها ، وعلى الرغم من سقوط روما سياسياً إلا أن بضعة مدن ايطالية ظلت تعيش في مجبوحة من الرخاء والترف واعتاد أهلها التنويع في المأكل والملبس والسكن والأثاث ، مما يتعذر انتاجه في ايطاليا واستوردوه بواسطة التجارة العربية من أقصى أطراف المعمورة .

الخريطة رقم ٢٥



تقع البندقية بعيداً في الداخل ويمتد وراءها سهل لمبارديا وتتصل بالبلاد المنخفضة الشمالية عن طريق الممرات التي تعبر جبال الألب أو تلتف حولها

الخريطة رقم ٢٦



موقع البندقية

نهر برنر هو أكثر الممرات الألبية انخفاضاً — وهو يسهل الإتصال بمدينة البندقية

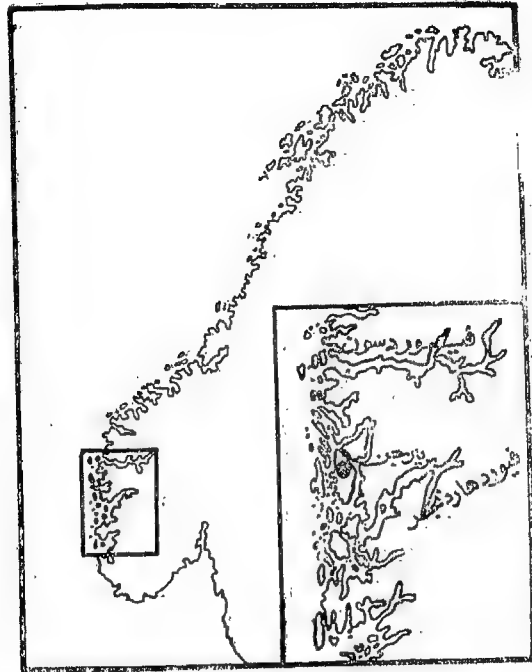
كما أن أوروبا والت تقدمها في سلم الحضارة ، وظهرت بالتدريج دول على أقطاب ،  
الامبراطورية الرومانية ، تكونت مباشرة بسبب تهديد جماعات الرعاة من الشرق .  
وهجوم العرب من الجنوب ورجال البحر الأشداء من أشباه الجزر الشمالية ،  
وأخذ مستوى المعيشة في هذه الدول الناشئة يرتفع تدريجياً ، ووجد أهلها بمرور  
الزمن أن اللحم المقدد الذي كانوا يختزنونه للشتاء حين تعجز الأرض عن الإنتاج  
يصبح لذيق الطعام مستساغاً لو أنهم أضافوا إليه بعض البهارات ، وعلى الأخص الفلفل ،  
وأن النشاط الذي يبعثه الطعام يمكن أن يزيد لو استثيرت شهية الإنسان للأكل .  
وزادت قدرته على هضمه ، وهكذا أصبح لتجارة التوابل التي كانت في أيدي العرب  
شأن أي شأن ، ومن ثم اختصت التجارة بما خف وزنه وقل حجمه وغلائمه حتى  
توازن تكاليف نقلها لا بالبحر وحده بل وفي البر أيضاً وعلى ظهور الأبل والخيول .  
وهكذا جنى العرب أرباحاً طائلة من نقل هذه التجارة الثمينة .

ولكن العرب لم يفتحوا أوروبا وقد نشأت بها مدن تجارية في مواقع ملائمة .  
وتجمعت لها قوة عظيمة ، وكان من الطبيعي أن يكون شمال إيطاليا أكثر البقاع  
ملاءمة لنشأتها حيث البذخ والترف على أشده وحيث تجد التجارة لها أسهل  
المنافذ إلى أراضي أوروبا الشمالية . فقامت البندقية في ظل حماية مستنقعاتها الرملية .  
آمنة من العدوان عليها من البر أو البحر ومارست تجارة عظيمة لسنوات عديدة .  
وكذلك نشأت جنوة وبيزا جمهوريتين تجاريتين هامتين أيضاً ، ونظراً لحاجة العدد  
الوفير من سكان شمال إيطاليا إلى مقادير كبيرة من البضائع يستوردونها من  
البلاد المجاورة كانت السفن تأتي إليهم محملة بالبضائع على كل حال وأخذت البندقية  
وجنوة الثغور التي تستقبل بضائع الشرق الثمينة وفاقتا الموانئ الأخرى في حجم  
التجارة الواردة إليها ، وهكذا نمت هذه المدن وأخذت موانئ هامة لأن مثل  
هذه التجارة وإن صغر حجمها كانت تدر أرباحاً طائلة على من يمارسونها بنجاح .  
ولما كانت الهند وجزائر الهند هي المصدر الوحيد لهذه البضائع الثمينة تخيل  
سكان الأمم الغربية بطبيعة الحال أن الهند بلاد غنية وترعت في صدورهم رغبة  
جامحة للوصول بأنفسهم إلى هذه الأراضي الجديدة حتى يتيسر لهم استحضار  
كنوزها دون أن يدفعوا للعرب عليها مكوساً .

وينبغي أن نلاحظ الآن أن الأراضي التي تحف بالمحيط ، ولنسمها باسمائها الحديثة كالبرتغال وأسبانيا وفرنسا والأراضي الواطئة وألمانيا والدانمرك والنرويج وبريطانيا ، قد استقبلت جميعا أما مباشرة وأما غير مباشرة أضواء الحضارة من مواطنها في البحر المتوسط ولكنها ظلت تعيش حتى الآن اكتشاف المحيطات على هامش هذا العالم وظل البحر المتوسط هو مركز الثقل في العالم على الرغم من سقوط الامبراطورية الرومانية ، وتركزت فيه جميع طرق المواصلات وفي الطرف الشرقي منه بوجه خاص حيث ازدهرت أعمال التجارة في أعظم مقاديرها .

ويبدو لأول وهلة أنه كان من المحتمل جداً أن توفق إحدى هذه البلاد إلى اكتشاف المحيط قد وفق فلما النرويجيون إلى كشفه فقد اضطروهم فقررتهم إلى الهجرة بحثاً عن الأسماك ، فأصبح ممر Inner lead هو الطريق الشمالى الأعظم في ظل

الخريطة رقم ٢٧



الطريق الساحلى للنرويج  
Inner Lead سمر انرييد

حماية الجزر العديدة الممتدة بحذاء الساحل وقد تفرعت منه فيوردات <sup>(١)</sup> لا حصر لها فكانت الترويح بيئتها خير مدرسة لتربية رجال البحر الأشداء ، ولا يبعث على الدهشة إذن أن يخرج أهلها متجهين غربا ليعبروا المحيط وأن يتجهوا جنوبا على طول السواحل إلى حيث يستقرون لصيد الأسماك أو لامتلاك الأراضي التي يحلو لهم أن يتخذوا منها مقراً ، أما الدانمركيون والسكسون فهم بطبيعتهم أقل ميلاً للملاحة ، ولكنهم عبروا بحر الشمال مضطرين بحكم الضغط الواقع عليهم من خلفهم من جراء هجرة القبائل الرعاه من الشرق ، أكثر من أنهم هاجروا استجابة لحنين طبيعي فيهم إلى البحر ، فأنشأوا امبراطورية بحرية في بحر الشمال تحت قيادة سويين وكونوت لم تدم إلا قليلاً ولم يوفقوا إلى اكتشاف حقيقة اتصال المحيطات ببعضها ووحدها ، لقد كانت امبراطوريتهم شبيهة بالامبراطورية الرومانية الأولى التي قامت على شواطئ البحر المتوسط ولكنها أقل سكاناً وأفقر موارد مما يصلح للاستغلال ، لقد كانت لحظة عابرة في التاريخ حتى أن اكتشاف النورسمن <sup>(٢)</sup> لأمريكا لم يترك في مجرى التاريخ أثراً ما ، لأنها كانت في نظرهم أرضاً بعيدة مهجورة منعزلة عن العالم ذات مناخ بارد فقيرة في مواردها ولم يهتموا وقتئذ ولا بعد ذلك إن كان الماء محيطاً واحداً أو محيطين منفصلين لأن هذه الحقيقة لم تكن لتؤثر في حياة البشر اليومية ..

وكم عاش ملاحون وصيادو سمك آخرون على الشواطئ التي تحف بالمحيط وكانوا يجوبون في قواربهم الخفيفة الساحلية من خليج إلى آخر من بين الخليجان التي تعمق كثيراً في اليابس غير أن ملاحتهم لم تتصل بالشریان الأكبر للتجارة العالمية بسبب سيطرة العرب على مضيق جبل طارق فظلت تجارة هؤلاء محلية في مجموعها .

على ضوء هذه الحقائق الجغرافية كان من الطبيعي أن يكون كشف المحيطات من إيبيريا وأن تكون هي البادئة بحجى فوائده ، وقد رأينا من قبل أن معظم شبه جزيرة إيبيريا تقريباً قد افتتحه المسلمون وحين وصلوا إلى الغرب كانوا قد فقدوا

(١) خلجان ضيقة في بلاد النرويج .

(٢) أهل الشمال .

كثيراً من النزعة إلى الكفاح المرير وسفك الدماء فتركوا أهل إيبريا يعيشون وقد فرضوا عليهم الخضوع لسلطانهم .

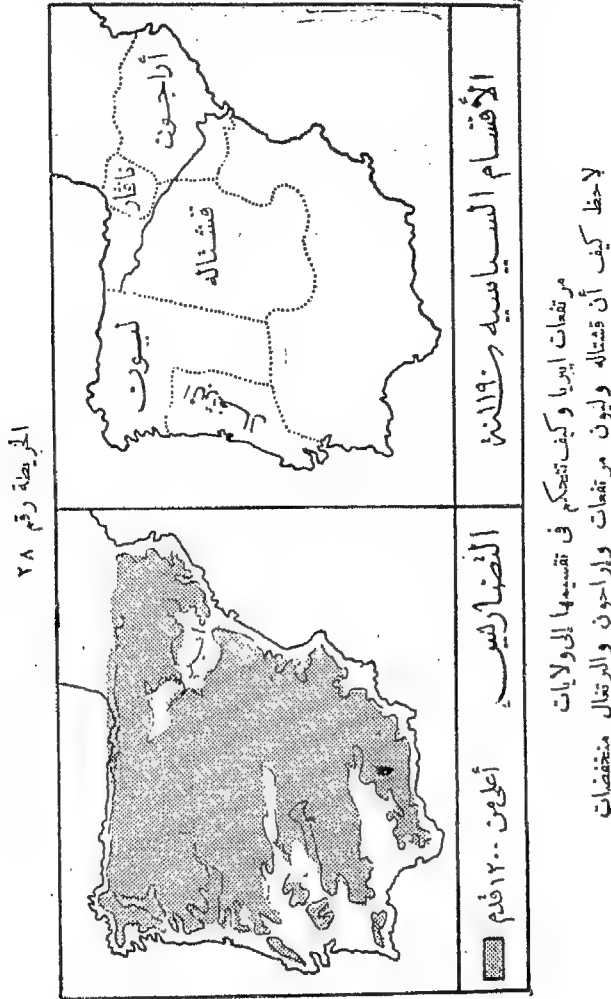
أما في الشمال من أسبانيا فقد التجأت قلة لم تغلب على أمرها إلى غابات جبال البرنس وشعاب الجبال الكنتبرية حيث يتعذر على خيالة العرب وفرسانهم أن يطاردهم وبقيت هذه القلة مسيحية في ديارها ، فقامت دويلة ليون في الجبال الكنتبرية ودويلة نافار في أودية البرانس المنعزلة .. ونجحت الدويلتان في أن تماودا المهجوم على المسلمين في أسبانيا وأن تعيدها إلى حظيرة المسيحية . وكما ازدادت أهمية كل من الدويلتين كلما كان من الطبيعي أن تبرز الفوارق الطبيعية بين السهل والجبل . أما الأراضي المنخفضة الواقعة غرب ليون فقد استقلت وأصبحت نواة لدولة البرتغال ، وخرج من ولاية نافار وادي نهر الأبرو<sup>(١)</sup> وامتد شرقاً مكوناً أمانة أراجون كما ظهرت أمانة قشتالة في الهضبة الغربية وبقي من الدويلة الأصلية في الجبال الشمالية بقية صغيرة تحمل اسم نافار ، ثم اتحدت أمانة قشتالة وليون مكونتين قشتالة الكبرى ، وهكذا أصبح في شبه جزيرة إيبريا في مطلع القرن الرابع عشر ثلاث دويلات مسيحية كبرى وكانت قشتالة وحدها هي التي تجاوز حدودها الدولة الإسلامية الوحيدة الباقية ألا وهي دولة غرناطة .

لقد نجحت البرتغال في تخليص بلادها من حكم المسلمين وهكذا ولدت البرتغال دولة مسيحية ، خلقت وهي تحارب المسلمين ، ومن الطبيعي أن تتابع الاتجاه الذي وجدت نفسها تسير فيه منذ مولدها لأن أهلها المسيحيين قد تعودوا محاربة المسلمين دفاعاً عن عقيدتهم ، فبدأ طبيعياً أن يستمروا في حروبهم الصليبية ضد المسلمين حتى ولو اقتضى تطور الحرب أن يعبروا البحر إلى أفريقيا ، وهكذا تكونت لهم قبيل منتصف القرن الخامس عشر ولاية برتغالية على شواطئ أفريقيا تسمى « بالغرب فيما وراء البحار » ( Algarve beyond the sea ) ومن ثم مهيات لهم ظروف مواتية لكشف المحيط .

---

(١) نهر أبرة .

وكان للبرنس هنرى الملاح أكبر الفضل فى السير بخطى حثيثة فى الكشف عن المحيطات ، وهو برتغالى الأصل أوتى الحكمة وبعد النظر ، ولأعماله أكبر الأثر فى الإسراع بأحداث التاريخ الطبيعية فى مسراها المقدرها . لقد شب الأمير هنرى الملاح وهو يرى أمامه دائماً قوة العرب فى تجارتهم ، فبنى فى عام ١٤١٨ مرسداً على قمة جبل ساجرس الشامخة إلى جوار رأس سنت فنسنت ، وأخذ يرسل منذ العام التالى السفينة وراء السفينة وكلها تسمى جنوباً على طول الساحل الأفريقى وهى تهدف إلى تحقيق الغرض العاجل : أى كشف طريق بحرى إلى الهند .



وكان تقدمهم بطيئاً في أول الأمر لأن الصحراء الكبرى تمتد فيما وراء البلاد المراكشية . والصحراء وهي أرض المسلمين تصل في امتدادها إلى حافة المحيط وتهب الرياح التجارية هبوباً ثباتاً نحو الجنوب الغربي وقد دخلت من رطوبتها فلا تسقط من الأمطار شيئاً يبعث بالحياة النباتية إلى هذه الصحراء . أضف إلى ذلك أن الشاطئ الأفريقي فيما بعد مراكش ينبعج نحو الجنوب الغربي ، والرياح التجارية في هبوبها في ثبات وانتظام تقذف بالسفن بعيداً عن الساحل مما يبعث بالخوف في صدور البحارة الأوربيين خشية أن يعجزوا عن العودة ، لو أنهم اتبعوها ولن يجدوا رياحاً تعيدهم إلى أوطانهم ثانياً ، وبدا لهم رأس نون ( non ) وكأنه يقف بالمرصاد لأولئك الجسورين من البحارة الذين تجرأوا وغامروا حتى وصلوا إليه ويقول لهم : « كلا . لا تتقدموا » .

من هذا يتبين لنا كيف تجمعت الأسباب الوجيهة التي حالت دون أن يدور البشر حول أفريقيا حتى ذلك الأوان ، ولكن تشجيع البرنس هنري والرغبة في اقتسام خيرات الهند هذه كلها تضافرت فدفعت بالكشف البحري إلى الأمام . وفي عام ١٤٤٧ أعلن رسمياً عن أهداف أعمال الاكتشافات حتى يكون جميع المسيحيين في الأرض على بينة منها ، إذ سمح البابا للبرتغال بأن تضم إلى تاجها كل الأراضي التي يتم كشفها بين رأس نون وأرض الهند سواء تم كشفها في ذلك الوقت أو في مستقبل الأيام ، ومن الأهمية بمكان أن نعرف ما تمخضت عنه هذه المنحة في سير التاريخ ، فإن التاريخ كما رأينا توجهه عوامل جغرافية وتنحكم في سيرة .

لم يطل الأجل بالأمير هنري ليرى نتائج مشروعاته وقد تكللت بالنجاح فلم تمض ثمانون عاماً على احتلال ساجرس حتى كان البحارة البرتغاليون يجوبون بسفنهم جنوباً على طول ساحل أفريقيا وحتى دار دياز حول رأس الرجاء الصالح ووصل فاسكودي جاما إلى الهند وعاد منها محملاً سفينته بالتوابل والإفريقية ليثبت لمواطنيه كشف الطريق إليها ، ومنذ ذلك الوقت لم يمد هناك محيطان منفصلان ، بل أصبحت مياه الأرض محيطاً واحداً متصلاً ، واحتسب بحرارة

الحيط أعمال التجارة منذ ذلك الوقت لأنهم استطاعوا توفير الطاقة بفضل نقل البضائع في طريق مائى بحت ، وهكذا تمت خطوة أخرى عظيمة في تقدم الحضارة ، ففي أقل من خمس سنوات بعد عودة دى جاما من الهند كانت السفن التي اعتادت نقل البهارات من موانئ بيروت والإسكندرية تدخل ميناء البندقية وهي خاوية ، كما لم يمض على عودته اثنا عشر عاما حتى تم غزو حزر الهند الشرقية وهزيمة العرب في البحر العربي وفي ملقا ، وهكذا توطد النفوذ البرتغالى على طول سواحل الهند .

لقد وفقت البرتغال إلى القيام بطلائع أعمال الكشف والإرتياد بفضل موقعها الجغرافى وبفضل همّة الأمير هنرى ، ولما كان أهل إيبيريا مسيحيين من المذهب الكاثوليكي أى كاثوليك من أتباع الكنيسة الرومانية الذين تملأ قلوبهم الحماسة الدينية لم يمر منشور البابا دون أن يثير غريزة المنافسة في نفوس أهل قشتالة ، واهتموا جميعا بالكشف البحرى جنوبا وعلى الأخص حين وصلت البعث إلى ساحل غينيا وأخذت تنقل منتجاتها إلى أوروبا .

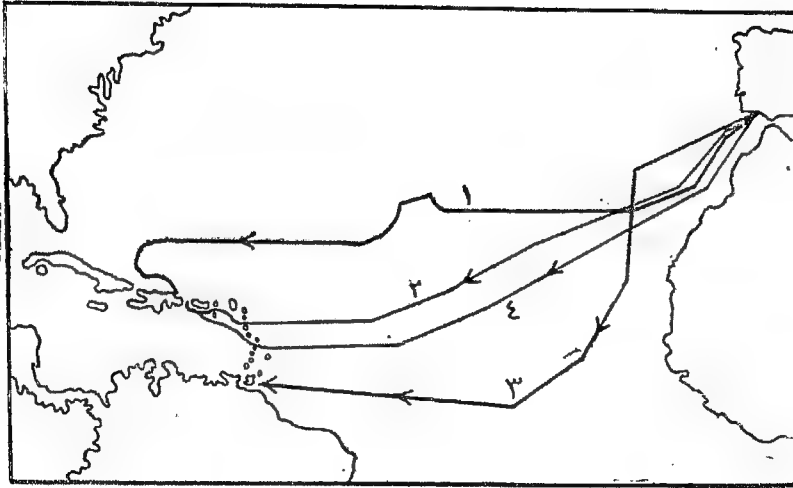
حينئذ وحينئذ فقط أضحت حقيقة كروية الأرض ذات أهمية عظمى ، فما دامت الأرض كروية فلا بد أن يكون هناك طريق آخر إلى الهند بالإتجاه غربا وهو طريق مفتوح لكل رائد يجرو على ارتياد مجاهله ، ولما كانت إيبيريا تقع على الطرف الغربى للبحر المتوسط الذى عاش حوله جميع البحارة ممن عملوا على نقل التجارة العالمية ، كان من الطبيعى جداً أن يبعث البحارة من أهل جنوا والبندقية وبيزا عن عمل لهم تحت قيادة السلطات البرتغالية بعد أن بدأت البرتغال عهداً من التوسع فيما وراء البحار وعلى الأخص حين لم يكن هناك من الدوافع ما يحفز البرتغاليين لاحتراف الملاحة في العصور الأولى ، فليس بمعجيب إذن أن يفكر كولمبس في أن رحلة إلى الغرب جديرة بالمغامرة ، وهو الرجل الجنوى الأصل الذى ألف أعمال التجارة والذى أقام سنين عدة في البرتغال وقد انتشرت في أجوائها الأحاديث عن التجارة العالمية ، أضف إلى هذا أنه ملاح قدير شقت سفنه عباب البحر إلى جزر أزورس وإلى إيسلند ، ودرس الكثير عن النظريات التي تعالج شكل الأرض .



ولكن البرتغال لم تهتم بالكشف غرباً وهي التي خصصت جهودها لاكتشاف الطريق الشرقى إلى الهند وهو الطريق الذى انفتح أمامها . أما الولايات الإيطالية فكانت لا تزال تفضل استمرار البحر المتوسط كحلقة في سلسلة الطريق إلى الشرق مفضلة إياه على أن تساهم في فتح طريق جديد ، أما بريطانيا فلم تكن تدرك بعد معنى التجارة العالمية ، وكانت قشتالة هي البلاد الوحيدة التي وجد فيها كولبس عطفاً ملحوظاً على أفكاره . ويجب ألا ندهش من أنه استغرق سنين عديدة لينزل عن الناس خوفهم من المحيط الذى سيطر على عقولهم أحقاباً طويلة ، وكولبس مثله كمثل الأمير هنرى قد استغرقت منه المحاولة وقتاً طويلاً على الرغم من أنه في كلا الحالين تمت المحاولة على يد رجل واحد ، وربما لو قدر لغيرهما أن يقوم بها لآتمها في زمن أقصر مما قدر لأيهما ولكن كليهما كان المثل الذى خلقتة الظروف الجغرافية لأداء هذه الرسالة .

وسرعان ما أدركت دول أوروبا قيمة اكتشاف كولبس إذ لم تمض ستة أسابيع على عودته في عام ١٤٩٣ حتى أصدر البابا منشوراً يؤيد كروية الأرض . ويمنح نصف الكرة الغربى لأسبانيا كما سبق أن منح النصف الشرقى للبرتغال ، ولم تكن الأراضي التي اكتشفها كولبس في محاولته للوصول إلى الهند بلاداً يهتم بها البشر آنئذ ، فقد اقتصر البرتغاليون على تحميل سفنهم بالتجارة الهندية التي اعتاد العرب نقلها من قبل . أما في العالم الجديد فلم يجسد الأسبان تجارة أو بهارات ينقلونها ، بل أن الأسبان الذين جاءوا في أعقاب كولبس في أعداد وفيرة كانت تساورهم ثلاث أفكار هي القتال والتبشير بالمسيحية واقتناء الذهب والفضة ، ولم تشغل التجارة حيزاً من تفكيرهم . ويجب ألا يبعث هذا على الدهشة لأن أهل قشتالة اعتادوا القتال منذ قرون مضت في سبيل نشر المسيحية ، هذا بالإضافة إلى أن الهضبة التي يعيشون على سفوحها تنتج المعادن الثمينة ولا تلائم التجارة .

وعلى الرغم من أن نصف العالم الغربى منج لأسبانيا إلا أن الأسبان لم يفتحوا كل أراضيهم ، وتحكمت العوامل الجغرافية في تحديد الأراضي التي دخلت في نطاق .



الخريطة رقم ١٩  
رحلات كولومبس

لم ترسم هنا طرق العودة — يتضح ان اتجاه الرياح التجارية قد حددت الطريق لكافة رحلات من الرحلات

نفوذهم ، فان نظرة إلى الخريطة تربنا كيف أن الرياح التجارية في المحيط الأطلسي تهب في ثبات وانتظام إلى الجنوب الغربي ، ولهذا لم يعبر كولمبس المحيط في اتجاه غربي تماماً بل اتخذ اتجاهه غربي الجنوب الغربي فوصل إلى الجزائر التي نطلق عليها الآن جزائر الهند الغربية ، ووصل في الرحلات التالية إلى أمريكا الجنوبية والوسطى ، ولما كان برزخ بنما ضيق العرض فقد سمع كولمبس من الأهالي بوجود المحيط الهادي وبعد بضعة أعوام عبر الأسبان برزخ بنما وبنوا سفنهم على شواطئ المحيط الهادي وهكذا جهل كولمبس وجود أمريكا الشمالية جهلاً تاماً وانتشر الاستعمار الأسباني غرباً من جزائر الهند الغربية نحو المكسيك وجنوباً على طول شاطئ المحيط الهادي في أمريكا الجنوبية بما فيها الأجزاء الجبلية حيث وجدوا سبيلاً إلى استخراج المعادن الثمينة ، وكانوا يبيدون الوطنيين أو يجبرونهم بحذ السيف على تغيير دينهم وساقوهم رقيقاً يباع في الأسواق ليخدموا أسيادهم الجدد ، وهكذا تطورت البلاد التي افتتحها الأسبان فأصبحت أسبانية حتى في لغتها .

وبينما كان الأسبان يخضعون المكسيك كان ما جلان يحاول آتام العفل الذي

بدأه كولبس ، فأبحر غربا يبغي الوصول إلى جزائر الهند الشرقية جريا وراء تجارة الافاوية والتوابل ، ومجلان برتغالى المولد سبقت له زيارة جزر الهند الشرقية وربما كان قد وصل في رحلته إلى جزائر مولوكا Moluccas وأدرك أن تجارة التوابل تدر ثروات طائلة ، وقد رأينا أننا أن البرتغاليين لم يهتموا بالطريق الغربى إلى الهند وأن الأسبان لم يهتموا إهتماما بالغاً بتجارة البهارات غير أن منافستهم للبرتغال حفزتهم إلى مساعدة مجلان كما ساعدوا كولومبس من قبل .

كانت مهمة مجلان هي شبيهة بالجمع بين أعمال دياز وكولبس ، فهي شبيهة بمهمة دياز ومن سبقوه حينما حاولوا أن يجدوا ممرا حول الطرف الجنوبى لكتلة عظيمة من اليابس تفصل بين محيطين ، وهي شبيهة بمهمة كولبس إذ كان عليه أن يعبر محيطا خفيا لم يسبق لأحد ارتياده بل أن مهمة مجلان تفوقهما مشقة فالظروف تحتم عليه ألا ينال جنوبا إلى مدى أبعد مما بلغه دياز وعليه أن يعبر محيطا أوسع من المحيط الذى قطعه كولبس ، ولكن الحقيقة الراهنة ظلت ماثلة أمامهم وهي أن مثل هذه الصعاب أن ذلت كان الفجاح أكثر احتمالا وكان بحارة ما جلان راغبين في الاستمرار في رحلتهم على الرغم من أن الصعوبات الفعلية التى لا قوها كانت تفوق نظائرها في الرحلات السابقة .

وهكذا نجحت محاولة ما جلان على الرغم من أن الرجل قضى نوبة ألبانها فأن الطريق الغربى إلى جزر الهند الشرقية قد تم ارتياده وأمكن اتجارة البهارات والمطور أن تصل إلى أسبانيا وأصبحت بعض أراضي الشرق الأقصى تخضع لها وطبعها الاحتلال الأسبانى بطابعة الخاص ولا تزال جزائر الفلبين تحمل إسم ملك أسبانيا وقد بقيت أسبانية مدة أربعة قرون ، وظلت في خلال ثلاثة قرون منها تستقبل السفن التى أبحرت إليها من أسبانيا وقد اتجهت غربا ولا تستقبل السفن الآتية من البرتغال وقد اتجهت شرقا ، وقد ورثت حتى الآن شرور حكم اسى كسيح عاجز منحه البابا لأسبانيا حين كانت قوة تحارب المسلمين .

غير أن الطريق الأسبانى إلى جزائر الهند الشرقية لم يحرز نجاحا ، لا لمجرد كونه أنه يزيد في طوله كثيراً عن الطريق الشرقى بل لأن هذه

المسافة الشاسعة ترجع إلى أن الطريق يمر عبر مساحة واسعة من المحيط تبلغ نحو نصف محيط الكرة الأرضية تقريباً<sup>(١)</sup>. وقد خلا هذا المحيط الشاسع من البقاع اليابسة ، وبالجملة فإن الانتقال على المحيطات أسهل بطبيعته ويقتضى مجهوداً وطاقة أقل مما يبدل في النقل على اليابس ولكن اليابس يمتاز بأنه المكان الوحيد الذى يستطيع الإنسان أن يستقر فيه وأن ينتج ويحمل الطاقة فى متناول يده ، بينما يتعذر إنتاج أى شئ فى المحيط ، ومن ناحية أخرى فإن بلاد الهند الشرقية على الجانب الآخر من العالم لا تقدم للمكتشفين غير التوابل التى اعتز بها البرتغاليون أيما اعتزاز ولم يعرھا الأسبان قسطاً من اهتمامهم واحتقروا تجارتها وانصرفوا عنها إلى اقتناء الذهب والفضة .

وهكذا نرى أن اكتشاف وحدة المحيطات واتصالها أدى إلى تسلط البرتغاليين على مفاتيح التجارة العالمية وحلولهم محل العرب فى السيطرة عليها على حين أدى الكشف عن شكل الكرة الأرضية إلى تسلط الأسبان على معظم أمريكا غير أن جزءاً من القارة الأمريكية وهو البرازيل وقد وقع فى قبضة البرتغاليين باعتبار أنه واقم فى نصف العالم الذى كان من نصيبهم .

---

(١) يبدو هذا واضحاً إذا عرفنا أن شمال الصين يقع تقريباً على الطرف الآخر المجهور للأرض الممتد بين الصين وجنوب أمريكا الجنوبية.

## الفصل العاشر

### المحيطات — سيادة المحيطات — هولندا وفرنسا

لقد اقتصمت أسبانيا والبرتغال لفترة من الزمان ثمرات كشف المحيطات وظهرتا كأنهما ستظلان تقتسمان هذا النفوذ إلى الأبد مادامتا حائرتين لتأييد البابا — غير أن البابا ليس في مقدوره أن يغير الظروف الجغرافية ولا أن يعدل من سلطانها على عقول البشر .

وقد سبق أن رأينا كيف أن فوائد النقل البحري تربي على فوائد النقل البري وأن الطريق البحري ممتاز بإمكان نقل البضائع لمسافات طويلة وبتكليف نقل كثير مما يتطلبه نقلها بالطريق البري — ورأينا أن ايبيريا تواجه المحيط مباشرة غير أنها شبه جزيرة منعزل تقريبا عن باقي أوروبا وانها بهذا الوضع لا تصلح لأن تكون مرفأ مناسباً للجزء الأكبر من البضائع المرسلة إلى القارة ، وقد امتد وراء مدينة البندقية سهل لمبارديا وهو بلاد عمرت بالسكان بفضل ثروتها وبفضل تاريخها الماضى الذى تحدثنا عنه حتى الآن ، بينما لا يقطن فيها وراء لشبودة عدد وافر من السكان وليس في أسبانيا ما يشبه سهل لمبارديا ، فهي هضبة جرداء في معظم أراضيها ، ونشأ عن ذلك أن أصبح أغلب البهارات والتوابل التى تصل إلى لشبونة مصيره النقل مرة أخرى إلى داخل القارة متوخيا أرخص الطرق وأيسر سبل المواصلات .

وليس المجال هنا مجال الحديث بإفاضة عن أسباب حركة الإصلاح الدينى أو النهضة التى كان الإصلاح الدينى مظهر من مظاهرها فان كلاهما راجع إلى حد كبير إلى النظرة الشاملة التى نظر بها الناس إلى العالم والتى أوحى بها اليهم الأحداث التاريخية ، وقد رأينا التاريخ مسيرا بفعل العوامل الجغرافية ، ولكن يجب أن نأخذ بعين الاعتبار أن النهضة وإن عم أثرها أوروبا جميعا إلا أن الإصلاح الدينى كان أعمق أثرا

في البلاد التي كانت أبعد ما تكون عن مواطن الكنيسة الكاثوليكية ، مثله هنا كمثل المسيحية في انتشارها وتأصلها في البلاد التي لم تسمسها اليهودية من قبل ، فقد عم الإصلاح الديني هذه المنطقة بالذات التي تسكنها شعوب لم تستسغ طرائق التبشير بأصول المذهب الكاثوليكي استساغة الشعوب التي خضعت لسلطان روما منذ أمد بعيد ، والتي عاشت في بيئات جغرافية مختلف نوعاً ما عن البيئات التي سادها الإصلاح الديني ، ومن ثم اختلف التطور التاريخي في شمال القارة عنه في جنوبها وأصبح الموقف شبيهاً بالآلة التي لم تهيأ تماماً لظروف استخدامها ، وتولد عن هذا الاختلاف بين الشمال والجنوب احتكاك متزايد ، كما أدى اختراع الطباعة في البلاد الشمالية إلى توفير عظيم في طاقة أهلها وانطلق الناس يوجهون جهودهم إلى ميادين أخرى فانتشرت بصفة خاصة المذاهب الحديثة انتشاراً أسرع كثيراً مما لولم يقدر للطباعة أن تظهر . وهكذا تمكنت العداوة في النفوس بين أهل الشمال والجنوب ، وظلت كامنة تنتظر الشرارة الأولى فتنتطلق من عقالها وليس بعجيب بعد ذلك أن يستغل الناس أسباب العداوة فتندلع الثورة البروتستانتية الهولندية من جراء تصرفات الأسبان الكاثوليك (١) .

والعوامل الجغرافية أكبر الأثر في تكييف ميول أهل الأراضي الواطئة وعليها توقفت قدرتهم ورغبتهم في تحرير أنفسهم لم يكن بد من أن جرى اتصال إبان العصور الوسطى بين شمال أوروبا الذي كان يسير تدريجياً في طريق المدنية وبين جنوبها المريق في مدينته ، وكان المسلمون يضعون أيديهم على بوغاز جبل طارق ولم تكن هناك طرق توصل بين الشمال والجنوب ومن أصبح للأشهار الأهمية الكبرى ونهر الراين هو دون الأنهار الأوروبية الوحيد الذي يستمد مياهه من منابعه الألبية في جنوب أوروبا ، أضف إلى ذلك أن واديه يبدو في خريطة أوروبا الغربية كما لو أن الطبيعة قد قدته في الهضبة المحيطة به وهبطت به إلى مستوى لا يزيد عن بضعة مئات من الأقدام فوق سطح البحر . هذا الوادي كان الطريق الرئيسي في أوروبا الغربية الذي انتقلت عليه الأصواف المستوردة من إنجلترا ، وإنجلترا في تلك الأيام كانت

---

(١) يلاحظ أن الأراضي الواطئة كانت في هذا الوقت تحت حكم الأسبان .

الخريطة رقم ٣٠



وادي الرين

وادي الرين هو جزء من السهل منغلج تقريبا تحيط به المرتفعات

تقوم بدور في تجارة الأصواف شبيه بالدور الذي تأعبه استراليا اليوم ، فكانت  
تسل أصوافها إلى المدن الصناعية في شمال إيطاليا من أمثال فلورنسه وبيزا ، وهما  
المدينتان المزدحمتان بسكانهما الذين كانوا على مستوى رفيع من العيش يمكنهم من  
أن يدفعوا الثمن الذي يتطلبه شراء الكماليات من الملابس الصوفية الجيدة .  
وصحبت تجارة الصوف - وهو سلعة كبيرة الحجم - أنواع أخرى من التجارة ،  
وبعض الزمن قامت مصانع لنسج الصوف في الأراضي الوطيئة وهي التي تقع  
في طريق نقله من إنجلترا ، ثم نشأت مدن صناعية فيما نسميه اليوم بلجيكا  
( م ٩ - الجغرافيا )

وازدادت أهمية هولندية بنمو بلجيكا ، ذلك أن أهل بلجيكا لم يكونوا رجال بحر على حين شب أهل هولندية بحارة بطبيعة سكنائهم الحزر المنتشرة بمخاء ساحل بلادهم الضحل . واضطرتهم بيئتهم إلى الاعتماد على صيد الأسماك في معاشهم المتواضع ، وكما تجمع السكان تدريجياً في الغرب (أى في بلجيكا) وكما ازدادوا غنى وثروة ، كما جنى البحارة الهولنديون أرباحاً طائلة من صيد الأسماك التى كانوا يزودون بها الجماعات الصناعية ، فازدهرت حرفة صيد الأسماك ونمت بنموها ثروة الهولنديين وزاد عدد من يجترونها . وأدى هذا التفاعل المزدوج بطبيعة الحال إلى استمالة التجار البلجيكيين بصيادى الأسماك الهولنديين في نقل بضائعهم بالبحر ، أما في أسبانيا والبرتغال فإن نسبة ضئيلة فقط من سكانهما كانت تحترف الملاحة البحرية ، كما احتاجت أسبانيا إلى عدد قليل من السفن لنقل تجارتها من بهارات أو ذهب أو فضة إلى إيبيريا ، بينما امتلكت هولندية عدداً كبيراً من السفن . فلما بدأ اليأس ينجم على أهل هولندية في صراعهم مع أسبانيا وينذر بفشلهم في سبيل حريتهم اقترح بعضهم بصفة جدية أن تقوم السفن بنقل جميع السكان من البلاد باحثة لهم عن وطن جديد فيما وراء البحار - وهكذا سكنت في الأراضي الوطيدة جماعات قوية من التجار وإلى الجنوب منها يجرى أبداع طريق مائى إلى قلب قارة أوروبا . وليس من الغريب بعدئذ أن تصبح مدينة أنتورب البلجيكية ذات مركز تجارى رئيسى في أوروبا وأن يضيف الهولنديون إلى جملة حرفهم حرفة نقل البهارات وأن يجنوا من ورائها أرباحاً طائلة . حقاً كان للأراضى المنخفضة البلجيكية منفذ إلى البحر ولكن كان سكانها تجاراً وصناعاً أكثر منهم ملاحين وبحارة ، ومن ثم أخذت ثروة الهند والشرق تجذب طريقها إلى البلاد الهولندية التى لم يكن الدفاع عنها سهلاً ، حتى أنه لما شبت الثورة الهولندية كان أول ظهور لها في أبعد جزيرة في مصب نهر الرين وهى التى استطاع أهلها فعلاً أن ينفروا أراضيهم كي يفرقوا أعداءهم ولكي يتمكنوا لسفنهم المفاطحة انقاع من أن تقترب من مدنها المحصورة ، وسرعان ما وجد الهولنديون أنفسهم يملكون زمام البحر ، أما بلجيكا فقد حرمت كل هذه الميزات وبقيت خاضعة للحكم الأسباني ، ولم يقتصر الأمر بالهولنديين أن أصبحوا أمة من التجار بل إنهم تسلطوا على سيادة المحيطات العالمية فترة من الزمان .



ولقد ارتكب الأسبان خطأ فاحشاً ، ذلك أن الذهب والفضة وما يتبعهما مما يسمى أحجاراً كريمة ليست ثروة في حد ذاتها وإنما هي تقوم مقام قدر معلوم من الطاقة حسب ما جرى عليه العرف والتقاليد ، وهي ليست طاقة في حد ذاتها ، فلم يحدث أى استغلال لموارد الطاقة في البلاد التي افتتحها الأسبان ، كما أن هذا الفتح لم يزد في ثروة أسبانيا الحقيقية إلا قليلاً - يتضح لنا ذلك لو أدركنا أن إقليم الأراضى المنخفضة الصغير كان ينل للخزاية الأسبانية دخلاً يقدر بأربعة أضعاف ما كانت تمسله جميع أراضى المكسيك وبيرو ، ففي الأولى كانت الطاقة تستغل استغلالاً طيباً ويفيض منها الكثير بينما لم تستغل الثروة إلا قليلاً في العالم الجديد ولم يفيض منها شيئاً .

واعتمدت السيادة المحيطة الأسبانية على الذهب فقط ، على حين قامت القوة البحرية الهولندية على أساس الاستفادة من الطاقة التي يملكونها والتي يسخرونها في سبيل الحصول على قسط أكبر منها ، فازدادت الثروة التي تجمعت في أيديهم وتسربت آخر الأمر إلى هولندا نسبة كبيرة من الذهب الذي جلبه الأسبان من جزر الهند - وليس من شك في أن مجرد الغزو العسكري لأى إقليم لا يترتب عليه ازدياد في الثروة أو اقتصاد في الطاقة لدى الفاتحين .

ولم تقتصر أسبانيا على غزو إقليم فيما وراء المحيطات بل أنها تسلمت أيضاً على البرتغال فترة من الزمان وقضت على نفوذها وعلى قدرتها في تنمية ثروتها بالاتجار في التوابل والبهارات التي احتكرتها حتى ذلك الوقت على الرغم من أن موقعها الجغرافى لم يكن يلائم التجارة مع باقى دول أوروبا كما يلائمها موقع هولنده فما وافى عام ١٥٧٨ حتى اقتنصت هولنده هذه الفرصة السانحة وقامت بقيادة وليم الصامت وخلفت عنها كل قيد للسلطة الأسبانية ، واندفع البحارة الهولنديون في عدائهم مع أسبانيا يجوبون البحار ولا يمترون للبابا بمنحته السابقة ويمتصبون من أعدائهم كل أرض يستطيعون الاتجار معها ، وكانت هذه الأراضى من الممتلكات البرتغالية في أغلبها ، ولم يفرق الهولنديون عندئذ أن كانت تلك الأراضى تابعة للبرتغال أو لاسبانيا . ولم يكدهم على ذلك نصف قرن آخر حتى كان

الهولنديون يحجبون البحار في أربعة أركان المعمورة ، وبعد بضعة أعوام أخرى حين بلغت قوتهم ذروتها كانوا سادة جزائر الهند الشرقية بلامنازع ، وأسسوا مستعمرات لهم في البرازيل وفي غيانه وارتادوا رأس هورن<sup>(١)</sup> وداروا حوله واطلقوا عليه اسم قرية صغيرة من قرى بلادهم التي اشتهرت بصيد الأسماك ، وامتلكوا محطات تجارية على شواطئ غيانا في أفريقييا وأسسوا المستعمرات في مدينة الرأس في طريقهم إلى الهند وامتلكوا جزائر موريس واطلقوا عليها اسم أميرهم كما امتلكوا جزيرة سيلان ووضعوا أيديهم على مدخل أمريكا الشمالية عند مدينة نيو امستردام<sup>(٢)</sup> ، بأضيف إلى ذلك أنهم قاموا بالجزء الأكبر في نقل التجارة بين دول أوروبا كما نقلوا البضائع بين أسبانيا وفرنسا وأمريكا . ولقد جعلوا من أنفسهم عمال الشحن في البحار كما سمو أنفسهم وهكذا انتقلت إليهم سيادة البحار التي كانت لأسبانيا والبرتغال وأن ظلت أسبانيا محتفظة بشركات فتوحاتها .

غير أن السيطرة البحرية الهولندية كان لابد وأن تدول لأسباب جغرافية ، كما دالت من قبل السيطرة البحرية الأسبانية والبرتغالية ، وقد تقدمت وسائل استغلال الطاقة وأصبحت منتجات البلاد البعيدة في متناول الجميع بأثمان رخيصة نسبياً .

ولكن الضرورة تدعو إلى شيء أبعد من ذلك ، ولتضرب مثل الآلة السابق ذكره توضيحاً لهذه الحقيقة . فكل آلة في حاجة لبعض العناية لصيانتها لتدول دون تسرب طاقتها حتى تؤدي عملها . كما يجب ، ولتتحول أيضاً دون تأثير العوامل المضادة تأثيراً ضاراً فيها . ولكن نوفق إلى هذه النتيجة يجب أن توجه الطاقة لتصرف في وجوه نافعة ، والخير كل الخير أن تقل الطاقة المتسربة ما أمكن ، وهولنديه ليست بطبيعية تكوينها قادرة على أن تبذل من جهودها ما يكفي لحمايتها ، ذلك أن دلتا الرين صغيرة جداً ولا تستطيع أن توفر الغذاء والحياة لعدد كبير من السكان ، ومن ثم قل عدد أفراد المجتمع الذين تربطهم صلات المصلحة المشتركة ومن

(١) في أمريكا الجنوبية ..

(٢) نيويورك الحالية ..

تتجاوب مشاعرهم وعواطفهم ، فلما امتعر الصراع بين الأسبان وهم رجال بر والهولنديين وهم رجال بحر آلت سيادة البحار للأمة البحرية ، ولكن لما نشب الصراع بين الهولنديين وبين أمة بحرية أخرى تدخلت اعتبارات أخرى في تقرير المصير .

أضف إلى هذا أن المستنقعات التي تكثرت بدلنا الراين والقنوات التي تتخللها كان لها أكبر الفضل في توفير الحماية للدولة الناشئة ، شأنها هنا كشأن المستنقعات التي أحاطت بمدينة البندقية أو كاللستنقعات التي أحاطت بباابل — وبفضلها أحرزت هولنده استقلالها في صراعها ضد أسبانيا — وبواسطتها تمكنت هولنده من الدفاع عن نفسها ضد الغزوات الفرنسية بعد قرن من الزمان — غير أن حدود هولنده وحاجتها الدائمة إلى الدفاع تقتضى تخصيص جزء من قوتها البشرية — وهى في الأصل ضئيلة — لتحرس حصون دفاعها ، فلما هاجمها الأعداء من البر لم يكن استسلامها أمراً عجبياً .

\* \* \*

وعلىنا الآن أن نقف قليلاً عند جغرافية الدولة التي كانت عاملاً فعالاً في إسقاط هولنده والتي بذلت في الوقت عينه محاولات مختلفة لتحجز السيطرة على المحيطات : هذه الدولة هى فرنسا .

قد رأينا فيما سبق كيف امتدت الإمبراطورية الرومانية فشملت كل بلاد غربي أوروبا وأيبيريا وبلاد الغال وجنوبي بريطانيا ، ومن ثم اكتسبت هذه الأراضى وهى في ظل السلطان الرومانى أهميتها في نظر التاريخ العالمى — وكذلك رأينا أيضاً كيف انهارت القوة الرومانية تحت أقدام القبائل المغيرة التي انطلقت عليها من خارج حدودها وكيف قامت آخر الأمر دولة في الشمال من القبائل الجرمانية التي لم تدخل قط تحت الحكم الرومانى واعترف بها البابا في روما وسميت بالإمبراطورية الرومانية المقدسة لأنه اعترف بها على أساس أنها تعيد إلى الأذهان ماضى الإمبراطورية المجيد . وشملت هذه الإمبراطورية الجديدة فيما شملت ما يعرف الآن باسم فرنسا وألمانيا ولم تشمل بلاد أيبيريا لأنها كانت في ذلك الوقت دولة أندلسية إسلامية . ثم

انقسمت هذه الامبراطورية انقساما طبيعياً — في بادى الامر — إلى ثلاثة أجزاء :  
الجزء الغربى وهو الذى كان تابعاً لروما ، والجزء الشرقى الذى لم يكن قط رومانياً ،  
والجزء الأوسط وهو الذى كان يتنازعه الإثنان ، وكان الجزءان الأولان يزيدان  
فى أهميتهما بطبيعة الحال عن الجزء الأخير الذى كان يدخل إلى حد ما فى إطار هذه  
الوحدة ، أنا وفى إطار تلك الوحدة أنا آخر ، فظهرت فرنسا تدريجياً من القسم  
الغربى ، غير أنه يجب أن يلاحظ أن فرنسا الحديثة لم تولد فى العهد الرومانى ولم تولد  
إبان امبراطورية شرلمان الأولى ، حقاً كانت الأراضى التى تتكون منها فرنسا  
اليوم بلاداً متمدينة سواء فى العهد الرومانى أم إبان الامبراطورية التيتونية ،  
ولكنها لم تولد كدولة حتى ذلك التاريخ .

ومن الضرورى أن نعرف ماهى الوحدات الطبيعية التى تتكون منها فرنسا :  
وقد عرفنا من قبل مبلغ أهمية ممر مرسلينا أو وادى الرون فى العهد الرومانى فقد أخضعه  
الرومان لحكمهم قبل أن يفتحوا سهول لمبارديا وكان وادى الرون أول الأقاليم  
الخريطة رقم ٣١



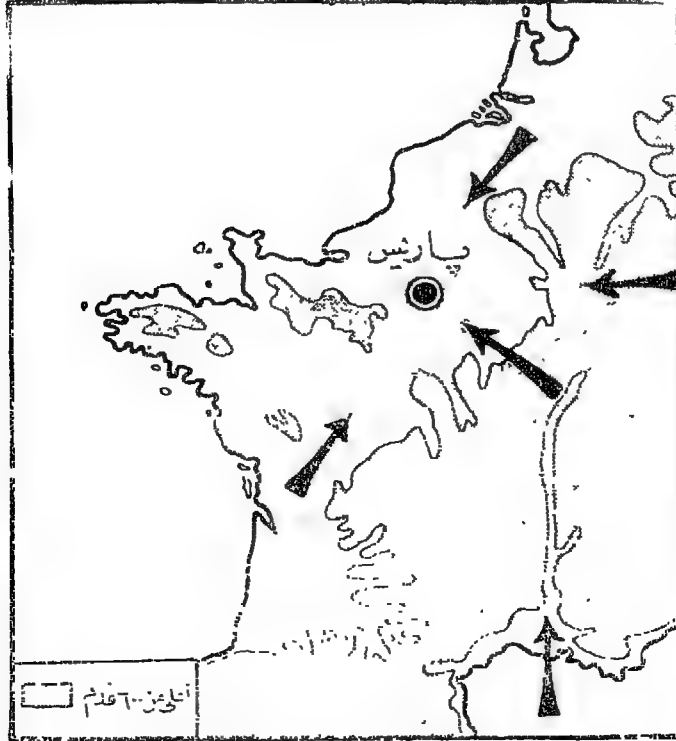
تصايرس فرنسا

المفتوحة خارج شبة الجزيرة الإيطالية، وهنا تمتد سلسلة من السهول تتكون على التوالي من السهل الساحلى ثم من وادى الرون والساؤن والممر الواقع بين جبال البرانس والهضبة الجنوبية وقد وفت مرتفعاتها فى الثفرة الواقعة بين جبال الألب وجبال البرانس. وامتازت هذه الهضبة بالخصائص الاقتصادية التى تسود أقاليم المرتفعات عادة ، فتناقضت تناقضاً بيناً مع المنخفضات على كلا الجانبين وما جبال السفن سوى الحافة الجنوبية الشرقية لهذه المرتفعات فى انحدارها ويسير خط تقسيم المياه متتبهاً أعلى قممها الوسطى ومتجهاً نحو بريتانى وتمتد على طول هذا الخط مرتفعات الأورفن وعلى جانبها يقع سهلا ا كوتانيا وشمال فرنسا ، وتتكون ترتبها من مخلفات الرواسب المختلطة التى تخلفت عن فتات صخور متنوعة ، ولهذا امتازت بخصوبتها وعلى الأخص تلك الطبقات الرسوبية التى تملأ وادى اللوار والجارون مخترة ممر بواتيينه وتيسر سبل الاتصال بين السهلين .

وقد خلت البلاد فى العصور الوسطى من الطرق ، لأن الطرق الرومانية قد أصابها التهدم والإهمال، فجرى معظم النقل فى الأنهار حتى أن الملاحة فى ذلك العهد استخدمت أنهاراً تناهت فى الصغر ولا تفكر اليوم قط فى استخدامها، وكان أثر الطرق المائية عظيماً فى تطور السهل الشمالى ، فإن نهر السين وروافده تكاد تصلح للملاحة حتى منابعها ، فىأتى نهر الواز من الشمال الشرقى ويتصل بالسين بمسد باريس مباشرة كما يجرى نهر المارن من الشرق ويتصل به قبل باريس مباشرة ، ويجرى نهر يون Yonne من الجنوب متجهاً إلى باريس أيضاً ، وهكذا نجد شبكة من الطرق المائية تتركز خطوطها حول باريس ، وأكثر من هذا أن نهر اللوار يغير اتجاهه عند مدينة أورليانز فأصبح بمثابة طريقين مائيين يؤديان إلى باريس أحدهما يتجه من مصبه إلى أورليانز والآخر يتجه من منبعه إليها مما أدى إلى اتصال باريس بسهول أ كوتانيا وبالوديان الجنوبية التى تتخلل مرتفعات الجنوب ، كما نجد أن وادى الرون والساؤن يهيئان على طول امتدادهما منفذاً سهلاً إلى سهول لانجدوك الجنوبية ويمكثان باريس من الاتصال بها عبر مرتفعات كوت دور

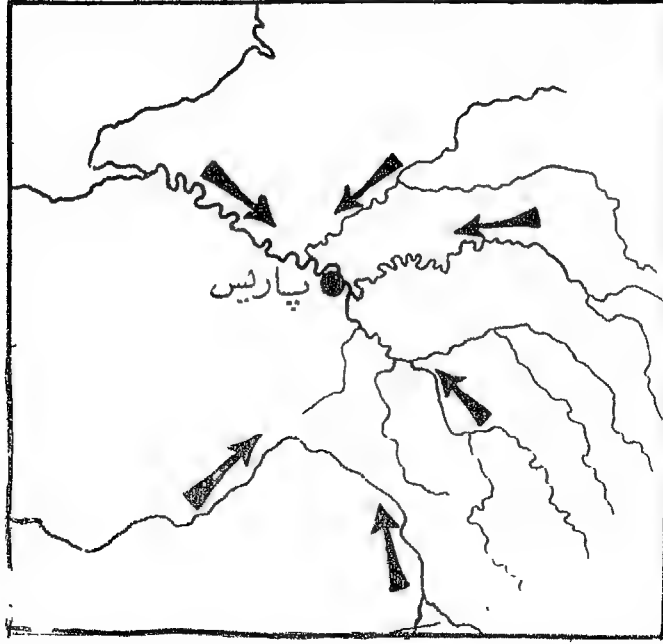
Cote d'or وهكذا أصبح من الميسور حتى لهذه المنطقة البعيدة أن تكون على اتصال بباريس .

الخريطة رقم ٣٢



موقع باريس — تؤدي الطرق البرية الطبيعية إلى باريس

وهكذا تمت فرنسا حول باريس كما تمت الامبراطورية الرومانية حول روما وكما أن روما اكتسبت أهميتها حين جاء الغزاة البريون من الشمال واستولوا على جنوب إيطاليا ، كذلك اكتسبت باريس أهميتها لأول مرة حين جاء النورسمين أو أهل الشمال يمحرون عباب البحار على طول سواحل أوربا ثم يدخلون إلى نهر السين ويصعدون فيه حتى يصابون إلى جزيرة صغيرة في وسط مجراه ، وهنا كان الوطنيون قد وجدوا في هذه البقعة خير مكان لمبور النهر فأقاموا جسراً فوقه ، والجسر بطبيعة الحال يمنع مرور القوارب وهنا وجد رجال البحر من النورسمين عقبة تجول دون تقدمهم في غزواتهم ، وهكذا نجحت باريس في مقاومة أهل الشمال فاكسب موقعها بعض أهميته .



الطرق المائتة في السهل الشمالى لفرنسا كلها تؤدى إلى باريس

ثم أصبح حكام هذه العناصر النور مائدة غزاة لانجلترا وحكاما لأجزاء متعددة من غربى فرنسا ومن عادة سواد الشعب ألا يهتمون بمن تكون له الغلبة أو بمن سيتولى أمورهم ولكنهم لم يثقوا فى ملكهم لمجرد نقله العرش إلى انجلترا ، وكانوا يفضلون لو أنهم أخلصوا فى ولائهم لحاكم يتخذ باريس له مقرا ، وبالتدريج اعترفت الوحدات المختلفة بحاكم باريس كسيد لها ، ومما زاد فى هذه الخطوة سرعة ونضوجا تصرف ملك انجلترا ومثليه لأنهم كانوا ينظرون بغيروى منهم إلى البلاد الواقعة فى الساحل الجنوبى لبحر المانش نظرتهم إلى إقليم اجنبى ، وانضرب لذلك مثالا « الأمير الأسود الذى أعمل السلب والنهب فى الساحل الغربى من بور دو جنوبا لا لسبب سوى الحصول على الأسلاب والغنائم »<sup>(١)</sup> .

The Black Prince (١)

والآن وقد تركزت فرنسا حول باريس لم تكن لحدودها القائمة وقتئذ أهمية ما دامت محدودة تحديداً واضحاً بالبحر من الشمال ومن الغرب وفي جزء من الجنوب أما في الجزء الغربي من حدها الجنوبي فنجده إقليماً من المرتفعات أى جبال البرانس ، التي تبرز حدود فرنسا في هذه الناحية روزاً واضحاً لا لبس فيه ، فلم يبق إلا الشرق الذي خلا من وجود حد فاصل واضح كهذه الحدود السابقة .

وهكذا انشغلت فرنسا خلال فترة طويلة من تاريخها بنمو وحدتها القومية في داخل هذه الحدود واتخذ معظم أهلها الزراعة حرفة لهم ، وأنتجت فرنسا غذاء كافياً لجميع سكانها نظراً لتمتعها بمناخ بديع لا تشتد حرارتها أبان الصيف ولا يشتد بردها أبان الشتاء ، ويسقط عليها قدر كاف من الأمطار وهى ذات تربة خصيبة في معظم نواحيها ، فليس هناك ما يغري أهلها أو يضطرهم إلى ركوب البحار أو ما يدفعهم إلى الهجرة خارج وطنهم فيما عدا الجزء الشرقى منها فأعدت الأساطيل الفرنسية والجيش الفرنسية بقصد الدفاع فقط ، واشتغل بالملاحة عدد صغير من سكانها لأنهم لا يجنون ربحاً وبيعاً من ركوب البحر .

هذا هو مجمل حالة فرنسا ، فجنوبها الشرقى متصل بالحضارات العريقة التي نشأت في البحر المتوسط وكانت مرسيليا مدينة اغريقية كما كانت مقاطعة بروفانس أولى المقاطعات الرومانية خارج شبه جزيرة ايطاليا ولغة الناس هنا هى إحدى اللهجات اللاتينية وقد وقفت فرنسا بين أسبانيا وهولندا تنظر إلى البحر وأمامها الفرص مهيأة للسيادة البحرية غير أن حدودها في الشرق وهى غير ثابتة أو واضحة كانت تغرى بالتوسع في هذا الاتجاه على الرغم من أن فرنسا كانت تستطيع أن تستكفي بمواردها لو أرادت .

وتتحكم في الجزء الأخير من تاريخ فرنسا أطوار مختلفة فهى تارة تثق في كفايتها الذاتية وتارة تستجيب لا غراء التوسع البرى وتارة أخرى تستعز فيها رغبة جامحة نحو السيطرة على المحيطات ، وفي كل طور من هذه الأطوار كان أثر باريس واضحاً في اتباع سياسة المركزية المطلقة في كل ناحية منها .



وقد كانت هذه الدولة عاملاً فعالاً في إسقاط القوة البحرية الهولندية ولكنها لم تستطيع أن تنزع سياسة البحار ذاتها لأنها وزعت اهتمامها وقسمته ، ففي حوالى منتصف القرن الخامس عشر تم توحيد فرنسا وتركيز الحكم فيها في باريس ولم ينته هذا القرن حتى اضيفت إلى باريس مقاطعات برومانس وبريتاني ودوقية برجنديا ، الأولى والثانية هما أبعد الولايات عن باريس وعن أثر قوتها المركزية . والأخيرة تقع في وسط الأراضي الشاسعة التي تخلو من الحدود الفاصلة الطبيعية . وأدى هذا الضم إلى متاعب حجة مع الدول الناشئة إلى الشرق منها . وأن تاريخ فرنسا لمدى خمسين عاماً أخرى تستغرقه محاولاتها للاحتفاظ بهذه الجبهة الشرقية الجديدة ، على حين يدين لنا تاريخها الداخلى كيف أن فرنسا أصبحت دولة موحدة . تحت زعامة الملكية المطلقة ، وتتخذ باريس مقراً لها ، وقد أصبحت هذه المدينة أجمل مدن أوروبا .

وسارت فرنسا الموحدة خمسين عاماً أخرى وهى تعاني وتجاهد ويالات النزاع الدينى الذى تسرب إلى جميع الدول الشمالية بتسرب مبادئ الإصلاح الدينى ، حتى وفقت أخيراً إلى حل هذه المشاكل قبل عام ١٦٠٠ وظلت فرنسا دولة موحدة . متمسكة بمذهبها الكاثوليكي .

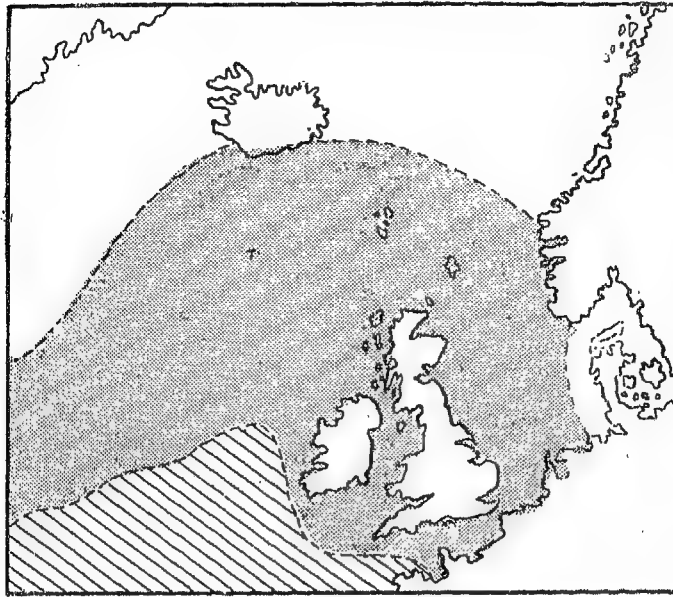
وفى هذه الأثناء كان الهولنديون يبتون حياتهم الجديدة فيما وراء البحار ، وقد تأثر ملوك فرنسا فى تحقيق أهدافهم بهذه العوامل الجديدة ، غير أن الحدود الشرقية يبقائها جبهة غير واضحة المعالم ظلت تقرر إنقسام السياسة الفرنسية ، فاستهدف ريشليو إنشاء قوة بحرية عظمى لتزيد فى ثروة المملكة كما استهدف توسيع حدود فرنسا إلى الشرق ليضم تحت الحكم الفرنسى جزءاً جديداً من الأراضي الزراعية ، وكانت نتيجة هذه المحاولة المزدوجة القضاء على القوة الهولندية وأضعاف القوة النمساوية التى كانت تسيطر على الأراضي المنخفضة وراء حدود فرنسا ، غير أن هذه الجهود سببت للقوة الفرنسية عجزاً خطيراً ، وفى الحق كانت هذه النتائج صدى لأثر ظهور أحدث القوى البحرية فى العالم الشمالى ، الا وهى بريطانيا . ولهذا يجب أن ندرس الظروف الجغرافية التى هيأت لبريطانيا فرصة التأثير فى مجرى التاريخ .

## الفصل الحادى عشر

### المحيط — الامبراطورية المحيطية — بريطانيا

هناك فارق واضح بين بريطانيا والبلاد الأخرى التى تعرضنا لها حتى الآن ،  
ذلك أن بريطانيا وحدها جزيرة أو بالأحرى جزيرتان لهما مساحة لا بأس بها وعلى  
درجة من الكفاية تمكنهما من أن تعولا عدداً كبيراً من السكان .

الخريطة رقم ٣٤



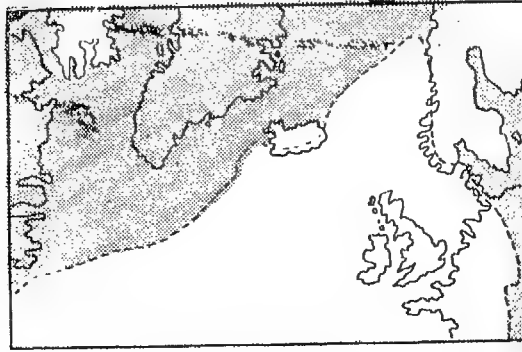
أكثر من ٤٠°ف  
أكثر من ٥٠°ف  
حرارة المياه في المياه البريطانية في شهر يناير

وهناك عوامل جغرافية أخرى يجب علينا دراستها قبل أن ندرك الدور  
المعجيب الذى لعبته بريطانيا فى التاريخ حتى اليوم .

أولاً — المناخ : تتمتع بريطانيا كغيرها من البلاد التي تطل على المحيطات بمناخ معتدل ليس فيه تطرف . فالرياح الغربية السائدة تجلب إلى شواطئ شمال أوروبا الغربية طبقة من المياه تملأ في عمقها نحو نصف الميل وهي على درجة من الحرارة تزيد عن المألوف في مثل هذه العروض مما يحول في الشتاء دون تجمد المياه في التربة وفي الأنهار وعلى الشواطئ .

ثم أن بريطانيا توغل في موقعها صوب الشمال مما يجعل مناخها في الصيف دافئاً لا حاراً مع استمرار خضوعها لمؤثرات المحيط .

الخريطة رقم ٣٥



المساحة المتجمدة في متوسطها خلال شهر يناير كله

خليج الدف

تظهر الخريطة الوضع الشاذ لمناخ بريطانيا

وهكذا أصبح العمل في بريطانيا ميسوراً في كلا البر والبحر وعلى مدار السنة . فهي تمتاز بشتاء يبعث برده على النشاط لا الألم والمعجز ، وفي صيفها حرارة لا تبعث على الضعف والخمول فيمكن استغلال الطاقة في كل وقت . أضف إلى هذا أن الرياح الغربية في هبوبها تجلب معها الأعاصير التي تسبب سقوط الأمطار فتتنامو الأعشاب في كل فصل ، ولا احتمال للجفاف فيها إبان فصل الصيف ، بل إن التقلبات الجوية التي تعاقب على جو بريطانيا لتحفز أهلها إلى العمل دائماً وتبعث بالنشاط إلى نفوسهم .

ثانياً — النضاربس : نجد في جزيرة بريطانيا العظمى إقليمين من المنخفضات أكبرهما يقع إلى الجنوب الشرق مكوناً الجزء الرئيسى من إنجلترا وأصغرهما يقع بين نهر الفورث والكلابد مكوناً الجزء الرئيسى من اسكتلندا<sup>(١)</sup>.

كما تمتد الأراضي المنخفضة في إيرلندة شرقاً وغرباً في أواسط الجزيرة ومن ثم صلت مساحات واسعة للزراعة في هذه المنخفضات — وكانت وحداتها كبيرة المساحة نوعاً ما — حتى أنه ليتسنى لنا مقارنة الأراضي المنخفضة في إنجلترا بالأراضي المنخفضة الفرنسية على الرغم من أن تاريخ بريطانيا في مراحلها الأولى امتاز بوجود وحدات سياسية صغيرة عز الاستقرار فيها إلا أنه حين تقدم السكان في مدنيّتهم وخضعوا جميعاً للحكومة واحدة يسود نفوذها كل الأراضي السهلة أصبحت تلك الحكومة موطدة الأركان منسجمة العناصر .

ثالثاً — المد والجزر : ولننظر الآن إلى خريطة لشمال أوروبا الغربية مبيناً عليها أعماق البحار أى تضاريسها فيما تحت مستوى الماء ، فترى أن بريطانيا تقع على رصيف القارة وهو بروز لا يكاد تغطيه مياه البحر ، ولو أصاب الأرض ارتفاع يقرب من ستمائة قدم أو نحوها لانصلت بريطانيا بالقارة ، لا عن طريق مضيق دوفر فحسب ، بل عبر بحر الشمال وبحر المانش أيضاً ، ولهذا الحقيقة نتائج هامة — فإن موجة المد الناشئة في المحيط الجنوبي حيث يحيط الماء بالكرة الأرضية إحاطة السوار بالمصم هذه الموجة تكتسح محيطات الهندى والهادى والأطلسى بسرعة كبيرة ولكنها لا تسبب لمستوى الماء ارتفاعاً أو هبوطاً أكثر من قدم واحد تقريباً . وحين تقترب هذه الموجة من شاطئ ضحل تنقص سرعتها ولكنها تزداد ارتفاعاً — فإذا ما اتسع هذا الشاطئ الضحل وبلغ عرضاً كبيراً زاد ارتفاع المد وهبوط الجزر زيادة عظيمة — وإذا ما اقتربت موجة المد من قارة تهبط سواحلها بانحدار مفاجئ إلى عمق كبير تحت سطح البحر فإن شواطئها تسكاد لا تحس بالزيادة مطلقاً ، بل وقد لا توجد حركة المد والجزر إطلاقاً . ولهذا الأسباب

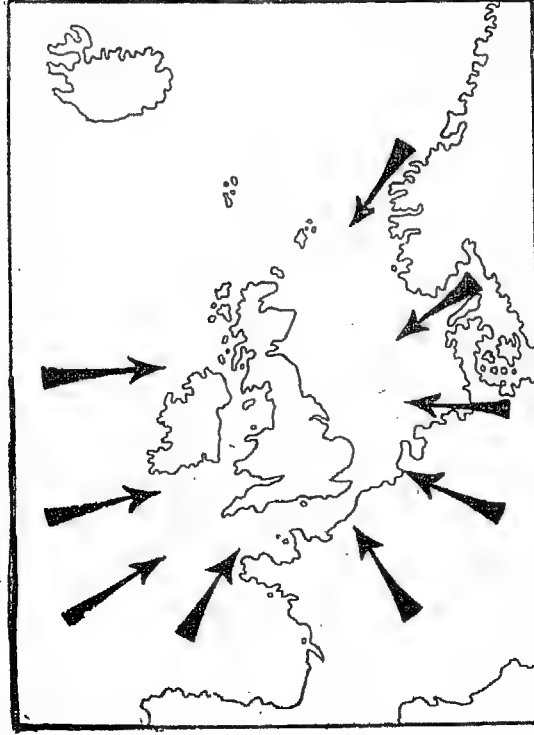
---

(١) هذه الأجزاء هي أراضي واطئة وليست سهولاً .

لا تجد مداً أو جزراً من أى ارتفاع كان على سواحل النرويج وأسبانيا — ومن الواضح أيضاً أن البحار المغفلة — كالبحر المتوسط وبحر البلطيق — تخلو من موجات المد والجزر لأن الموجة المحيطية تعجز عن الدخول إليها ، وهكذا نجد أن شواطئ بريطانيا والشواطئ المقابلة لها من الجانب الآخر من القارة ابتداء من ميناء هامبرج حتى رأس خليج بسكاي هى وحدها من بين شواطئ أوروبا التى تنظم فيها حركة المد والجزر مرتين يومياً فتطهر مصبات الأنهار من رواسبها — وتمسكن للقوارب من أن تدخل وتخرج إلى عرض البحر وأن تدور حول التعاريح التى يصعب أو يتعذر على السفن الشراعية المرور فيها — ولهذا امتازت بريطانيا وشمال فرنسا وغرب ألمانيا بمصبات خليجية واسعة يمكن أن تدخل إليها السفن من عرض البحار وتنقل فيها البضائع لمسافات طويلة فى داخل اليابس فيقل الجهد الذى يبذل فى نقلها ، وكان لذلك أكبر الفائدة إبان العصور الوسطى حين نسى الناس كيف يشيدون الطرق وقبل أن يفكروا فى اختراع السكك الحديدية .  
رابعاً — موقع بريطانيا بالنسبة للعالم القديم . كذلك تشارك بريطانيا غيرها

من بلاد شمال غرب أوروبا ميزة الموقع الجغرافى . فهى تقع على إلحافة الخارجية للعالم القديم الذى كان موضع اهتمام الناس فى تلك الأيام قبل اكتشاف أمريكا — فكانت بريطانيا واقعة فى نهاية العالم وليس وراءها شئ ولا يؤدى الطريق إليها إلى مكان ما بعدها ، فلم تر سواحلها سكان المراعى عند مجيئهم من الشرق ولم تر المسلمين عند مجيئهم من الجنوب — على الرغم من أن العرب قد وصلوا فى زحفهم إلى بواتنية وعلى الرغم من أن البلغار قد تقدموا حتى عبروا نهر الراين — إلا أن بريطانيا تركت وشأنها فلم تكن مثلاً كصقلية ؛ جزيرة خلية بأن يكون لها تاريخ خاص غير أنها لم تسكن كذلك نظراً لأنها تقع بين الشرق والغرب ، وبين الشمال والجنوب ، وبين الإغريق والفينيقيين ؛ وبين الرومان والقرطاجنيين ؛ وبين المسيحية والاسلام ؛ وبين النورماندين والعرب ؛ وبين الأتراك والأسبان — ولهذا كان تاريخ صقلية هو مجرد تاريخ الصراع القائم بين القوى المختلفة التى تقابلت فيها وكانت ميدان المعركة المشترك لها جميعاً لأنها تقع وسط العالم المحيط بالبحر المتوسط إبان العصور القديمة والعصور الوسطى .

الخريطة رقم (٣٦)



منافذ بريطانيا

تظهر الخريطة أنه يمكن الوصول إلى بريطانيا بسهولة من أكثر من نصف دائرة تحيط بها . وليس لشمال النرويج أهمية تذكر في هذا المجال .

وهكذا بقيت بريطانيا بلاداً منعزلة حتى اكتسب المحيط أهميته فجأة بفضل اكتشاف البرتغاليين والأسبان ، وحتى اليوم لا تدين بريطانيا في أهميتها لموقعها في قلب الكتلة اليابسة . هذا ولو وازنا بين الطرق التي تتخذها السفن في ذهابها إلى بريطانيا وخروجها منها لم نجد نقلاً ما يجري في نحو نصف دائرة تحيط بها من الغرب إلى الشمال ثم إلى الشمال الشرقي لأن الطريق إلى الشمال منها لا يؤدي إلى هدف ما — والهجوم من ذلك الجانب هو أبعد الاحتمالات .

هذه العوامل السابقة جميعاً تحكمت في تاريخ بريطانيا مجتمعة تارة ، متفرقة تارة أخرى .

ولما كانت بريطانيا قابعة في نهاية العالم فقد بقيت لدى عصور طويلة الملاذ الأخير،  
الذى تلجأ إليه القبائل المهاجرة مارة زوايتها المواجهة للقارة عند دوفر، ثم اضطرت  
هذه القبائل إلى الانتقال إلى الشمال الغربى منها رويداً رويداً كلما ضُبط عليها  
مهاجرون جدد — وأننا لا نستطيع أن نتحدث حديث الواثق عن الدوافع التى  
حدثت بهؤلاء الناس إلى أن يعبروا البحر إلى بريطانيا وهم يبصرون شواطئها من  
سواحل القارة — بل أن حديثنا عن دوافعهم هو من قبيل الحدس والتخمين، ومهما  
كان الأمر فقد توالى عليها موجات الهجرة، وكل موجة من المهاجرين أرقى مدينة  
من سابقتها وأقدر على استخدام الطاقة فى كلا الحرب والسلام، ولا شك أنهم اقتبسوا  
وسائل استخدامها واستغلالها من آخرين — فكانوا مجرد مقلدين . وتركوا  
أثراً ضئيلاً فى التاريخ . ثم أصبحت السهول الإنجليزية فى آخر الأمر جزءاً  
من الإمبراطورية الرومانية ومن ثم دخلت بريطانيا فى نطاق العالم المتمدن وسارت  
فى موكب الحضارة .

واستمر تأثير جغرافية بريطانيا على تاريخها باعتبارها جزيرة حتى بعد جلاء  
الرومان عنها، فلما لم يكن بها حكومة مركزية منظمة شن عليها رجال البحر  
هجماتهم من كل ناحية، وقد جاؤا إليها من وراء بحر الشمال، فهاجمها السكسون  
والجوت والإنجيز والدنركيون والنورسمن من جميع الجهات من الجنوب والشرق  
والشمال والغرب، وأقاموا بها دويلات صغيرة وأدخلوا إليها عادات جديدة وطرائق  
فى الحياة لا يزال يشعر أهل إنجلترا بأثرها حتى اليوم — بل وقد أقيمت إمبراطورية  
على شواطئ بحر الشمال عاشت لبضعة أعوام كانت تشمل فيما تشمله جميع الأراضي  
السهلة فى بريطانيا .

وأخيراً عبر النورمانديون بحر المانش مرة أخرى وحكم ولهم وأحفاده السهل  
الإنجليزي بيد من حديد — وتركز الحكم بطبيعة الحال فى لندن وهى على رأس  
خليج تصل موجة المد إلى نهايته، وتقع على أول أرض صلبة وسط مستنقعات الشاطئ  
الشمالى لخليج التيمس — ولهذا اعتبرت لندن موضع العبور الذى تتفرع منه الطرق  
المختلفة إلى أنحاء وادى التيمس الأدنى كما اعتبرت المرسى الذى تأتى إليه السفن  
( ١٠٠ — الجغرافيا )

من البحر ولا ينافسها في ذلك مدينة أخرى في تلال الدونزو الشيلترن سوى خليج سوهمبتون حيث يقوم فيه ميناء آخر هو ونشستر وبدا لفترة من الزمان كما لو قدر لسهول فرنسا الشمالية والغربية من أن تدار دفتها من العاصمة الإنجليزية . إذ امتدت مملكة إنجمن Augerio من تلال شفيوت حتى البرانس ، إلا أن جغرافية بريطانيا باعتبارها جزيرة تحسكت في تاريخها بطريقة أخرى . ومن الطبيعي أن تظهر العداوة التقليدية بين أقوام تتسكتم لغات مختلفة ولهذا فإن كراهية أهل فرنسا للملك الجالس في باريس والذي يتسكلم الفرنسية كانت أقل بالطبع من كراهيتهم للملك التربع في لندن فيما وراء بحر المانش والذي يتسكلم الإنجليزية ، ولهذا اتحد الفرنسيون حول باريس واتخذوا منها عاصمة لهم وكونوا الأمة الفرنسية — فيما عدا الجزر الواقعة في بحر المانش والتي لم تخضع لفرنسا قط فقد استمسك بها النورمانديون من قبل فتحهم لإنجلترا وبقيت تذكر البريطانيين لعدة قرون بأن البحر لا يكفل الحماية فقط بل أنه وسيلة الانتقال في نظر رجال البحر أيضاً .

ثم أخذت الحكومة المركزية القائمة في السهول الإنجليزية تمتد سيطرتها تدريجياً إلى ما وراء السهول غير أن مرتفعات ويلز ظلت بمنزلة لأجيال طويلة وتميزت بخصائصها كما ظلت سهول اسكتلند بحكومتها المركزية الخاصة ذات كيان مستقل محتمية وراء مراعيها الواسعة والتي اتخذتها أوكاراً لها عضابات اللصوص التي كانت تسطو على الماشية في كل مكان في شمال إنجلترا وجنوب اسكتلند — ولم تكن بريطانيا دولة موحدة أيام الحكم الروماني واستمرت كذلك إلى أكثر من ألف عام بعد ذلك — والمرتفعات هنا ، كما هو شأنها في كل مكان ، تولد بطبيعتها ظروفًا سياسية تختلف باختلاف اقتصادياتها — ثم أصبحت الجزيرة بحكم تطور الحوادث تضمها وحدة سياسية واحدة وتحكمها حكومة مركزية يحميها البحر وتستخدمه كوسيلة للدفاع عنها .

وظلت بريطانيا تجمع الثروات وتخزن موارد الطاقة في كل المهدين — عهد الوحدة السياسية وعهد انفصال السهول عن بعضها — فكان السكان ينتجون



الأصواف من الأغنام التي تربي على الحشائش وهي هنا تنمو طوال العام —  
وأمسكن الاحتفاظ بالأغنام وتربيتها لأن الحكومة القومية أمنت الأهالي ضد  
الغزو والعدوان ، كما أمنتهم شر الفوضى الداخلية فباعوا أصوافهم إلى التجار فيما  
وراء البحار وازدهرت تجارتهم شيئاً فشيئاً وجمعوا الطاقة واستخدموها في سبيل  
الحصول على قسطاً أكبر منها ، وذلك بفضل الحقيقة الرائعة وهي أن العمل ميسور  
طوال العام ، وأن السفن تستطيع أن تدخل في الخليجان إلى مسافات بعيدة  
في داخل اليابس لكي تفرغ شحناتها أو لكي تحمل بضائنها — وهذا الرق  
كان ميسوراً لا لمجرد احتباء البلاد بالبحر من جميع جهاتها فحسب ، ولكن لأن  
البلاد خضعت لحكومة مركزية وطيدة الأركان ، وهكذا أصبحت إنجلترا في واقع  
الأمر أول دولة أوربية ذات حكومة مركزية في العصور الحديثة .

ولقد ظلت طيلة هذه الأيام وهل في نهاية العالم ، ثم تغيرت الحال باكتشاف  
المحيط وارتداد أمريكا فأحدث فيها هذا الكشف أثرين مختلفين : —

أولاً — وجدت بريطانيا نفسها تواجه المحيط مباشرة وتعرض لمؤثراته ،  
مثلها في ذلك كمثل البرتغال وأسبانيا وهولنده وفرنسا ، وأبحر الناس منها  
بسهولة كما كانوا يبحرون من غيرها وخرجوا يبعثون الدوران حول العالم ، بل  
حاولوا فعلاً الوصول إلى الهند وجزائر الهند الشرقية . وقبل أن يبدأ كولمبس  
رحلته بأثني عشر عاماً أرسل تجار بريستول بعثاتهم وسفنهم بقصد اكتشاف  
الجزر التي تصلح لأن تكون محطات في الطريق إلى أرض التوابل  
في الشرق الأقصى .

ثانياً — وكلما ازدهرت حركة النقل في المحيطات إلى الهند وإلى أمريكا  
أصبحت هذه البلاد وريقة الصلة بشواطئ بريطانيا الجنوبية بينما ظلت شواطئها  
الشمالية النرويجية منقطعة عن كل تجارة وبعيدة عن كل هجوم .

ونستطيع أن نستنتج سير الأحداث في بريطانيا — كما جرت عادتنا دائماً —  
بمتتبع تاريخها الماضي وبدراسة أحوالها الجغرافية ، فقد نهضت إنجلترا واحتلت مكانها  
بين الدول الناهضة في العصور الوسطى بفضل دفاعها عن نفسها على متن البحار

المحيط بها — كما أدى قيام حكرتها المركزية إلى ازدياد ثروتها وتوطيد الأمن . فيها ، فاشتغل جزء كبير من أهلها بالملاحة وأدرك تجارها أنهم يجنون ثروات لو مارسوا التجارة فيما وراء البحار — ومن ثم أصبحوا عماد ثروتها المتزايدة . والمدخرة ولم يكن البحر شيئاً مجهولاً بالنسبة لبريطانيا إلا أنها لم تفد كثيراً من اكتشاف طريق الهند إذ اغتصبت البرتغال من الجمهوريات الإيطالية الجزء الأكبر من التجارة الشرقية — ثم تبعها هولنده بعد ذلك ، واستولت أسبانيا على البلاد ذات المعادن الثمينة — حقاً أن بحارة الإنجليز أثبتوا تفوقهم على الجنود الأسبان الذين جاءوا إليهم في حملة الارمادا الجبارة والذين لم يألفوا البحر . وإذا كانت السفن الإنجليزية أصغر من الأسبانية حجماً إلا أنها كانت أسلس قياداً ، إذ بنيت في أساسها لتكون سفناً تعمل في البحر ويعيش على ظهرها بحارة ، بينما بنيت السفن الأسبانية كالقلاع العائمة تحمل جنوداً وتحميهم وهم يقاتلون . في عرض البحر وكأنهم يقاتلون في معركة برية .

وقد حاول البحارة البريطانيون من أمثال رالي ودريك أن يجلبوا إلى الوطن . البريطاني كنوزاً اغتصبوها من الممتلكات الأسبانية في الغرب ولكن حكام بريطانيا آنئذ ، بعكس حكام أسبانيا ، لم يقتنعوا بفكرة التوسع والنزو ولم تفتنهم شهوة امتلاك المستعمرات فيما وراء البحار خاصة وأن امتلاك فرجينيا لم يعد عليهم بكبير فائدة ، فقد أسسها رالي مدفوعاً بشهوة الحصول على الذهب الذي لم يجد منه فيها شيئاً . واقتصرت فائدة فرجينيا بعدئذ على أن غدت مثلاً يضرب للأجيال القادمة لتشجيعها على الهجرة فيما وراء البحار لزراعة الأراضي .

وهكذا لم يتأثر رخاء بريطانيا في التو بفكرة التجارة كما تضر رخاء البرتغال . وهولندا من قبل وقد عرفنا أن البرتغال كانت تحتكر التجارة في بادئ الأمر قبل عهد الإصلاح الديني بمقتضى منشور البابا ، ثم تحفز الهولنديون إلى احترام النقل البحري وسيطروا على مفاتيح الطرق الرئيسية التي كانت تمر بها البضائع الهندية في طريقها إلى أوروبا الشمالية — وجمعوا من الثروة والقوة ما مكّنهم من الحصول استقلالهم عن أسبانيا . وبلغت الأمتان هذه الغاية قبل أن تتاح الفرصة لبريطانيا

وهي بمنزلة عن الطرق التجارية الواضحة. غير أنه نظرا لشدة قرب بريطانيا من هولندا فإن التجار البريطانيين سرعان ما حاولوا جلب البضائع الثمينة من مواطنها البعيدة بأثمان رخيصة، وهكذا وجدوا أنفسهم ينافسون الهولنديين وجهاً لوجه — وقامت العدواة بين الدولتين بطبيعة الحال فانزلت بريطانيا إلى حرب مع هولندا ثم مع فرنسا، ولم يمض عليها قرن من الزمان عدت قوة بحرية ضخمة لا في البحار المحلية فحسب بل القوة البحرية الأولى في العالم والقوة الأولى في المحيطات.

وقد استمر الصراع من نهاية القرن السادس عشر حتى أوائل القرن الثامن عشر غير أن النصف الأول من تلك الفترة كان سلباً مقنعاً — فقد ظلت التجارة البريطانية تنتشر شيئاً فشيئاً وتصارع التجارة الهولندية وإن لم تمتشق الحسام معها، وقد بدأت تلك المنافسة من عام ١٦٠٠ حين رفع الهولنديون سعر الفلفل من ٣ شلنات للرطل إلى ٦ شلنات وأجاب البريطانيون على ذلك بتأسيس شركة الهند الشرقية البريطانية واستمر الصراع دائراً إلى أن أصدر كرومول قوانين الملاحة في عام ١٦٥١. ويجب ألا يغيب عن الذهن أنه في خلال هذه الفترة التي ازداد فيها توتر العلاقات بين الجانبين حاول ريشليو أيضاً في الفترة من ١٦٢٨ إلى ١٦٤٢، أن يبني لفرنسا أسطولاً بحرياً. ولما لم تكن المحاولة صادرة من أعماق الفرنسيين ولم تنبعث من نواحي نشاطهم الطبيعية كما أنهم لم يتابعوا الخطة ذاتها في مباشرة وإصرار لم تؤد محاولاتهم إلى نتائج عظيمة كما كان منتظراً.

ولنعد إلى قوانين الملاحة في إنجلترا فقد نصت على أن جميع البضائع المستوردة من إنجلترا ومستعمراتها — وهي التي كانت تتسع تدريجياً — يجب ألا تحملها إلا سفن إنجليزية أو سفن الدولة التي تنتجها صناعة أو زراعة، وكان هذا تحدياً للهولنديين تبعه بالطبع نشوب الحرب بينهما، واستمر النزاع على سيادة البحار ستين عاماً ويمكن تقسيمه إلى أربع مراحل محددة تحديداً واضحاً.

١ — مرحلة الحرب بين بريطانيا وهولندا منفردتين.

٢ — مرحلة الحرب بين بريطانيا من جانب وبين هولندا وفرنسا متحالفتين.

٣ — مرحلة الحرب بين بريطانيا وفرنسا متحالفتين ضد هولندا

٤ — مرحلة الحرب بين بريطانيا وهولندا متحالفتين ضد فرنسا

١ — لبثت الرحلة الأولى من عام ١٦٥٢ إلى عام ١٦٦٥ — وفي تلك الحرب كانت كفة إنجلترا ترجح قليلاً في عهد الأيام الأولى للجمهورية وفي عهد الملك شارل الثاني. كانت بريطانيا فائزة بوجه عام، غير أن قوتها الحقيقية لم تظهر إلا عرضاً ومن قبيل الصدفة ذلك أنه في خريف ١٦٦٥ انتشر مرض الطاعون في إنجلترا فلم تستطع أساطيل بريطانيا أن تظهر في البحر على الرغم من تفوقها البحري — وعندئذ ظهر الفارق بيننا وبين مركز الغريقين لأن بريطانيا استغلت ثروتها المتجمعة فاستأجرت جنوداً مرتزقة لتهاجم بهم هولندية من البر .

٢ — وكان هذا سبباً في استئناف القتال في الرحلة الثانية لأن الهولنديين التجأوا من فورهم إلى فرنسا يطلبون نجدها لتحمل لهم جبهتهم — غير أن هذه الرحلة لم تدم طويلاً — إذ دامت عامين اثنين فقط هما عامي ١٦٦٦، ١٦٦٧ وعلى الرغم من أن بريطانيا كانت أفضل مركزاً من هولندية إلا أن كلا من الطرفين أدركا أن فرنسا تستغل خسائرها التجارية فعقدوا صلحاً بل وتحالفاً لبضعة سنين .

٣ — ثم جاءت فترة أخرى بذلت إبانها فرنسا بإرشاد كولبير إحدى محاولاتها العصبية لتصبح قوة بحرية فاتبعت الأسلوب الفرنسي الذي يمتاز بطابع التنظيم والمركزية ونسقت الإنتاج القوي وسار جنباً إلى جنب مع برامج بناء الأساطيل وتأسيس المستعمرات ، مما بشر بأن فرنسا سوف تحتل مكان الصدارة كقوة بحرية عظمى — غير أن ماضيها التاريخي وأحوالها الجغرافية عادت فأثرت في مجرى الأحداث التاريخية ، ذلك أن الفرنسيين من ناحية جروا على الأسلوب الذي ألفوه في الحياة فلم يفيدوا لتوهم من مزايا التنظيم الذي أدخل على الحكومة . كما أغرت الأحوال الجغرافية الحكومة الفرنسية إلى معاودة التفكير في التوسع فيما وراء الجبهة الشرقية — وأن ترجع عن هذه الإصلاحات قبل أن تؤتي ثمراتها المرجوة — خاصة وأن الأراضي الهولندية المنخفضة تتاخم هذه الجبهة البرية حيث توجد أسهل الطرق للخروج من فرنسا نحو الشمال الشرقي وكانت بلجيكا وقتئذ لا تزال .

خاضعة لأسبانيا التي أصابها الوهن والانحلال فانهارت قواتها لتوها أمام الحيوش الفرنسية الزاحفة ، فأحرق الخطر بهولندة واتفق هذا مع الأغراض البريطانية خصوصاً وأن فرنسا لم تكن تنافس بريطانيا تجارياً ، على الرغم من أن أسطولها ازداد في أهميته عن ذى قبل — وفي عام ١٦٧٢ تحالفت إنجلترا وفرنسا وأعلنت الحرب على هولندة وبعد فترة من الجهاد الشاق الذى كابدته اتحاربا بفرداها أحرزت نفوذاً متزايداً فى البحر — وفى خلال هذه الحرب ساعد هولندة بمض حلفائها الذين خففوا عنها ضغط الهجوم على حدودها البرية نظير معونة مادية. قدمتها إليهم مما جنته من أرباح تجارية — كما أمكنها أن تؤمن بلادها من الغزو المباشر من البحر بفضل قوة أسطولها البحرى وقد شعرت هولندة بالحاجة إلى بذل هذه المعونة المالية بسبب صغر مساحتها وتعرضها فى البر لهجوم قوات برية عظيمة مركزة كما أن قواتها البحرية أخذت تضعف ضعفاً ظاهراً أمام أساطيل بحرية لم يقع عليها عبء الدفاع عن حدود بلادها البرية وتفرغت للهجوم وحده فلما انسحبت بريطانيا من الحرب عام ١٦٧٤ كانت سيادتها على البحر — أمراً معترفاً من فينيستر <sup>(١)</sup> Finisterre حتى النرويج — ولم تقف المزايا التى اكتسبتها بريطانيا عند ذلك الحد لأنها بقيت محايدة فى الفترة الباقية من الحرب التى ظلت حتى عام ١٦٧٨ فتحول نقل التجارة البحرية من السفن الهولندية إلى سفن إنجلترا لأنها كانت أكثر أمناً فى أسفارها فى عرض البحار من السفن الهولندية التى ما زالت مهددة بالأساطيل الفرنسية .

أما فرنسا فإنها انتهجت سياسة مرسومة بأمعان ففصلت عمداً وبإصرار انتهاج سياسة برية على اتباع سياسة بحرية ، فسمحت لبريطانيا عملياً بأن تضع يدها على البحر — بل أن بريطانيا ادعت سيادتها على البحار منذ أيام الملك جيمس الأول واعترفت لها فرنسا بهذه السيادة — ولو قدر لمشروعات كولبير النجاح أو لو استمع ساسة فرنسا للنصيحة لينتز لأدى موقعها الجغرافى بمزاياه إلى إنشاء امبراطورية بحرية فرنسية ، كان يستحيل على هولندة أن تقاومها ، وكان يصعب على بريطانيا أن تتغلب عليها — ولو أن فرنسا استفادت من جبهتها التى

---

(١) ما يسمى لنز لاند أى الطرف الغربى للجزيرة البريطانية

تطل على البحر المتوسط الذى خلا وقتئذ من الأساطيل البحرية ولو أنها اتجهت إلى حكم مصر مثلاً لاستولت على الجزء الأكبر من تجارة الهند وبلاد المشرق ولاضطرت أن تحتل القواعد على كلا الساحلين المصريين ولأصبحت ذات قوة بحرية أشد بطشاً من قوة هولندية ولاحتلت بالتدريج مكان حليفها وغدا موقعها أعظم تدعياً وأمسّت على كل حال منافساً خطيراً لبريطانيا .

٤ — وهكذا تأتى المرحلة الرابعة التى حاربت فيها بريطانيا متحالفة مع هولندية ، ولكن هولندية كانت الحليف الضعيف بل الضعيف جداً — فأمكن لبريطانيا فى هذه الحرب القضاء على بحرية فرنسا وأسطولها التجارى وقد استمرت الحرب من عام ١٦٨٨ إلى عام ١٧١٣ شغلت فيها فرنسا أيضاً بنزاع فى قارة أوروبا فى حروب حلف أجزبرج وحرب الوراثة الأسبانية — وهنا يجدر بنا أن نلاحظ أن مجرد امتلاك الدولة لأسطول بحرى قوى لا يتيح لها السيطرة البحرية . فى بداية الحرب كان لفرنسا أسطول قوى يتفوق عدده وعدده على أساطيل بريطانيا وهولندية مجتمعين ولكن كان ينقصها التجارة البحرية التى هى مصدر الثروة ، فكانت بريطانيا تستطيع أن تعوض خسائرها بسرعة بينما لم تستطع فرنسا أن تعوض خسائرها المستمرة التى استنزفت معظم مواردها فى استمرار القتال على حدودها البرية . وزودت بريطانيا أعداء فرنسا بالأموال التى كانوا يحاربون بها ، وعلى الرغم من أنه لم يجر قتال بحرى هام بعد العام الأول تقريباً وعلى الرغم من أن بريطانيا كانت تبدو وكأنها لا شأن لها بشئون القارة الأوروبية إلا أن هذه الفترة كانت من أهم عصور التاريخ البريطانى . وكان ذلك الإرهاب الصامت الذى تنشره قواتها البحرية المتزايدة عنصراً فعالاً فى مصير الصراع كله . حقا لقد قاست التجارة البريطانية بعض الخسائر على يد القراصنة الفرنسيين غير أن هذه الخسائر لم تكن جسيمة محسوسة بالنسبة إلى الرواج الزاهر الذى حققته فى تجارتها ، وقد جنت أرباحاً و ثروات طائلة مكنتها من أن تحول دون استنزاف مواردها كما مكنتها من أن تمول الصراع البرى حتى انهكت قوى فرنسا .

و فى أثناء ذلك القتال لم تعد هولندية قوة بحرية على الإطلاق ، فلم تستطع أن

تعوض خسائرها في البحر كما عوضتها بريطانيا — لأن مواردها استنزفت في حروبها البرية شأنها شأن فرنسا تماماً — ثم أخذت تعتمد شيئاً فشيئاً على قوة بريطانيا البحرية ولم تكسب في معاهدة أوترخت شيئاً يستحق الذكر وفقدت إلى الأبد وظيفتها في نقل التجارة كما فقدت تفوقها البحري . وانتقلت كل هذه الزايا إلى بريطانيا وازمحت ميزتها الكبرى نمو تجارتها نمواً كبيراً ، إذ سيطرت على تجارة البرتغال وأضافت إلى ممتلكاتها جبل طارق وميناء ماهون في البحر المتوسط وجزيرة نيوفونديلاند ونوفاسكوشيا عبر المحيط الأطلسي فتهيأت لها قواعد مختلفة ساعدتها على نشر تجارتها وحمايتها من كل عدوان .

وقد أدت العوامل الجغرافية وكيفية الاستفادة منها إلى نتائج أخرى في تجارة بريطانيا فلم يقتصر الأمر على أن أصبحت السفن البريطانية أكثر أمناً وسلاماً في نقل التجارة عن غيرها من سفن الدول المنافسة لها بل تحول نقل التجارة العالمية إلى الأيدي البريطانية .

ولما أصبحت الأراضي البريطانية جميعها أكثر الدول تمتعاً بالسلم والأمان عادت عليها التجارة بأوفر الأرباح وتطلبت ممارستها أقل نفقات ممكنة .

\*\*\*

ومن المعروف أن استعمال النقود المعدنية في تبادل السلع كان خطوة كبرى في تقدم الحضارة لأن الأشياء المراد استبدالها كانت ضخمة الحجم عسيرة الحمل وقد يحدث أن يختار شخص بما معه من فائض البضائع فلا يجد الراغب في شرائها وإن وجد فقد لا يجد معه ما يتوق هو إلى اقتنائه .

وهكذا سهلت العملة المعدنية التداول بقبولها من الجميع وزادت القدرة على الإنتاج بازدياد تبادل البضائع وسهولة الحصول عليها .

ثم حدث في ذلك العهد الذي نحن بصدد تقديم آخر عم جميع البلاد المتحضرة وعلى الأخص بريطانيا ، إذ لم تعد العمليات التجارية — فيما عدا البيع بالتجزئة — تتطلب نقوداً وعمليات تدفع من شخص لآخر بل بسطت تجارة البلاد تبسيطاً

كبيراً بإدخال نظام الحسابات الجارية بالبنوك ، فيفتح الشخص أو المؤسسة اعتماداً بمبلغ من المال في بنك من البنوك بضمان ثروته وممتلكاته ليوافجه ما قد يؤديه من خدمات أو عمليات تجارية ، وهكذا امتد النشاط التجاري في كل حقل ، فإذا رغب شخص في شراء شيء ما حرر للبائع صكاً (شيك) بقيمة البضائع ويستطيع هذا بدوره أن يحوله إلى آخر ، ولن يتيسر هذا إلا في دولة انتشر فيها الأمن وتوافرت الثقة بين أهلها ، وحيث لا يبذل مجهود في غير موضعه . ولم يكن إنشاء بنك إنجلترا في العقد الأخير من القرن السابع عشر وليد الصدفة وهو حجر الأساس في هذه الثقة الشائخة وليس مركز لندن المالي مجرد صدفة عارضة وقد انفردت بكونها سوق الذهب في العالم أجمع ، حيث يسهل الحصول على الذهب في أسواقها نظير صك يكتبه الإنسان على نفسه معترفاً فيه بهذا الدين<sup>(١)</sup> . لقد أصبحت لندن وستظل قلب التجارة العالمية لأن التجارة فيها تجري في أمن يقتضى نفقات تقل كثيراً عن غيرها من الأماكن<sup>(٢)</sup> .

وهكذا نظمت التجارة على نطاق واسع في بداية القرن الثامن عشر حين أصبحت بريطانيا دولة بحرية . « وفضيحة البحار الجنوبية » التي حدثت في عام ١٧٢٠ دليل على ازدهار الظروف السائدة وقتئذ وتظهر أن كان في البلاد تجمع عظيم من فائض الثروة أي رأس المال ، كما تظهر من ناحية أخرى بدء تنظيم استغلال رؤوس الأموال فيها على نطاق واسع — تم كل هذا بفضل توطيد الأمن والسلام في البلاد ، فقد تكونت في عام ١٧١١ شركة البحار الجنوبية قبل انتهاء الحرب الدائرة حينئذ ويرجع تكوينها إلى أن الحكومة رغبت في تخفيض سعر الفائدة التي كانت تدفعها عن الديون التي تقترضها ، ثم بذلت في عام ١٧١٩ محاولة أخرى لإجراء تخفيض جديد في سعر الفائدة مما لفت أنظار الشعب إلى طرائق أخرى لاستغلال أموالهم . وتمخض الأمر بعدئذ عن سراب خادع

---

(١) هذا بعد استيفاء الشروط الأخرى طبعاً .

(٢) الذهب عند بعض الناس يزيد في قيمته على أوراق النقد لأن قيمته المصطنعة يعترف بها على نطاق أوسع من قيمته الذاتية وليس للذهب ولا لأوراق النقد طاقة في حد ذاتها ولكنهما مجرد رموز لطاقة معينة .



أو فقاعة خاوية لا لأن الثقة السكافية لم تتوافر للشركة ، بل بالعكس لم تهبط قيمة السهم الواحد من أسهمها عن ١٧٥ جنيهاً وفي حين أن قيمته الاسمية كانت ١٠٠ جنيهه ولكن عنصر الثقة والاطمئنان وإن اعتمد على سيادة البحار إلا أنه تجاوز حده دون مبرر وتناول أشياء هي أبعد ما تكون عن السيطرة البحرية (١) .

ولم يخل القرن الثامن عشر من تحدى الدول الأخرى لسيادة بريطانيا على البحار ولتفوقها التجارى ، وكانت بريطانيا تخرج دائماً من كل صراع وهي أكثر اتساعاً في مستعمراتها وأعظم رواجاً وازدهاراً في تجارتها ولم تلحقها خسارة خطيرة إلا في حرب الاستقلال الأمريكية .

فقد اشتبكت بريطانيا في حروب مباشرة أو غير مباشرة مع فرنسا وأسبانيا في فترتين الأولى من عام ١٧٣٩ إلى ١٧٤٨ والثانية من عام ١٧٥٦ إلى ١٧٦٣ وذلك بسبب اتساع التجارة البريطانية وفي كل من هذه الحروب كانت هاتان الدولتان مشتبكتين في منازعات القارة الأوروبية . وفي كل مرة حالفت بريطانيا أعداءهما وزودتهم بالأموال التي تجمع لديها من أرباحها التجارية فاستنفدت الحرب البرية موارد الأعداء في الوقت الذي تفتحت فيه أبواب جديدة للتجارة البريطانية وكلما ازدهرت التجارة كان لبريطانيا منها أكبر نصيب .

حقاً نمت التجارة الفرنسية في الهند بإشراف شركة الهند الشرقية الفرنسية . وكذلك في كندا وفي جزائر الهند الغربية ولكنها تركت دون أسطول يحميها .

---

(١) تتخلل قصة هذه الفضيحة فيما يلي : Soult Sea Bubble فضيحة البحار الجنوبية هي مضاربة مالية أدت بالبلاد إلى خسارة فادحة فقد أسس بعض المالىين شركة منحت امتيازات حمة في التجارة في البحار الجنوبية نظير شروط خاصة لأقراض الحكومة قرضاً بشروط أكثر سخاء مما ألفه الجمهور . وفي عام ١٧٢٠ اقترحت الشركة أن يحول إليها الدين الوطنى العام الذى يبلغ مقداره ٣١ مليون جنيهه وقتئذ بفائدة قدرها ٥٪ ووعدت الشركة أن تدفع لمساهميها ربها قد يصل إلى ٦٠٪ من قيمة أسهمهم ثم اتضح استحالة الوفاء بهذه الوعود . فلم يلبث أن حل الإفلاس المأساوى كدماً بعد بضعة شهور . وحل بحلوله القضاء على آلاف من صغار الممولين وقدم المديرون للمحاكمة بتهمة النصب والتزوير . وتناول التحقيق والاتهام وزير المالية . وآخرين من ذوى المراكز العالية — المترجم .

وسرعان ما سقطت في أيدي البريطانيين أو وقعت في نطاق نفوذهم فتحوّلت تجارتها إلى أيديهم .

لقد كانت الممتلكات البريطانية خارج الجزائر البريطانية حتى ذلك الوقت مجرد محطات تجارية أو قواعد بحرية للأسطول . وكان المثل الأعلى عند البريطانيين في تكوين إمبراطوريتهم أقرب إلى مثل الفينيقيين منهم إلى الرومان . هدفهم الأول التجارة لا الفتح أو الغزو . غير أن مستعمرات حقيقية نشأت تدريجياً حيث هاجرت إليها جماعات من أصل بريطاني واستقرت فيها ولم تفكر في العودة ثانياً إلى موطنها الأول فأسست على الساحل الشرقي من أمريكا الشمالية ولايات إنجلترا الجديدة (نيو إنجلاند) حيث تواجه البلاد المحيط الأطلنطي مباشرة وحيث المناخ هنا أكثر اعتدالاً من الأجزاء الأخرى للساحل الشرقي الأمريكي (نوفاسكوشيا) واستقر واهبها وامتد الاستعمار البريطاني غرباً وجنوباً من قاعدته الأولى في مستعمرة نيويورك ومن المستعمرة القديمة في فرجينيا إلى المستعمرات الحديثة في كارولينا وجورجيا — وبلغ تعداد سكان هذه المستعمرات نحو مليون نسمة وبدأت حاجتهم ماسة إلى التوسع فكان طبيعياً أن يشتبكوا في صراع مع الفرنسيين الذين دخلوا القارة الأمريكية عن طريق النهرين العظيمين وهما السنت لورنس والميسيسي ، ولو أن عدد الفرنسيين كان ضئيلاً لا يصل إلى ١/١٠ من عدد البريطانيين إلا أنهم كانوا يعملون على فرض سيطرتهم على جميع المساحات الشاسعة التي تصل إليها هذه الطرق المائية العظيمة ، غير أن الأسطول البريطاني قطع الصلة بينهم وبين فرنسا فسقطت كندا وأضحت من نصيب الاستعمار البريطاني .

أما في الهند فقد سارت المنافسة التجارية جنباً إلى جنب مع المنافسة في الغزو والفتح ، غير أن أطماع الفرنسيين كان نصيبها الفشل أيضاً لأنها لم تلق تأييداً من أسطول بحري — ففي نهاية حرب السبع سنوات سمح لفرنسا بأن تحتفظ ببعض المحطات التجارية فقط بينما أضيفت كل ممتلكاتها في الهند إلى بريطانيا — ثم ضعفت أهمية هذه المحطات التجارية لأن نسبة كبرى من التجارة ذهبت بطبيعة الحال إلى

الموانئ البريطانية المجاورة . وهكذا نرى في عام ١٧٦٣ أن بريطانيا أنضحت دات ممتلكات واسعة تمت أما ساماً بشكل مستعمرات أى سكنها مهاجرون بريطانيون وأما استولت عليها بريطانيا حرباً ، وهكذا تحولت ممتلكات بريطانيا العظمى إلى الأمبراطورية البريطانية فعلاً وظلت التجارة البريطانية تتابع نموها وازدهارها .

ولم يخل الحال من أخطاء ارتكبتها بريطانيا في إدارة دفة الحكم في المستعمرات ، كما حدثت أخطاء حينما لاقت التجارة رواجاً فجائياً أيام فضيحة البحار الجنوبية فإن هذه المستعمرات بحكم ظروفها تحتاج إلى استيراد الكثير من البضائع البريطانية أكثر مما تستطيع تصديره إلى بريطانيا فكان ميزانها التجاري دائماً في غير مصلحتها وبعبارة أخرى كانت مواردها تنسرب منها — وكان على أهلها أن يعوضوا هذا العجز بوسائل أخرى منها التجارة غير المشروعة مع المستعمرات الأسبانية في الجنوب وأمدادها بالكثير من المنتجات التي تشعر بحاجتها الماسة إليها ولا تستطيع زراعتها .

وبدأ هذا التوتر بتدخل السلطات في الأمر عندما حرمت التجارة غير المشروعة ونفذ هذا التحريم بالاستعانة بالأسطول الحربي ، كما اشتد عندما طلبت بريطانيا إلى هذه المستعمرات المساهمة في الضرائب التي لم يكن يسهل عليها دفعها للخزانة البريطانية — وعلى الرغم من أن حادثة جباية الضرائب أصبحت بتطور الحوادث هي محك الاختبار غير أن وقف التجارة هو المسئول الأول عن بدء هذه المتاعب .

وقد أدركت فرنسا قبل ذلك الأوان أن مشروعات توسعها الاستعمارية كانت تفشل دائماً بسبب تدخل بريطانيا بقوتها البحرية فبدأت لها الفرصة سانحة لمنازلة بريطانيا مرة أخرى وهي في موقف تستنزف فيه مواردها في حرب برية في القارة الأمريكية . وفضلاً عن ذلك أدركت فرنسا أن قوة بريطانيا هي قوة بحرية في جوهرها وعزفت هي عن الانغماس في الحروب التي كانت بريطانيا تعمل على إشعال نيرانها في القارة الأوروبية ولهذا أخذت انجلترا على غرة وكان موقفها سيئاً — فإن بريطانيا في أيام السلم الماضية كانت تعتبر كل بنس لا يصرف على أغراض التجارة .

مالا ضائعا، ولهذا كان الأسطول البريطاني عندما أعلنت الحرب أقل من الأساطيل الفرنسية والأسبانية مجتمعة إلا أن بريطانيا خرجت من الحرب ولم تفقد إلا مستعمراتها الأمريكية، لأن للتاريخ الماضى حكمه والتاريخ كما نعلم تسيره الجغرافيا، فقد استقرت فى الأسطول البريطانى تقاليد بحرية عميقة الجذور وليدة ساسلة من الانتصارات ، بينما سادت الأسطول الآخر روح من عدم الألفة مع البحر ، -حقا ارتكب الطرفان أخطاء ، غير أن الحليفتين ارتكبتا أخطاء أكثر حقا مما كان لها أبعاد الأثر فى سير الحرب حتى أنه عند ما عقد الصلح فى عام ١٧٨٣ حصلت بريطانيا على شروط ملائمة لها جدا بينما ظلت فرنسا تعاني الاجهاد المالى .

ولم يقتصر الأمر أن أصبح للأسطول البريطانى تقاليد بحرية عريقة فى ماضيه بل أضحت له تقاليد التفوق فى استخدام قدرته فى البحر وتوفير طاقته ، فقد خبر البحارة البريطانيون فنون القتال فى البحر أكثر من أعدائهم ، وفى الأيام الأولى حين كان القتال ليجرى وجها لوجه وذراعا لذراع وكانت هذه هى الوسيلة الوحيدة للمنازلة الأعداء كذلك كان الحال فى الحرب البحرية كبحر الشبه بالحرب البرية — فكانت تنجبه الأساطيل المتعادية راسا إلى قلب سفن الأعداء وتسير السفن متقاربة جنباً إلى جنب وهى تحمل على ظهورها عددا كبيرا من المقاتلين فتهمي لهم فرصة الهجوم على الأعداء الذين قد تشيع فى صفوفهم الفوضى والاضطراب ، مثلهم فى ذلك كمثل الفياق الإغريقية المتراسة متتبعين أساليبها حين كانت تشق طريقها إلى قلب جيوش أعدائها . وأهم الصفات الواجب توافرها فيمن يقاتلون قتالا بحريا هى ألفتهم للبحار وإلمامهم بأحوالها وقدرتهم على تسيير دفة السفن فيها ، فإذا نشب قتال بحرى بين رجال بحر ورجال بر كان التفوق حتما من نصيب رجال البحر لأنهم يعرفون كيف يديرون دفة سفنهم فيه ، وقد رأينا كيف فقد الأسبان ، وهم لم يكونوا يحق رجال بحر ، السيطرة البحرية وانزعها منهم الهولنديون ثم الانجليز .

وفى أبان الستين سنة التى تلت عم ١٦٥٣ ظهر مبدأ جديد فى القتال البحرى يوائم الظروف السائدة حينئذ وبمقتضاه أصبحت الكفة الراجحة من نصيب أولئك الذين يستخدمون قواتهم المقاتلة استخداما يتجلى فيه الاقتصاد التام .

فالسفينة بطبيعة تكوينها تزيد كثيرا في طولها عن عرضها — وفي الأيام السائقة كانت السفن تسليح بعدد وفير من المدافع الصغيرة ومن الميسور توجيه أكبر عدد من المدافع في آن واحد من أحد جانبي السفينة لتصب نيرانها على هدفها أكثر مما يمكن توجيهه من مدافع المقدمة أو المؤخرة ، ولهذا كان هجوم السفن أشد تأثيرا لو أنها تمكنت من إطلاق نيرانها الجانبية ، ولكي يضمن أسطول أحسن النتائج في حربه ، يجب أن تخلو صفوف الأعداء من وجود سفينة صديقة له فيما بينها ، ومن ثم تحتاج السفن المقاتلة أبان اشتراكها في المعركة إلى الحركة في خط يتقاطع تقاطعا عموديا مع اتجاه خط القتال — ويجب أن يكون ذلك الخط قويا في جميع مواضعه بل ومتساوى القوة في جميع وحداته ولهذا وجب أن يتكون من سفن ذات قوة معينة . وهى عادة السفن الحربية الضخمة من المدرعات Line of Battle ships والتي تحمل أكبر قوة من المدافع وهكذا اختانف القتال عما كان مألوفا من قبل ولم يعد مجرد الاندفاع في خطوط الأعداء . واقتضى الأمر لتطبيق الخطة الجديدة دراسة أحوال الراح والعناية بها عن ذى قبل . فإذا كان سير الأسطول نحو سفن الأعداء يتفق واتجاه الراح توفرت له ميزة البداية وأصبح في يده حرية اختيار الاشتباك في المعركة أو عدم الاشتباك فيها . فإن اختار الهجوم فهو قربن بأن تصادفه بعض المعاكسات منها أنه مضطر إلى أن يجحراسا نحو سفن الأعداء فيقل في هذه الحالة عدد المدافع التي يمكن إطلاقها عليهم وقد لا تجد مدفعه كلها فرصة العمل ألا تدريجيا وقد تصاب السفن الأولى التي تسير في المقدمة باضرار جسيمة . وإن دارت عايه الدائرة ولحقته الهزيمة ضاقت معه فرص الهروب وأما إن تجنب اتجاه الريح لم يجد الفرصة سانحة للهجوم — وإن زادت مع هذا فرصة الهروب والنجاة لو خانة الحظ — بل وقد يستطيع أن يوقع بالمدو خسارة فادحة لو اختار العدو مهاجمته وهو في هذا الوضع .

ومما له مغزى هام أنه حتى في حرب الاستقلال الأمريكية حين كانت فرنسا مهاجم الأساطيل البريطانية كانت الأساطيل البريطانية تختار عادة فرصة اتجاه الراح نحو العدو — بينما كان الأسطول الفرنسى يختار الوضع المعاكس لهذا دائما

وليس هذا الاختلاف الذى اتصف به الفريقان فى أسلوب العمل وليد الصدفة فهو راجع فى واقع الأمر إلى أن رجال البحر البريطانيين بحكم أنهم أكثر خبرة وتجربة كانوا أكثر دراية بالحروب البحرية وأسسها ، فاختاروا مواضع عسكرية هامة لأنها عظيمة الفائدة فى كلا الدفاع والهجوم وهذا طبعاً وليد البيئة المحلية — وقد سبق لنا أن رأينا أن بلاداً كمصر والسكندران تحتها الطبيعة فأحاطتها بالصحارى أو المستنقعات كما قامت مدن كروما وباريس فى مواقع يسرت لها رد العدوان دون كبير مشقة . ولسكن البحر تتساوى مواقعه فلا يمتاز فى الدفاع موقع على موقع بل وإن اتخذنا فيه التعبير العسكرى الصحيح لقلنا إنه ليس فيه مركز استراتيجى وقد تعلم البريطانيون هذا الدرس نتيجة لتجاربهم المظيمة — كما تعلموا من قبل سواء عن قصد أم عن غير قصد — ونتيجة لإلمامهم بهذه الدروس — تعلموا أن الهجوم هو خير وسيلة للدفاع وأن الهجوم يجب أن يوجه لا إلى شواطئ الأعداء بل إلى أساطيلهم حيثما وجدت، لأنها هى الوسيلة الوحيدة التى يمكن أن تغزى بها بريطانيا . كما تعلموا أن النفقار العظيمة فى بادية الأمر توفر عليهم الكثير فيما بعد ، بينما مال الفرنسيون إلى اتباع سياسة أكثر حذراً فاحتفظوا بأساطيلهم خبأة فى موانئها إذا لم يعوزهم الأمر فعلا إلى استخدامها ، بل ولا يستخدمونها فى الهجوم إلا إذا وثقوا من الانتصار — وهكذا حاولت بريطانيا جهدها فى أن تزيد فى القوة الكامنة بالضرف عليها ورعايتها واستخدامها بينما مالت فرنسا إلى اختزان ما فى حوزتها . ووجدت بريطانيا أن الخطة الأولى تعود عليها بأحسن الثمرات فى التجارة والحرب معاً .

كما هيأ تفوق البريطانيين فى البحر وخبرتهم العملية فرصة أكبر لاكتشاف الأساليب التى تجعل الهجوم يأتى بأفضل النتائج وكيف أن قوة صغيرة قد تهزم قوة كبيرة بالإفادة من الرياح ومن قوة تحرك السفن فى سيرها .

لقد وضعت حرب الاستئلال الأمريكية أوزارها لأن موارد فرنسا — أى مواردها المختزنة — قد أصابها الإفلاس ولم يكن هذا طارئاً عليها . وقد رأيناها تستنزف مواردها باستمرار مدى قرن من الزمان دون أن تستطيع تعويضها بالقدر

المناسب — فإن الحكومة الفرنسية المستقرة في باريس احتفظت بمظاهر الفخفة مفتصة المواد الضرورية من الكادحين المنتشرين في الأراضي الزراعية مما جعلهم يزدادون فقراً على فقرهم وعجزاً عن استخلاص خيرات أرضهم ، وقاست معهم الطبقات الفقيرة في المدن لأنها لم تجد بالطبع حاجتها من الطعام ومن ثم أدت هذه الحالة إلى الثورة التي أطاحت بالملكية . وعلى الرغم من أن الجمعية التأسيسية تحولت إلى الجمعية الوطنية وفقدت ظاهرياً السلطات التي تجمعت لها إلا أن سلطة باريس المركزية وهى أساس سلطة الملك من قبل قد أحدثت في الحكومة تطوراً جديداً فتجتمع لباريس نفوذ مطلق في طول البلاد وعرضها ، ولم تنهياً فرصة النجاح لأية ثورة نشبت سواء تلك التي نشبت في وادي الرون أم في بوردو أم في بريتانى وسواء قامت ضد مبادئ الجمهورية ذاتها أم ضد الحكومة القائمة على السلطة في ذلك الوقت — فكل ثورة قامت عززت وحيل بينها وبين الاتصال بباقي مراكز الثورات وقضت عليها حكومة باريس قضاء مبرماً .

ثم تحكمت الجبهة البرية الشرقية في سياسة فرنسا الخارجية مرة أخرى إذ لم تنتج رغبة الحكومة الجديدة في بادئ الأمر إلى امتلاك الأراضي بقدر ما اتجهت إلى نشر الآراء الجديدة عن الحرية والمساواة والإخاء . ولكن سرعان ما ضاع الهدف في سبيل الوسيلة ، فان التوسع في فتح الأراضي كان في أول الأمر وسيلة لتحقيق نشر الأفكار الجديدة ثم أخفى غاية في حد ذاته . فقد قررت الدوائر الحكومية الفرنسية تطبيق النظام الفرنسى على جميع البلاد التي تحتلها الجيوش الفرنسية وسرعان ما ضاعت فكرة نشر النظام الفرنسى في محاولة احتلال البلاد المختلفة — وفي هذه المحاولة عادت الظروف القديمة سيرتها الأولى لأن الأقاليم التي يسهل غزوها واحتلالها هى تلك التي تقع فيما وراء جبهة فرنسا الشرقية .

وقد كادت فرنسا تخضع القارة جميعاً لسيطرتها بفضل الحماس الجارف الذي أظهره الشعب الفرنسى ثم بفضل القيادة البارعة لأعظم قائد أنجبه التاريخ الحديث ولولا وجود قوة بحرية عظيمة لتحكمت فرنسا بكل تأكيد في مصير ( م ١١ — الجغرافيا )

العالم أجمع لعدة سنين ، ولكن قوة بريطانيا البحرية وقفت لها بالمرصاد فكثيراً ما واجهتها وكبحت جماحها . فقد حدت بريطانيا من التوسع الفرنسي باستخدام أسطولها واتباعها طريقة القديمة في تقديم الإعانات المالية لحلفائها وهي التي تيسر لها جمع ثروتها بفضل تجارتها ، ولما آلت الأمور إلى نابليون اضح له جلياً أن بريطانيا وتجارها الزاهرة هي عدوه الألد .

ويمكننا تمييز أربع مراحل محددة فيما ولى ذلك من صراع بين الأمتين وتبين كل مرحلة أهمية التجارة البريطانية فيما وراء البحار وهي باللى إحدى نتائج قوتها في المحيطات .

#### ١ — المرحلة الأولى : ظن نابليون في أول الأمر أن الهند هي سر تفوق

بريطانيا التجاري ومصدر ثروتها وعماد مقاومتها ، ولهذا استلهم عبقرته الخارقة في السياسة والحرب ، وقام في الفترة ما بين ١٧٩٥ إلى ١٩٩٧ بإخضاع عدد من الدويلات الصغيرة المتناثرة في إيطاليا وعلى شواطئ البحر الإدياتي ، كلا على حدة ، ومؤسساً بها جمهوريات صغيرة على نمط الجمهورية الفرنسية ثم قام بحملته على مصر بما تبقى له من السفن الحربية الفرنسية ، وقد تم له إخضاع تلك البلاد العريقة في تاريخها وأخذ في تنظيمها بل وحاول أن يفتتح بلاد السكدان التي تمانها في عراقة حضارتها ، وقد داعبه الأمل في أن يتخذ من هذه الفتوحات قواعد يقفز منها إلى الهند . أما بريطانيا في هذا الوقت فإنها — كما يبدو بل وفي الواقع أيضاً — فقدت كثيراً من جراء الفتوحات الفرنسية في شواطئ أوروبا الجنوبية يحرمانها من قواعد لأساطيلها ، إلا أنه على الرغم من ذلك أرسلت أسطولاً بقيادة نلسون وقد أخذ هذا يبحث عن صيده في شرق البحر الأبيض بأجمعه ، واستغرق بحمته ستة أسابيع متوالية وهو يجهل جهلاً تاماً مشروعات نابليون وحركانه حتى رأى الأسطول الفرنسي راسياً في خليج أبو قير ، وبمد قتال لم يستغرق أكثر من ساعة أو ساعتين انقطع نابليون تماماً عن أوروبا حتى أنه لم يتسلم رسالة واحدة في الفترة التي انقضت من ٩ سبتمبر سنة ١٧٩٨ إلى ٥ فبراير سنة ١٧٩٩ وذهبت مشروعاته في غزو الشرق هباء إذ لم يستطع أن يترك عكا خلفه دون إخضاع



وهي التي وقعت تقاوم هجماته في عناد ولا يساعدها سوى سفيتشان مدرعتان حتى أن نابليون هرب شخصيا في السر إلى فرنسا وترك جيشه بعيدا عن مسرح الحركات الحربية في أوروبا وبقي هذا الجيش حتى سمح له بمغادرة البلاد قبيل الصلح المؤقت الذي عقد في عام ١٨٠١ .

٢ — المرحلة الثانية : حاول نابليون في المرحلة الثانية أن يوجه ضرباته إلى التجارة البريطانية في شمال أوروبا وكانت التجارة بطبيعة الحال موقوفة بريطانيا وهولندا وأراضي الراين ، وبقيت الأنهار الواقعة إلى الشرق من الراين كالريزر والراين وبحر البaltic مفتوحة أمام التجارة البريطانية ، لأن الدول التي تستخدم هذه الطرق المائية عزفت عن فرنسا وبقيت على الحياد . فكانت سفنها آمنة على نفسها في حياتها وفضل التجار لهذا السبب نقل بضائعهم على ظهور هذه السفن . ولما حاولت بريطانيا منع فرنسا من اختزان الموارد وجمعها طابت إلى الدول المحايدة الامتناع عن مساعدة فرنسا بالتوقف عن نقل التجارة الفرنسية على سفن هذه الدول ، وأن تمتنع عن تزويد فرنسا بالمواد التي تمكنها من إنشاء أساطيل لها كالأخشاب وأقمشة قلع المراكب التي كانت تستوردها فرنسا عادة من بلاد البلطيق فأنار هذا الطلب امتناع الدول المحايدة وسخطها . فلما رجع نابليون من مصر وهزم بخططه الحربية البارعة جيوش دول وسط أوروبا التي تجمعت لمحاربه عمل على اشتتار دول شمال أوروبا ضد بريطانيا كروسيا والدنمرك والروسيا والسويد حتى أفلح في ديسمبر من عام ١ٸ٠٠ أن تتحد هذه جميعا في حياد مساح وأعلنت استمدادها لمقاومة ادعاءات بريطانيا بالقوة إذا اقتضى الأمر ، وهكذا تركت بريطانيا من بين دول أوروبا وحيدة في مواجهة فرنسا ، غير أن الحياد المساح لم يدم طويلا إذ انفرط عقده على أثر تدمير الأسطول الدنمركي في كوبنهاجن وعلى أثر مقتل القيصر الروسي بسبب القيود المفروضة على التجارة الروسية ، ورأت كل دولة منها إنها تستطيع أن تخدم مصالحها في هذه الظروف القائمة ، على الرغم من القيود المفروضة عليها وإنها تستطيع أن تجني أرباحا لها لو أنها ضالمت المطالب البريطانية واستمرت تراول نشاطها التجاري . فلم يكده ينتهي عام ١٨٠١ حتى عادت إلى بريطانيا صداقتها مع كل دول أوروبا عدا فرنسا .

ثم دفع نابليون بجيوشه إلى جنوب إيطاليا في محاولة أخرى ليصل إلى مصر. ولكن جهوده ذهبت ادراج الرياح ، لأن بريطانيا مازالت قابضة على ناصية السيادة البحرية وتاق نابليون إلى عقد الصلح فأقضيت الشروط الأولى في أكتوبر سنة ١٨٠١ ووقعت معاهدة أمين في مارس سنة ١٨٠٢ غير أن نابليون ظل مقتنماً بأن إنجلترا وحدها لا تستطيع مقاومة فرنسا ووضعت نيته في تجاهل شروط المعاهدة مما أدى إلى تجدد الحرب في عام ١٨٠٣ .

٣ — الرحلة الثالثة : ولما فشلت هجمات نابليون على مصر وفشلت أيضاً محاولاته لخلق التجارة البريطانية في الشمال صمم على أن يوجه ضرباته إلى قلب بريطانيا واعتقد أن هذا الهجوم هو الضربة القاضية فعلا إن أمكن القيام به — فأخذ يقوم بإعداد المعدات اللازمة لغزوها وظل يتبع الأساليب القديمة في الهجوم فدفع بجيوشه إلى جنوب إيطاليا وكان هذا عبثاً لا طائل تحته لأن بريطانيا مازالت مسيطرة على البحار — واحتل نابليون بجيوشه مقاطعة هانوفر وأغلق مصبات أنهار الإمز والوزير والإلب حتى ميناء كوكسهافن واحتلها بجيوشه ليحكم إغلاق الإلب في وجه التجارة البريطانية ، وقد قام بهذه الأعمال دون أن يستشير الدول صاحبة الشأن أو تسمح لجيوشه باختراق أراضيها واحتلالها ، ونابليون مدرك في هذه الآونة أن بريطانيا هي عدوه الأوحده وليس للدول الباقية وزن ما وكانت قوة بريطانيا تكمن في حقيقة واضحة وهي أن نابليون في محاولته الوصول إليها اضطر إلى أن يخلق من شعوب الدول الأخرى أعداء له .

وكان عليه أن يربط الخطط لينقل جيشاً عظيماً قوامه مائة ألف رجل لينزو بريطانيا ومن الطبيعي أن تميز وسائل النقل العادية عن القيام بهذه المهمة . فلم تدخل في نطاق تفكيره لأنها غير كافية في جميع أنحاء فرنسا — وقد أصاب تجارة فرنسا الكساد وتعذر عليه بناء مثل هذه الأساطيل اللازمة حيث توقف ورود الخشب وأن تيسر له بناؤها فليس في موائه فرنسا متسع للأواها وإن أمكن بناؤها واستعمالها فإن ازال الجيوش منها على الشواطئ البريطانية لا بد وأن يكون بطيئاً — وهكذا تحتم على هذه الحملة المديرة تديراً تعسفياً أن تكون

بقى عدد هائل من القوارب الصغيرة التى يمكن انزالها إلى البحر فى سرعة كبيرة . وتستطيع معها القوات الغازية النزول منها إلى البر فى الحال بأعداد وفيرة للتغلب على أى جيش يقف فى مواجهتها . قد تستطيع هذه القوات التحرك مستترة بالضباب وفى هدوء البحر حين تعجز السفن الحربية عن الحركة — وقد اهتم نابليون بتأكيد هذه الحقيقة ، وظن أن النجاح فى هذه الحالة أكثر احتمالاً لو أن الفرنسيين دان لهم زمام الأمر فى البواغيز ولو لبضع ساعات — وقد أدرك نابليون فى دخيلة نفسه ضرورة وجود أسطول قوى يزود عن القوات الغازية ويعدها بتأييده وحمايته .

غير أن هذه المحاولة للقضاء على بريطانيا لم تتمخض عن شىء ما ، لأن هذه الوحدات المختلفة من الأسطول الفرنسى الجديد والتى أسكن بناؤها بجهد بالغ فى موانئ فرنسا المتعددة فى ظل حماية قوية لم تنح لها الفرصة قط لأن تلم شملها وتتجمع فتسكون أسطولا مركزاً تسكفى قوته لحماية الأسراب العديدة من القوارب الخفيفة التى جمعت فى بولونيا بتجشم كثير من المشاق . ذلك لأن بريطانيا فى هذه الآونة أحرزت تقدماً جديداً فى فنون الحرب البحرية ، واكتشفت أن خير دفاع عن شواطئها وتجارتها بل أن أقل أنواع الدفاع كلفة هو الحيلولة دون خروج الأساطيل الفرنسية من موانئها حيث خباها الفرنسيون على طريقتهم فى اخترائها ، وإن يمنع الفرنسيون من أن يألفوا البحر ويعتادوه ، وفى هذه الأثناء قلما ترك رجال البحر البريطانيون سفنهم لمدة سنوات فصلب عودهم وخشنت نفوسهم وتدرّبوا على إدارة سفنهم — حتى أن نلسن نفسه لم يترك السفينة التى عقد عليها لواؤه لمدة عامين كاملين فلما جد الجدد وتطلب الأمر خبرتهم فى تسيير السفن إبان المعارك البحرية ظهر تفوقهم على أعدائهم فى وضوح ..

وهكذا حوصرت الموانئ الفرنسية منذ بداية الحرب فى عام ١٨٠٣ — وقد أفلتت بعض القطع البحرية ولكن مثل هذه القللت لا يمكن لإحكام زمامها فلم تتجمع منها قط مجموعات فى أعداد كافية لىكي تسود المضائق الإنجليزية ولم تتوافر لها سرية الحركات فتجنب مراقبة السفن البريطانية التى سرعان ما كانت تتبعها

وتطاردوها — وكان مفتاح الموقف كله في ميناء برست حيث تجمع فيه الجزء الرئيسى من أسطول نابليون. ووقف له الأميرال كورنواليس بالمرصاد ، ولم يهيج له لحظة واحدة للإفلات. من مكنه . ومن وجهة النظر الحربية تتوقف مزايا مثل هذا الحصار المضروب على الموانئ الفرنسية على اختلاف بين بين البحر والبر — فالناس يمشون في كل مكان تقريباً على اليابس فيما عدا الصحارى التى يتعذر اختراقها ويستحيل على جيش ما أن يتحرك لأية مسافة دون أن تعلم حركته وتعرف أمكنة وجوده بينما يسهل على الأسطول أن يبحر لمسافات بعيدة وعلى الأخص في المحيطات دون أن تنكشف حركته وأهدافه — ولنا في هذا مثل بارز حينما أبحر نابليون إلى مصر عبر البحر المتوسط . وقد وقع الاختيار في بادئ الأمر على جزر الهند الغربية بسبب وقوعها على بعد سحيق في المحيط لتكون مركزاً لتجمع وحدات الأسطول الفرنسى المتفرقة — غير أن هذه الوحدات ظلت مخبئة في موانئها مما اضطر معه نابليون إلى أن يحاول جمعها في خليج إسكاي، ولو تجمعت هناك لسهل على الأسطول البريطانى معرفة أخبار تجمعها واتخاذ الأهبة للملاقاة — حقاً أفلت القائد الفرنسى فيلينييف من طولون بجزء من وحداته — ووصل إلى جزائر الهند الغربية ولم يلحق به أى قسم آخر بل على العكس من ذلك تتبعه نلسن وطارده .

وأدرك نلسن تماماً ماذا تتركه هذه المطاردة من أثر حتى أنه تنبأ بعودة فيلينييف في الحال بل وتنبأ بالطريق الذى سيسلكه في عودته . فاختار نلسن طريقاً آخر مستخدماً لأقصى حد الرياح الغربية فوصل إلى المياه الأوروبية وبقى فيها منتظراً عودة الأسطول الفرنسى — وأخيراً بذل فيلينييف محاولة يائسة لينضم إلى الأساطيل الراسية في برست غير أن شجاعته خائته ففضل الإبحار جنوباً إلى قادس وحينئذ فقط اقتنع نابليون بعقم فكرة غزو بريطانيا ونقل جيوشه العسكرية في بولونى بعد أن طال عليها أمد الانتظار .

والواقع أن معركة الطرف الأغر لم تجر وقائعها إلا بعد أن زال عملياً خطر الغزو بثلاثة شهور — وجرى القتال فيها بسبب فشل فيلينييف السابق إذ صدرت

له الأوامر بعزله وعلم هو بأمر هذا العزل قبل أن يصل إليه خلفه الذى كان من واجبه أن يعود بالأسطول إلى البحر المتوسط — غير أن نلسن كان فى انتظاره هناك فدمر جزءاً كبيراً من الأسطول الفرنسى وحال بذلك دون تجديد تهديد الغزو مرة أخرى .

وهكذا استخدمت بريطانيا البحر كوسيلة للدفاع ، وأحسن استخدامه أولئك الذين عرفوه حق المعرفة ضد أناس من أمثال نابليون ممن عجروا أن يدركوا المميزات الخاصة بالقتال البحرى وهكذا أمت بريطانيا بلادها ضد الغزو والمدوان لمدى قرن من الزمان .

٤ — المرحلة الرابعة : فلما عجز نابليون عن نقل جيشه عبر القنال الإنجليزي لم يجد بداً من محاولة السيطرة على المحيط عن طريق البر . ولأن يحقق هذا الهدف كان عليه أن يجمع كل أجزاء الدنيا الهامة فى محالفة ضد بريطانيا فنصب من نفسه دكتاتوراً تخضع أوروبا لإرادته . بل إنه فى الوقت الذى جرت فيه موقعة الطرف، الأغر كانت جيوشه قد وصلت لى قلب أوروبا وبعد بضعة أيام خرت النمسا خاضعة تحت قدميه ، ثم استسلمت له روسيا فى نهاية عام ١٨٠٦ .

وهكذا تحول الصراع إلى صراع موارد وطاقة مدخرة ، فحاول نابليون أن يعزل بريطانيا ويحرمها كل كسب لها فى أسواق القارة بل صادر كل سفينة تأتى من بريطانيا ولو كانت غير بريطانية وحاولت بريطانيا بدورها أن تعزل فرنسا وفتوحاتها عن كل نقل بحرى ما لم تكن البضائع مصدرة من ميناء بريطانى ودفعت عنها الإتاوة لخزائنها ، وفى عام ١٨٠٧ كان الحصار البحرى قد أصاب نجاحاً باهراً لأن نابليون كان مشغولاً فى محاولته أن يجعل روسيا تسير سياسة الدول الأوربية الأخرى ، ولم يستطع الاستغناء عن جيوش فرنسية لتنفيذ أوامره لمنع التجارة — كما انسحبت الأساطيل الدنمركية والبرتغالية من جانبه تحت إغراء انجلترا قبل أن تفترسها الجيوش الفرنسية نهائياً .

فلما سيطر نابليون على كل أوروبا باستثناء السويد وتركيا بدا موقف بريطانيا داعياً إلى اليأس غير أنها أعانت أن كل تجارة خارجية يجب أن تمر بالموانئ

البريطانية وأن تدفع لها الرسوم المقررة ونفذت هذا الوعيد بقوة أسطولها ، وهكذا ازدادت بريطانيا قوة بحصولها على نسبة مئوية عن جميع تجارة أوروبا الخارجية وأضعف ذلك نابليون بطريقتين — الأولى أن أهالى شمال أوروبا كان من صالحهم الاتجار مع بريطانيا على الرغم من القيود البريطانية المفروضة على تجارتهم — فجرى التعامل بين الطرفين كما استثار نابليون سخطهم حين حاول استخدام القوة في إيقاف هذه التجارة غير المشروعة ( فى نظره ) . والثانية أنه شعر بضرورة الحيلولة دون وصول التجارة البريطانية إلى شمال أوروبا فاضطر إلى أن يبعثر جيوشه على طول السواطى الأوروبية فى نطاق عرضه خمسون ميلا مما حال بينه وبين إرسال قوات كافية يصد بها الهجوم الإنجليزي فى شبه جزيرة إيبيريا .

وهكذا ذرت الأزمة قرنبا فلو أنه سحب قواته من شمال أوروبا ليقاوم بها البريطانيين فى أسبانيا لأفادت بريطانيا من ذلك وانتعشت مواردها بالاتجار مع دول الشمال ولو أنه احتفظ بجيوشه فى الشمال — كما فعل — لمعجز أن يرسل إلى البرتغال جيوشاً تطرد البريطانيين منها . فتبعثرت موارده من الرجال وضعف أثرها وازدادت فرنسا فقراً على فقر وارتفعت أسعار الحاجيات كلما اقتربنا من حدود فرنسا وعلى العكس كان يسهل استيراد البضائع ويزداد ثمنها رخصاً كلما بعدت الشقة عن فرنسا .

بل أن تلك الحملة العسكرية التى كانت السبب المباشر فى سقوط نابليون ترجع فى علمها إلى السياسة التى اضطر نابليون إلى اتباعها بحكم أن بريطانيا جزيرة محمية ، منافذها مفتوحة للمحيط فقط . ذلك أن روسيا على الرغم من بعدها عن فرنسا وعلى الرغم من أنها وافقت نابليون على استبعاد السفن البريطانية إلا أنها لم توافقه على استبعاد البضائع البريطانية التى تحملها سفن أخرى وكاد هذا الرأى يقلب مشروعات نابليون رأساً على عقب — فنشب بينهما خلاف شديد مما استتبع حملة نابليون على روسيا فتشجعت حكومتا روسيا والنمسا مؤيدتين من الشعب كله وهبتا للوقوف ضد نابليون — واستمر نابليون يفقد فتوحاته شيئاً فشيئاً لأن موارده المادية والبشرية قد نضبت حتى دخل الحلفاء باريس وانتهى الصراع بعد أن أثبتت القوة البحرية المحيطية أنها قوة لا تقهر .

## الفصل الثاني عشر

### الغابات

#### أولا - روسيا

رأينا في الفصلين السابقين كيف بعث كشف المحيط بالنشاط الذهني إلى عقول الأقاليم التي سكنت حافة أوروبا الخارجية ، وكيف أمكن لهذه الشعوب أن تفيد من المزايا التي هيأها لها ذلك الكشف البحري فاكتمست الوحدات الطبيعية التي تحف بالمحيط أهمية بالغة . وكان لهذا النشاط الذهني أثر بعيد في هذه الوحدات عن أحد طريقين إما لأنها قد بدأت في تبلورها ونضوجها ، وإما لأنها أسرعت في تطورها ، وقد جاء بطبيعة الحال كشف المحيطات الذي قامت به الأمم الغربية بكل ما استتبعه من نتائج جاء على أثر اتصالها بقبائل السهول من جهة وبالغرب والأقاليم التي دخلت في الإسلام من جهة أخرى .

وقبل أن نستطرد في متابعة هذه القصة ينبغي أن نلقي بنظرة إلى الوراء لنرى كيف أن دولا أوربية أخرى أخذت تحتل مكانتها بين الدول العظمى ، ولكي ندرك هذه الحقيقة يجب أن ندرس ظاهرة جغرافية أخرى لا تقل في أهميتها عن غيرها من الظواهر ، ألا وهي ظاهرة الغابات وخصائصها :

والغابات أنواع متعددة ولكنها تشبه بعضها بعضا من نواح عدة :

أولا : أنها صعبة الاختراق . نعم قد يسهل اختراقها على الجماعات الصغيرة والأفراد دون الجماعات الكبيرة العدد وقد يسهل السير فيها للسائر على القدمين أكثر مما يتيسر للفارس على صهوة جواده ، وهكذا تتناقض الغابات مع المراعي

تناقضاً أساسياً حيث نرى الحركة ميسورة في جميع الاتجاهات وحيث للحياة في جماعات كبيرة العدد مزايا واضحة سواء في الحل أم في الترحال .

ثانياً : أنه قد يمكن اجتثاث بعض أحزاء الغابات فيستقر فيها بعض السكان تحميمهم الأجزاء الكثيفة من حولهم ، غير أنه في مثل هذه الظروف البدائية لا ينتشر العمران بسرعة إذ يعجز عن أن يمتد إلى مناطق واسعة ، وما دامت الغابات تزود سكانها بالثمار الطبيعية البرية فليس هناك ما يفرى على الاستقرار في مكان واحد بعينه أو ما يستثير شهوة الإنسان في جمع الممتلكات وإحرازها .

ثالثاً : إن الجماعات التي تستقر في مناطق الغابات تفضل احترام الزراعة على الرعى لأن وجود الغابات دليل على أن الإقليم يخلو في مناخه من فترة جفاف طويلة أثناء السنة وهكذا يمكن زراعة بعض المحاصيل والإفادة من التربة بدرجة أكبر منها في بيئات المراعى الجافة .

رابعاً : وينتج مما سبق أن مناطق الغابات قليلة السكان يعيشون مبعثرين في أرجائها وإن وجدت بها جماعات زراعية فإنها تميل إلى اتباع نظام القبيلة ولا تثق بالغرباء أو الدخلاء عليها .

وهكذا تختلف ظروف الحياة في الغابات عن أى نوع سبق لنا دراسته حتى الآن ، فلم تتصف البلاد العريقة في مدينتها بغزارة الأمطار ولم تبلغ بها الأشجار حداً من الكثافة يؤثر في انتقال الإنسان لدرجة كبيرة أو يكفل الحماية للمجتمعات التي تستقر فيما بينها .

وعلى الرغم من أن السهل العظيم في العالم القديم يبدو على خريطة تضاريسية وكأنه سهل واحد إلا أنه في الحقيقة ينقسم قسمين تبعاً لوجود الغابات وانعدامها فإن الجزء الشمالى والشمالى الغربى منه — بسبب وقوعه تحت تأثير الرياح الغربية — أصبح أكثر رطوبة من القسم الجنوبى والجنوبى الشرقى من السهل . فهو أطف جواً في الصيف الأمر الذى تقل معه كمية البخر . وهكذا اقتصر إنتاج القسم الجنوبى والشرقى من السهل على الأعشاب والحشائش على حين أصبح الشمالى والغربى



منه منطقة غابات كست فيها أشجار الصنوبر المساحات ذات الشتاء البارد الجاف .  
وسادت الأشجار النفضية القسم الغربى الأكثر اعتدالا الواقع إلى الجنوب من .  
بحر البلطيق وإلى الجنوب الغربى منه . وهنا نجد مساحة واسعة يصعب عبورها  
كما يصعب حكمها بل يصعب توحيدها في دولة واحدة يسودها الانسجام .  
والتجانس ، وهكذا تأخرت روسيا نسبيا في ظهورها على مسرح التاريخ قبل أن .  
تصبح دولة ذات أهمية .

وقد سبق أن لاحظنا أن السلاف كانوا من بين القبائل التي ظهرت حركاتها  
وقت انهيار الإمبراطورية الرومانية الغربية، وكانت تنقلاتهم — شأنها شأن القبائل .  
الجرمانية — مبعثها الضغط الواقع عليهم من الشرق أكثر من صدورها عن رغبة .  
في نفوسهم تدفعهم إلى التحرك والانتقال أو عن حافز طارىء عليهم من فعل .  
بيشهم التي تحيط بهم ، ومن ثم لم يذهبوا بعيدا في اندفاعهم وتحركهم .

ومهما كان الأمر ، فإنهم استقروا أخيرا في المنطقة الواقعة بين بحر البلطيق .  
في الشمال وبلاد البلقان في الجنوب وقد سكن بعضهم السهول كما سكن بعضهم  
المرتفعات . ومن ثم انقسموا فرقةين بعد هجرة الرعاة الذين جاءوا من الشرق  
وظلوا يتنعمون في هجرتهم مناطق الرعى الوسطى . وقد تكلمنا فيما سبق عن  
السلاف الجنوبيين الذين سكنوا شعاب الجبال ، وسنحصر كلامنا الآن في السلاف  
الشماليين .

في هذه الغابات التي احتلها الشماليون وجدت الجماعات الرعوية المتنقلة ظروفًا  
منايرة لم تكن تألفها ولم تعرف كيف تؤائم حياتها تبعًا لها ، فلم تصل قط جماعات  
الآقار وغيرهم من الرعاة إلى هذه المناطق ووجد السلاف الشماليون بعض الحماية  
في استقرارهم حيث اجتثوا الأشجار الصنوبرية وعاشت جماعاتهم في وحشة وعزلة .  
وقد نأت بها مواطنها إلى الشمال فبعدت عن المؤثرات الحضارية التي أضاء نورها  
حول البحر المتوسط ، ولذا استغرقت قبائل السلاف بطبيعة الحال زمنا طويلا قبل  
أن تتمكن من احتلال مكانتها في العالم المتحضر وجاءت إليها أولى مؤثرات .  
الحضارة — كما هو منتظر — عن طريق البحر .

وقد حدث حوالى عام ٨٠٠ م نتيجة لامتداد الإمبراطورية الألمانية العظمى التى سئلمح إليها فيما بعد — أن نشط سكان الدانمارك واسكندناوه الحاليتين . ولفقت فتوحات شارلمان فى البلاد السكسونية أنظار الشعوب الشمالية إلى ما كان يجرى فى الجنوب منهم فالتهمت نفوسهم رغبة فى السلب والنهب وداعتهم أحلام فى تكوين ممالك فى المناطق الشمالية القليلة السكان التى تبعثرت فيها جماعات مختلفة يرجع صغر عددها وانمزاعها إلى صعوبة الحصول على كميات وافرة من الغذاء فى مكان واحد بعينه ، فشب الشباب منهم وهم يألفون هجرة ذويهم . ويألفون ارتكاب المشاق والأخطار فى سبيل الحصول على ضرورات الحياة من البر والبحر — وقد تعودوا الاستقلال فى التفكير والعمل بأنفسهم بمساعدة عدد قليل منهم — فتوافرت صفات الزعامة بين الكثيرين وقل بالتالى عدد من يتقادون منهم لغيرهم — ولهذا انتشروا فى مدى قرنين من الزمان فى كل جهة تقريباً ، فأرأينا من بين النورسمن أو النورماندين من قاموا بارتياح المناطق المجهولة أو من خاضوا المعارك أو أسسوا المستعمرات .

وآل الحكم فى إنجلترا وفى غيرها من البلاد إلى أسر عديدة منهم ، وإذا كان طابعهم فى بادئ الأمر مغرباً مدمراً حيثما أغاروا على البلاد العريقة فى مدنيتهما إلا أنهم كانوا أيضاً ومن أول الأمر معمرين منشئين فى البلاد التى تقل عنهم حضارة ورقياً كالمناطق التى سكنها السلاف الشماليون مثلاً ، فبرزت مدينة نوفجورد Novgord حيث كان من أيسر الأمور على هؤلاء البحارة الوصول إليها وبذت جميع مستعمراتهم الأخرى فى هذه الغابات . واتسمت تدريجياً المنطقة التى تدين بالولاء لحاكم نوفجورد حتى امتدت روسيا جنوباً إلى منطقة الانتقال بين الغابات والمراعى أو ما يسمى منطقة المراعى الغنية الممتدة على حافة نطاق الغابات ولم تمتد إلى أبعد من هذا ولكنها مع ذلك اتصلت بالحضارة البيزنطية وبالكنييسة اليونانية . وتأثر أهلها بكليهما .

والانقسام الداخلى أمر طبيعى فى أقاليم الغابات . حيث يتعذر الاتصال بين الوحدات المختلفة فكان هذا سبباً فى انقسام الدولة الروسية فى إبان القرن الحادى

الغابات الصنوبرية

الغابات النفضية

موسكو

مراعي استبس

مقاطعة موسكو

وحين انهار الحكم المغولي قامت ولاية المسكوف تتخذ من مدينة موسكو مركزاً تبني حوله ، إذ نشأت بالقرب من حافة الغابات، وإن ظلت في داخلها وازدهرت بفضل تأييد الجزء الشمالى من روسيا الذى لم يتناوله الغزو والفتح — وقامت بدور الوسيط بين المغول فى الخارج والروس فى الداخل بعد أن اضطرتهم الأحداث الخارجية إلى الاتحاد والتضامن وفى نهاية القرن الخامس عشر نزلت

• ولاية موسكو عن نفسها قيود الحكم المغولي وأصبحت موسكو نواة روسيا  
• فنشأت دولة ذات حكومة مركزية مستقلة استقلالاً فعلياً .

وبعد أن تأسست الحكومة المركزية لم تستغرق وقتاً طويلاً لتدرك سر قوة  
سكان المراعى ولتعرف أن قوتهم كامنة في اتحادهم ومهولة انتقاليهم — بل وإن  
حركتهم قد تكون في نفس الوقت مصدر ضعفهم لعدم وجود مركز ثابت يرجعون  
إليه . فلو تمكنت حكومة مركزية مستقرة من تنظيم قوة ميزتها سرعة الحركة  
تواجه بها أولئك الرعاة لا تنصرت وفرضت سلطانها عليهم، وقد تم ذلك فعلاً لروسيا  
• فلم تمض خمسون عاماً على قيامها إلا وقد امتد الحكم الروسى إلى الجزء الأكبر  
• من مراعى الاستبس في جنوبها ، وقبل نهاية القرن السابع عشر امتد حكم روسيا  
إلى سهول آسيا الوسطى الفسيحة الأرجاء التي كانت حتى ذلك الأوان مصدر  
خطر يهدد جميع المدينت التي تحف بجميع نواحي السهل المراعى الأطراف الواقع  
في وسط آسيا وهكذا قضى نهائياً على عناصر الاضطراب التي ظلت تقلق بال  
• المدنية والحضارة طوال عصور التاريخ ثم تناولها الروس بالتنظيم فأصبحت مصدراً  
• للقوة والتعمير لا وسيلة للتخريب والتدمير .

وهكذا أشرفت روسيا على تنظيم السهل بأكمله ابتداء من نطاق الغابات  
• في الشمال وأخذت تعمل على نشر العمران تدريجياً في تلك المساحات التي اكتسحتها  
الرعاة من قبل وتركوها قاعاً صفصفاً ، وأمكنها بفضل استخدام وسائل الرى  
زراعة أراض فسيحة كانت جفاف الرعاة لا تجد فيها غير الأعشاب الفقيرة  
لقطعائها — وشيد الروس الطرق الحديدية عبر أراضى خلت من الأحجار  
• وتعذر فيها تعبيد الطرق — وأصبحت موسكو لا بطرسبرج المركز المصبى للحياة  
عدد كبير من الشعوب المتنوعة .

وروسيا بهذا الوضع — أى باحتلالها الجزء الأوسط من أوراسيا تلك التارة  
• العظيمة — بميدة عن المحيطات فيما عدا المحيط المتجمد الشمالى العديم الفائدة ولهذا  
أضحت سياستها الخارجية لدى قرنين من الزمان هى محاولة للوصول إلى البحار الدافئة  
• المفتوحة تارة عن طريق خليج فنلندة وبحر البلطيق ، وتارة عن طريق البوسفور

وبالبحر المتوسط ، وتارة عبر أفغانستان وإيران ، وتارة بالتوسع جنوباً على حدودها الشرقية البعيدة المطلة على المحيط الهادى — غير أنها حتى الوقت الحاضر لم توفى توفيقاً كبيراً — لأن الدول الغربية قد سبقتها إلى الانضوج والتبلور وأصبحت قوة ثابتة ، كما يقع إلى الجنوب وإلى الشرق من روسيا ذلك الحاجز الجبل الذى يكاد يتعذر اجتيازه .

غير أن لروسيا ميزتها الخاصة فهى تحتل مساحة واسعة لا تزال مغلخلة السكان وتسكفل الحياة لعدد عظيم من البشر . وقد شمل إقبالها تنظيم بارع وما زالت تتدرج فى مدارج الرقى حتى تبلغ درجة عظيمة من الاكتفاء الذاتى أو الاستقلال الاقتصادى كما تمتاز باحتلالها قلب العالم القديم واكتسب شعبها ميزة الشجاعة ومثانة البنية والقدرة على تحمل قسوة المناخ . هذه البقاع المتوسطة فى موقعها والتى تتكون منها روسيا — مهما حدث لها من انقسام — هى وحدة طبيعية واحدة فى أساسها ولم تبلغ بعد الحد الأقصى فى استغلال مواردها .

## ثانياً — ألمانيا

تتبقى بعد ذلك، المساحة الوسطى الشمالية من شبه جزيرة أوروبا إلا وهى ألمانيا على وجه التقريب — وهنا تتعقد الظروف الجغرافية تعقيداً عظيماً وليس تاريخها بطبيعة الحال بأقل تعقيداً .

أولاً — لعل أوضح الحقائق الجغرافية أن البلاد الألمانية ذات موقع متوسط ولا نقول متوسطاً بالمعنى الذى نقصد به توسط السهل الأعظم فالسهل الأعظم يحيط به اليابس من كل ناحية ما عدا الشمال — وتحول المرتفعات دون اتصاله بجميع البلاد المجاورة الهامة سواء فى الشرق أو فى الغرب — وأن لم يتمتع هذا الحاجز قبائل السهول من أن تنفذ إلى الاطار المحيط به من حين إلى آخر . وفى واقع الأمر لم يحدث هجوم مضاد لحركات القبائل حتى ظهرت روسيا فى المابات الغربية . وحتى روسيا نفسها تأثرت فى الجزء الأكبر من تاريخها بثلاثة مؤثرات خارجية . النورسمن من الشمال الغربى ، والحضارة البيزنطية والكنيسة البيزنطية من الجنوب

الغربي والقبائل المغيرة من الجنوب الشرقى . أما قلب شمال أوروبا فقد تأثر بمؤثرات عدة جاءت إليه من نواحي مختلفة .

(أ) فقد تأثر قلب أوروبا بالمؤثرات المختلفة التى نشأت فى البلاد المتحضرة فى غرب أوروبا وجنوبها منذ عصر الإمبراطورية الرومانية فصاعداً .

(ب) وتأثر مراراً وبطرق مختلفة بجميع المؤثرات التى كانت تصل إليه من البحر فى الشمال ومن المحيط فيما وراءه .

(ج) كما تأثر بالمؤثرات التى وردت عليه من الشرق — لا من جراء هجرة القبائل التى جاءت من السهل فحسب ، بل ومن جراء غارات الأقوام الهمجية التى وصلت إلى أوروبا عن طريق آسيا الصغرى . ولم يقتصر تأثير هذه العوامل على مجرد حدوثها مرة واحدة أو مرتين كما هو الحال فى روسيا بل ظل قلب أوروبا واقعاً تحت تأثيرها على الدوام منذ العهد الرومانى وظلت هذه العوامل ذاتها فى تطور مستمر .

ثانياً — أن تضاريس وسط أوروبا معقدة جداً فالطرف الغربى للسهل يصل إلى البحر المكشوف مباشرة ، وإلى الجنوب من ذلك اللسان السهل ترتفع الأرضى وإن لم تحل من انخفاض مساحات كبيرة عن المستوى العام وقد تضيق بعض المنخفضات فتصبح ودياناً ضيقة نسبياً ، وقد يتسع بعضها حتى تصبح سهولاً ، كالسهل الذى يمتد من مدينة بال حتى شمال فرنكفورت ويستمر فى امتداده على طول الجزء الأكبر من مجرى الراين — وعلى العكس من ذلك نجد مرتفعات تزيد أو تقل فى اتساعها وفى ارتفاعها كالغابة السوداء أو كتلك المرتفعات التى تحيط ببوهيميا — وتختلف هذه الوحدات التضاريسية اختلافاً بيناً فى أحجامها — فليست كلها صغيرة كوحدة اليونان التضاريسية ولكنها سواء باتساعها أو بصغر حجمها — تخلف تنوعاً فى أساليب الحياة لا يجهد بتاتاً إلى قيام وحدة كاملة .

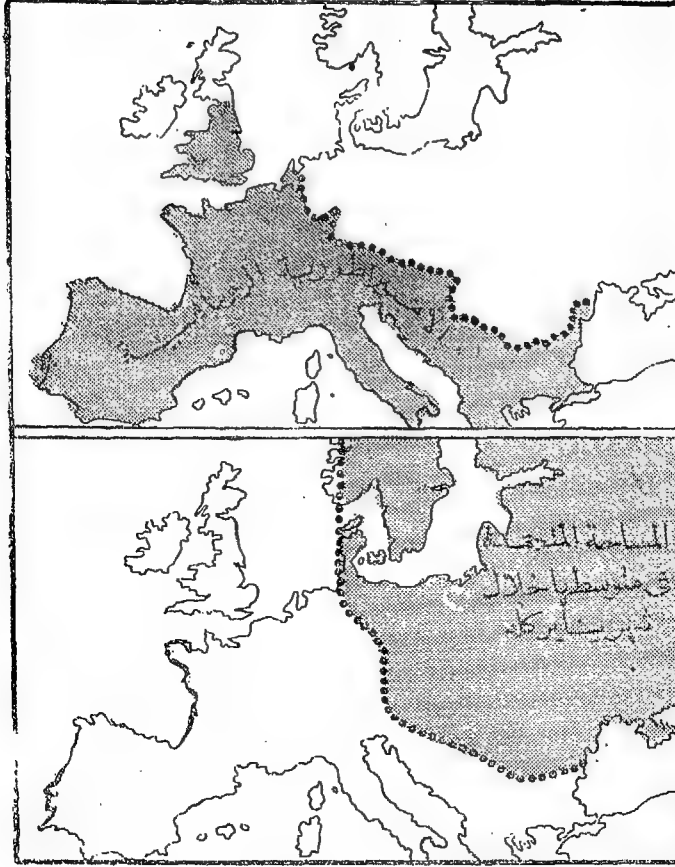
ثالثاً — وليس تنوع الحياة هو كل شئ فقد امتازت إيطاليا بالتنوع ولكن مرتفعاتها ومنخفضاتها تناسقت فجعلت من روما مركزاً طبيعياً لها ، أما قلب

شمال أوربا فليس فيه مركز واحد يمكن أن يقارن بروما بالنسبة لموقعها في شبه جزيرة إيطاليا وهي ذات الحدود الواحة بل ولا يباريس أو بلندن . وقد لا تكون روما عاصمة مثالية بالنسبة لإيطاليا الحديثة غير أن إيطاليا تخلو من مدينة أخرى تقف ندأ لها . أما ألمانيا فقد حوت عدة مراكز لم يبرز منها مركز واحد ليفضل المراكز الأخرى في جميع الأحوال ، وكلما اختلفت الظروف القائمة وكلما اختلفت المؤثرات التي تعرضت لها البلاد قام مركز أو آخر وازداد في ظهوره على المراكز الأخرى ، غير أنه لم تتوافر له علو المسكنة الدائمة أو ارتفاع الشأن حتى يكسبه قوة دافعة تضمن له الاحتفاظ بتفوقه في الظروف الجديدة . فقامت مراكز عدة احتل كل منها مكانته عهداً من العهود كمدينة فرنكفورت في الشمال الغربي ، وميونخ في الجنوب الغربي وفيينا في الجنوب الشرقي ، وبرلين في الشمال الشرقي . رابعاً — وفي المصور الغارة كانت الغابات التي نشأت بروسيا في أحضانها تكسو السهل الشالى وجزءاً كبيراً من المرتفعات في الجنوب منه ، وقد ساعدت على عزل المجتمعات المختلفة التي عاشت بين ظهرانها وشدت من أزر العوامل الأخرى التي دعت إلى التفرقة والانقسام مثلها كمثل العوامل الجغرافية الأخرى التي تسكمنها عنها آنفاً وقد تركت هذه الغابات على حالها الطبيعية تقريباً في الشرق . أكثر منها في الغرب واستمرت إلى عهود متأخرة مما نتج عنه سبق غرب ألمانيا في تحضره لشرقها بزمان طويل .

خامساً — وألمانيا عامة يشتد بردها في الشتاء عن أى إقليم آخر باستثناء السهل الذى تسكمنها عنه — ولقد عرفت بلاد أخرى زمهرير الشتاء ولكن البرد القارس المستمر فيها أمر شاذ غير عادى ، غير أن ألمانيا وعلى الأخص شرقها تبقى فيها الأراضي متجمدة فترة طويلة من العام .

وهكذا خضعت ألمانيا لعوامل مختلفة — فلم تعرف لها عاصمة واحدة معينة وقد أحاطت بالبلاد شعوب ذات أهمية بالغة وامتازت أجزاءها بمخصائص مختلفة وسكنها أقوام اختلفت وجهات نظرهم إلى الحياة وتعرضت لمؤثرات خارجية دخلت عليها من جميع الاتجاهات وتركزت طابعاً مختلفاً في كل وحدة من الوحدات

( الخريطة رقم ٣٨ )



الامبراطورية الرومانية ومنطقة البرد القارس  
لقد تجنب الرومان البرد القارس

ومن ثم لم يتحد قلب أوروبا في ظل حكومة واحدة إلا إذا كانت هذه الحكومة على شيء كبير من العزة والمنعة .

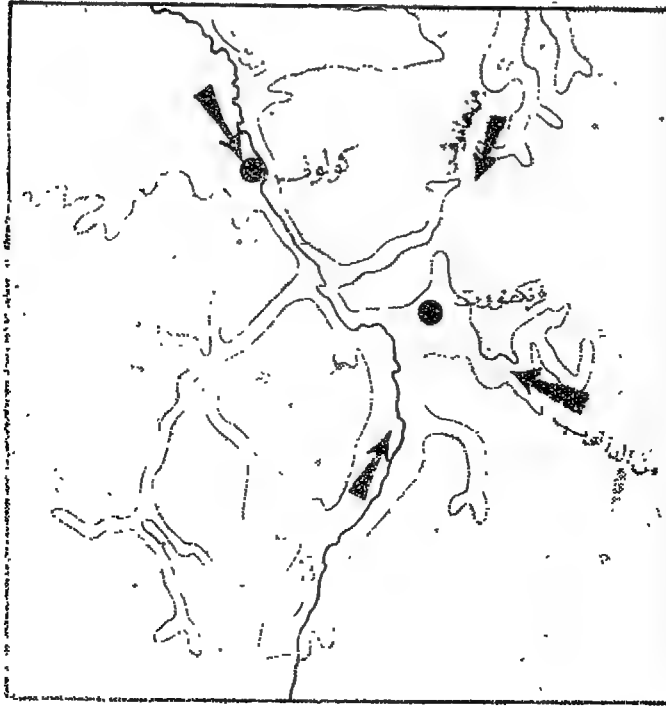
وقد ظلت البلاد الألمانية خارجة عن نطاق الامبراطورية الرومانية ، لأن الغابات من جهة كانت عسيرة في اختراقها على الجيوش ، عسيرة في حكمها على الحكومات ، ولأن البلاد من جهة أخرى تقاسى من البرد القارس إبّان الشتاء أشد مما ألفه أهالي جنوب أوروبا — غير أن هذه الجماعات الألمانية تأثرت لمدى قرون عديدة بالامبراطورية الرومانية وبالأراء التي تسربت منها وعم تأثيرها جميع القبائل سواء



التيوتينية في الغرب أو السلافية في الشرق على الرغم من عزلتها في وسط غاباتها في الأماكن التي اجثث منها الأشجار . وليس بأقل هذه الآراء أهمية فكرة الحكومة المركزية إلى جانب غيرها من مظاهر الحضارة التي نقلت من الامبراطورية الرومانية كاستخدام الأسلحة والملابس .

ولما ضعفت القوة الرومانية كانت الجماعات التيوتونية أول من اندفع إلى بلاد تعترف بالسيادة الرومانية ، أما لأنها اضطرت إلى ذلك اضطراراً تحت ضغط قبائل السهول وأما لأنها ضعفت أمام إغراء الرخاء والغنى الذي تتمتع به البلاد الرومانية في ظل السلام الروماني . فعبر السكسون البحر إلى بريطانيا وازداد نفوذ الفرنجة في بلاد الغال دون أن يهجروا وطنهم الأول حول مدينة فرنكفورت الحديثة — وهاجر البرجنديون إلى وادي الرين بينما اكتسح القوط والوندال واللامبارد أجزاء مختلفة من سواحل البحر المتوسط . وقد اندمجت هذه القبائل الأخيرة في الشعوب التي غزتها وسادتها فترة من الزمان — غير أن الفرنجة الذين لم يتركوا جميعاً وطنهم الأول واستمروا خاضعين للظروف التي ألفوها من قبل واستطاعوا — رغم ما اكتسبوه من جوارهم للامبراطورية — أن يحتفظوا بالكثير من عاداتهم وتقاليدهم القديمة . انظر إلى موقع الفرنجة في وطنهم الأول تجددهم يسكنون ذلك الجزء من وادي الراين الذي يحيط بمدينة ماينز وفرنكفورت — وهو منطقة من الأراضي الخصيبة دافئة نوعاً ما وبها من المنخفضات أو السهول ما يجعل الانتقال فيها ميسوراً في أربع اتجاهات رئيسية ، فهي تتصل من ناحية الشمال الغربي عن طريق خانق نهر الراين بالسهول المفتوحة في واديه الأدنى ودلتاه ؛ وتتصل من ناحية الشمال الشرق عن طريق فيتراو بمدينة هانوفر الحديثة أو بسكسونيا القديمة ، وتتصل من ناحية الشرق عن طريق وادي المين بالدانوب وبافاريا ، وتصل من الجنوب عن طريق أعلى نهر الراين بمقاطعة سوابيا ، وليس من قبيل الصدفة أن يكون الفرنجة — وبعضهم داخل الامبراطورية وبعضهم خارجها — أول الشعوب التيوتونية في أخذها بتنظيم تلك الأراضي التي لم تسكن قد اكتسبت أهميتها الكاملة بعد . فقد انتشروا عن طريق الراين الأدنى نحو

المدنية الرومانية في بلاد الغال ثم مدوا نفوذهم في اتجاهات مختلفة فسادوا الشعوب  
التيوتونية الأخرى التي لم يتهيأ لها موقع مركزي ممتاز كالذي تهيأ للفرنجة .  
( الخريطة رقم ٣٩ )



موقع فرانكفورت  
( تتجه أربعة طرق كبرى إلى فرانكفورت )

وقد أسس الفرنجة الشرقيون دولتهم مرتين وكان بعض أجزائها في بلاد:  
الغال وبعضها في ألمانيا فقامت أولاً تحت حكم كلوفس على أنقاض القوة الرومانية-  
المتهمة ثم أعيد تأسيسها بعد اضمحلالها من الجزء الشرق فقط على يد بين وشارل.  
مارتل وبين الثاني وشارل العظيم أو شارلمان وأقاموا بنياهم على أسس أمتن من  
الأسس الأولى ثم اعتنقوا المسيحية على مذهب الكنيسة الرومانية وقاموا بقيادة  
شارل مارتل برد العرب على أعقابهم في هجومهم على أوروبا الغربية فأصبحوا أبطال  
الدفاع عن المسيحية واعترف لهم البابا بهذه الصفة وهو الوريث لما تبقى من سلطان.

روما . وهكذا أقام الفرنجة إمبراطورية أخرى تدين بمعظم سلطانها إلى هذا الاعتراف البابوي — وقد وطد شارلمان أركان إمبراطوريته ومدف حدودها جنوباً حتى شملت البرانس وسهل لمبارديا كما وسع حدودها إلى الشرق وإلى الجنوب الشرق — غير أن هذا التوسع والامتداد حوى في طياته بذور الضعف وكانت أولى نتائجه اتصال قوات الفرنجة اتصالاً مباشراً بأهل اسكندناوة وأوجد هذا الاتصال فيهم حافزاً إلى الهجرة من أوطانهم، كما بعث بالنور سمن الوثنيين مهاجمون جميع شواطئ شبه جزيرة أوروبا، وهكذا تعرضت المسيحية لفترة من الزمان إلى هجوم الأعداء عليها من جميع النواحي — وطالما كان الفرنجة في وادي الراين وهى البلاد الهامة الوحيدة خارج الإمبراطورية الرومانية الغربية كانت دولتهم بحكم قوتها وفيتوتها قيمة بأن تتولى الزعامة، ولكن لما دخلت البلاد الأخرى بظروفها المختلفة في زمرة العالم المتمدن أضيف عامل جديد يعمل على تكوين دويلات صغرى .

وقد برز ذلك الاتجاه الطبيعي إلى الانقسام بين الغال وبلاد الفرنجة حتى قبل عهد شارلمان — حقاً بقيت بلاد الفرنجة كتلة واحدة إبان حكم شارلمان وبعد موته بوقت قصير ثم تفرقت أجزاء بعد بضع سنين ، فانقسمت أولاً إلى ثلاثة أقسام ثم إلى أربعة . قسمان منها كانا بمثابة النواة لكل من فرنسا والمانيا الحديثتين وإن لم تتطابق حدودهما تماماً . والقسمان الآخران هما إقليم برجنديا وسهل لمبارديا في شمال إيطاليا . ثم اتحدت برجنديا ولمبارديا مرة أخرى ضمن الأراضي الألمانية التي انطوت تحت لواء الإمبراطورية في أحد أطوارها فيما بعد ، غير أن الجزء الأساسي من برجنديا أى وادي الرون والساؤن اندمج بمضى الزمن في فرنسا وبقي شمال إيطاليا طويلاً ضمن الإمبراطورية يقاسى معها افتقارها إلى مركزية الحكم . ثم أضحت عوامل التفرقة والانقسام الطبيعية بين الوحدات المختلفة أكثر ظهوراً داخل الكتلة الجرمانية تبرزها الفوارق الجغرافية والتاريخية وقد احتفظت بلقب الإمبراطورية لأنها حوت فيما حوته مقر الحكم الفرنجى أو الجرمانى .

أولاً — لما انقطعت سلالة الكارولنجيين عجزت أية قوة بمفردها عن أن تحل محل الفرنجة وتفرض سيطرتها على الولايات الباقية — ثم وفقت هذه الولايات

أخيراً إلى الحل الوسط إذ ترك أمر اختيار الامبراطور في أيدي عدد من الحكام الناخبين . ولعل تأخير تنظيم المانيا في وحدة واحدة عهداً طويلاً مرجعه رجحان كفة عوامل الانقسام والتفرقة، إذ أضيف عنصر جديد مرجعه إلى العناصر الجغرافية والمناخية ، مما أدى إلى قيام هذه الحالة التي اقتضت بدورها قيام هؤلاء الناخبين ، فهو من ناحية اعتراف بحاجة المانيا إلى الوحدة — وهو من ناحية أخرى تأكيد بأن نوعاً من الانقسام المنظم ضروري ليربط بين أجزائها ، وأن امبراطوراً ينتخب بإرادة حكام الولايات سواء كانت هذه الولايات مساوية لولايته أو تفوقها أهمية هو امبراطور بالاسم فقط ، يحكم بإذنهم ، ولما ضعفت المنظمة المركزية بهذا الشكل أضحت سلطة الإمبراطورية في أغلب أجزائها سلطة اسمية بحتة . نعم قد يستطيع رجل أو أسرة أن تخضع الولاة الباقين فيحصل على أصواتهم بالحزم والشدة ، غير أن هذه القدرة على الحكم لا تقوم في أساسها على أنه امبراطور بالاسم بقدر ما تعتمد على ما يتوافر له من قوة كحاكم مستقل وعلى مدى نجاحه في إظهار قوته حتى يصل إلى انتخابه ، وقد ظل مجمع الناخبين قائماً خلال المصور التالية وكان بعضهم من رجال الدين الذين يمثلون السلطات القديمة في تطورها لتلائم مقتضيات الظروف الجديدة ، وبعضهم من رجال السلطان الديني أي من غير رجال الدين ، فكانوا يمثلون لدرجة ما الوحدات الطبيعية الكبرى وكان هؤلاء وهؤلاء يتقاسمون السلطة الفعلية فيما بينهم تاركين ظلاً من السلطان فقط للسلطة الاسمية .

ثم جاء السكسون بعد الفرنجة ، وبعدهم جاءت أسرة هوهنشتوفن أو أسرة سوابيا ثم مرت فترة لم ينتخب فيها أي امبراطور ، سادت بعدها أسرة هابسبرج أو الأسرة النمساوية في النصف الأول من القرن الخامس عشر واحتفظت هذه الأسرة بسيادتها إلى قرب أوائل القرن التاسع عشر<sup>(١)</sup> إلى أن آلت أخيراً مقاليد الزعامة إلى بروسيا .

---

(١) تنازل الامبراطور نهائياً في عام ١٨٠٦ عن لقب امبراطور الدولة الرومانية المقدسة في معاهدة الصلح التي عقدها مع نابليون . المترجم

وقد كان كل امبراطور يباشر حكمه من مقره الأصلي وهو مقر أجداده وينشر نفوذه منه إلى الحد الذى يمتد إليه سلطانه ، وسبق لنا أن تبينا أن المانيا تحلو من وجود مركز طبيعى يمكن أن يقارن بلندن أو بباريس ، فلم يباشر أباطرة المانيا حكمهم من مقر معين كما اضطر إلى ذلك ملوك انجلترا مثلاً . فقد توالى على تاريخ انجلترا وفرنسا أسر مختلفة غير أن مقر الحكم لم يمتد تغيير ما منذ أن حلت لندن محل ونشستر ومنذ أن قامت باريس مقام لاون — وقد اضطر الملك جيمس أن يهجر اسكتلندا إلى لندن على بعد الشقة بينهما ليكون ملكاً على انجلترا ووقفت لندن وباريس ووراءها تقاليد متأصلة عميقة الجذور . وليس الأمر متصوراً فى المانيا على انعدام المقر الطبيعى فحسب ، بل أن مجرد مباشرة الحكم من مراكز مختلفة يعطى على فكرة عدم تأصل التقاليد فى أى منها ، ومع ذلك فقد ادعى كل مركز من مراكزها دعواه التاريخية بأحقية فى اعتباره مقر الحكم فى المانيا .

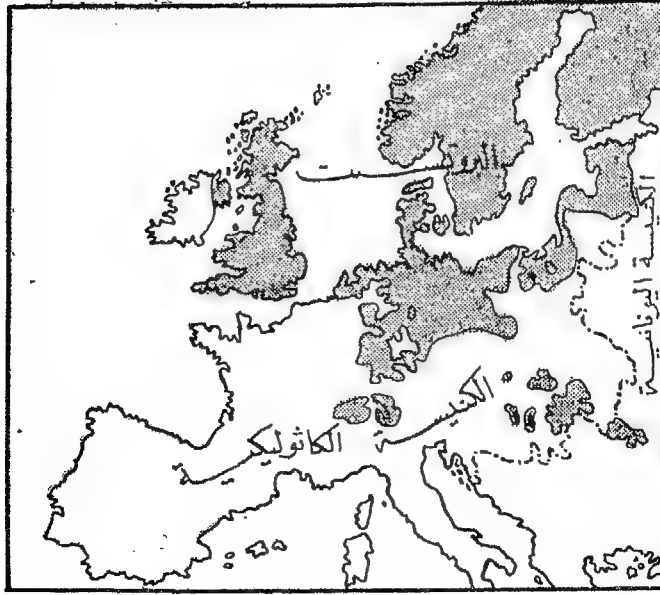
ثانياً : وما زاد الطين بلة أن الأساليب التى اتبعها الامبراطور لجعل حكمه نافذاً كانت تتشكل طبقاً لعوامل التفرقة من جهة أو تزيدها تأكيداً وظهوراً من جهة أخرى ، ولم تجب الحكومة الإمبراطورية أية ضرائب لتنشئ بها جيشاً امبراطورياً ينفذ إرادة الإمبراطور فى داخل الإمبراطورية أو فى خارجها ، بل نما النظام الإقطاعى فى هذه البلاد ووصل حداً لم يبلغه فى البلاد الأخرى . ويتوقف نجاح هذا النظام على التقسيم وتوالى التقسيم إلى أقسام صغرى ، وكان على ملاك الأرض الكبار من الناحية النظرية — ومن بينهم الداخبون — أن يقدموا القوات اللازمة لخدمة الإمبراطور ولكنهم استخدموا هذه القوات لتحقيق أغراضهم الخاصة حتى ولو كانت تتعارض مع أغراض الإمبراطور . وهكذا لم يزد هذا النظام من سلطان امبراطور ضعف سلطانه .

وأن أى حاكم يؤيد الإمبراطور تأييداً اسمياً ، ويصدر فى تأييده هذا عن ضعف ، لقمين بأن ينكص العهد فى تأييده فى اللحظات الحرجة ، ولن يقتصر الضر على الإمبراطور وحده ، فإن النبلاء العظام اعتمدوا بدورهم فى جمع الجنود على من يولونهم من صفاء النبلاء الذين يدينون بالولاء لهم ، واقتدى هؤلاء بمتبوعيه

في نسكوصهم عن أداء واجباتهم نحو الإمبراطور ، فلم يؤدوا هم واجباتهم نحو أسيادهم ، واختلف مدى نجاح التقسيم إلى وحدات صغيرة باختلاف الزمان والمكان والظروف القائمة وباختلاف أخلاق الحكام وشخصياتهم ، وكانت النتيجة النهائية لهذه الحالة أن أصبحت الإمبراطورية التي قامت أبان العصور الوسطى مكونة في الواقع من دويلات مستقلة استقلالاً فعلياً وتراوح في أحجامها من مدينة واحدة إلى أقاليم شاسعة يحكمها سيد ذو بأس وقوة .

ثالثاً : وفي مبدأ الأمر أى منذ القرن العاشر حتى أواسط القرن الثالث عشر لم تبرز عوامل التفرقة والانقسام بروزاً واضحاً ، وكانت الإمبراطورية قوية متماسكة تحت قيادة الأباطرة الأشداء من السكسون أو من أسرة هوهنشتوفن ، ولعل سبباً واحداً كان مسؤولاً عن هذه الحالة وهو قيام سلطة البابا ونفوذ الكنيسة فقد كانت تعمل في أول أمرها على الوحدة وجمع الشمل ولكنها عادت بمضى الزمن تبذر بذور الفرقة والانقسام ، ولقد رأينا أن ملوك الفرنجة أصبحوا أباطرة بفضل اعتراف البابا بهم كأبطال للمسيحية ، ويرجع الفضل إلى البابا وإلى استمرار اعترافه بهم في احتفاظ هؤلاء الأباطرة بسلطانهم سواء كانوا من الفرنجة أو من السكسون أو من أسرة سوابيا — ولما تجرأ هنرى السكسونى وفردريك من آل هوهنشتوفن على تحدى البابا ، لم يستطيعا الاحتفاظ بسلطانهما لأن الجماهير كانت تؤمن بالبابا ، ولن تتوافر سلطة لمن لا يعترف به البابا أياً كان ، وأخيراً لما اشتد ساعد القوى العاملة على التفكك والانقسام جاء الإصلاح الدينى فوجد الإمبراطورية ممزقة شر ممزق ، وخلت البلاد من سلطة مركزية عليها تتولى زمام الأمر وتشكل النتيجة النهائية المحتومة كما حدث في إنجلترا وفرنسا فتركت البلاد وشأنها ، بعضها يتبع لوثر في مذهبه البروتستانتي وبعضها يتبع المذهب الكاثوليكي الرومانى ، مما زاد في الخلافات القائمة والميول السائدة نحو التفرقة والانقسام .

رابعاً : وثمة سبب رابع يدعو إلى الانقسام نتج عن الطريقة التي تشكلت بها الامبراطورية فإن أى اتساع يطرأ عليها بفضل جهود الحكام أو الأفراد لا يعتبر امتداداً للإمبراطورية ولا يزيد في حدودها لأن هذه البلاد



#### أوروبا : توزيع المذاهب المسيحية

الجزآن الشمالى والغربى من ألمانيا يسودهما المذهب البروتستانى  
والجزءان الجنوبى والشرقى منها يسودهما المذهب الكاثولى

الجديدة كانت تخص حكام الولايات أو الأفراد الذين ألت إليهم مقاليد الأمور فيها ،  
وانضرب لذلك مثلاً الفرسان التوتون فى تنظيمهم لبروسيا الشرقية فقد بقيت  
خارجة عن نطاق الامبراطورية ولا علاقة لها إلا بدوقية براندبرج فتضفى على  
ناخبها أهمية على أهميته ، وقد استرد دوق النمسا مثلاً المجر من الأتراك ونصب نفسه  
ملكاً عليها وهو بوصفه ملك المجر لا يدين بالولاء للامبراطور ، وحدث بعد ذلك  
أن آل ملك بريطانيا إلى ناخب هانوفر ولكن بريطانيا لم تدخل فى نطاق  
الامبراطورية وهكذا أدى استحواذ هؤلاء الحكام على أقاليم تخرج عن نطاق  
الامبراطورية إلى زيادة استقلالهم عن الامبراطور وبالطبع ازدادت الحالة ميلاً إلى  
التفرقة والانقسام فى أول الأمر ، ولكن يجدر بنا أن نلاحظ أن بذور وحدة  
ألمانيا كُنت فى هذه الحقيقة التى ذكرناها الآن .

ومما لا شك فيه أن تلك الحالة أدت إلى خسارة مؤكدة في الطاقة بسبب افتقار البلاد إلى حكومة قوية، وهذا في حد ذاته نتيجة للظروف الجغرافية ، إلا أن البلاد أصابت تقدماً محسوساً في الاستفادة من الطاقة واستغلالها وقد بدا هذا التقدم واضحاً منذ عهد الفرنجة حين أخذت البلاد التيونونية بأسباب التحضر والرق ولو أننا استعرنا التعبير الذي استعملناه من قبل لقلنا أن مساحات واسعة دخلت ضمن نطاق البلاد التي يحسب لها وزن واعتبار وأصبحت الأراضي الواقعة على الحدود الشرقية دولا وقواعد تشع منها أضواء الحضارة وتعمل شيئاً فشيئاً على تخضير البلاد التي تليها شرقاً . وكان الفرنجة يحدون حكم تلك البلاد سهلاً إلى حد ما طالما كانوا هم الشعب الممتاز . وكان السكسون والسوابيون في مركز يشبه بعض الشبه مركز الفرنجة ولا يطاولهم فيه أحد ، وبات من الطبيعي أن يزداد الاتجاه نحو اللامركزية ظهوراً كلما أختت البلاد الواقعة على الحدود قدرة على الاستقلال بذاتها ، وكلما عمرت بعدد وفير من السكان الذين التأم شملهم ولم يعودوا يعيشون في جماعات منعزلة مبعثرة في أنحاء البلاد ، كما كانوا من قبل ، فكونوا ولايات تناظر الولايات الغربية التي استقوا منها حضارتهم ، وهكذا كان من نتائج تقدم البلاد وتحضرها ازدياد الميل نحو اللامركزية في الحكم .

ثم تردد في ألمانيا شعور صادق ينادى بوحدتها — يرجع في بعض أسبابه إلى وجود لغة مشتركة وفي بعض أسبابه الأخرى إلى الإيمان بالفكرة الإمبراطورية أو إلى وجود كنيسة واحدة مشتركة في القرون الأولى كما رأينا . وإلى هذين العاملين الآخرين يرجع الفضل في انتشار شعور الوحدة فيما وراء حدود الإمبراطورية . وتحلل جميع أنحاء العالم المسيحي الذي انحصر بين المطرقة والسندان أي بين المسلمين والنورسمن الوثنيين الذين كان لفتوحاتهم في الحقيقة الفضل في تكتل المسيحيين وتضامهم ، وقد عبر العالم المسيحي عن هذا الشعور بالتأييد الحماسي الذي أظهره للحملات الصليبية كما عبر عنه بنمو الجامعات العديدة وبتوطيد علاقات الصداقة فيما بينها — ويبدو الشعور الألماني الحق نحو الوحدة في نشأة المدن التجارية واتحادها . وقد كان التقسيم في البلاد الألمانية تقسيماً حكومياً فقط إذ أن



الخريطة رقم ٤١



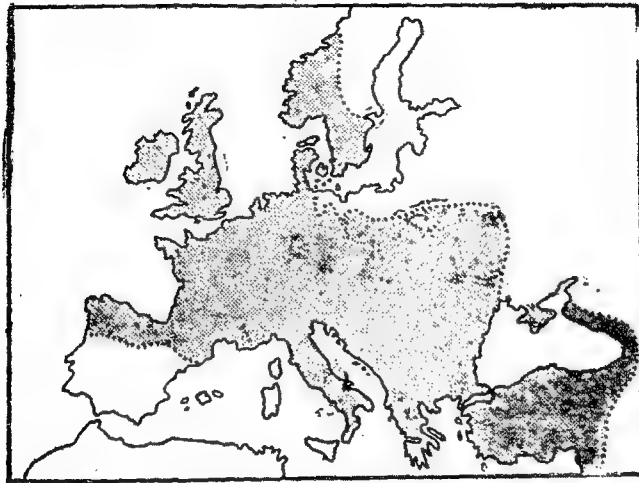
ألمانيا : توزيع اللغة

يتكلم أهل ألمانيا جميعاً لغة واحدة غير أن هناك  
فروقاً بين لغة أهل الشمال ولغة أهل الجنوب

الولاية الواحدة كانت تنقسم أجزاء بين أبناء الحاكم المتوفى كما تتحد أقاليم بزواج أمير من وراثته إقليم آخر — وبطبيعة الحال كان هناك إشراف في الطاقة بسبب افتقار الناس إلى الأمن والطمأنينة اللذين يكفلهما وجود حكومة قوية ، غير أن الأمر لم يصل إلى حد الفوضى الضاربة فقد تعلم الناس تدريجاً كيف يفيدون من جهودهم على خير وجه وأخذوا يجمعون الثروات ، ومن الآثار الواضحة لتلك الاتجاهات التي تبعث على التفرقة والانقسام نشأة مدن الهندسة واستقلالها في السهل الشمالي بعيدة عن المركز الاسمي للحكومة الإمبراطورية ، وقامت مبعثرة في أنحاء ألمانيا مثل برونيك ومجد بورج في الداخل ومثل همبرج ولوبك وستتن من بين الموانئ الواقعة على الساحل ومثل وسبي وبرجن فيما وراء البحار فكانت بمثابة المعامل الأولى للوحدة — إذ يتضح أن هذه المدن أحسّت بمزايا الوحدة فكانت فيما بينها اتحاداً ، ومن بواذر التقدم أن يدرك قوم أنه لا يمكن مزاولة تجارة ما دون موارد ودون طاقة مخزنة ودون معرفة بأساليب اختزانها .

والآن فلننظر كيف أصبحت ألمانيا أكثر تقدماً وأمن اقتصاداً في طاقتها وأبعد نجاحاً في تنظيمها السياسي ، لم تتوافر لها الفرص المواتية في أول الأمر لتوسع في رقعة أرضها بل أن هذه الفرص كانت تتناقص بالتدريج بسبب الأسلوب الذي جرى عليه الحكم الأمبراطوري وقد أعوزته القوة العسكرية الأمبراطورية فلم يتيسر للأقاليم الجديدة أن تتخذ لها وضعاً في داخل الدولة ، ولكن بعد أن استقرت الإمبراطورية في أوضاعها ظلت المسيحية في انتشارها نحو الجنوب الشرقي بين الأقوام الوثنية التي جاءت ولا دين لها من مراعى آسيا السحيقة، كما انتشرت المسيحية إلى الشرق بين سكان الغابات الأوربية غير أن البلاد التي تحف بالشواطئ الجنوبية لبحر البلطيق والذي تنأثرت خلالها البحيرات المختلفة كانت متبعة أمام التقدم المسيحي ، وبقي أهلها كفرة قروناً متوالية وهكذا وقفت ثلاثة أقاليم مختلفة تفصل بين الإمبراطورية الرومانية ذات المذهب الكاثوليكي في الغرب وبين الكنيسة البيزنطية ذات الحضارة اليونانية في الشرق ، أولها المجر وهي تقع أحضان جبال الكربات وقد سكنها شعب اختلطت دماؤه من جراء تزاوج جميع الشعوب الرعوية التي سبق لها تهديد حضارة

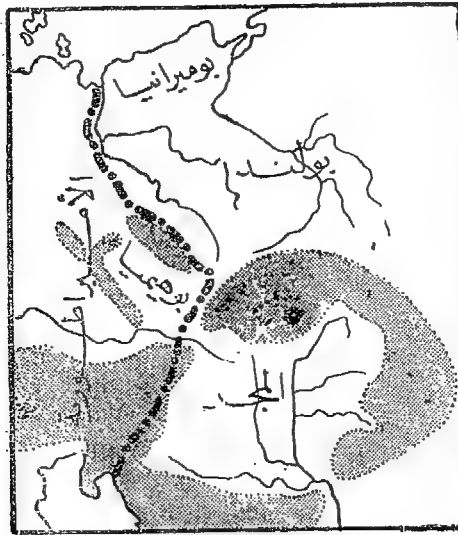
الخريطة رقم ٤٢



الأراضي التي وصلتها المسيحية حوالي عام ١٠٠٠ للميلاد  
كانت الشعوب التي تسكن شواطئ البلطيق لا تزال وثنية

أوروبا ، ثم اقتبس الشعب المجرى الديانة المسيحية من روما وارتبط بالحضارة الغربية بحكم هذا الاتصال . وثانيها بولندا وقد تركزت في وارسو غير أنها عديمة الحدود الطبيعية وقد سكنها القبائل الصقلبية داخل الغابات — واتحدت قبائلها بمامل الخوف من الهجوم من الغرب ثم بفضل اعتناقها الدين المسيحي الذي نشرته بين البولنديين البعثات التبشيرية التي وجهتها الكنيسة الغربية إليهم ، وأخيراً إقليم بوميرانيا ولتوانيا — وهي الأراضي التي ظلت وثنية في الشرق وفي الشمال .

الخريطة رقم ٤٣



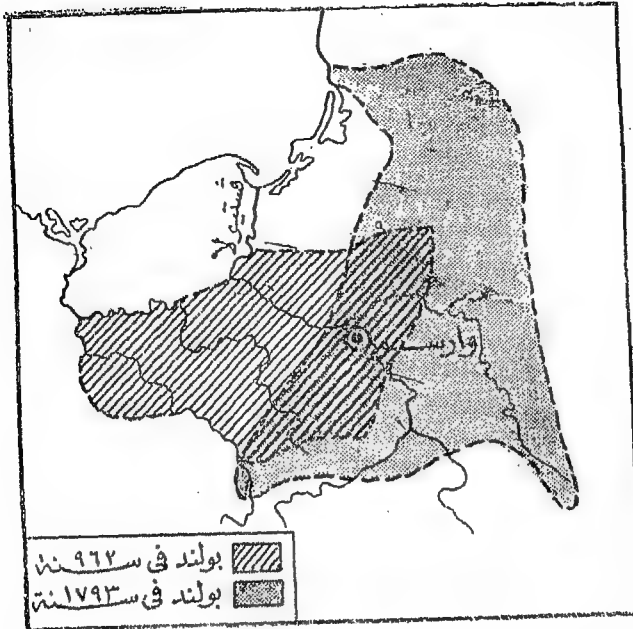
الأقاليم الطبيعية الثلاثة الواقعة إلى الشرق من الامبراطورية

وكما طال بقاء هذه الأقاليم خارج نطاق الإمبراطورية كلما صعب ضمها إليها: فقد سهل ضم بوهيميا مثلاً إلى الامبراطورية ، وهي إقليم طبيعي يسهل حكمه من براغ وتسكنه شعوب صقلبية ، ولما كانت بولنده تقع أكثر إيفالاً في الشرق وأبعد منالاً فإنها نظمت في الوقت المناسب تنظيمًا حال دون انضمامها في نطاق الإمبراطورية على الرغم من المحاولات الكبيرة التي بذلت لاعتبار بولنده اقطاعاً بل وقد أصبح الجزء الغربي من الدولة البولندية الأولى جزءاً تابعاً لألمانيا .

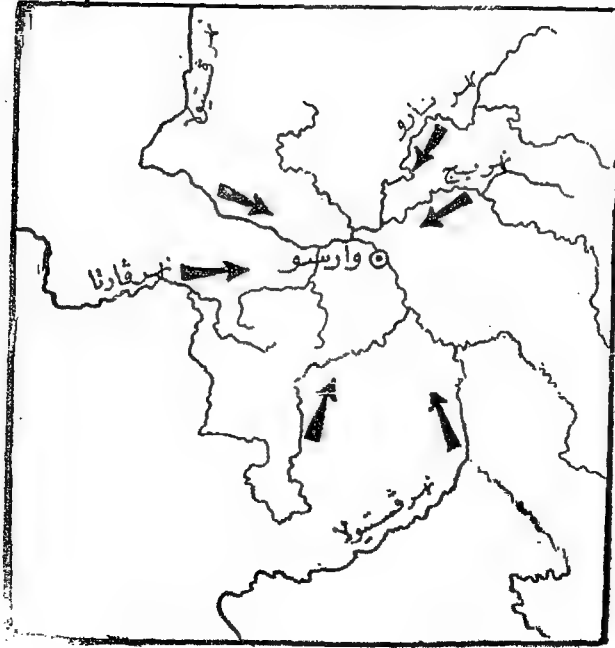
بقيت هذه الأقاليم إذن خطراً دائماً على الحدود الشرقية وكان خطرهما يتأرجح

زيادة ونقصانا ، ومن جهة أخرى هياً ذلك الخطر الفرصة للتوسم نحو الشرق إذا ما تم غزو أراضيها لا من قبل الامبراطورية ، بل من قبل الولايات الداخلة في نطاقها ، وليس من قبيل الصدفة المعارضة أن تقوم المراكز الألمانية الأولى في الغرب بينما تنشأ الدول الأحدث عهداً في الشرق ، فالخطر الشرق أما أنه حال دون الانقسام أو أنه دفع بالاتحاد لمواجهة ، وقد انتهز حكام هذه الولايات الفرصة السانحة فوسموا حدودهم شرقاً وازدادت ولاياتهم اتساعاً فضمونها بلاداً تخرج عن نطاق الامبراطورية ، ثم علا تدريجياً شأن دولتين على وجه الخصوص هما بروسيا والنمسا ، وقد قامت الأولى في السهل الشمالي والثانية في مرتفعات الجنوب ، ونمت الدولة الأخيرة في بادئ الأمر وحاول الامبراطور شارل الخامس تنظيم قلب شبه جزيرة أوروبا ، غير أن محاولته باءت بالفشل بعد أن داعبها النجاح . أما لدولة الأولى فقد استغرقت زمناً طويلاً في نضوجها وإن حققت لألمانيا وحدتها في آخر الأمر وهي الوحدة التي طال عليها الأمد قبل أن تتذوقها ، ومع ذلك فلا تزال دولة النمسا حتى الآن خارجة عن هذا المنظم السياسية .

الخريطة رقم ٤٤



المساحة الوحيدة المشتركة بين بولندا القديمة وبولندا الحديثة هي الإقليم المحيط بوارسو



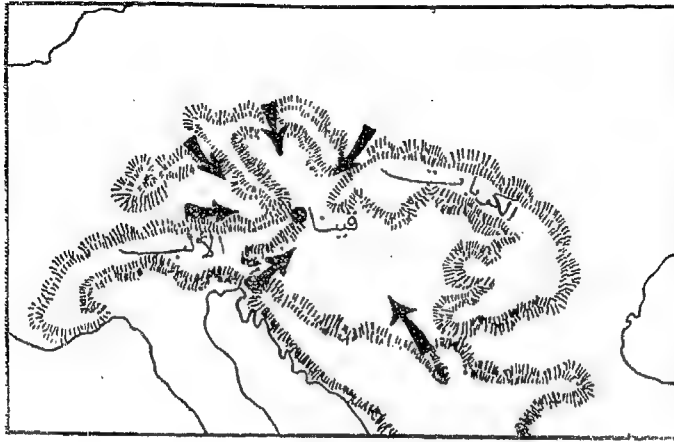
علاقة وارسو بمجموعة الأنهار  
بولندا هي مساحة تتركز أساساً حول وارسو  
وقبل أن تنشأ الطرق كانت للأنهار أهمية بالغة  
إذ أن الطرق المائية في بولنده تنتجها كلها نحو وارسو

## النمسا

تظهر خريطة أوروبا كيف يمتد نطاق من المرتفعات عبر القارة مكوناً من  
مجموعتي الألب والسكربات وهو نطاق متصل غير منقطع إلا مسافة قصيرة  
في بقعة واحدة حيث تتقارب المجموعتان واحدة من الأخرى . ولهذا صعب اجتياز  
ذلك الحاجز الجبلي إلا في ذلك الموضع السهل فاضطر إلى المجيء إلى هذا الممر كل  
من رغب في عبور تلك المرتفعات من سفوح إلى سفوح ، حرباً أم سائماً ، ولذلك انحنت  
جميع الطرق لتمر بفينا والأراضي المحيطة بها وأمكن من هذا الموقع صد فرسان  
المرامى في زحفهم من الجنوب الشرق ومنه أمكن التوسع بعد أن تم إخضاعهم ،  
وفينا تبين لأول وهلة الحد الطبيعي المناسب للامبراطورية ، ومن ثم أصبحت ذات

أهمية بالغة ، ومن الطبيعي أن تتحد هذه المنطقة والأراضي التي تمتد وراءها إلى الشمال الغربي كي تواجه الخطر المشترك ، وقدر لحاكمها أن يكون رجلاً مهماً من بين رجال الإمبراطورية ، فلا عجب بمدئذ أن يحتفظ بيت هابسبرج وهو الأسرة النمساوية في جدارة واستحقاق بالتاج الإمبراطوري قروناً متوالية ، ثم أضاف الجالس على عرش النمسا إلى حكمه بلاد المجر بعضها بطريق الميراث والزواج وأغلبها بحق الفتح والغزو مما أضفى سلطاناً جديداً على سلطانه . وقد أصبح بمقتضى الزواج وريثاً لعرش المجر — ولما قضى الأتراك في آخر الأمر على الإمبراطورية الرومانية الشرقية واستولوا على المجر قام آل هابسبرج بردهم على أعقابهم واستعادوا تلك الأراضي إلى حظيرة العالم المسيحي وجعلوها ملكاً خاصاً لهم ، ولما أطاح نابليون أخيراً بالإمبراطورية الرومانية المقدسة بقيت دولة النمسا والمجر ملتفة حول فيينا وهي عاصمة يسهل إدارة دفة الحكم منها بحيث يصل إلى أجزاء عديدة مختلفة .

الخريطة رقم ٤٦



موقع فيينا

وقد نصبت النمسا مبكرة من بين الولايات الشرقية الألمانية لأن الخطر المثل عليها من الجنوب الشرقي كان أكثر وضوحاً وإلحاحاً عن أي خطر يصدر من أي اتجاه آخر ولهذا سببان ، فإن وجود الإمبراطورية الرومانية الشرقية وقوة الدفع

التي سارت بها المدنية في الجنوب الشرقى كان له أكبر الأثر في خلق جماعات منتظمة داخل القوس الكرباتى وفي ارتفاعات البلقان . أضف إلى ذلك أن الأراضي التي عاشت فيها تلك الجماعات ما زالت شبه رعوية فظلت معرضة لهجوم جحافل الرعاة من الشرق حتى برزت روسيا من غمار غاباتها وسدت الطرق في وجوههم ، وقبل قيام روسيا كثيراً ما تجددت الغزوات من الجنوب وازداد خطرها كلما أصبحت أدق تنظيماً وفاقت كل خطر يصدر من أى جانب آخر ، فلا غرو بعدئذ أن تقوم هنا دولة تقاوم ذلك الهجوم .

## بروسيا

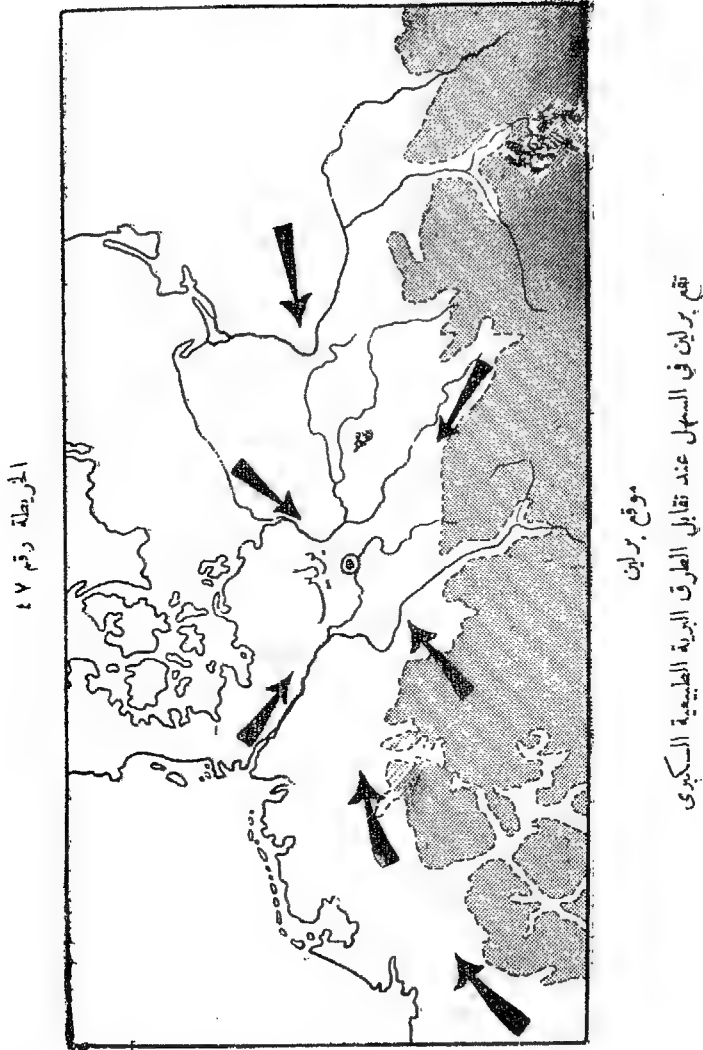
أما التهديد الذى كان مصدره الغابات والمستنقعات الوافعة بين جبال الكربات وبحر البلطيق فلم يكن خطيراً قط لأن الانتقال في هذه المناطق كان عسيراً بقدر ما هو يسير في بلاد الاستبس والمراعى، ولهذا لم تكن ثمة حاجة تدعو إلى الدفاع عن الحدود الشمالية الشرقية والاحتفاظ فيها بقوات كبيرة، ومعنى آخر فإن الخطر الصادر من الجنوب الشرقى هو الذى أضفى في واقع الأمر بعض الأهمية على الجبهة الشمالية الشرقية لأن هجوم المجرين أثار شهوة الفتح عند هنرى السكسونى وابنه أوتو الأكبر وبقيّة السكسون من بعده ، إذ وجدوا بين أيديهم قوات يتصرفون فيها كيفما شاءوا ، وقد خبروا تنظيم الجيوش والحكومات فحاولوا أن يفيدوا من خبرتهم وتجاربهم في جهات أخرى ، ولهذا نظموا الإقطاعيات الشمالية حوالى عام ٩٣٠ وأسسوا أسقفية برندنبرج في منتصف القرن العاشر ، وفي ختام ذلك القرن حاولوا نشر المسيحية بين أهل بروسيا الوثنيين الضاربين إلى الشرق منهم ، غير أن محاولتهم باءت بالفشل ولم يحرزوا تقدماً في هذا المضمار إلا بعد أن سرت فكرة الحروب الصليبية خلال العالم المسيحى ، وحوالى عام ١٢٠٠ للميلاد ارتاد المستعمرون والمبشرون بروسيا الشرقية ، غير أن نتائج جولاتهم لم تكن مرضية فاستعانوا بالفرسان التوتونيون الذين خفوا يمدون لهم يد المساعدة ، ونظموا البلاد ( م — ١٣ الجغرافيا )

وحولوا أهلها إلى الدين المسيحي واستقر الألمان في ظل حكمهم ، بيد أنهم ظلوا يعترفون بسيادة بولنده لا بسيادة الإمبراطورية وحتى بعد أن بدأ القرن السادس عشر ظلت الولاية دوقية منفصلة تحت زعامة أمير من أسرة هوهنزولرن وهو القائد الأعظم للواء الفرسان .

واستمرت الحال على هذا المتوال ، ولم يك أميرها حاكماً مستقلاً حتى بعد أن آلت دوقية بروسيا إلى ناخب رندنبرج بعد قرن من الزمان ، ولم يك بد من أن تتعرض لهجوم خطير من ناحية الشمال الشرقى حتى تماسك الولاية بعضها ببعض ، وقد جاء ذلك الهجوم من السويد وخرجت بروسيا من هذا الصراع دولة مستقلة كما ضعفت بولندا وفقدت سكسونيا أهميتها نهائياً ومما هو جدير بالذكر أن ناخبها كان ملك بولنده في نفس الوقت .

وفي أثناء ذلك بدأت حركة الإصلاح الديني والملاذ لا تزال مفرقة أيدي سبأ ، وقد اعتنقت النمسا تحت قيادة آل هابسبرج المذهب الكاثوليكي العتيق لأنها ترتبط بروما بروابط تاريخية وجغرافية ، بينما أصبح السهل الشمالى بروتستانتيا ، وظل كذلك لأنه أقرب إلى الوحدة بطبيعته من مرتفعات الجنوب بالرغم من أنه لم تضمه قط وحدة قوية ناجحة حتى ذلك الحين ، وهو بهذا الوضع أكثر استعداداً لتقبل المساعدة التي قد تأتيه من الخارج ، وهكذا زادت الفروق بين الشمال والجنوب حدة على حدتها ، وحلت المنافسة السياسية محل الحماس الديني ووقفت النمسا وبروسيا موقف العداء السافرة ، وتبع ذلك بطبيعة الحال قيام صراع بينهما ، كانت تكسب فيه بروسيا ما تخسره النمسا حتى بلغت الأزمة ذروتها في عام ١٨٧٠ بعد هزيمة النمسا بأربعة أعوام ، فتمكن بروسيا من السيطرة على السهل الشمالى . وحدثت ألمانيا وأنف فرنسا راغم ، وظهرت الإمبراطورية الألمانية في شكلها الحديث تحت قيادة بروسيا ، تضم كل البلاد التي تشكلت الألمانية عدا النمسا والملاذ الواقعة في مصبات الراين والتي أحرزت استقلالها بعد اكتشاف تجارة المحيطات (هولنده) . هذه هي ألمانيا — دولة حديثة تحتل موقعاً متوسطاً في أوربا نستمتع بجزاياه طالما كانت تتمتع بحكم قوى حقاً .



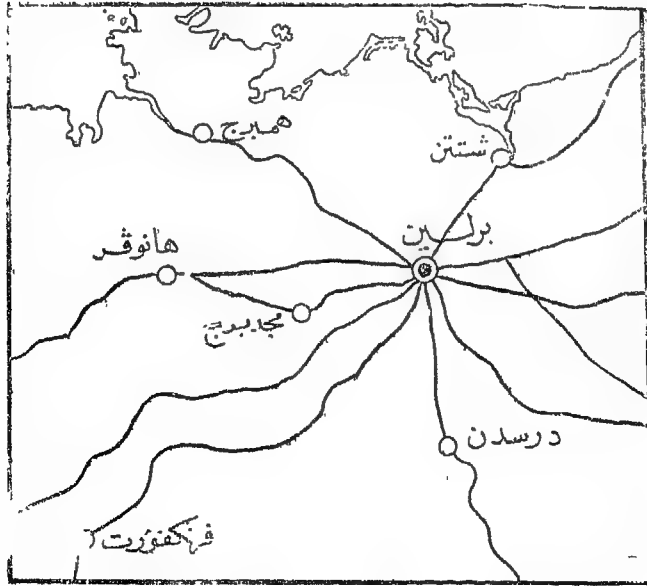


وهكذا تكونت الدولة الألمانية مكرزة في برلين بمقاطعة براندنبج عند تقاطع الطرق التي تجرى بمحاذاة وديان الأودر والإلب وحيث تتقابل الطرق الطبيعية المتجهة شرقا وغربا في السهل الشمالي مع الطريق القديم الذي يجري بين مصب الأودر وقاعدة الفرنجة القديمة - ثم جرى تنظيم الدولة الألمانية فيما بعد على أساليب حديثة وقلت بالتسالي النظم البالية التي يجب التخلص منها كما كان الحال في إيطاليا أو فرنسا أو أسبانيا بل وفي بريطانيا أيضاً ، بل ولعل خير مزاياها

أنها قطعت الشك باليقين فاعتقدت بأن النظم القديمة يجب أن تزول ، وسيطر عليها حكام أدركوا أن ألمانيا وحدة واحدة ولا بد أن يجمعوا شعبها يدرك هذه الحقيقة .

ولما كانت ألمانيا قد بدأت تسير في مصيرها المقدور والانقلاب الصناعي يوثى ثمراته فقد أخذت تنشئ الطرق الحديثة متجمعة في برلين وتشع منها إلى جميع الاتجاهات دون تحيز ، مما جعلها قطب ألمانيا الجغرافى بلا منازع كما هي لندن بالنسبة لبريطانيا أو باريس بالنسبة لفرنسا، وهكذا أرغمت البلاد بالقوة لكي تصبح وحدة حربية واقتصادية . وقد نظمت صناعاتها كي يسهل اقتصاد الطاقة واستغلالها، ووجه التعليم فيها بحيث يؤدي إلى تدريب الناس كيف يستغلون الطاقة على خير وجه وكيف يبحثون عن الأساليب الفنية الجديدة للاستفادة منها، فتمت أعمال عظيمة بفضل الطاقة المستخرجة من مناجم الفحم ، وتمت الأعمال الكبرى بأقل مجهود بشري وبأحسن النتائج . وانقلبت الآية فبعد أن كانت لفظة « صناعة ألمانية » تقال من قبيل الذم أو القذح صارت شعاراً يحتذى وتنقش بحروف ضخمة على جوانب السفن الألمانية العظيمة وهي تمخضر عباب البحر وتهادى في مياه سوثهمبتن بعد عودتها من رحلتها عبر المحيط الأطلسى .

وقد أعدت ألمانيا لنفسها جيشاً قوياً يكفل الدفاع عن أرضها ضد أى هجوم يأتيها من البر وخضعت دون شك للحكومة المركزية وسلطانها ، ولأول مرة منذ أيام شارل الأكبر ( شارلمان ) حكمت ألمانيا من برندنبرج في بروسيا وبعبارة أخرى أديرت دفعة شئونها لأول مرة في تاريخها من بلاد تتصل بالبحار أى بلاد العصبة الهنسية التي كانت قاعدة انجلوسكسونية في سابق الأيام — وقد بحثت ألمانيا عن نصيبها في عالم المحيطات أما اضطراراً وأما اختياراً فأنشأت قوة بحرية واستخدمت الأسطول والجيش في وقت معاً محتذبة المثل الذي ضربته روما ومقدونيا من قبل .



يمكن تشبه السكك الحديدية في تقابلها في برلين  
كما لو كانت بيتاً للعنكبوت

قد أحرزت ألمانيا تقدماً دون شك وهو بكل تأكيد وليد تحكم عوامل  
معمّدة بعضها جغرافي وبعضها تاريخي؛ واستهوت الكفاية المادية عقول الألمان  
فجرت منهم بحرى العقيدة والإيمان وكانت سبباً في إشعال نار الحرب العظمى  
واستنفدت العبقرية الألمانية جهود العالم أجمع لاختضاعها، وعلى الرغم من أن ذلك  
الصراع انتهى على ما انتهى عليه إلا أن ذلك لن يغير من وضع ألمانيا الجغرافي  
أو الخصائص التي امتاز بها الشعب الألماني .

## الفصل الثالث عشر

### أرض الأنهار — الصين

يبدو طبيعياً أن يجرى التاريخ الذي بدأ بمصر على النحو الذي جرى به، كما يبدو طبيعياً أيضاً أن ينشئ الإنسان في أوروبا طراز الحضارة الذي نسميه الحضارة الغربية بعد أن عرف كيف يسيطر على الطاقة التي أتاحها له الظروف الطبيعية فيها . ولنتجه الآن في دراستنا نحو الشرق ولنبدأ بالشرق الأقصى أولاً — أى بالصين — هنا ترى أن تاريخ الصين مسير بجغرافيتها بقدر ما كان تاريخ أوروبا نتيجة لتحكم جغرافيتها ، و ترى تاريخ الصين مختلفاً أشد الاختلاف عن تاريخ أوروبا لأن الجغرافية في كل من الإقليمين تختلف اختلافاً بينا ، وبموازنة الفروق بين التاريخين يتضح كيف كانت جغرافية كل إقليم ذات أهمية بالغة ، ولهذا ينبغي أن نلاحظ السمات المشتركة في التاريخ والجغرافية في كل من الإقليمين وأى الظواهر تبرز في تاريخ أوروبا وجغرافيتها وتنعدم في تاريخ الصين وجغرافيتها وأى الظواهر تحضر في تاريخ الصين وجغرافيتها ولكنها تنعدم في أوروبا .

\* \* \*

وتظهر خرائط الشرق الأقصى الحقائق الآتية :

أولاً — تقع الصين في الجهة الشرقية لقارة أوراسيا العظيمة بين خطي عرض ٤٠ و ٣٠ شمالاً فهي خاضعة للنظام الموسمي برياحه وأمطاره ، وهي في حجم أوروبا تقريباً باستثناء روسيا أى ما يوازي نصف مساحة الولايات المتحدة <sup>(١)</sup> .

ثانياً — أن الصين تحيط بها مساحات عظيمة من المرتفعات من ناحية اليابس وتحف بها هضبة التبت من الجنوب وهي أعلى هضباب الدنيا .

---

(١) تظهر بعض الخرائط السياسية الصين متضمنة جزءاً كبيراً من آسيا الوسطى، غير أن منغوليا قد تخلصت منذ زمن من سيادة الجمهورية الصينية

ثالثاً — أن البحر يحيط بالصين على شكل قوس عظيم على هيئة ربع دائرة تقريباً ، ولا يقع فيما وراء البحر أى أرض من أراضي آسيا بل ولا نجد بلاداً ذات بال قبل أن نصل إلى الشاطئ الآخر من المحيط الهادى<sup>(١)</sup> . أضف إلى ذلك أنها خلت من وجود بحر داخلى كالبحر المتوسط .

رابعاً — ان الصين خلت من أشباه الجزر باستثناء شبه جزيرة شانتونج وهى تمتد في اتجاه شمالى شرق .

خامساً — ان الصين تخترقها ثلاثة أنهار عظمتى تنبع من الهضاب الداخلية وتجري نحو البحر . أبعدا شمالا هو نهر الهوانج هو وهو يجري في أكثر أجزاء جهات الهضبة انخفاضاً من جهة الشمال .

أما نهر اليانجتسى والسيكياتج فهما ينبعان من هضبة التبت العظيمة الارتفاع ، حينما ينحدر اليانجتسى فلا يمتاز فقط من بين الأنهار الثلاثة بأنه أعظمها طولاً ولكن ممرته الكبرى في أنه يظل يجري في بلاد مرتفعة في الجزء الأكبر من مجراه ، بعد انحداره من الهضبة ، أما نهر السيكياتج فيجري في وادٍ يحف به من الجنوب . نطاق من الجبال المرتفعة .

وكان لهذه الحقائق الطبيعية جميعاً أثرها في مختلف العهود في أسلوب يماثل تمام المماثلة الأسلوب الذى أثرت به الحقائق المشابهة لها في التاريخ الأوروبى . وإنا لا نعلم كيف ظهرت تباشير الحضارة في الصين ، بل ولا نعلم على وجه التدقيق متى بدأت ، وعلى أية حال فن الثابت أن تاريخ الصين بدأ متأخراً جداً عن تاريخ مصر ومتأخراً بعض الشيء عن بدء تاريخ بابل ، وليس عسيراً تعليل هذا التأخير فليس في الوجود مكان كفلت له الطبيعة المثل الأعلى من الحماية كما كفلتها لمصر ، وليس في الصين صحراء تولت حماية وادٍ حماية كاملة كما فعلت الصحراء في حمايتها لوادى النيل ، ومع ذلك فإن مبادئ الحضارة الصينية تشبه مبادئ الحضارة الغربية بالقدر الذى سمحت به الظروف الجغرافية .

---

(١) تقع بكين على محور أرضى تكاد تناظرها تماماً قلبا ريزو في امريكا الجنوبية ، وهذا يعنى ان المحيط الهادى يشغل نحو نصف عرض الكرة الارضية

لقد سبق أن ذكرنا أن سهلاً عظيماً مثلث الشكل يحتل جزءاً عظيماً من أواسط  
قارة أوراسيا وتحف بأراضيها المنخفضة من جميع النواحي مجموعات من المرتفعات  
باستثناء الجانب الشمالى منها وتتسع هذه المرتفعات فى القطاع الشرقى من آسيا  
فتغدو أكثر من نطاق يحيط بالسهل ، فترى هضبة مثلثة متسعة الأرجاء تواجه  
الجنوب الشرقى والشمال الشرقى — وهى على ثلاثة مستويات مختلفة ، هضبة التبت  
وهى أكثر ارتفاعاً فى الجنوب وتراوح علوها من ميلين إلى ثلاثة أميال وثانى  
هذه المستويات المنطقة الممتدة حول بحيرة بيكال وتراوح فى ارتفاعها من نصف  
الميل إلى ثلاثة أرباعه ، ثم باقى الهضبة ويبلغ من الارتفاع حداً يقل عن نصف  
الميل — وكل هضبة من هذه الهضاب تحف بها سلاسل جبلية . أما هضبة التبت  
فهى لا تصلح للسكنى دائماً عدا بقاع معينة منها وذلك بسبب عظم ارتفاعها  
وما يستتبعه من برد وجفاف .

وأكثر هذه القطاعات الثلاثة انخفاضاً تحف بها سلاسل الجبال من كل  
جانب مما يجعل جزءاً عظيماً من الرطوبة التى تحملها الرياح فى هبوبها على داخل  
القارة — يتكاثف قبل أن يصل إلى البلاد الداخلية — وأصبح سطح هذه المنطقة  
كسطح السهول الواقعة إلى الغرب منها — بعضه صحراء وبعضه تغطيه الأعشاب  
وليس فيه من المياه ما يكفى حاجته إلا عند سفوح الجبال حيث تنحدر المجارى  
المائية إلى الأراضي الأكثر انخفاضاً ، وهكذا نرى الصين تحوى فى النصف  
الجنوبى من حدودها الغربية مساحة واسعة من الأراضي يتعذر اختراقها تماماً .  
والنصف الشمالى من هذه الحدود هو شبه صحراوى ليس عسير الاختراق حقاً  
بدرجة تجعله حصناً حصيناً فى الدفاع عن الصين ولكنه يكفل لها حماية أقوى على  
أية حال . هذه الحصون الطبيعية فى كلا الشمال والجنوب تمتد امتداداً بعيداً  
نحو الغرب .

ولو أننا دققنا النظر فى خريطة الصين لرأينا أن نهر الهوانج هو حين يهبط من  
من مرتفعات منابه إلى السهل ، يتصل برافد من روافده هو نهر وى أو « النهر  
الصافى » وقد حفر وادبه عميقاً فى الهضبة المحيطة به ، هذا الوادى هو مهد الحضارة

الصينية حيث استخدم قدماء الصينيين القوس لأول مرة كما فعل إخوانهم أهل مصر والكلدان من قبل، ولم يقتصر استخدامهم إياها على عزق التربة بل واستعملوها في حفر الترع والخنادق .

هنا تكفلت الطبيعة بتزويد البلاد بقسط موفور من الحماية وأحاطتها بأراضي شبه صحراوية وفي هذا الركن من العالم كما هي الحال في مصر وبابل تبدو الفوارق الفعلية بين الشتاء والصيف أبرز ما تكون وفوارق الحرارة والبرودة أبرز وضوحا عنها في مصر وبلاد الكلدان إلا أنها لاتصل حداً من التطرف يبعث بالملل والإرهاق، والماء هنا ليس وفيراً حتى يوحى بالإسراف في استعماله . وهكذا توافرت الحماية الطبيعية واقتربت بحافز خاص يدفع الإنسان إلى أعمال الفكر حتى يفيداً كبير فائدة من الظروف المحيطة به فهو في بلاد مواردها الطبيعية ليست بالوفرة التي تقتل النشاط والتفكير وليست بالقلّة بحيث يتعذر استغلالها ، وليس من قبيل الصدفة إذن أن تظهر الحضارة لأول مرة فيما بين خطى عرض ٣٠ ، ٣٥ شمالاً على سطح الأرض في مناطق مبعثره بعدت الشقة بينها بعداً سحيقاً .

هذا ومع أن تباشير الحضارة الصينية كانت لدرجة ما من طبيعة بوادر الحضارة الغربية وخضعت لظروف تشبه تلك الظروف التي تحكمت في سير الحضارة الغربية إلا أنها ذات خصائص وصفات مختلفة ، ومن ثم تطورت تطوراً مختلفاً ، وقد نكون أصدق قولاً لو قلنا أن الحضارة الصينية ظلت تنمو طوال تاريخها على سبيلها الأولى بينما تأثرت الحضارة الغربية كما رأينا بعوامل مختلفة فتأثرت بهذا العامل تارة وبذاك العامل تارة أخرى .

واختلاف الموقع مسئول عن هذا التطور لدرجة عظيمة ، لأن الأراضي الصالحة للسكنى والاستقرار في مصر صغيرة المساحة ومحددة تحديداً واضحاً لا لبس فيه ، كما أن الأراضي التي تحف بنهرى دجلة والفرات ليست واسعة المدى وإن صالحت لتسكون دولة صغيرة تفوق مصر في حجمها ، وربما كان في هذه الأوضاع مزايا لسكنى جنس بدائي من البشر أما في الصين فإن وادى نهر وى وامتداده في

الوادي الأوسط من نهر الهوانج هو يؤديان إلى سهل دلتوى من أخصب سهول الدنيا قاطبة ، وهنا يتسع المجال للراغبين في الاستيطان والاستقرار كما تسنح الفرصة لهم بمد أن يستقروا فيدرجون في سلم الحضارة والرق إن ضاق بهم المجال في بلادهم الأولى . وإذا انتقلوا من الوادي إلى السهل فليس هناك ثمة داع يدعوهم لتغيير مهنتهم أو صناعتهم ، وليس هناك من بلاد أخرى يتبادلون معها التجارة وبالتالي ليس ثمة ضرورة لوجود « طريق تجارى » يمكن أن يكون سبباً في خالق ظروف أخرى وحضارات أخرى . والدلتا تتطلب نوعاً واحداً من الحضارة فحسب ، وإن تناوله قليل من التحوير حتى يمكن الاستفادة على خير وجه من بلاد تكثر فيها المستنقعات وتمر خلالها مجارى طبيعية تحمل الماء إلى البحر وهي دأمة التقاب في مجاريها ولا تثبت على حال .

هذه هي الصين الأولى . وربما سكنها الإنسان الأول في عصر ما قبل التاريخ ، وقبل أن تظهر بها تباشير المدنية التي نتحدث عنها الآن ، وعاش في هذه البقعة — وربما إلى الجنوب منها — أناس لا يزال أحفادهم يعيشون في المناطق الجبلية المنيع الممتدة إلى الجنوب الغربى ، هجروا أو طانهم الأولى تحت ضغط الهجمات التي شنها عليهم جنس يفوقهم رقياً وحضارة .

الخريطة رقم ٤٩



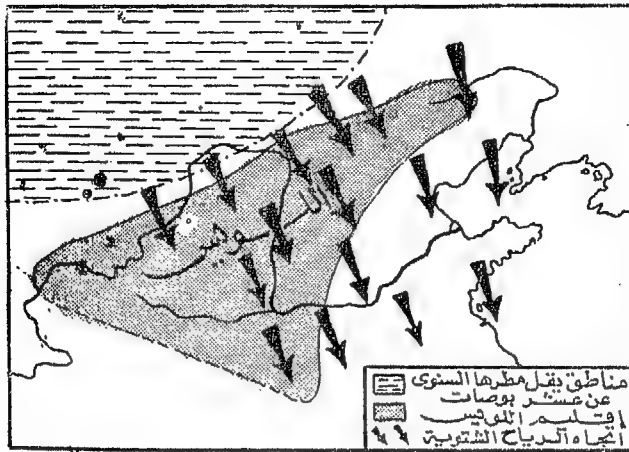
وادي نهر وى وسهل الصين العظيم



وربما كانت هذه الجماعات هم العنصر الأول الذى توالد منه الصينيون الحاليون. ذلك العنصر الذى تأثر أيضاً فى طبائعه وخصائصه بفروع جنسية أخرى عديدة اتصلت به .

وقد اقتضرت الحضارة الصينية حتى القرن الثانى الميلاد على نموها فى البقعة الأصلية من الصين أى البلاد الصفراء — الصفراء بترية اللويس المستمدة من منطقة المراعى القريبة — يربها النهر الأصفر ، وقد أصفر مأؤه بطميته الأصفر قاذفاً بحمله من الرواسب إلى البحر الأصفر — وقد علتته صفرة ترجع إلى نفس السبب — وقد استغرقت حضارة الصين فى نموها مدى ألفين أو ثلاثة آلاف عام. وهى ترقى فى بطء شديد بالوسائل البدائية للحرث والرى وهالاً يزالان إلى اليوم أهم مميزات الجنس الصينى .

الخريطة رقم ٥٠



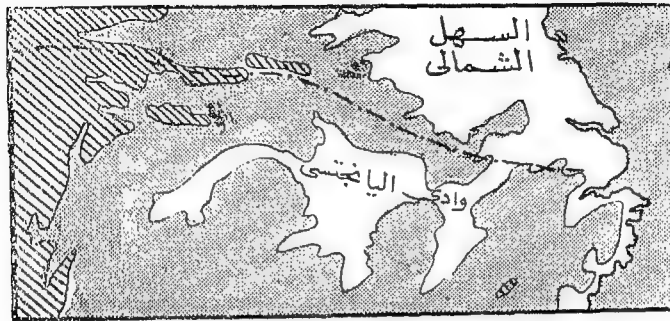
أقاليم اللويس

اللويس هو ذرات التراب الدقيقة التى تحملها الرياح الموسمية الشتوية الجافة من الأقاليم الوسطى الجديدة ثم تتجمع على حافة الهضبة

ولكن لماذا اقتصر الصينيون فى سكناهم على شمال المنطقة التى نطلق عليها الآن اسم بلاد الصين ؟ لا بد أن البحر وقف أمامهم حاجزاً قبل بدء عهد المحيطات. وهو أمر طبيعى جداً ، ولا بد أن الهضاب بوحشتها قد صدتهم عنها فلم تغرقهم؛

بإستيظانها ، أما المناطق الشمالية الممتدة بين الجبال والبحار فلم تسكن بأكثر جاذبية من الهضبة وإغراء . ويسهل الوصول إليها عن طريق شريط ضيق من الأراضي المنخفضة بين الجبال والبحر وهو في الزمن الغابر أضيق منه في الوقت الحاضر . ومع ذلك فلهن سائل لماذا لم يذهب الصينيون جنوباً ؟ وقد يبدو السبب بينا في أن بلاد الصين الوسطى والجنوبية أى حوض اليانج تسكيانج والسيكيانج يختلفان في طبيعتهما عن حوض نهر الهوانج هو ، وتظهر الخريطة أن أحواضهما تسكن بها التلال وبعض أجزائهما جبال عالية ، وينبغي أن نلاحظ أن سلسلة جبال تسن لنج تقع إلى الجنوب مباشرة من مصب نهروى ومن المجرى الأوسط لنهر هوانج هو ، هذه السلسلة وامتدادها إلى الشرق كانتا تغطيهما الغابات عصوراً مديدة فلم تجذب إليها الفلاح الصيني إلى أن اكتظ السهل بسكانه ووصل إلى الحد الأقصى من قدرته على استيعاب السكان — ولم يكن الأمر مقصوراً على الجبال بما يغطيها من غابات بل أن جميع الأراضي الممتدة إلى الجنوب بفضل دفء مناخها ورطوبتها تكاثفت النباتات فيها حتى وصلت حد الغابات واقتضى الأمر اجتثاثها شيئاً فشيئاً قبل أن يتيسر للإنسان الإقامة بها إقامة مستقرة .

الخريطة رقم ٥١



حدود الصين القديمة — أعلى من ٥٠٠٠ قدم / أعلى من ٦٠٠ قدم

الحد الجنوبي لدولة الصين القديمة  
وكانت تمتد الغابات والأحراش جنوبى هذا الحد

ولم تبذل محاولات جدية لتوسيع نطاق الحكم الصينى حتى يشمل هذه البقاع

الأقرب نهاية القرن الثالث قبل الميلاد — على الرغم من أن المهاجرين الصينيين ظلوا طويلاً ينشرون الحضارة الصينية في بطاء نحو الجهات الجنوبية ولو أن عمالية نشرها لم تتم نضوجاً إلا بعد قرن أو قرنين من الزمان ، ومما هو جدير بالذكر أن أول محاولة بذلها الصينيون ليحكموا الجنوب حكماً ناجحاً قامت بها أسرة « تسن » التي لم تعمّر طويلاً ومن اسمها اشتقت كلمة الصين التي نطقها الآن على البلاد . وقد تركت هذه المحاولة ناقصة لتتمها فعلاً أسرة « هان » التي حكمت الصين مدى أربعة قرون — قرنان قبل ميلاد المسيح وقرنان بعده — ولا يزال الصينيون يسمون أنفسهم « شعب هان » اشتقاقاً من اسم هذه الأسرة .

وقد نتساءل مرة أخرى إذا كان جنوب الصين يختلف اختلافاً بيناً عن الشمال فلماذا استطاعت حضارة الشمال غزو الجنوب ولو في بطاء شديد ؟ . وكيف استطاعت توحيد الشمال والجنوب حتى خلقت منهما دولة واحدة وأن كان ذلك تم في بطاء ؟ وبعبارة أخرى كيف كانت الصين وكيف لا تزال أمة واحدة متجانسة . العناصر ؟ — نجد الجواب فيما يلي : —

على الرغم من أن الجنوب بلاد جبلية إلا أنه احتوى عدداً من الأنهار والوديان — أنهار دائمة الجريان وإن اختلفت كمية ما تحمله من مياه تبعاً لاختلاف الأمطار الموسمية ، ومشاكل الري والزراعة في الجنوب — وإن كانت أكثر تعقيداً — لا تختلف في طبيعتها عنها في الشمال والزراعة على سفوح الجبال في الجنوب ميسورة وإن وصلت إلى ارتفاع يزيد بطبيعة الحال عما تصل إليه في الشمال وهكذا أصبح في الإمكان قيام حضارة واحدة في الشمال والجنوب — والصينيون قوم تأصلت فيهم خبرتهم بالزراعة والري منذ أكثر من ثلاثة آلاف عام واستندوا إليها في إنشاء حضارتهم فأصبح القصور الذاتي الجغرافي الذي تسير به حضارة الصين الشمالية قوة دافعة تجرف في طريقها بسهولة كل ما قد يقف أمامها من عقبات جديدة .

ولو أن شعوباً أخرى ذات مثل وأخلاق مختلفة كالرومان مثلاً وهبت فرصة الحياة في جنوب الصين لسارت في بناء حضارتها سيراً آخر إلا أن الصينيين ساروا بها في الجنوب على النهج الذي اتبعوه في الشمال فاذا ما تغلبوا على الصعاب .

الأساسية وجدوا كل بقعة من أرض الصين تصلح لأن تنمو فيها بذور الحضارة الصينية الخالصة وليس من قبيل الصدفة أن يذكر اسم أول حاكم لأقليم تشوان بعد ضمها للامبراطورية الشمالية — فـقرن باسمه أعمال الـرى العظمى التى أنشأها ولا تذكر له مشروعات الغزو والفتح التى قام بها ، كما فاقه ابنه وخليفته من بعده فى شهرته لنفس الأسباب فاستحق أن يقام له معبد من أفخم معابد الصين تمجيداً لذكراه .

وقد كانت أسرة هان تتربع على عرش الصين فى العهد الذى ازدهرت فيه الامبراطورية الرومانية وبلغت أوج عظمتها — وقد واجهت الامبراطوريتان مشاكل متشابهة على الرغم من اختلافهما من عدة وجوه . فى كلا الحالين نرى امبراطورية متسعة الأرجاء تتطلب حكمها من وسائل الاتصال ما يربط أجزائها ببعضها ، وقد رأينا كيف كانت الطرق اختراعاً رومانياً ، أما أهل الصين فقد تعودوا الملاحة فى الأنهار ، ومن الطبيعى أن يتجه تفكيرهم إلى نهر اليانج تسى العظيم بروافده باعتباره مجموعة من أعظم الطرق المائية فى العالم — الأمر الذى ساعد على ربط كيان الامبراطورية الصينية ببعضها وبدونه لتفتت أجزاء متفرقة — حقاً توجد وحدات صغيرة على طول أحواض الأنهار الصغيرة والكبيرة ولكنها جميعاً تتطالع إلى النهر الأعظم الذى يربطها جميعاً ربطاً محكمًا — ويلعب نهر السكيانج فى الجنوب دوراً مماثلاً لدور اليانج تسى وإن لم يصل إلى مرتبته فى الأهمية .

ولهذه الظاهرة نتيجة مزدوجة — إذ نجد الأحواض الصغيرة للأنهار تكون الأقسام السياسية الصغيرة وهى ظاهرة تبدو دائماً طوال التاريخ الصينى ، كما تكون أحواض الأنهار الكبرى الأقاليم الريفية الكبرى التى تظهر وتختفى ثم تعاود الظهور بأسماء مختلفة ، كلما تناولها التنظيم على فترات متعاقبة . ومن ناحية أخرى تجد أهل الصين ينظرون إلى الأنهار على أنها الوسيلة الطبيعية الوحيدة لنقل التجارة — وقد سيطرت فكرة الانتقال بالطرق المائية على عقولهم لأن بعض أنهار الصين كان التل الأعلى فى صلاحيته للملاحة ، فأخذ الصينيون يبذلون جهوداً

متوالية لا تنتهى بمقصد اخضاع الأنهار الصغرى وجعلها تسير أغراض الملاحة على الرغم من أنها لم تسكن تلالاً مثل هذا النقل ، ولا يخلو من مغزى خاص أن الصينيين يسمون الطرق البرية — هذا إن وجدت — « بالطرق الجافة » وهو استطراد طبيعى لفكرتهم فى أن الطريق هو فى الأصل طريق مائى أو بعبارة أخرى هو نهر من الأنهار .

ويتضح من هذا أن الصين هى أرض الأنهار لا من حيث أن الأنهار تجري خلالها ، بل بمعنى أن الأنهار هى الظاهرة المسيطرة التى تركت فى تاريخها أثراً عميقاً كما سبق لنا أن رأينا ظاهرات أخرى سيطرت على بلاد أخرى فوجهت تاريخها توجيهاً خاصاً

ومما له دلالة خاصة أنه لما انهار حكم أسرة « هان » فى عام ٢٠ للميلاد انقسمت الصين أجزاء ، كما انقسمت الإمبراطورية الرومانية الغربية فى القرن الخامس ولكن الصين لم تنفتت إلى وحدات تكاد لا تقع تحت حصر ، بل اقتصرت فى انقسامها على ثلاث وحدات فقط .

١ — الصين الأصلية فى الشمال .

٢ — وادى نهر اليانج تسى الأدنى .

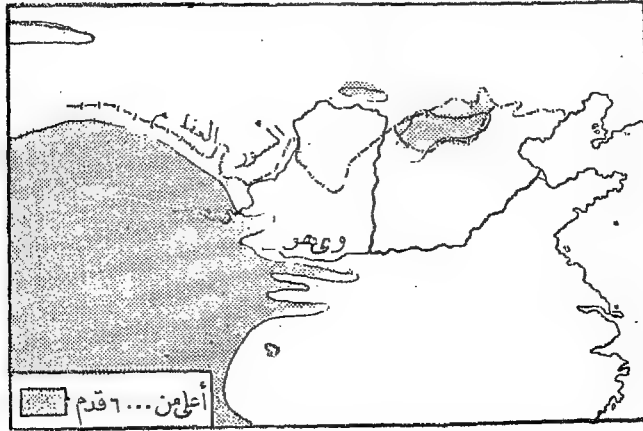
٣ — ولاية ستشوان وهى التى تفصلها عن وادى اليانج تسى الأدنى سلسلة كبيرة من المساقط عند مدينة اتشانج الحديثة .

ومما له دلالة أيضاً أن هذا الانقسام لم يعمر طويلاً فلم يطل أجله إلى أكثر من جيل واحد . غير أن الصين لا ترتبط أجزاءها بفضل وجود ساطة حاكمة تنشر حكمها من مقرها ، ولكنها ترتبط ببعضها بفضل وحدة سكانها الذين اتفقت أفسارهم ومثلهم فى الحياة وتآلفت مشاربهم وعاداتهم ، وما ذلك إلا لأن الحقائق الجغرافية كانت فى أساسها واحدة أو أنها وجهت لتعمل على تحقيق وحدتهم .

ثم أن ظروف الصين كانت شبيهة بظروف روما على نحو آخر فقد انهارت روما تحت ضغط الهجوم الذى شن عليها من السهل بطريق مباشرة وغير

مباشرة — ودافعت روما عن نفسها باتخاذها نهري الرين والطونة خطوط دفاع لها وبإنشاء الحصون لتحول بالقوة الحربية دون استقرار القبائل الغيرة في ربوعها . كذلك تعرضت الصين لطروف ممائلة فاضطرت حتى في زمن يرجع إلى أسرة « تسن » أن تبني جداراً هائلاً على طول جبهتها الشمالية الغربية لتدود عن حدودها الوحيدة المفتوحة هجوم القبائل المتنقلة الضاربة في الهضاب الجافة التي تشبه الصحراوات .

الخريطة رقم ٥٢



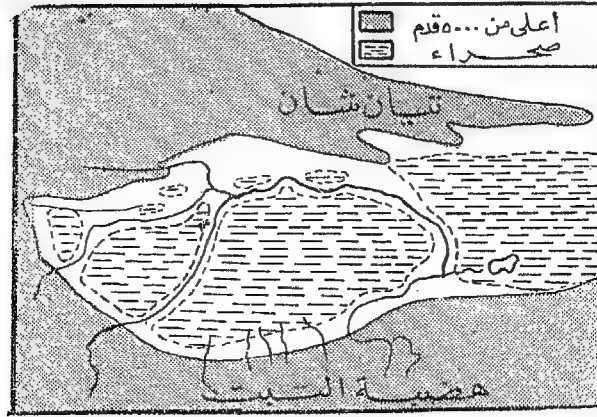
سور الصين العظيم  
بني السور العظيم ليحمي البلاد فقط من ناحية الشمال  
وقصد منه أن يحرس الطريق المؤدى إليها من الغرب  
عن طريق وادي وى

ومن ناحية أخرى تزيد هذه الدلالات في أهميتها فتكشف عن المسلك العقلي للصينيين فترى أنهم لم يثقوا في نهر الهوانج هو في واديه الأعلى باعتباره خطاً للدفاع عن الغرب فهو في هذا الجزء لا يصلح تماماً للملاحة والرى ولكنهم وثقوا كل الثقة في السور الذي بنوه .

ولندرس الآن أثر النهضة في تازيخ الصين في شيء من التفصيل . فالهضبة في قسمها الشمالى ليست صحراء جدباء كالصحراء الكبرى ولكنها أقرب إلى أرض المراعى وقد تملأها صحارى واسعة امتدت امتداداً عظيماً . وبطبيعة الحال

عاشت القبائل الرحل في البقاع التي تقل جدباً — ومنذ بدء التاريخ أخذت تتسلل إلى سهل الصين متبعة الطريق الوحيد المؤدى إليها أى طريق وادي وى وهوانج هو وقد رأينا من الشعوب الرحل أمثلة في دولة آشور القديمة أو في البلاد التي اكتسحها المسلمون في غزواتهم أو في أراضي روسيا الحديثة، ورأيناهم يتصفون بجرأة نادرة ويتحلون بمقدرة على تحمل المشاق، وهما صفتان أصيلتان فيهم وليدتان لحياتهما الرعوية التي تجعلهم قديرين بصفة عامة على فتح البلاد الزراعية وحكمها .

الخريطة رقم ٥٣



حوض تاريم

أن حوض تاريم محي بطبيعته وتتوافر فيه المياه على جوانبه

حقاً نستطيع أن نتبع أصول الحضارة الصينية حتى نصل إلى الأيام التي نبتت فيها بذورها في وادي نهروى ، فارتفعت بسكانه قليلاً عن مرتبة الهمجية . وينبغى أن نلاحظ إن الركن الشمالى الغربى من هضبة التبت العالية تحيط به جبال عظيمة ، تستدير في قوس كبير نحو سلسلة تيان شان ، تضم فيما بينها قطاعاً من الياپس أقل ارتفاعاً عنها وتعزله المرتفعات عما يحاوره من ناحية الشمال الغربى ومن الجنوب . كما تحف به من الشرق صحراء — وتستدر الجبال العظيمة الارتفاع المحيطة بهذا القطاع بعض الرطوبة من الهواء الجاف ، ولهذا ترى عند سفوحها السفلى سلسلة من الواحات تمتد — فإذا كانت الحماية ( م — ١٤ الجغرافيا )

الطبيعية ميزة فيجب أن نتوقع أن يكون مثل هذا الموقع مهداً لأصول حضارة عريقة — وليس هذا جازراً لحسب ، بل هو يمدو مرحلة الاحتمال إذ أن مبادئ الحضارة الصينية بمميزاتا تدين بفضل وجودها إلى هؤلاء الذين اتخذوا طريقهم من هذا الوادى السحيق مستظلين بالستار الجبلى الذى يحف بشمال هضبة التبت نازحين إلى الوادى الحبيب إلى نفوسهم — وادى نهروى .

ولسكن هذه الهجرة لم تسكن المرة الوحيدة طبعاً التى انحدر فيها سكان الهضبة إلى السهل ، وليست صدفة عارضة أيضاً ؛ فإن من جاء بعدهم من الغزاة كانوا رعاة رحل أكثر منهم زراعا مستقرين فى أراضيهم . ولهذا شعر الصينيون بأن هؤلاء المغيرين خطر داهم يهدد حياتهم ، كما يبدو ذلك فى وجود السور الذى بنوه ليحتموا وراءه ، وفى نفس الوقت لم يخل اختلاط مثل هذه الأجناس الشديدة البأس من مزاي . فمن الملحوظ أن سكان وادى الهوانج هو هم أمثن بذيانا من سكان الجنوب ولا ترجع قوة أجسامهم إلى مناخ هذا الإقليم وحده وكونه أشد برداً ، فهم الذين تحملوا وطأة هجوم الغزاة وهم الذين أفادوا إلى أكبر حد من امتزاج دماء جديدة بدمائهم . ومن الجائز أن مثل هذا الاختلاط قد حدث فى بادى الأمر أبان الحروب ، وحدث بعضه الآخر أبان السلم ، ومع كل فإن تلك القبائل النازحة من الهضاب ، والى دخات البلاد فاتحة منتصرة ذابت جميعاً وامتصتها كتلة الشعب الصينى .

وحوالى عام ١٠٠ ق . م أى قبل الميلاد بحوالى قرن واحد أدرك الصينيون أن الهجوم هو خير وسيلة للدفاع ، فنجحوا أولاً فى توسيع رقعة حكمهم ولو لفترة قصيرة فأخضعوا سكان الهضبة ، وقد رأينا أن البلاد انقسمت أجزاء عند انهيار أسرة « هان » وبطبيعة الحال فقدت الصين سيطرتها على الهضبة — فلما استقر الأمر أخيراً واتحدت البلاد بعد عام ٦٠٠ للميلاد تحت حكم أسرة « تانج » القوية كان من الطبيعى أن تبذل محاولة أخرى لمد حدودها وتوسيع رقعتها — وفى كلا المحاولتين نرى أن الهدف الأول لاتساع الصين كان حوض تاريم . وفى كلا المرتين حالت المسافة الشاسعة التى تفصل بين الصين وحوض تاريم — وهى صحراء جرداء منيعة يصعب اختراقها — حالت دون نجاح الحكم الصينى فى هذا الوادى فكان حكماً اسيميا لم يدم طويلاً .



وعلى أية حال فسكلا الحالتين جديرة بالذكر ، لأنهما مهدتا للصينيين فرصة الاتصال بالأمم الغربية ، مهما بدا هذا الاتصال تافها ، وعلى الرغم مما وقف بينهما من حوائل كالمضبة ذات العرض الشاسع والسهل العظيم الامتداد . وأشد هذه العقبات مناعة عداوة الشعوب التي تعيش في ربوعها .

وقبل أن نبدأ في دراسة أحدث آثار هذه المضبة وإن كان أعظمها أهمية من بعض النواحي يجب علينا أن ندرس ظاهرة أخرى وثيقة الصلة . فقد رأينا في أوروبا أن وجود مركز للحضارة خليق بأن يثير الجاس في نفوس سكان المناطق المجاورة التي تقل عنه مدنية ، وإن كانوا أشد قوة ، فيدفعهم إلى العمل ، وعلينا الآن أن نلاحظ نفس الحقيقة في الصين ، فإن منشوريا تقع إلى الشمال من الصين ويفصلها عنها خليج يتشيلي العميق وهو يتوغل في اليابس حتي أنه لا يترك إلا عنقا صغيرا من الأرض يمتد بين ساحله الغربي وحافة المضبة . ومنشوريا بحكم وقوعها في شمال الصين أشد بردا وأقل جاذبية لأن تقوم بها حضارة عريقة ، ومهما يكن من شيء فقد أقام بها سكانها ، وبمضي الزمن أوحث إليهم الحضارة المجاورة حماسا إلى العمل ، وإن فصلتها الظروف الجغرافية عن الصين فصلا بعث في نفوس أهلها الشعور بالاستقلال . بل وممارسة هذا الاستقلال فعلا . وقد قامت قبيلة من هؤلاء المانشو من تتر « كيتان » فقدت حكمها جنوبا ، وما وافى عام ٩٠٠ للميلاد حتى وجدنا فيها حكما شبه أجنبي في مظهره يسيطر على شمال الصين في ذلك الوقت . غير أن حكم هؤلاء التتار لم يمتد قط إلى معظم بلاد الصين ، ولكنهم أثاروا خيال الرحالة القلائل الذين أتوا من الغرب فكتبوا عنها كثيرا حتى أطلقوا على بلاد الصين إبان العصور الوسطى اسم — كائاي — المشتق من اسم هؤلاء التتار — كيتان .

لقد كانت نهضة منشوريا هذه حدثا جديدا في تاريخ الصين وتبرز جدته في اقترانه بتأسيس مدينة بكين في هذه الآونة . وقبل هذا الزمان كانت عاصمة الصين تتأرجح هنا وهناك في وادي نهروى أو في الجزء الأوسط من وادي هوانج هو . وظلت بكين منذ ذلك الوقت مقر الحكم في الصين باستثناء فترة قصيرة . وينبغي أن نلاحظ المعنى الذى ينطوى عليه موقعها في داخل السهل

الشمالي ، وبقرّب حافته فقط ، عند مبدأ الطريق الضيق من منشوريا المحصور بين مرتفعات الغرب وخليج بتشيلي في الشرق . وقد قامت بكين كقاعدة منشورية يصدر عنها تنظيم البلاد كما قامت فينا فاتخذها النمساويون مركزاً لتنظيم المجر وكما كانت لندن المركز الذي أنشأه الغزاة الأوروبيون لحكم إنجلترا وكما اتخذت أدنبره عاصمة لتنظيم اسكتلندا من قبل الفاتحين الذين جاءوا إليها من إنجلترا وكما قامت دبلن لتكون مركز حكم أيرلندة ، يشرف منها على النظام هؤلاء الحكام الذين جاءوا إليها من الجزائر الإنجليزية . وقد تابعت منشوريا الناهضة إرسال الجحافل تلو الجحافل لتزيد نصيبها من أراضى الصين مما اضطر السلطة الصينية الخالصة أن تتراجع إلى الجنوب شيئاً فشيئاً حتى اقتصر حكمها على حوض اليانج تسي والسيكيانج أى على الأقاليم الجبلية فقط .

وأخيراً غمرت أهل الهضاب الخارجية موجة من الحماس إلى العمل ربما يكون مرجعها الأول أثر الحضارة الصينية فيهم وقد يكون مرجعها انتشار الإسلام بينهم إذ سيطر على الهضبة برمتها في أول الأمر جنكيز خان وساد شعوبها جميعاً من موطنه في جبال التاي ثم هبط بجحافله المغولية من الهضبة إلى السهول المحيطة بها شرقاً وغرباً . وتابع ابنه وحفيده من بعده الغزو والفتح حتى أخضعوا أهل الصين والتتار على السواء ، ولما كان المغول أجانب عن البلاد لم يعيروا اهتماماً للحدود السابقة التي كانت تفصل البلاد عن بعضها فظلوا يتابعون الفتح والاستعمار فيما وراءها وصادفوا نجاحاً ملحوظاً في فتوحاتهم البرية ، ومما يجدر ملاحظته أن هذه الإمبراطورية في جيلها الثالث بقيادة كبلای خان بذلت محاولات بحرية لإخضاع اليابان غير أن مثل هذه المحاولة كان مآلها للفشل فقد رد اليابانيون العدوان عن بلادهم . وإنا انرى مرة أخرى كيف أن إمبراطورية عظمى تسكن قوتها في رجالها البريين يقابلها رجال البحر الأشداء ويفسدون عليها خططها في بوغاز تسوشيما كما ردا جزر سيس من قبل على أعقابها في موقعة تبعد بضعة أميال عن مثل هذه اليواغيز . لقد كان هذا الغزو الذي قام به المغول مجرد فتح حربى شأنه شأن الفتوحات الأخرى التي تمت على أيدي أقوام أقل حضارة من الشعوب المغولية على أمرها —

وكنبت قوتهم في صلابة عودهم وفي جرأتهم وإقدامهم ثم انتهى الأمر إلى أن انغمس الفاتحون في صنوف الترف وفقدوا سلطانهم ثم ذابت عناصرهم في محيط الشعوب المغلوبة .

والصين بحكم ظروفها الجغرافية محاطة ببلاد لم تصل شعوبها إلى درجة من المدنية توازي مدنية الشعب الصيني نفسه وأن فاقته في جرأتها وبسالها البدنية ، ولهذا لم يكن من نصيب الصين قط في غضون تاريخها الطويل أن دخلها غزاة أرفع من أهلها مدنية وحضارة . وتمثّل الشعب الصيني دائماً جميع الغزاة والفاطحين ، وليس الغزو المغولي للصين في القرن الثالث عشر بأقلها شأنًا فهو يحدد مرحلة أخرى من التقدم الملحوظ ، إذ اضاف المغول إلى ملكهم باسم الصين أقاليم واسعة وبقيت فتوحاتهم في يد الصين حتى بعد أن اندثر الغزاة إلى الأبد .

وبعد أن تم للشعب الصيني امتصاص المغول وهضمهم وتمثيلهم ، نصل بحق إلى الفترة الثالثة المجيدة من تاريخ الحكم الصيني الخالص تحت أسرة « منج » الذي استمر من القرن الرابع عشر حتى السابع عشر ، وقد بذلت في هذا العهد محاولة لجمل مدينة نانكين مقر الحكم ، وهي ذات موقع أكثر توسطًا من وادي نهر وى أو المدخل الشمالى للبلاد ، غير أن نانكين لم تدم عاصمة للبلاد إلا لبضعة اعوام وسرعان ما تنحّت عن مكانها لسكين مرة أخرى ، على أن اختيار مثل هذا الموقع ليكون مقراً للحكم لا يخلو من دلالة على تطور الأفكار في الصين ، لقد نشأت بكين في موقعها لتكون أقرب ما يكون للمداخل المعرضة للغزو من الشمال ، وكان منشؤها له ما يبرر بعد نظرهم ، لأن تثار منشوريا في القرن السابع عشر حاولوا للمرة الثالثة والأخيرة فتح جميع بلاد الصين وأصابوا بجاحاً في هذه المرة ، ولم يأت هذا الغزو فجأة لأنه مر جيلان منذ أن ازدادت أهمية أسرة « تسنج » في جبال منشوريا الشرقية حتى أصبحت قادرة على الاستيلاء على بكين ، كما مر جيل آخر قبل أن تدين لها الصين جميعاً . وكان إقليم فوكين في الجنوب الشرقى آخر إقاليم الصين الأصلية في الاعتراف بالولاء لها ، وكما أخذ المانشو ينشرون الحكم الصيني ويوسعون رقعته كما نشره المغول من قبل وظلوا يتابعون فتوحاتهم فيما وراء

حدود الصين الأصلية يفزون منغوليا وبوطدون سلاطنتهم فيها ثم مدوا نفوذهم إلى ماورا هضبة التبت في عهد متأخر جداً أى في السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر بل وقد امتد سلاطنتهم عبر جبال الهملايا وبقي أهل يبال يعترفون بسلاطنتهم حتى بدء القرن العشرين .

وعلينا الآن أن نطبق ما سبق لنا بحثه قبل أن نستطرد في بحث المجموعة الأخيرة من الحقائق الجغرافية الكبرى التي تحكمت في تاريخ الصين فنخلص إلى النتائج العامة التالية ومنها أن الصين يقطنها شعب واحد متجانس بفضل وجود الأنهار الثلاثة الكبرى وهي أثر من آثار العوامل الجغرافية الأعماق جذوراً أى التضاريس والمناخ ، ويدعم وحدة الشعب في أساسها وجود هضبة ذات عرض شاسع في الغرب من الصين . هاتان الظاهرتان ، أى مجموعة الأنهار والهضبة هما أهم العوامل التي تحكمت في تاريخ الصين .

وهناك ظروف جغرافية أخرى أدت إلى نفس النتيجة فإن موقع الصين في مواجهة المحيط الواسع حيث لا يؤدي الطريق البحري إلى إقليم ما ، بالإضافة إلى عدم وجود بحر داخلي في الصين كالبحر المتوسط ، كل هذه الحقائق كانت في ذاتها عوامل جبارة صامتة تقوم بدور سلبي وتعمل بدرجة عظيمة لتؤكد للصينيين أخلاقهم وعاداتهم كشعب برى وتمنعهم من أن يكونوا شعباً بحرياً ، ولم يضطر الصينيون إلى ركوب البحر كما اضطر النورسمن تحت ضغط الفاقة والبرد وجذب أوطانهم ولم يقعوا تحت ضغط شديد من ورائهم كما حدث للسكسون ، ذلك أن الصين بلاد شاسعة ، ولو حدثت وعرضت لموجات الهجرة الصادرة من الهضبة أو من منشوريا لا انتشرت موجات المهاجرين وتوزعت قبل أن تصل إلى ساحل البحر وقلما شعرت الأجزاء الجنوبية بهذه الموجات ، وقد خلت بلاد الصين من طريق برى عظيم يؤدي إلى البحر كالطريق الذي امتازت به فينيقيا ، وساحل الصين هو قوس عظيم مستدير يخلو من أشباه الجزر التي تغرى بركوب البحر كما هو الحال في بلاد اليونان ، ولهذا لم تكن الصين دولة بحرية قط فليس بها ما يعرى أهلها لأن يكونوا شعباً غير برى ، اعتمادهم الأول على الزراعة يتصفون بنفس العادات .

وطرائق التفكير التى سرت فى دماغهم خلال أربعين قرناً ، وكثيراً ما سرت بالصين أزمات مستحكمة ولكنها ظلت تحتفظ بوحدها ولم تنفتت إلى أجزاء لا حصر لها — كالإمبراطورية الرومانية — حين تعرضت لهجوم قبائل الرحل النازلة إلى سهولها من سفوح الهضبة على الرغم مما أصاب الصين من مذامح دامية أودت بحياة الملايين من السكان . وظل تجانس الشعب الصينى حقيقة بارزة وهذا فى حد ذاته نتيجة لطروف جغرافية إلى حد كبير<sup>(١)</sup> .

لقد خلق كشف المحيطات الذى قامت به الحضارة الغربية بالتدريج عاملاً جديداً هاماً أثر فى تاريخ الصين ، فحتى ذلك الأوان كان اليابانيون هم الشعب البحرى الوحيد الذى يتصل به أهل الصين . وحضارة اليابانيين مقتبسة فى أصولها من حضارة الصين ، ولم يكن اتصالهم بهم اتصالاً ودياً لأن اليابانيين الأوائل — الذين سمعنا عنهم — كانوا قد اقتصرُوا فى زيارتهم الشواطئ الصينية على الإغارة عليها كما اعتاد النورسمن الإغارة على شواطئ أوروبا وكانت آخر سلسلة من هذه الغارات التى شنوها وربما أهمها تلك التى حدثت فى أوائل القرن السادس عشر أى قبل أن يدرك الصينيون النتائج الأولى الهامة التى تمخض عنها كشف الأمم الغربية للمحيطات ، واقتصر أثر هذه الغارات فى تلك العهود على طرد السكان من البحر إلى الداخل فالبحر هو المجال الوحيد الذى ينفرد فيه البحارة بشعور الأمن والطمانينة . ومن الحقائق ذات المغزى أن الصينيين لم يسمعوا قط بوجود جزيرة فرموزا حتى القرن الثالث عشر مع أنها لا تبعد عن شواطئ البلاد الأصلية بأكثر من سبعين ميلاً ولم يستولوا عليها إلا فى عام ١٦٨٢ بعد أن أسس بها البرتغاليون الأوائل والمولندون محطات تجارية ، وحتى فى هذه الآونة كان السبب الأول فى الاستيلاء عليها ارتقاء أسرة جديدة أجنبية عرش البلاد وقد راودها الطموح

---

(١) لا يمكننا أن نتجاهل أموجود الكتابة التصويرية ( الرمزية ) وهى التى مكنت أهل الصين من أن يفهم بعضهم بعضاً فى جميع نواحي البلاد ولها دون شك أثر عميق ، ولكن يغيبنا الا يغيب عن الذهن أن وحدة اللغة بل ووحدة اللهجة أيضاً لم تمنع ألمانيا وإيطاليا من الانقسام إلى ولايات مستقلة كما لم تمنع النرويج والدانمرك من أن تنفصلا ولم تحل دون استقلال الولايات المتحدة الأمريكية عن بريطانيا . فإن العامل الجغرافى كان دائماً أقوى أثراً من وحدة اللغة .

إلى غزو ممتلكات أخرى ، فلما تم لها فتح فورموزالم تقدر حكومات الصين المتعاقبة أهميتها حق قدرها طوال المائتي عام التي احتفظت الصين خلالها بالجزيرة .

وكما ضعفت قبضة حكام المانشو بزيادة انغماسهم في الترف والملذات وكما ازداد اندماج اتباعهم في طبقات الشعب كلها تركت الصين شيئاً فشيئاً تتنازعها قوتان متعارضتان . قوة مصدرها اليابس كتلك التي تعرضت لها من قبل وقوة مصدرها المحيط وقد جاءت إلى التاريخ الصيني بعناصر جديدة . ولا بد للقوى الأوروبية الأصل الآتية عن طريق البحر من ان تقرب بلاد الصين من الجنوب فقامت لذلك ظروف وأحوال جديدة ، وحتى ذلك الأوان كانت المواقع ذات الأهمية الاستراتيجية متجمعة في السهل الشمالي وكانت العواصم تقع عادة في إحدى زوايا ثلاث تكون مثلاً ، إما في بكين لتحرس مداخل البلاد من ناحية الشمال حول خليج بتشيلي وأما في مدينة سيان لتحرس المداخل الغربية عن طريق وادي وي وإما أنها على حافة السهل الصيني ولسكنها على اتصال بمجموعة الأنهار الجنوبية كما هو الحال في نانكين . فلمّا تسرب إلى البلاد نفوذ الدول البحرية وجاء إليها من الجنوب اكتسبت الموانئ الجنوبية الصينية أهميتها ولذا كانت الموانئ التي فتحت للتجارة بمقتضى معاهدة ١٨٤٢ جميعها من موانئ الجنوب الجبلي اثنتان منها في مقاطعة فوكين والثالثة تقع وراء حدودها الجنوبية مباشرة ومن ثم أصبحت مداخل الصين هي كانتون وشنغهاي وليست بكين أو سيان .

غير أن سيان وبكين مارالتا مفاتيح البلاد ، حقاً قد اختفى المانشو من ظهر الأرض ، وفقد المغول جسارتهم القديمة بعد أن روضتهم الديانة البوذية ، غير أن السهل الأعظم لا زال قائماً وراء الصين بكل ما ينطوي عليه من إمكانيات ، وتصل القوى الصادرة عنه إلى منشوريا عن أقصر طريق عبر الهضبة وكانت روسيا قاب قوسين أو أدنى من دخول الصين من بوابتها القديمة حول خليج بتشيلي ، وقد أحكم إغلاق هذا الطريق في الوقت الحاضر ، وقد لا يدوم إغلاقه ولا يزال هناك الطريق القديم الآخر المار بسيان خلال ممر زنجاريا بين جبال التاي وتيان شان في ظل الجبال ، غير أن هناك طريقاً آخر مطروحاً عبر الأراضي الرعوية الممتدة من بيكان



عواصم الصين  
هذه المدن الثلاث تقوم في الأركان الثلاثة للسبل  
المثلث الشكل

إلى بكين رأساً متخللاً المرات الجبلية السهلة في الشمال — من هذا يتبين أن الموقف السياسي في الصين دقيق للغاية وقصة الصين لم تتم فصولاً والزمن وحده كقيل بإظهار ما ستمخض عنه هذه الحقائق .

ومهما يحدث ، فلن نعدو الصواب أن قلنا أن الشعب الصيني لا يزال حياً مهما كانت الصفات التي اتصف بها حكماءه من المانشو أو من غيرهم ، ومن ناحية أخرى فإن التاريخ الصيني تسييره عوامل جغرافية وقوى تأتي إليها من البر والبحر وخصوصاً وأن تفاعلها سوف يؤدي إلى ازدياد الميل نحو توحيد البلاد وجعلها أكثر انسجاماً من أي عهد مضى وأن القاطرة الحديدية والباخرة وهما قوى حديثة لعبور الفياق والبحار كل منهما تكمل الأخرى ، وتعملان على توحيد البلاد وهما على وشك تحقيق هذا الهدف .

وسوف يكون للصين خط حديدي رئيسي لا يوجد مثله في دولة أخرى يجري من بكين إلى هانكو وكانتون أي من عاصمة الشمال إلى عاصمة الجنوب يغذيه البحر

في كلا الطرفين كما تغذيه في الوسط الملاحة النهرية في اليانج تسي . وليس مدخل الصين عن طريق سيان بأقل خطراً فلا بد أن ينشأ خط حديدي عبر الهضبة ماراً بسيان وممر زنجاريا ليتصل بالخط الرئيسي في الصين ويغذيه من جهة اليابس .

هذه الخطوط الرئيسية وما يتفرع عنها من خطوط إضافية يجب أن تعد لتكمل مجموعة المواصلات المائية ولا بد وأن تؤدي في النهاية إلى اتحاد الصين وحفظ وحدتها — وسوف يهدف اتحادهما إلى زيادة استقرارها حتى يتوافر أهلها على التحكم فيما بين أيديهم من موارد الطاقة واستغلالها على خير وجه .

---



## الفصل الرابع عشر

### الأرض الدفيئة - الهند

لو أننا استعرضنا مدارسنا حتى الآن - تمهيداً لما يل من بحوث - لتبين لنا أننا تتبعنا نمو حضارتين مختلفتين أثرت كل منهما في ربع سكان العالم . نشأت إحداهما في أوروبا والأخرى في الصين واتخذت إحداهما مظاهر عدة لأنها تأثرت بعوامل جغرافية مختلفة ، من عدة نواح ، أما الأخرى فظلت تنمو نمواً متصلاً وهي تسير على نهج واحد لأنها خضعت لمجموعة واحدة من العوامل ذات الأثر البالغ . وتأثرت كلتا الحضارتين بما نشأ من ثقافات رعوية في المنطقة الشاسعة الواقعة في قلب العالم القديم . ويبدو أن نشأتهما كانت تتوقف على توافر الظروف التي سمحت بتطور البذور الأولى للحضارة وهيأت الفرصة لنموها فيما بعد بأن كفت لها الحماية اللازمة للمجتمعات الصغيرة فانسرت لها أن تقتصد في موارد طاقتها .

الخريطة رقم ٥٥



المساحات الثلاثة المزدهرة بسكانها  
في العالم القديم

ولو أننا نظرنا إلى المساحة الثالثة من العالم القديم التي تزدهر بعدد غفير من السكان ألا وهي الهند لراعنا وجود حضارة من نوع خاص يجوز لنا أن نطلق

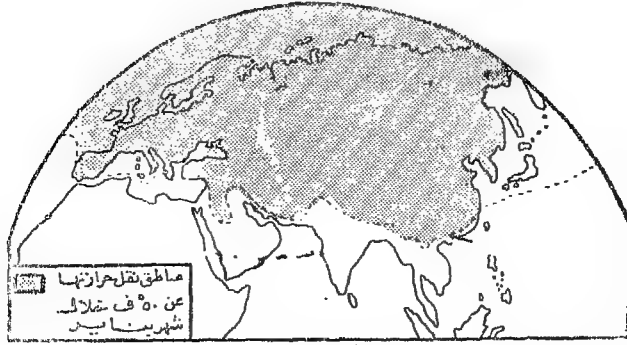
عليها لفظ الحضارة الهندية . غير أننا نرى من جهة أن الهند لم تنتظمها وحدة شاملة نشأت فيها نشأة داخلية كما انتظمت الصين وحدتها لعدة قرون . ومن جهة أخرى لم تنجح حضارة الهند في الانتشار حول العالم كما نجحت الحضارة الأوروبية . هذا وقد تعددت مظاهر الحضارة الهندية تعدداً فاق مظاهر الحضارة الصينية والأوروبية أيضاً — أضف إلى هذا أننا نرى أن الحضارة في أوروبا تبدو متصلة الحلقات نمت من بذورها الأولى في مصر وبابل ونرى حضارة الصين تنمو نمواً طبيعياً من أصولها الأولى في وادي نهر وى غير أننا نعجز عن استقصاء بوادر الحضارة الهندية ولا نستطيع أن نعود بها إلى أبسط عناصرها الأولى ونجد للهند تاريخاً تتحكم فيه عوامل خارجية عدة وتؤثر فيه تأثيراً عظيماً . ولنقف الآن قليلاً عند الحقائق الجغرافية .

إن الهند مثلها كمثل الصين وعلى النقيض من أوروبا ، بلاد تخلو من وجود بحر داخلي كالبحر المتوسط ، ولم تتجمع بالقرب من شواطئها جزر عديدة ، كما امتازت أرضها بدفء المناخ ووفرة الانتاج عموماً فليس بها ثمة ما يغري أهلها بركوب البحار كسكان شواطئ البحر المتوسط — وليست الهند على درجة من الفاقة كأرض اسكندناوة حتى يضطر أهلها لأن يولوا وجوههم شطر البحار يخاطرون بركوبها — فبقى أهل الهند قوماً لم يتعدوا المرحلة الأولى من سكنى اليابس وشعبها لم يعرف ركوب البحار .

كما جمعت الهند بين السهل والجبل أو بين المرتفع والمنخفض فترينا الخريطة أن جبال الهمالايا العظيمة الارتفاع إلى الشمال والغربي تستند إلى هضبة التبت ثم تستمر في اتجاهها نحو الشرق ونحو الجنوب الشرقى على شكل سلاسل جبلية متعددة تفصلها عن بعضها وديان شديدة الانحدار كثيفة الغابات — أما الهمالايا في ناحيتها الغربية فهي تنتشر على شكل مروحة وتأخذ في الانخفاض حتى تصل إلى مستوى هضبة إيران — ونرى في شبه جزيرة الدكن هضبة أخرى أكثر انخفاضاً وأوسع عرضاً — شديدة الانحدار في حافتها الغربية بينما تنحدر انحداراً هيناً نحو الشرق . وقد مزقتها الأنهار إلى حد كبير واتخذت هذه مجاريها نحو الشرق تبعاً لانحدار

الهضبة العام — وهناك سهل ضيق على الشاطئ الغربى وآخر أوسع منه نوعاً ما على الساحل الشرقى — ويقع بين الجبال الشمالية والهضبة الجنوبية سهل فيضى عظيم يمتد نحو ألفى ميل من مصب نهر الكنج حتى مصب السند — وقد خلت سطحه من الأحجار والصخور باستثناء الجهات القريبة من مقدمات سفوح الجبال وهو يرتفع ارتفاعاً هيناً بمعدل قدم واحد فى كل ميل لدرجة لاتاخطها العين المجردة ، فلا نجد فى هذا الإقليم تنوع التضاريس الذى نراه فى إيطاليا أو فى البلقان — ولا نجد شيئاً من المركزية الجغرافية التى خلقت دولة فرنسا .

الخريطة رقم ٥٦



أوراسيا : توزيع درجات الحرارة  
أن الهند أدفاً فى الشتاء من كل من الصين أو أوروبا

بل أننا إذا أدخلنا الأحوال المناخية فى اعتبارنا لرأينا ثمة تماثلاً يتجلى فى حياة أهل الهند . حقاً قد يقال أنها تجمع بين كل نوع من أنواع المناخ على الرغم من أن هناك بعض المواضع الجبلية المنعزلة فى طول الهند وعرضها تستمتع بجو بديع فى معظم أيام السنة أو فى فصل من فصولها فقط ، غير أنه تبقى حقيقة واضحة وهى أن هذه المواضع هى استثناء تشذ عن المناخ العام الذى يسود الهند ، فالبلاد فى عمومها حارة لا فى الصيف وحده بل وفى الشتاء أيضاً — ونجد الهند بوجه عام أكثر دفئاً فى الشتاء من أى جزء من أجزاء الصين وأدفاً طبعاً من أية بقعة فى أوروبا وهذا فارق عظيم بين الهند والمساكن الآخرين اللتين تردحان بالسكان .

«وهو فارق يفسر لنا إلى حد بعيد اختلاف التاريخ في كل منها ، فهنا في الهند قلت الضرورة التي تدعو إلى توفير الطاقة البدنية بارتداء الملابس في أى فصل من فصول السنة .

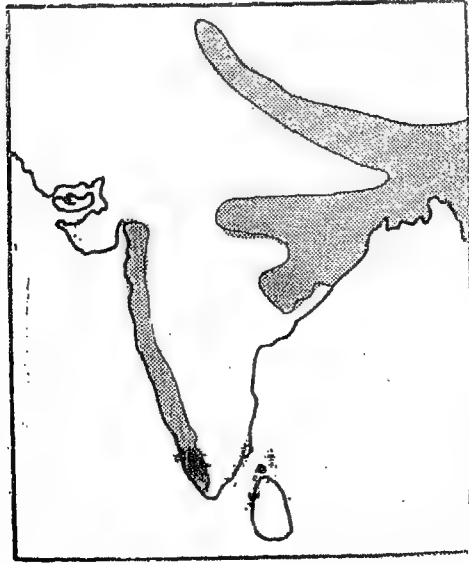
هذا القول العام يقتضى بعض التفسير ، ذلك أن الحدود الشمالية الغربية هي أبرد أجزاء الهند . وفي الشتاء نجد إقليم البنجاب هو أبرد أجزاء الهند على حين نجد السند ومرتفعات بلوخستان في الغرب رغم شدة حرارتها في الصيف وبخاصة أثناء النهار . تتعرض للمصمتع في الليل بل حتى في بعض ليالي الخريف . وهكذا يجب أن نتوقع هنا تعديلا في طراز الحياة الهندية الذي يسود هذه المنطقة .

وإذا درسنا سقوط الأمطار وأثر كمياتها إلى جانب أثر الحرارة في الحياة النباتية رأينا المدخل الشرقى للسهل تغمره الأمطار النيرة وهو لا يرتفع في مستواه كثيراً عن سطح البحر فتجد مياه الأمطار صاعدة في الجريان فوق أراضيها وتنتشر على سطحه مسكونة مستنقعات تغطيها الأحراش . وكلما اتجهنا غرباً تغيرت الأحوال الجغرافية تغيراً غير محسوس فتقل الأمطار وتتهيا للمياه فرصة التسرب من السطح إلى باطن الأرض وإذا ما واصلنا السير غرباً حتى مسافة ألف ميل من البحر رأينا موارد المياه تميز عن أن تفي بحاجات الحياة ويشتد جفاف الأرض حتى إذا ما اقتربنا من مصب نهر السند وجدنا المنطقة الأخيرة أى في حدود الأربعمائة ميل الأخيرة من البلاد مراعى فقيرة بل وصحراء جرداء .

أما السفوح الغربية للهضبة الجنوبية والسفوح الجنوبية لجبال همالايا والمرتفعات التي تقع في شمال شرق خليج بنغاله فكلها تسقط عليها الأمطار النيرة صيفاً وتحفظ بكميات من الرطوبة تسمح بنمو الغابات فيها وهذه تصبح أدغالاً في الأجزاء المنخفضة الشديدة الرطوبة — هذا وتهب الرياح الجنوبية الغربية الموسمية فتغمر جبال غانه الغربية بطوفان من الأمطار ثم توالى هبوبها صاعدة فوق الوادين المستقيمين لنهرى نارباداوتابتي وتحمل معها المطر الغزير فتتعمق به في داخل البلاد أكثر منها في أى جزء آخر — وإلى الشرق تتقابل التيارات الهوائية الآتية من الغرب بتلك الآتية مباشرة من خليج بنغاله ويسبب تقابلها سقوط أمطار غزيرة

فيما بين منابع هذين النهرين حتى السواحل الواقعة في جنوب مصب نهر الكنجة  
وهنا نجد تربة البلاد مكونة من طمي أسود ، كما نجد نطاقاً خصيباً يمتد عبر الجزء  
الشمالي من شبه الجزيرة يبدأ من جوجارات وينتهي عند دلتا نهر ماهاندي ،  
بعضه غابات وبعضه أحراش وبعضه الآن أراضي مزروعة .

الخريطة رقم ٥٧



توزيع الأمطار في الهند  
يسقط معظم المطر صيفاً

وإلى الجنوب من هذا النطاق نجد البلاد جافة ، في أغلبها مراعي ولا يشد عن  
ذلك سوى وديان الأنهار والسهول الساحلية .

وهكذا تمتد الظروف الجغرافية بمينها فتشمل مساحة شاسعة من الأراضي  
مما يجعل البلاد بهذا الوضع عسيرة الحكم والتنظيم وإن نظمت فقد يتمرد الاحتفاظ  
بهذا التنظيم ، وليست الصعوبة ناجمة عن أن البلاد كتلة ضخمة تعجز الحكومات  
عن إدارتها من مركز واحد باعتبارها وحدة واحدة وعلى الأخص لو تولى الحكم  
فيها أناس لم يألفوا تنظيم الحكومات ، ولو أن شيئاً من هذا حدث لم يكن أمره  
عجيباً ، فأوروبا حتى اليوم رغم أنها متقدمة في نظمها إلا أنها لا تنظمها حكومة

واحدة — ولكن السبب الأول في الهند هو أنها تضم أقساماً طبيعية كبيرة وليس بها من مهد واحد يصلح لنمو الحضارة كما هو الحال في مصر وبابل أو في واد نهر وى حيث الحياة ميسورة نوعاً وحيث كل قطر في حد ذاته يمثل وحدة صغيرة تمكن الشعوب القاطنة فيه من أن تتعلم أساليب الحكم والتنظيم ما دامت الحاجة تدعوا إلى التفكير في المستقبل وتدير أموره .

الخريطة رقم ٥٨



توزيع الغابات في الهند

في الهند ثلاث مناطق من الغابات

(١) نطاق الهمالايا (ب) نطاق الهند الوسطى (ج) نطاق غربي الدكن

وبينما تجتمع الحرارة والرطوبة فتتعاونان على تشكيل الطاقة الشمسية وتقدماتها للإنسان بشكل واضح ينفعه في أغراض حياته ، غير أنهما على هذا النحو يقللان من ظهور الحافز الذي يدفع بالأفراد أو الجماعات إلى اقتصاد هذه الطاقة وتقل بمقدرة المجتمعات على الاحتفاظ بما تقتصده منها ، وهكذا ظلت المدنية الهندية دائماً متأخرة عن المدنيات الخارجية في عبقرية التنظيم — وأصاب المهاجرين الذين

جاؤا إلى الهند في الحرب أو السلم قسما من النجاح قل أو كبر في السيطرة على الجماعات التي سكنوا بينها وتولوا تنظيمها .

ولكن من أين جاء هؤلاء المهاجرون ؟ .

ولكى نفهم الجواب يجب أن نذكر حقيقة واضحة وهي أن الهند شبه جزيرة أشبه ما تكون بقارة في ذاتها، وأنها أقرب من أوربا ومن الصين إلى قلب القارة الآسيوية موطن الرعاة — وإنها مفتوحة لمن يريد الوصول إليها من جهة المحيط هذا على الرغم من أنه ليس بها ما يغرى الوطنيين الهنود إلى احتراف الملاحة البحرية أو ما يضطرهم إليها اضطارا فلم يصبحوا قط أمة بحرية ، وقد دخلت الهند أعداد وفيرة من المهاجرين الذين جاؤا إليها من البلاد الواقعة فيما وراء البحار أو فيما وراء جبهتها الشمالية الشرقية أو الشمالية الغربية .

وقد جاء إلى الهند مهاجرون من وراء جبهتها الشمالية الشرقية ودخلوا أدغالها أزواحا ووحدا ولا يسألون هؤلاء أى قدرة على التنظيم فلم ينشئوا دولة ما — وقد سبق لنا أن رأينا الغابات تقف حجر عثرة في سبيل الهجرات المنظمة في كل عهد من العهود — فإذا ما كانت الغابات تنمو على سفوح وديان اشتد انحدار جوانبها وتتابعت واحدا بعد الآخر لم يكن عجباً أن نرى أن المدخل الشمالى الشرقى للهند قليل الأثر في تاريخها إذ أعرض عنه المهاجرون .

وتختلف الحال في المدخل الشمالى الغربى اختلافاً كبيراً ، وهو كما رأينا جافا في مناخه ولا تعترضه الغابات وتتصل الهند عن طريقه بمحضرتين فتييتين إذ يمتد الطريق منه فيما وراء الجبال إلى السهل الأعظم بسكانه من الشعوب الرعوية مختزلاً سلاسل جبلية شديدة الارتفاع على ضيق عرضها تنتشر كالروحة من الطرف الغربى لجبال الهيمالايا .

هذا وتحف بهضبة إيران من الشمال والجنوب سلاسل جبلية تنحدر منها بحارى مائية ومن ثم تتبعها طرق تؤدي إلى بلاد ذات حضارات عريقة كفارس وبابل وآشور . فإذا ما جاءت الشعوب الجبلية ، وأطلت على سهول الهند في شمالها

الغربي وقعت تحت سحر السهول وإغرائها ، يجذبها ذلك النسيم العليل الذى يهب من سهول الهند فيذكر تلك الجحافل بما ألفته فى أوطانها الأولى ويصادف هوى فى نفوس أفرادها فيقبلونه قبولا حسنا .

وهكذا أخذ فيض المهاجرين من الشمال الغربى ينهمر إلى الهند الشمالية يأتون إليها زرافات ووحدانا وآلافًا ومئات الآلاف ، تجاراً وظاعنين ، غزاةً ولاجئين — وقد وقف بعضهم عند عتبة البلاد ، وقديماً جاء إليها قدماء الآشوريين والأغريق فى عهد سابق لفتوحات الإسكندر ووصلوا إلى الديار الهندية ولكنهم لم يوغلوا فيها — وقد قاد الإسكندر جيوشه إلى قلب بلاد البنجاب ، ولكن جنوده أشفقوا من التوغل فى بلاد يحولونها فشقوا عصا الطاعة واضطر هو إلى أن يعود بهم أدراجه وقد جاء آخرون قبل الاسكندر وبعده من الجهة الشمالية الغربية وانتشروا فى أرض الهند بدرجات متفاوتة .

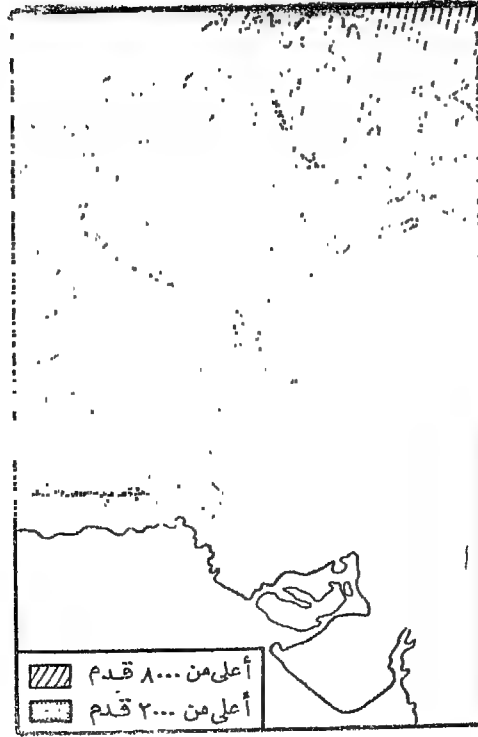
والبحر أيضاً طريق مفتوح لسكل من ألف ركوبه — فنجد شبه جزيرة الدكن قد تأثر بالشعوب البحرية منذ أقدم العصور التى نستطيع الرجوع إليها . فقد جاء إليها فى العهود السحيقة أقوام من البلاد الخافة الغربية التى سبقت أهل الدكن فى الحضارة كما جاءت إليها عناصر متأخرة من شرق الهند النزر الأمطار — وفى الأزمنة الحديثة وصلت إلى الهند من وراء البحار عناصر امتازت بعمقريتها فى التنظيم فجاء إليها الأوروبيون أولاً من الجنوب بعد دورانهم حول رأس الرجاء الصالح ثم جاءوا إليها أخيراً من الغرب بعد فتح قناة السويس .

وقد عرفنا أن اقولما وفدت على الهند من الشمال ومن الغرب ثم من البحر . واقترن مجيئهم بادخال مدينت أرقى شأواً من المدينة القائمة وقتئذ وكانوا أميل إلى القضاء على الحضارة التى وجدوها كما رغبوا فى إجلاء سكان الهند الأوائل عن الأراضى التى كانوا يسكنونها .

ومن ثم لجأ السكان الأصليون بطبيعة الحال إلى الغابات الجبلية وإلى الاحراش الممتدة فى الجزء الشمالى من هضبة الدكن حيث يجدون فيها ما يحميهم



الخريطة رقم ٥٩



مداخل الهند من الشمال الغربي

من غارات المهاجرين الجدد وحيث يجدون من الغذاء ما يقيم أودهم ويحفظ  
عاليهم حياتهم .

وتشبه هذه الغابات غابات أوروبا في كونها تكفل الحماية لمن يلوذ بها  
ولكنها تختلف عنها في أن الغابات الأوروبية تمكن الناس من متابعة حياتهم  
لو أنهم أعملوا فكرهم في أمور مستقبلهم وتحملوا بعض المشاق في جهادهم فتجود  
لهم الأرض بأحسن الثمرات إذا ما اجتثوا بعض غاباتها واستقروا في جنباتها ،  
بعكس الأحرار الهندية فهي تزود ساكنيها بالحاجات الضرورية للحياة  
ولا تحفزهم إلى التقدم وبناء الحضارة .

وقد ظل فيضان الأجناس البشرية يتدفق على الهند من الشمال الغربي حتى

قبل بزوغ فجر التاريخ فيسبب للسكان الأصليين قلقاً واضطراباً ولا نعلم أن كانوا قد جاءوا إلى الهند من السهل الأعظم أم من هضبة إيران .

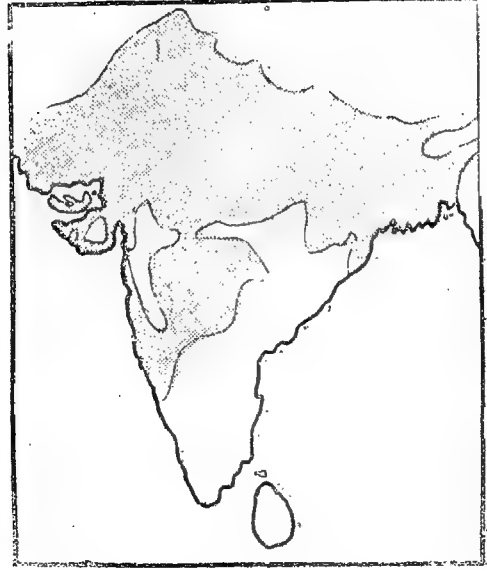
أما المهاجرون الأوائل فقد انساق جزء منهم إلى الجنوب الشرقي ثم ذابت بقيتهم في غمار الموجات المتتالية من الأجناس البشرية المختلفة التي جاءت إلى الهند من شمالها في أثناء ثلاثة الآلاف عام التي تلت سنة ٢٥٠٠ قبل الميلاد وقد استقرت الأجناس المهاجرة تدريجياً في السهول الشمالية للهند وكانت نهاية زحفها مجموعة الغابات الممتدة عبر الجزء الشمالي لهضبة الدكن وتركت الجزء الجنوبي منها للسكان الأصليين الذين سبقوهم إليها — وهكذا عززت الفوارق الطبيعية بين السهل الشمالي والهضبة الجنوبية بعد أن اختلف السكان في كل منهما وامتازت كل جماعة بميزتها الخاصة .

ثم أخذ كل من هذه الشعوب بقسط من المدنية وكان الشماليون أوفر حظاً حيث أقاموا ممالك عمرت نحواً من ثلاثة قرون — وكان الجنوبيون أقل نجاحاً وعلى العموم فإن معلوماتنا عن هذه الفترة ناقصة نقصاً ملحوظاً ، وفي هذا دليل على عدم استمرار المدنية في مكان واحد تزدهر فيه . ويتضح نوعاً ما أن مجموعات من الناس تنتمي إلى أجناس مختلفة وتتميز بخصائص مختلفة رتبت حياتها وعاشت كل منها في مجتمع مختلف وأن الفوارق بينها تقوم في أصلها على أسس جغرافية — فإن السهل الشمالي ليس سهلاً واحداً بذاته لأن البنغال في الجنوب الشرقي غزيرة الأمطار تغطيها أحراش الغابات بينما امتازت البنجاب في الشمال الغربي بجفافها ومقاطعة السند بالقرب منها أشد جفافاً حتى أن نهر السند فيها قريب الشبه بنهر النيل إذ لا تتصل به أية روافد في مجراه الأدنى — وتقع بين هذين النقيضين مساحة كانت قديماً في النطاق الذي أطلق عليه « الأراضي الوسطى » ولسكنها الآن تدخل ضمن « المقاطعات الشمالية الغربية »<sup>(١)</sup> — وهذه يكفي مطرها حاجات السكان فيها دون اسراف أو تبذير . هذه هي المناطق التي يزدهر فيها أكبر عدد من السكان سواء كان ذلك في المدن أم في القرى .

---

(١) هذه الإصلاحات كانت شائشة الاستعمال أيام الحسبم البريطاني .

الخريطة رقم ٦٠



توزيع السكان الهندوس في الهند  
أن غالبية السكان في الهند من الهندوس  
ويبدو بجلاء أثر الغابات في صد الزحف إلى الجنوب

وما وافى عام ٦٠٠ للميلاد حتى رأينا هذه المناطق الثلاثة مسكونة بشعوب ثلاثة وقد اختلف نصيب كل شعب من التقدم — وعلى الرغم من وجود هذه المناطق الثلاثة ومن اختلافها اختلافاً واضحاً إلا أنها تتداخل في بعضها بشكل غير محسوس فلا نجد بينها حدوداً فاصلة طبيعية ولا تعتبر الأنهار في عرف السكان حدوداً تفصل بينها بقدر ما تعتبر طرقاً تصل بينها، وموارد للماء تفيض بالخيرات. ولهذا كان الاحتكاك بينها يكاد يكون أمراً محتوماً لا يمكن تجنبه إلا إذا انتظمت البلاد جميعاً حكومة مركزية مستقرة — ولكن لم تظهر الحكومة القوية المدعمة وظلت هجرات الرعاة المستمرة تبعث القلق والاضطراب في المجتمعات القائمة فجاء إليها الهون والتتار الاسكوديون Scythians الذين عرفهم الشرق الأقصى أيضاً وأشاعوا فيه الفوضى والاضطراب بطريق مباشر وغير مباشر. وقد اتحد الأهالي لفترة من الزمان لمواجهة الخطر المشترك غير أن روابط اتحادهم كانت واهية الوشائج فلم تدم طويلاً.

وهناك منطقة رابعة هي إقليم راجبوتانا بوجه عام وقد بلغ حداً لا بأس به من الرقي والتنظيم — ويقع إلى الشرق من نهر السند ويمتد محاذياً له — ويصل في عرضه إلى المائتي ميل ويتراوح في طوله من ٥٠٠ إلى ٦٠٠ ميل — ويمكن إطلاق لفظ صحراء عليه ، يقع جزؤه الشمالى الشرقى كأسفين يفصل بين البنجاب والبلاد الوسطى — ويمتد بين هذه الصحراء ونطاق الغابات في شمال شبه جزيرة الدكن مساحة ترتفع في مستواها عن مستوى السهل الشمالى ولكن تحميها الطبيعة من المدوان عليها من الشمال الغربى ومن الجنوب — وهى أقل في خيراتها من الأراضي الوسطى فقلت جاذبيتها في إغراء الغزاة إليها ممن جاءوا يبتغون السلب والنهب — فأصابت قسماً من الرقي مكنها من مقاومة الهجمات التي شنت عليها مدى بضعة قرون .

أما السهول الواقعة في أقصى الجنوب الشرقى لشبه جزيرة الدكن فقد بعدت عن منافذ الهجرات التي تعرض لها السهل الشمالى — كفل لها البحر قسماً من الحماية فأمكن لسكانها الأوائل أن يقيموا دولة عمرت لأكثر من ألف عام واتخذت لها أشكالاً عدة ، وكانت نموذجاً ينسج على منواله أهل سيلان فيما وراء البحر وأهل وادى كوفرى الأعلى والأدنى — فبقيت هذه المقاطعات دولا مستقلة عدة مئات من السنين ، والحياة فيها بوجه عام سهلة ميسورة ، وأن ضعف الحافز الذى يدفع بسكانها إلى الاستزادة من التقدم فاكثفوا بما وصلوا إليه من تنظيم مكنهم من مقاومة الضغط الواقع عليهم من الشمال — فلم يصلوا في تقدمهم إلى الحد الذى وصلت إليه أوربا مثلاً — لقد فكروا في حل ما واجههم من مشاكل ليعيشوا عيشة راضية فإذا ما قابلو حضارة أرقى من حضارتهم عجزوا عن مقاومتها ، هذا بفرض تساوى الظروف بين الفريقين .

وتقرب معلومتنا حد اليقين بظهور حضارة من طراز آخر وبظهور أقوام تعنى بتسجيل تاريخها — فقد انتشر الإسلام غرباً نحو أوربا كما انتشر شرقاً نحو الهند . وحل الدين الإسلامى محل أشكال عدة من الوثنية إذ يمتاز عليها امتيازاً واضحاً — وكان للذين أدخلوا الدين الإسلامى إلى البلاد فضل في تنظيم النظم الواهية والحكومات الضعيفة .

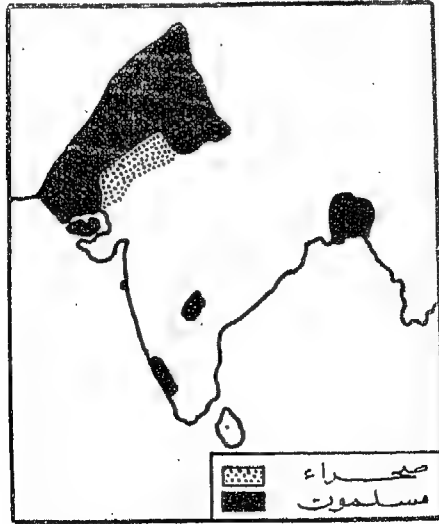
لقد بينا في الفصول السابقة لماذا قاومت أوروبا هجوم الإسلام عليها ، وقد تعرضت الهند لهذا الهجوم بعينه وبنفس مظهره — وتبين النتائج التي تمخضت عن هذا الهجوم الفروق الواضحة بين أوروبا والهند . فقد خضعت الهند في النهاية للمسلمين بدرجة ما وحكمها المسلمون ، غير أن الإسلام لم يتغلغل في نفوس أهلها ولولا أحفاد النزاة الذين جاءوا إلى الهند وهم يمتنعون الإسلام لما وجدنا بالهند إلا عددا ضئيلا ممن يؤمنون حقاً بالدين الإسلامى .

ولسنا في مقام يبيح لنا أكثر من التلميح — بأن هذه النتيجة لا تثير الدهشة إطلاقاً ، فقد جاء الدين الإسلامى بعد الديانات السماوية الكبرى ووجد الديانات الأخرى قد تغلغلت في النفوس وآمنت بها بلاد أوروبا والهند والصين — فإذا تساوت الظروف فمن الطبيعى أن يظل الدين القائم باقياً ولا يبدو أن الديانة الهندوكية بما تنطوى عليه من خرافات متشعبة «وجنة وشياطين وآلهة وأنصاف آلهة — منها آلهة للمنازل وأخرى للقبائل وثلاثة للأقاليم ورابعة للأشكال» يبدو أن هذه الديانة لا تسمو لتكون قرينة للإسلام والمسيحية . ولكن الهندى الذى يقطن بلادا حارة رطبة في أغلب أحزائها عجز عن أن يرى الحقيقة الكامنة وراء المظاهر الخارجية . وليس الدين في نظره وجود إله أزلى — قادر — سرمدى هذه القوة العظيمة التى أدرك كنهها البدوى المتجول في فيافي الصحراء — ولكن الدين عند الهندى هو تلك المظاهر الجبارة التى تتخذها الحياة في تطورها . فليست هناك وحدة للوجود يسعى العقل إلى إدراكها . ولما كانت الهند بطبيعتها تميل إلى الانقسام ورغبتها في الانقسام مؤكدة ، خلت مما يشيع الوحدة فيها كأشاعتها الحروب الصليبية في أوروبا ، فنهيات الفرص للشعب الفائح في أن يزيد الفوارق حدة حتى يفوز بالسيادة على أجرائها . والدين الإسلامى من ناحية أخرى لم يقدم في نظر الهندى التفسير المقبول عنده لمعنى الحياة — وهكذا لم يتقبله الهندود كدين لهم .

وأخذت الشعوب الإسلامية تتتابع على الهند من القرن السابع حتى القرن السادس عشر ، وطبيعى أن يأتى العرب أولاً بطريق البر على طول الساحل ،

ثم بطريق البحر بمخاء شواطئه غير أنهم لم يتركوا أثرا دائما — ثم جاء بعدهم الأتراك قبل نهاية القرن العاشر بقليل عن طريق هضبة إيران مخترقين بلاد الأفغان ، فلم يكذب يمضى قرن من الزمان حتى اعترف السهل الشمالى بأكمه بالحكم الإسلامى وذلك بسبب المنازعات الشديدة التى استعمرت بين الحكام الهنود .

الخريطة رقم ٦١



توزيع العناصر الإسلامية فى الهند  
تسكن العناصر الإسلامية .

(أ) فى وادى السند غربى الصحراء

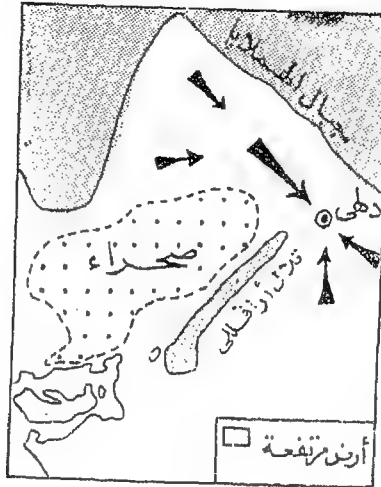
(ب) فى المدخل الواقع بين الحافة الشمالية

للصحراء ومنحدرات الهيمالايا

ومن ثم انتشر الدين الإسلامى فى مقاطعة البنجاب الجافة وظلت تعتنقه إلى الآن وأصبحت معقل هذا الدين القيم — وقد ظل الناس على دينهم القديم على الرغم من اعترافهم بالحكم الإسلامى ؛ فيما عدا البنجاب التى ظلت تعتنق الإسلام ، وفى بادىء الأمر كان الحكام الجدد يمارسون الحكم فى الأجزاء الخاضعة لهم من مراكز فى أفغانستان ، فلما فتح السهل الشمالى فى بدء القرن الثالث عشر أصبحت دلهى مقر السلطة الحقيقية . ولنلق الآن بنظرة إلى دلهى وموقعها . فنرى أن أقلية

السند وواديه ، ومقاطعة البنجاب ليست سوى مدخل من مداخل بلاد الهند ، ومن كلمة Indus أى السند اشتق اسم البلاد كلها ، ويؤدى إلى هذا المدخل ممر ضيق يصل فى عرضه إلى ١٥٠ ميلا يقع محصورا بين الصحراء الهندية وجبال هيمالايا — وتقوم دلهى عند مخرج هذا الدهلز حيث تصل أراضى السهل إلى أضيق عنق لها ، وتمتد على طول الحافة الشرقية للصحراء تلال آرافاليس وهى سلسلة من أقدم السلاسل الجبلية فى العالم ، وقد تكاثرت كغيرها من السلاسل الجبلية القديمة ومزقتها عوامل التحات شرمزق ، وجنوبها هو أكثر أجزائها ارتفاعا وتظل فى اتجاهها حتى مدينة دلهى تقريبا — وهكذا تقف دلهى كحارسة للباب الواقع بين التلال فى الجنوب وجبال هيمالايا فى الشمال — وقد وقفت وراءها الأراضى الإسلامية كترامت أمامها بلاد لم تصبح يوما إسلامية — وكان على الحكام المسلمين أن يمارسوا الحكم فيها ولهذا اتجهت الطرق المختلفة الآتية من الجانبين لتلتقى فى دلهى — وموقعها هو الموضع الطبيعى لعاصمة هندية تقع شمال منطقة الغابات — فلما تم للمسلمين تنظيم الشمال أولا كثيرا ما اختاروا عاصمتهم المرة بعد المرة فى مواضع تبعد بضعة أميال عن دلهى

الخريطة رقم ٦٢



موقع دلهى

تقع دلهى عند مخرج الطرق  
بين الصحراء وجبال هيمالايا

الحديثة لتسكون مقراً لهم ومركزاً ينظمون منه البلاد وكانوا يطلقون عليها أيضاً اسم دلهى .

واختيرت مرة مدينة أجرا كمقر للحكم وهى تقع إلى الشمال قليلاً من دلهى . فى داخل السهل ، ولكن القوم سرعان ما عادوا يعترفون بمزايا دلهى على غيرها من المراكز الأخرى .

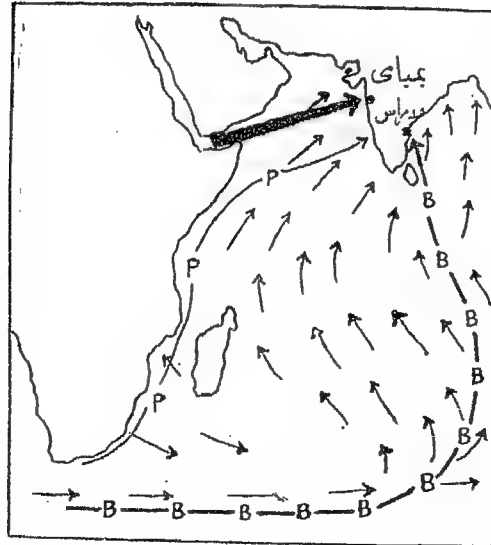
وكيفما كان الأمر ، فقد ظلت دلهى طويلاً وهى عاصمة الشمال فقط ، ولم يبذل المسلمون أية محاولة قبل القرن الرابع عشر للسيطرة على الأجزاء الهندية جنوبى نطاق الغابات حين بذلوا أولى محاولاتهم لإخضاعها للحكم الإسلامى — فسيروا جيوشهم فى طول شبه الجزيرة وعرضها وحققوا هدفهم فترة من الزمان ، ولكن المجهود كان يفوق حد طاقتهم وقاموا به فى الوقت الذى بدأت الموجة الثالثة من الشعوب الإسلامية تطرق منافذ الهند وتقاب الأوضاع القائمة وتثير الاضطراب فيها ، فلم تمض بضعة أعوام حتى انتهزت المقاطعات البعيدة الفرصة وألقت عنها قيود الولاء لمدينة دلهى — إذ توالى على السلطة المركزية المصائب وناء أهلها بالمهام الملقاة على عاتقهم فكان على السلطات فى مدينة دلهى أن تكافح العوامل الطبيعية التى تدعو إلى التفرقة والانقسام وأن تصارع صعاب الحكم بين رعايا تختلف نظرتهم إلى الحياة عن نظرة حكامهم ، وكان على الحكومة أيضاً أن تتغلب على المعبات الناشئة عن وجود الفوارق الطبيعية بين أقاليم البنغال والدكن ومقاطعات الشمال الغربى — أضف إلى هذا ما سببته الهجرات الجديدة من ضعف الحكومة وقد أخذ سيل المهاجرين التتار يتدفق من الشمال الغربى جاؤا من أراضي المراميى فى أواسط آسيا . ومنذ عام ١٢٥٠ فصاعداً أخذت جموعهم المتتابعة تدخل أقاليم البنجاب وتضيف إلى المسلمين فى الهند عدداً جديداً ، ولكنها كانت تريد فى الحكومة القائمة ضعفاً على ضعف ، حتى انهارت الحكومة المركزية فى دلهى ، وقضى عليها فى نهاية القرن الرابع عشر على أثر الخراب والتدمير الذى أشاعته فى البلاد غزوة تيمورلنك .



وقد عاد تيمورلنك إلى سمرقند بعد أن تم له غزو الهند غير أنه تركها فوضى منقسمة على نفسها ، تقوم فيها ولايات مستقلة في أحراش البنغال أو في سهول البنجاب الجافة ، وفي مراعى الدكن وفي السهول الواقعة في أقصى الجنوب، بعضها يخضع لأمير مسلم ، وبعضها يخضع لأمير هندي .

ولم تبق سلطة مركزية في الهند لمدة قرن ونصف من الزمان إلى أن جاءت إليها موجة جديدة من المغول وهم سلالة من سلالات تيمورلنك — وبعد أن قاموا بمغامرات متنوعة بدأوا في عام ١٥٥٦ يؤسسون حكماً مركزياً ويتخذون من دلهي عاصمة للبلاد وقد تسنم الحكم الملك أكبر بين عامي ١٥٥٦ — ١٦٠٥ — وهو من أعظم المعاصرين للحكمة العظيمة في إنجلترا — ونجح في توطيد أركان حكم متين بقائماً حتى أفلت زمامه تدريجياً إلى أيدي البريطانيين وقد نجح خطوة خطوة في إعادة تنظيم البلاد الهندية شمال نطاق الغابات على أسس اقتصادية سليمة -- أصبح مما قامت عليه الحياة من قبل . ولكن نجاحه كان محدوداً في الميادين الأخرى والسفر في قوته يرجع إلى أنه استطاع على الرغم من أنه مسلم أن يوحد تحت لوائه جماعات الهندوس الفتية القاطنة في البلاد الوعرة الواقعة في الشمال وفي الغرب ، وأن يكبح جماح العناصر الأخرى التي تعمل على التفرقة والانقسام وبعد خمسين عاماً اعتلى العرش حفيده أورانجزب وطال عهده حتى بلغ خمسين عاماً حالفه النجاح خلالها في إخضاع جنوب الهند لسلطانه وامتد نفوذه فملاً إلى مساحات من الهند لم يصل إليها خلفاؤه من بعده . غير أن التاريخ يعيد نفسه إذ عاودت الفوارق والخلافات الظهور على السطح . وفي عام ١٧٣٩ اجتاحت الهند جيحافل جديدة دخلتها من الشمال ووطئت بأقدامها السهول الشمالية وقضت على الحكومة المركزية وعانت في الأرض سلباً ونهباً .

وفي هذه الأثناء قويت شوكة المستعمرين الأوروبيين الذين جاءوا إلى الهند من وراء البحار . وقد حل الفرنسيون والبريطانيون محل البرتغاليين والهولانديين وبدأ البريطانيون عندئذ يسيطرون على الولايات المتنازعة ليجعلوا منها دولة الهند الموحدة — ولما كانوا يجهضون إلى الهند من وراء البحار مستخرين الرياح الموسمية الصيفية ..



P	طريق الملاحة البرية إلى
B	» » البرية إلى مدارس ومنها إلى كل مكان
→	» » التجارة الشمالية إلى بمباي

الرياح الموسمية في هيو بها على الهند  
(أ) طريق البرتغاليين الذي يحتضن ساحل أفريقيا الشرق  
(ب) طريق البريطانيين الشرافي وهو يؤدي أولاً إلى كلكتا  
(ج) الخط الشمالي الذي تتبعه البواخر في السفر إلى بمباي

لتدفع بسفنتهم الشراعية، كان من الطبيعي أن يصلوا إلى البلاد من جنوبها وجنوبها الشرق فجاءوا أولاً إلى السهول الكارناتية وسهول البنغال وهي أبعد ما تكون عن مصادر الإضطراب في الشمال الغربي ومراكز الحكم الشمالية. فالتخذ الحكم البريطاني قواعد في كلكتا ومدراس. وانتشر منهما نحو الشمال الغربي عبر السهول ونحو الغرب خلال هضبة الدكن. كما وصل البريطانيون إلى الهند من غربها أيضاً حين جاءوا إليها في أول الأمر وهم يلتزمون السير بجذاء السواحل الأفريقية. ثم طرفوا الباب الغربي مرة أخرى بعد افتتاح قناة السويس فدخلوها عن طريق ميناء سوارت وهو أقدم المحطات البريطانية في الهند وعن طريق بومباي وهي أقدم الممتلكات البريطانية فيها.

الخريطة رقم ٦٤



أعلى من ألف قدم

موقع مدارس

وظلت بومباي أجلاً طويلاً وهي تقل أهمية عن مدراس وكالكوتا ولكنهما اليوم تفوق مدراس وتساوى كالكوتا في عدد السكان . وقبل افتتاح قناة السويس كان هذا المنفذ إلى الهند أقل أثراً من غيره من المنافذ حتى أنه في غضون الفوضى التي تبعت انهيار الحكم المغولي أخذ البريطانيون في إعادة تنظيم البلاد تحت سلطانهم واتخذوا من كالكوتا ومدراس مراكز لإدارة شئون البلاد أكثر من اعتمادهم على بومباي . فتهيأت الفرصة للاتحادات الوطنية أن تنمو وتتشكل في الأقاليم الغربية والشمالية الغربية البعيدة ، فنشأت ولايات المهراتا في الهضبة الجافة إلى الشرق من بومباي وولايات السيخ في أراضي البنجاب الجافة .

ولولا تدخل البريطانيين في المسرح الهندي لكان من الجائز أن تنهض ولاية أو أخرى من هذه الولايات وتحاول فرض سلطاتها على الهند بأسرها . وعلى أية حال ، كانت هذه الاتحادات هي اللقمة العسيرة التي واجهها البريطانيون وتطلب إخضاعها قوة وكفاية أكثر مما تتطلبه إخضاع غيرها من الولايات .

ولما كانت البنجاب بعيدة عن المنافذ البحرية البريطانية أي كالكوتا ومدراس استغرق البريطانيون أكثر من نصف قرن لوضعها تحت الحكم البريطاني المباشر . ومنذ ذلك العهد كثيراً ما ضم البريطانيون مساحات إلى حكمهم إما بسبب فساد الحكم

الوطني وإما بسبب عدم وجود من يرث الحكم المطلق في هذه الولايات — غير أنهم لم يستخدموا القوة العسكرية قط في توسيع رقعة سلطتهم إلى الأقاليم المختلفة. هذه هي الهند . أغاب أجزاءها خاضع للحكم الأجنبي كما كان الشأن دائماً في أية مساحة هندية كبيرة . تدار شؤونها من كلكتا لأنها المنفذ إلى السهل من المحيط وستصبح دلهي في مستقبل الأيام عاصمة البلاد لأنها الوحيدة من بين المدن الهندية التي تستطيع أن تدعى بحق أنها كانت مركز الحكم وتدار منها دفعة البلاد . والجزء الباقي من الهند ولايات وبنية وإن كانت لا ترجع في تاريخها إلى عهد أقدم من الحكم البريطاني في الهند وأغلبها يحكمه حكماً مطلقاً أمراء وراجات أجانب عن رعاياهم كأي حاكم بريطاني — والهند تعول عدداً عظيماً من السكان الذين يعتمدون في سد حاجاتهم الحيوية على الطاقة المكتسبة من منتجات أرضها بفضل حرارتها ورطوبتها — إلا أنها لم تكن قادرة على أن تحكم نفسها بنفسها أو أن تقوم بها حكومة منظمة دائمة (١) .

وقد ساد فيها الأمن الداخلي ، وتحرص الحكومة فيها على عدم تسرب ما تخرز به البلاد من طاقة أكثر من أي عهد مضى منذ انتهاء عهد الفوضى ومنذ أن أغلق المنفذ الشمالي الغربي في وجه أي خطر قد يأتي من أفغانستان أو ما وراءها ويهدف إلى إشاعة الاضطراب فيها أو يبغي السيطرة عليها . وقد تم تحصين هذا المدخل تحصيناً قوياً لأن الوصول إليه أصبح ميسوراً لا من كلكتا فحسب بل وبطريق السكك الحديدية الممتدة على طول وادي السند .

لقد أصابت الهند رقياً ونجاحاً رغم أن الحكام البريطانيين يعيشون فيها كحكام فقط ولا يفكرون قط في الاستقرار بها بسبب اختلاف ظروف الحياة فيها عنها في بريطانيا . عاشوا وكأهلهم ينفون أنفسهم زمناً ثم يعودون إلى أوطانهم إذا ما انتهت مهامهم — ولكن لا يقر قرارهم في دلهي كما قر قرار الغزاة المسلمون ، وإذا استقروا فلا بد أن تمتصهم جموع الشعوب الهندية كما تمتصت غيرهم من المهاجرين — أضف إلى ذلك أنه على الرغم من أن الشوب الرعوية الضاربة في السهل الأعظم فيما وراء أفغانستان قد نظمت وتمكنت حقاً ، إلا أن الطريق إلى

(١) هذه هي أفكار الانجليز قبل أن يتحقق للهند استقلالها . المترجم

الهند لا يزال مؤدياً إليها كما كان دائماً ولن يستطيع أحد أن يتنبأ أيها أشد خطراً .  
هجوم منظم أم غزو تقوم به جماعات لا تربطها ببعضها سوى روابط واهية .  
وعلى كل فالعوامل الجغرافية ما زالت باقية — والهند شبه جزيرة أشبه بقارة  
في حد ذاتها وهي ذات مناخ حار مطير - ولا تزال معرضة للغزو من البحر ومن  
الشمال الغربي — يأتي إليها الأوروبيون من وراء البحار وهم الذين ترعروا في البلاد  
الشمالية وواجهوا ظروفها الجغرافية القاسية المذوعة — وقد عرفوا كيف يحلون  
مشكلات أشد تعقيداً مما يقابله الهنود . وعرفوا أيضاً كيف يأتون إلى الهند  
وكيف يحكمونها ولسكنهم لا بالفن أساليب الحياة فيها ، بينما الأهالي في الهند  
قادرون على الحصول على الطاقة الجسدية بسهولة ويزدادون عدداً كل يوم ويجدون  
الحياة في أوطانهم سهلة تخلو من حافز يدفعهم إلى التحكم في الطاقة واقتصادها  
على نطاق واسع — وهكذا نجد الأوروبي راغباً عن الاستقرار في الهند ونجد الهندي  
عاجزاً الآن عن أن يحكم البلاد بنجاح كما يحكمها الأوروبي (١) .

---

(١) لقد أثبت الاستقلال عدم صحة ذلك الادعاء . المترجم

## الفصل الخامس عشر

### المراعى الأفريقية — مناطق النفوذ

#### أراضى السفانا الأفريقية

لقد اتضح الآن كيف كانت العوامل الجغرافية تتحكم فى مجرى تاريخ أوروبا وآسيا بوجه عام ، وعرفنا بوجه خاص كيف نشأت ثلاثة ألوان من الحضارة على هامش السهل الأعظم — وفى سياق هذه القصة لم تتناول من أفريقيا إلا نطاقاً ضيقاً يمتد على طول ساحل البحر المتوسط ، ولم يكن ثمة داع لذكر شىء عن باقى القارة إلا بالقدر الذى لزم لبيان كيف أن كشف الطريق البحرى إلى جزائر الهند حول رأس الرجاء الصالح ، كان حدثاً بارزاً من أحداث التاريخ .

وهنا نجد مجموعة من الحقائق الواضحة تبدو عجيبة شاذة عن المؤلف ، فبينما يبدأ التاريخ فى مصر<sup>(١)</sup> ويتخذ من شواطئ أفريقيا الشمالية مسرحاً لكثير من الأحداث نرى أن باقى القارة يظل مجهولاً للعالم المتحضر حتى خمسة القرون الأخيرة وليس هذا فحسب ، بل أنه على الرغم من أن الطريق إلى الهند حول شواطئ أفريقيا قد اكتشف قبل أن يعبر كولمبس بسفنه المحيط الأطلسى ، إلا أن أفريقيا بقيت القارة المظلمة حتى النصف الأخير من القرن الماضى — هذا فى الوقت الذى افتتح فيه البرتغاليون والأسبان الأمريكتين وأصبحت أمريكا الشمالية مقراً لمدينة عظيمة تناظر لدرجة كبرى مدينة أوروبا .

---

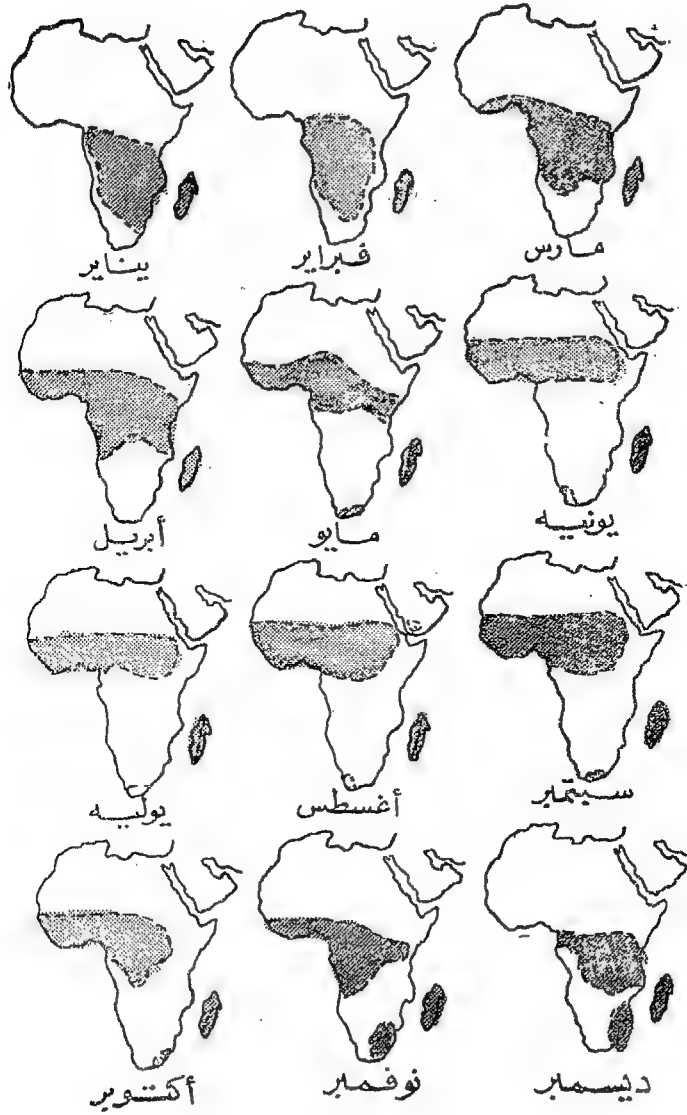
(١) يجب ألا ينسى القارئ أن الإنسان قد استغرق آلافاً من السنين قبل — بدء التاريخ المصرى — وهو يتقدم فى معرفة كيفية استخدام الطاقة واقتصادها خلال الظروف المختلفة التى تهيأت للحياة البشرية على ظهر الأرض ، فقد بذلت محاولات عدة لـ «كون» المؤرخون فكرة عن الزمن الذى استغرقه الإنسان فى التدرج فى مشقة فى سلم الحضارة شيئاً فشيئاً ويختلف تقدير طول هذه الفترة بين عشرات الآلاف من الأعوام إلى مئات الآلاف .  
وكيفما كان الأمر فإن معلوماتنا عنها قليلة لا تعدو أن تكون فروضاً لا تحتمل المناقشة ، والواقع أن نمو الحضارة فى مصر هو فصل بارز يبدأ به تاريخ الإنسان .

لقد تسكلمنا في الفصل الثاني عن انعدام الحافز الذي يدفع الأجناس التوطنة في أفريقيا الاستوائية لأن تستغل مواردها الطبيعية ولأن تقتصد في الطاقة المتوفرة لديها ولنزد الآن هذه الحقائق تفصيلا ولنر أن كانت تفتح لنا مزاليق هذا التاريخ غير العادي .

تظهر خرائط التضاريس أن أفريقيا في عمومها هضبة ترتفع كثيراً فوق مستوى البحر وأن حافاتهما تنحدر انحداراً فجائياً إلى أعماق بحرية سحيقة — وتظهر خرائط توزيع الحرارة طول العام أنها تحلو من وجود أى جزء فيها في مستوى سطح البحر ذى مناخ بارد على مدار السنة — وجل أراضيها في معظم فصول العام ذات مناخ دافئ ، بل ومساحات كبيرة منها حارة ، وعلى أى الأحوال فإن منطقة الحرارة الشديدة فيها ليست ثابتة دائماً ، بل أنها تتأرجح تأرجحاً يتفق وحركة الشمس الظاهرية إلى شمال خط الاستواء وإلى جنوبه فلو أن حزمة معينة من أشعة الشمس سلطت عمودية على سطح من اليابس لا تشتت الحرارة الناتجة عنها في مساحة تقل عما لو سقطت هذه الحزمة بميلها على هذا السطح وهو في أى زاوية كانت ، وبعبارة أخرى تزيد كمية الحرارة التي تستقبلها مساحة من اليابس لو اسقطت عليها أشعة الشمس عمودية عما لو استقبلتها وهي في أية زاوية أخرى ، ولهذا تضافرت الأسباب التي تجعل الجزء الشمالى من أفريقيا أشد حرارة من جنوبها فإن أعلى درجات الحرارة موجودة في الشمال ، لأن أراضي شمال أفريقيا أقل ارتفاعاً في المتوسط ولأن كمية اليابس في الشمال أكثر اتساعاً فلا تقتصر في امتدادها على قارة أفريقيا وحدها بل تمتد إلى ما وراء شمالها وشمالها الشرقى وبطبيعة الحال يرتبط بهذا التأرجح في نطاق الحرارة الشديدة تأرجح آخر واضح العالم في مناطق المطر إلى الشمال وإلى الجنوب حسب ما تظهره الخرائط المرافقة .

والمطر يحدث عادة بسبب برودة الهواء الذى يضطر إلى الارتفاع إلى طبقات جوية عالية فينتشر ويتمدد وبهذا تقل درجة حرارته ، وقد يحدث ارتفاع الهواء نتيجة اعتراض عقبات أرضية في الطريق كسفوح الجبال مثلاً فيفتح على الهواء عندئذ ارتفاع هذه العقبات ، ولهذا كانت الحافة الغربية لهضبة الكين غزيرة الأمطار

الخريطة رقم ٦٥



توزيع المطر في أفريقيا طوال العام

تبين المساحة المظللة الأماكن التي يزيد معدل سقوط المطر فيها على ٤ بوصات وهي تتأرجح إلى الشمال في الصيف الشمالي وإلى الجنوب في الصيف الجنوبي



فى الصيف لأن الرياح الجنوبية الغربية فى هبوبها عليها تضطر إلى الارتفاع فتبرد  
بتمدد لها — كذلك الأمر فى بريطانيا فإن مرتفعاتها الغربية غزيرة الأمطار إذ تواجه  
الرياح العكسية ، إنما تقع بعض مرتفعات بريطانيا الأخرى إلى الشرق من هذه  
وتوازئها ارتفاعاً إلا أنها تقل عنها رطوبة وتزداد جفافاً . وما ذلك إلا لأنه ليس  
هناك ما يوجب ارتفاع الرياح ارتفاعاً جديداً فوق هذه المرتفعات ، وعلى أية حال  
ليس اليايس وحده هو السبب فى ارتفاع الهواء ، فلو اندفع تيار من الهواء الثقيل  
تحت آخر خفيف لسبب هذا الاندفاع ارتفاع التيار الأخير الذى يبرد بدوره من  
جرا هذه الحركة ، هذا التداخل فى التيارات هو السبب الوحيد الذى يفسر  
سقوط الأمطار فوق المحيطات أو فوق الأراضي المسطحة التى لا يضطر الهواء  
فى هبوبه عليها إلى الارتفاع فوقها -- وقد يكون أيضاً عاملاً مساعداً فى سقوط  
الأمطار فوق المنحدرات ، وكيفما كان الوضع ، فقد يكون هذا علة سقوط الأمطار  
على نحو ما فوق الأجزاء الحارة من قارة أفريقيا ، فإن الهواء فى المنطقة الاستوائية  
لا يلبث أن ترتفع درجة حرارته فتهب على المنطقة من الشمال ومن الجنوب رياح أقل حرارة  
وتأخذ طريقها تحت ذلك الهواء الساخن ويميل هذه التيارات لأن تحتفظ باتجاهاتها  
الأصلية فى الفضاء ومن ثم تنحرف فتأخذ اتجاهها شرقياً بعض الشيء — ومما لا شك  
فيه أن الظروف الجغرافية ليست بهذه البساطة التى نذكرها الآن ، فمن ناحية هناك  
من الشواهد ما يدل على أن الهواء فى المناطق الاستوائية يرتفع وينخفض  
فى شرائح رقيقة أكثر منه فى كتل كبيرة ، ومن ناحية أخرى تدل الأبحاث  
التي أجريت فى الطبقات العليا على أن كثيراً من الآراء والمعتقدات التى تبحث  
فى علاقة الضغط بالرياح والأمطار والتى بنيت على معلومات مستقاة من محطات  
الأرصاد المباشرة على سطح الأرض ، كلها فى حاجة إلى المراجعة والتمحيص على  
ضوء المعلومات الجديدة التى هى أكمل وأدق .

وهما كان سبب هذا الاختلاف فليس هناك من شك فى أن تأرجحاً يحدث  
فى مناطق المطر والجفاف أى فى المناطق المناخية ، يدفع بها إلى الشمال وإلى الجنوب  
وينتج عن ذلك وجود سبعة أقاليم مناخية على امتداد الشاطئ الغربى لأفريقيا ،

فهناك شريط ضيق على طول سواحل البحر المتوسط يتنازل بسقوط معظم المطر شتاءً ، وتليه منطقة أكثر اتساعاً هي الصحراء الكبرى حيث يندر سقوط المطر وهي تمتد شرقاً وغرباً عبر القارة وتتخذ من مدار السرطان محوراً لها ، ثم تليها منطقة المناخ السوداني وهي أضيق عرضاً وتمتاز بصيف مطير وشتاء جاف — ثم الأقاليم الاستوائية بمطرها الدائم الذي يبلغ أقصاه عندما تبلغ الشمس سمت السماء في منتصف النهار — ثم تتكرر هذه المناطق في جنوب خط الاستواء — غير أنه يجب ألا يفتن عن الذهن أن الصيف في الشمال يقابله شتاء في النصف الجنوبي من القارة وأن هذه المناطق في الجنوب تشغل حيزاً من خطوط الطول أقل مما تشغله في الشمال لأن مساحة اليابس أقل اتساعاً ولأن محيطاً يقع إلى الشرق منها . وعلى أية حال فإن لفظي « شتاء » و « منطقة » في هذا الصدد قد يؤديان إلى الخطأ فإن المساحة الجافة في الجنوب أي صحراء كلها رى تصيب من الأمطار نصيباً أوفر مما تصيبه الصحراء الكبرى — وأن المساحة التي تسقط عليها أمطار « الشتاء » في الجنوب أن هي إلا إقليم صغير يقع في أقصى الجنوب الغربي . أما في شرق القارة إلى الشمال من خط الاستواء فات الكتلة اليابسة الكبرى التي تمتد إلى الشرق منها ذات أثر بالغ حتى أن مناطق الشاطئ الغربي تمتد تميزاتها عبر القارة الأفريقية — أما في جنوب خط الاستواء فإن الساحل الشرقي يستمتع بقسط وفير من المطر الصيفي .

والأثر الذي يتركه هذا التوزيع للمطر هو أثر يلفت النظر حقاً ، فقد نمت غابات كثيفة على جانبي خط الاستواء من جراء اجتماع الأمطار الغزيرة إلى الحرارة الشديدة — وتشغل هذه الغابات جزءاً عظيماً من حوض الكونغو وشواطئ خليج غانة — كما امتدت غابات مشابهة لها وإن قلت عنها كثافة على طول سواحل المحيط الهندي من جزيرة زنبار جنوباً — هذا وتمتد الصحراء الكبرى حيثما تندور الأمطار حتى يصبح سقوطها أمراً شاذاً .

أما فيما عدا ذلك فتمتد مناطق شاسعة من الأعشاب بسبب انعدام الأمطار في بعض فصول السنة وهي تتدرج من مناطق المراعي الجيدة في بعض أجزائها

إلى أن تصبح قفراً يباباً في بعض أجزائها — هذه البقاع الشاسعة بطبيعتها توفر الغذاء لآكلة العشب من الحيوانات، أو على الأخص الماشية والغزلان من جميع الأنواع وهي حيوانات تتحمل درجات عالية من الحرارة — وتمتد هذه الأراضي المشبية من السودان الغربي في الشمال على طول القارة الأفريقية جنوباً حتى تقترب من رأس الرجاء الصالح وتشغل معظم القارة تقريباً جنوبى الغابات الاستوائية .

هذه هي العوامل الجغرافية الكبرى التي شملت بتأثيرها الإنسان سواء كان متحضراً أم أخذاً في التحضر أم همجياً متأخراً . وليست الغابات الاستوائية العظمى بالمكان الذي يصلح لنمو الحضارة أو المدنية، ويجب أن نذكر أن الغابات تعوق حركات الجماعات المنظمة من البشر سواء جاؤا إليها حرباً أم سلباً .

وقد رأينا كيف عرف الإنسان في مصر وسائل التحكم في الطاقة وتسخيرها على نطاق واسع لتحقيق أغراضه ، لأن مصر احتمت بصحرائها الممتدة على كلا جانبي واديهما واستمتعت بنهر له موردان من الماء ، أحدهما من المنطقة الاستوائية ذات المطر الدائم والآخر من هضبة الحبشة بمطارها الصيفي — وقد استطاعت الجماعات البشرية الأفريقية أن تسرح في طول القارة وعرضها وأن تجوب المساحات الشاسعة من الأراضي العشبية المسطحة ، كما تجولت جماعات الرعاة في مناطق الاستبس في أوروبا وآسيا .

ولا بد أن تؤدي الظروف التشابهية إلى ظاهرات متشابهة ، كما يؤدي اختلافها إلى فروق جوهرية . فليس في أفريقيا مكان واحد يشهد فيه البرد حتى يحتاج الإنسان إلى أعداد خاص لمقاومته . فالملابس مثلاً ضرورة من ضرورات الحياة للسكان مراعى الاستبس ولاغنى لهم عنها، إلا أنها ليست ضرورة أساسية لسكان المراعى الأفريقية فتقل بالتالى حاجتهم إلى اقتصاد الطاقة واستغلالها — هذا وأن أراضي المراعى الأفريقية باستثناء المناطق التي تحف بالصحراء ليست في جفافها كمرعى الاستبس الآسيوية — وهي ليست متكثلة في مساحات واسعة مثلها ويتبع ذلك نتيجتان : —

الأولى — امكان زراعة هذه الأراضى فنقل حاجة الأهالى إلى مزاولة حياة رعوية خالصة .

والثانية — أن جماعة الرعاة الخالص أميل إلى التحكم فى الجماعات الزراعية كما تحكم قبائل العرب الرحل فى سكان الواحات وكما سيطر رعاة آسيا الوسطى على فلاحي الأراضى التى تحف بمراعيهم حتى بضعة قرون مضت — وليس ثمة حاجة تدعوهم لأن يكونوا أهل جد ونشاط ، أهل سعى ودأب . بل أن الاحتمال يزيد حتى يصل إلى درجة اليقين بأن القبائل الرعوية القوية تعتمد بسبب جهالتها وهمجيتها وبحكم أنها أقل مدنية — إلى منع الجماعات التى تقع تحت سلطانها من أن تربى فى نفوس أفرادها عادات استغلال الطاقة واقتصادها .

والواقع أن تاريخ أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى — هذا أن قيل أن لهذا الجزء تاريخ ما — هذا التاريخ فى الحقيقة أن هو إلا قصة تروى انتقال القبائل الرعوية المختلفة فى حركاتها البطيئة فوق الأراضى العشبية ، تستقر حيناً من الدهر فى بقاع خاصة وتتخذ الزراعة الخفيفة حرفة لها وتكون لها قوة عسكرية تمكنها من فرض الجزية وجبايتها من القبائل الخاضعة لها ، وقد تهيأ لها الفرصة فتعمل على إبادة وفنائها ولكن هذه القبائل فى عمومها لم تنجح قط فى تأسيس دولة يمكن أن نصفها بالتحضر . ومع ذلك فقيام الحضارات المريقة فى الشمال واتصال الشعوب بهذه المدينيات وعلى الأخص بالشعوب القاطنة على شاطئ البحر الأحمر — كان له دائماً فيما يبدو بعض الأثر ، لأن حركات هذه القبائل الرعوية على بطئها كان مصدرها الأول فى جميع الأحوال تقريباً الجزء الشمالى الشرقى من القارة أى الأراضى التى تتصل اتصالاً مباشراً بالمدينيات الشمالية واتخذت هذه الحركات طريقين رئيسيين لها : الأول غرباً خلال إقليم السودان والثانى جنوباً عبر الهضبة العالية وكانت الأقوام المهاجرة تسوق أمامها السكان القدامى فى تلك البقاع كالبلشمن والهوئتوت وتدفع بهم جنوباً نحو منطقة رأس الرجاء الصالح وإلى داخل الغابات حيث وجدهم الأوربيون أخيراً وقد سميت بأسمائهم الأقاليم التى سكنوها — فقد

هاجرت شعوب الزولو والمتابلي والمشوتا والمساى جميعاً نحو الجنوب في خلال الألف سنة الماضية تقريباً وسكنوا الإقليم التي تسمى بأسمائهم الآن .

غير أن الظروف الجغرافية في السودان تختلف بعض الاختلاف لأن السكان هنا أكثر اتصالاً وتأثراً بسكان الشواطىء الجنوبية للبحر المتوسط وقد سلك هؤلاء دروب الصحراء في جماعات صغيرة المدد سواء كان ذلك قبل انبشار الإسلام أو بعده كما اختلطوا بالنوج من السكان ونقلوا إليهم الأفكار عن استغلال الطاقة وتوفيرها بوسائل مختلفة، وزرعوا القطن في البلاد الرطبة التي تشبه البساتين في نباتاتها واستعملوا النيلة في صباغته ، كما بنيت فيها المساكن الحجرية والمدن المسورة التي تضم آلاف من السكان . وهنا نجح المولدون من سلالات العناصر الشمالية المهاجرة في تأسيس دول عمرت قروناً أحياناً — وهذا هو أكثر ما يمكن أن يقال عن تاريخ افريقيا . وكان هذا الطراز من الحضارة في أحسن صورة أقل نجاحاً بالطبع من الحضارة الشمالية التي أوحى به — وعلى الشاطئ الشرقى كان نفوذ العرب محسوساً في العصور التاريخية فقامت دول وسكنها لم توجه همها إلى استغلال الطاقة بقدر ما وجهته إلى الاسراف في استعمالها .

وقد حدث أن هاجرت القبائل — بعد أن تأثرت بالحضارات الشمالية — إلى داخل الغابات لعلها واجدة لها ملجأً تلوذ به واستقرت في مواضع لم تبلغها الأشجار حداً من الكثافة يقتل النشاط الذهني وإن كفلت لها في الوقت عينه قدراً من الحماية يحول دون وصول القبائل الرعوية إليها ثم أخذت في تنمية وسائلها الخاصة في الحياة ، بيد أن هذه لم تكن إلا حالات شاذة — وفي أغلب الأحيان لم تصب القبائل الافريقية تقدماً يذكر .

من هذا يتضح جلياً أن العناصر الوطنية في افريقيا لا ينتظر منها شيء كبير ، بل ينبغي أن ندرك لماذا بقيت افريقيا كل هذه الاحقاب الطويلة وهي قارة مجهولة من العالم المتحضر ، وقد كانت العلة مزدوجة ، فهناك عقبات إيجابية من ناحية وقفت في سبيل كشفها وحالت دون الاستقرار فيها ، وافتقرت من ناحية أخرى إلى الاعراء الذي يجتذب إليها الأتوام المتحضرة ، أما العقبات فهي واضحة فإن

القادم إليها من البحر يقابل على طول الشواطئ الغربية الصحارى الجرداء والغابات الكثيفة ابتداء من مراکش حتى جنوب نهر الكونغو فيما عدا الجزء الذى يصل إليه المناخ السودانى فى سنغمبيا . وهنا فعلا بذلت محاولات فى أزمنة مبكرة للاستقرار — أما إلى جنوب الكونغو فيحذف بالشاطئ أشد أجزاء صحراء كاهارى جدبا وجفافا ، وعلى العكس من ذلك تمتد على الشاطئ الشرقى بلاد تكسوها الغابات ، فكان المكتشفون يأتون إلى افريقيا من وراء البحار فى قواربهم باحثين عن مصبات الأنهار على أمل أن يجدوا لهم فيها منفذا إلى داخل القارة ، غير أن افريقيا تحيط بها مياه عميقة تتأثر تأثراً طفيفاً بموجات المد والجزر ، وحيث تكثرت الأمطار تجدد الأنهار تقذف إلى البحر بمياهها ورواسبها مكونة دالات يصعب اختراقها ، والأنهار ذاتها لا تصلح فى أغلب أجزائها للملاحة فهى إما سيول جارفة وإما سلاسل من العيون والأبار هذا باستثناء منطقة المطر الدائم ، وحتى إن صلحت الأنهار للملاحة فهى لا تصل إلى دالاتها إلا بعد أن تنحدر من هضابها الداخلية فوق شلالات ومسافات متعددة ، والأراضى فى ذاتها شديدة الحرارة موبوءة بالحمى فى كثير من بقاعها ، بيئة لا يألفها الجس الأبيض ولا تشبه مواطنه ولا تروقه سكنائها ، بل ولا يساوره أى حافز يفريه بارتياح مجاهلها ، فقد خلت افريقيا من أساطير الذهب الخزون والثروة والتوابل كالهند مثلا — فر الناس بهذه الشواطئ المقفرة المنفرة وتابعوا رحلاتهم إلى الأراضى التى اشتهرت بثرواتها .

ومع هذا فقد تحسنت الظروف الجغرافية حتى فى تقدم الإنسان الأبيض إلى مجاهلها ، فحددت له أماكن لاستقراره دون غيرها وامتدت مستعمراته فى بعض الاتجاهات دون غيرها ، وتراوحت الأسباب التى دعت إلى هذا الاستقرار فكان بعضها محليا وبعضها متصل بطبائع بلاد أخرى ، فقد نشأت مستعمرات فى أول الأمر بالقرب من السنغال ونمبيا لأن الإنسان الأبيض بكر فى الوصول إليهما ولأنهما بأحوالهما الجغرافية أكثر ملاءمة لسكناء بوقوعهما بين الصحراء والغابات

كذلك كان الأمر على الشاطئ الجنوبي عند ساحل أنجولا ، فقد بكر البرتغاليون في احتلاله حيث أنه شبيه بمنطقة غمبيا والسنگال .

أما في منطقة الرأس فبدت خالية من المميزات التي تفرى بسكنائها وخلت من التوابل والبهارات ، ومن السكنوز ومن الرقيق ، قليلة الخيرات لمن يسكنها . ولهذا فضل البرتغاليون احتلال الشواطئ التي تقع إلى الشمال الشرقى ، وتزيد قربا من الهند ، وهى الغاية الأسمى التي كان يستهدفها الرحالة البرتغاليون ، وهكذا تركت منطقة الرأس لقمة سائغة للاستعمار الهولندى .

ثم انتقل زمام الأمر إلى بريطانيا في بداية القرن التاسع عشر حين خضعت كل أوروبا تحت أقدام نابليون إذ وجدت بريطانيا أن الضرورة تحتم عليها أن تستولى وتحافظ على المناطق المتطرفة التي قد يستخدمها الفرنسيون كقواعد للهجوم ، وأدرك البريطانيون أن منطقة الرأس لا تختلف كثير في مناخها عن بريطانيا كما أنها أفضل المحطات ملائمة في الطريق الذى يتبعه البريطانيون إلى الهند ، وهو يختلف عن الطريق البرتغالى الذى كان يسير محاذياً للساحل الأفريقى كلما أمكن ، هذا لأن البريطانيين بينهم وبين البحر ود متصل فكانوا يطلقون لسفنهم العنان مطمئنين إلى الرياح الغربية والتجارية ، ولم يضيعوا الوقت سدى في محاولات الأبحار عكس اتجاهات الرياح بل عمدوا على الاستفادة منها ما أمكنهم واتخذوا الاتجاه المبين في الخريطة في صفحة ٢٣٦ والذى لم يقترب بهم من اليابس إلا عند جنوب أفريقيا . وهكذا تضامنت الجغرافيا والتاريخ في هذه الحالة كما تضامنتا دائماً في توجيه اختيار الإنسان لأما كن استقراره وسكنائه — وكل تقدم بلى ذلك تتحكم فيه الظروف القائمة وما يسبقها من أحداث — فإن تدهور البرتغال من منزلتها كدولة عظمى ساعد على الحيولة دون نمو المستعمرات البرتغالية ، كما أن شرق أفريقيا البرتغالى بساحله الموبوء بطبيعته تحف به كما رأينا الغابات الرطبة ولم يغر بالتوسع في الاستعمار ، وتقدم الفرنسيون من السنگال شرقا حتى وصلوا إلى أعلى النيجر فسيطروا على إقليم متكامل ساعد على تماسك ممتلكاتهم في شمال أفريقيا . غير أن أنجح أنواع التقدم هو ما تم على أيدي الإنجليز متبدين من مدينة الرأس نحو الشمال فوق أعلى أجزاء الهضبة الأفريقية ارتفاعا وأكثرها اعتدالا

في المناخ وأسهلها اختراقا ، فهي بهذه الصفات أكثر أجزاء القارة الأفريقية ملاءمة لسكنى أناس ألفوا مثل هذه الظروف كما ألفوها في أوروبا . هكذا نرى أن البرتغاليين لم ينزلوا إلى البرقط في منطقة الرأس بينما احتفظ بها الهولنديون كمحطة في طريقهم إلى الهند ، حيث الحصول على الثروة أمر ميسور ، وهم الذين اشتهروا بحرصهم على جمع المال ، ولم تتملكهم غريزة الاستعمار ولان الوطن الهولندي في حاجة إلى أيدي ابنائه ، ومن جاء منهم فعلا إلى منطقة الرأس كان يتطلع دائما إلى العودة إلى الوطن . غير أن البريطانيين كانوا أوسع منهم أفقا ، وفقد بنوا المستعمرات من بادى الأمر ثم توسعوا فيها فاصطدموا بالأهالي من الوطنيين من البوشن ثم اتصلوا بالأجناس التي جاءت إلى الجنوب أخيرا كشعوب الزولو والتابلي وأجبروهم على الحياة في هدوء وسكينة ، وأخيرا أخضعوا أحفاد العناصر الهولندية الأصلية ، وأجبروهم على طاعة حكومة واحدة ، وهم الذين كانوا هاجروا إلى الشمال كلما تقدم البريطانيون لأنهم لم يألفوا الخضوع لحكومة مركزية ، وأخذ الحلم البريطاني بامتداد السيطرة البريطانية من شمال القارة إلى جنوبها يقترب من التحقيق تدريجا كلما اتسع نفوذهم وشمل أراضى تلائم في كثير أو قليل سكنى الجنس الأبيض — وحدث مرة أن قوبل هذا التوسع بتحدى من جانب فرنسا عندما حاولت تحقيق حلمها في بناء إمبراطورية تمتد بعرض القارة — حتى حات الأزمة في فاشودة والأحرى أن نقول أن حلمها قد تقرر في بحر المانش حيث السيادة معقودة للأسطول البريطاني — فتقرر حينئذ أن تبقى مياه النيل تحت سلطة واحدة سواء كان الوصول إليها من الإسكندرية أم من الشاطئ الشرقى — ثم واجه النفوذ الإنجليزي تحديا جديدا فقد بذلت ألمانيا لفترة من الزمان محاولة جديدة لامتلاك جزء من المستعمرات الأفريقية ووصات إليها من الساحل الشرقى بموازاة الممتلكات البلجيكية ، وهكذا انفصلت المستعمرات البريطانية في الجنوب عن تلك التي تقع في الشمال ، غير أن هذا الفصل لم يقض على فكرة ربط القاهرة بمدينة الرأس بخط حديدي يمر فوق الهضبة ، ولكن سيادة المحيطات وما تهيئه من حرية النقل فيما وراء المحيطات قررت مصير شرق أفريقيا ووضعته تحت السيطرة البريطانية .



أما على طول سواحل غينا فقد احتفظت دول مختلفة بقلع وحصون ومحطات. منذ عهد الاكتشافات الأولى، ولكنها جميعا لم تود إلى توغل باجح للإنسان الأبيض والحضارة الحديثة إلى داخل القارة لأن العقبات الطبيعية على طول هذه السواحل وقفت عقبة كؤودا تحول دون توغلها كما امتدت الغابات وراءها كثيفة عسيرة الاختراق، وزاد الطين بلة انتشار الحميات ووجود الأجناس المتأخرة، فلم يتمكن الإنسان المتمدن من اختراق هذه الغابات إلا حديثا، وهكذا سيطر على مناطق الزنوج وقد وصل الأوربيون إلى هذه المناطق بأقل الطرق الطبيعية عسرا أى عن طريق النهر العظيم الوحيد إلا وهو نهر النيجر، فتناولوه بالتهذيب والتنظيم وربطوا الداخل بالشاطئ بواسطة السكك الحديدية. وهكذا دخلت منطقة النيجر في الميدان العالمى كقطر ينتج القطن يزود مصانع أوروبا بما تحتاج إليه من منتجاته بينما ظلت أقاليم الغابات في دلتاه مجهولة تقريبا.

كذلك اكتسبت أهميتها الأراضى الممتدة في جنوب خط الاستواء وهى التى تقابل الأقليم السودانى في السنغال والنيجر الأعلى والأوسط، وكلما مست يد التنظيم والاستغلال الأراضى الواقعة إلى الشمال من ساحل أفريقيا الجنوبى كلما وجد أنه من العبث والإسراف أن تظل المواصلات تعتمد على خط حديدى واحد يربطها. جميعا بأقصى الجنوب، بينما الطريق إلى الهضبة من الشرق أيسر من الطريق إليها من الغرب حيث يفصلها عن الساحل الغربى صحراء كلها رى المقفرة. لهذا أخذت الموانئ التى تقع على الساحل الشرقى في شمال مدينة الرأس تزداد أهميتها بالتدريج وإن ازدادت بعداً عن أوروبا، وقد يأتى الوقت الذى يصبح فيه إقليم الزمبىزى الأعلى أوثق اتصالاً بأوروبا من الشاطئ الغربى، الأمر الذى حاول البرتغاليون تحقيقه منذ قرون خلت.

هكذا نرى أن أفريقيا التى طالما اقتصرت سكانها على شعوب همجية متأخرة وظلت مجهولة زماناً طويلاً بسبب ظروفها الجغرافية، نرى هذه القارة قسمت أخيراً بين الشعوب الراقية، وفاز بنصيب الأسد من كانت له الكلمة العليا في عملية التقسيم، بيد أنه لا تزال هناك العناصر الأصلية التى يشتغل أغلبها بالرعى ولا تزال أساليب حكمها مشكلة معقدة تنتظر الحل.

## الفصل السادس عشر

### العالم الجديد — تاريخه قبل كلومبس

#### أمريكا الإسبانية

لقد قصرنا النظر حتى الآن قصراً يكاد يكون تاماً على دراسة العالم القديم وحده فرأينا كيف أن ثلاثة ألوان من الحضارة نشأت على الإطار الخارجى للسهل المتوسط الأعظم الذى أثر فيها جميعاً . وقد عرفنا أن أهل أوربا اتصلوا اتصالاً مباشراً بألوان الحضارة الأخرى أثناء محاولاتهم الحصول على قدر أعظم من الطاقة واستغلاله — ومن ثم جاء عرضاً كشفهم لأمريكا — وقد يتبادر إلى الذهن السؤال التالى وهو لماذا كان الأوروبيون أسبق فى كشف أمريكا ؟ وقبل أن يقوم الأمريكيون بكشف أوروبا . وقد نضع السؤال فى صيغة أخرى فنقول — لماذا كان أهل أمريكا الوطنيون عازفين أو بالأحرى عاجزين عن التحكم فى الطاقة خارج بلادهم ؟

لو بحثنا الحقائق الجغرافية لتكففت بالجواب عن هذا السؤال ولرأينا أن الظروف الجغرافية كانت ولا تزال تختلف اختلافاً بيناً بين القارتين ومن البديهي أن يختلف التاريخان .

فأهـى إذن هذه الحقائق الجغرافية التى كان لها ذلك الأثر الهام ؟ هناك حقيقة هامة إن لم تكن أهم الحقائق جميعاً ، وهى واضحة كل الوضوح — تلك هى أن العالم الجديد أصغر حجماً من العالم القديم وبوجه خاص فإن مساحات اليابس الواقعة فى نطاق الصحراوات فيه هى مساحات صغيرة جداً .

والظروف السائدة هنا شبيهة بالظروف السائدة فى أفريقيا الجنوبية لصغر مساحة اليابس فى كليهما وعدم وجود أراض إلى الشرق منهما وبذا نقصت مساحة الأراضي الصحراوية فيهما ولم يوجد المهد الذى يصلح لإنماء حضارة عريقة إذ أن

وجود الصحراوات في شمال العالم القديم التي تمت في أحضانها الحضارات العريقة - مرجعة في بعض أسبابه وجود كتلة عظيمة متصلة من اليباس - ومن الطبيعي أن يكون قلب هذه المنطقة الكبيرة من اليباس أجف نسبياً من الحافات . وقد يكون بعض السبب راجعاً إلى وجود منطقة واسعة من اليباس في شمال أفريقيا واقعة في مهب الرياح التجارية وقد قدر لها موفعها الجغرافي أن يكون قلب آسيا اليباس إلى الشمال الشرقى منها .

وفد خلا العالم الجديد منه وجود كتلة عظيمة متصلة من اليباس يمكن أن يقارن حجمها بيباس العالم القديم ذلك أن كلتا المنطقتين اللتين تقعان في عروض الصحراوات تمتدان امتداداً ضئيلاً إلى الشرق وإلى الغرب . فالمنطقة الشمالية تقع في أضيق جزء للقارة أما الجنوبية فتبلغ تقريباً نفس اتساع منطقة جنوب أفريقيا على نفس خط العرض، وأهم من ذلك كله عدم وجود اليباس إلى الشرق من المنطقتين ، وبدلاً من أن تكون الجهات الشرقية منهما جافة أصبحت في الواقع مطيرة رطبة لأنها تقع في مهب الرياح التجارية وتضطدم بها عند أول هبوبها على القارة .

وهكذا تصبح المناطق الجرداء حقاً ، صغيرة ، فالصحراء في أمريكا الجنوبية تشغل شريطاً ضيقاً على طول الساحل الغربى وكذلك الحال في أمريكا الشمالية وإن لم تكن المناطق الجافة بهذا الضيق في عرضها إلا أنها صغيرة نسبياً - وساعدت التضاريس في كلا الحالتين على تحديد مدى اتساع الصحراوات كما حدث من اتساع الأنواع الأخرى من الأقاليم الطبيعية .

والظاهر العام لتضاريس اليباس في العالم الجديد بسيط جداً بوجه عام، إلا أننا لكي ندرك كيف تحكمت التضاريس لابد من أن نتناولها بالدراسة في شيء من التفصيل . وفي كل من القارتين توجد ثلاثة مرتفعات عظيمة تفصل بينها منخفضات ، وتمتد سلسلة الكوردييرا بحذاء الساحل الغربى وهى أوسع عرضاً في أمريكا الشمالية وعلى الأخص في جزئها الأوسط وتزداد ضيقاً وارتفاعاً في أمريكا الجنوبية . ويحدها في كلتا الحالتين سلاسل أكثر ارتفاعاً . وما جبال روكى سوى مجموعة

السلاسل التي تحدد بوضوح الحافة الشرقية للجزء الأوسط العريض من جبال الكوردليرا في أمريكا الشمالية .

وتقع إلى الشرق من الكوردليرا في كلتا القارتين مجموعتان من المرتفعات أقدم منها عمراً وقد عملت فيهما عوامل التمرية حتى انخفض مستواهما — فنجد في أمريكا الجنوبية هضاب غيانة والبرازيل ، وفي أمريكا الشمالية مرتفعات الأبلش والسهل التحسائي اللورنسي العظيم وهو في الحقيقة منخفض في مستواه إلى حد أن خليج هدسن يشغل قلبه بعد أن طغت عليه مياه البحر ، بل ولا نستطيع أن نطلق على السهل لفظ هضبة إلا إذا عدونا الحقيقة واستلهمنا الخيال . وفي الواقع أن جبال الكوردليرا قد التوت عند حافة الكتل الصخرية العتيقة القديمة التي تحف بها من الشرق ، وحيث لا توجد هذه الكتل القديمة كما هو الحال في إقليم جزائر الهند الغربية تنتشر هذه المجموعة من الجبال مكونة سلاسل منفصلة بعضها عن بعض — وقد تنخفض أحياناً في بعض أجزائها حتى لا تكاد تظهر فوق سطح البحر كما في أمريكا الوسطى وأحياناً تبقى قممها فقط نقطاً بارزة فوق الماء كما هي الحال في قوس جزائر الهند الغربية وأحياناً أخرى تختفي تماماً تحت سطح الماء .

ونجد في كل من القارتين سهولاً تمتد بين هذه المرتفعات في ثلاثة اتجاهات وهي أكبر امتداداً في أمريكا الشمالية في السهل الواقع بين جبال روكي وجبال الأبلش وأكثر مواضعه انخفاضاً هو ذلك المحور الممتد من الشمال إلى الجنوب والذي يجري فيه نهر المسيسيبي ، ثم يرتفع السهل تدريجياً نحو الشرق ونحو الغرب ارتفاعاً غير محسوس لا تدركه العين المجردة ويظل متابعاً ارتفاعه حتى إذا ما وصل إلى حافة الجبال الغربية التي ترتفع عندئذ ارتفاعاً فجائياً بلغ ارتفاع سطحه نحو ميل واحد .

وتمتد بين النطاق اللورنسي بصخوره القديمة الصلبة من ناحية وبين جبال الأبلش وسلاسل الكوردليرا من ناحية أخرى منخفضات ضيقة نسبياً ، يجري

فيها نهر الست لورنس نحو المحيط الأطلسي كما يجري نهر الماكنزي نحو المحيط المتجمد الشمالي .

أما في أمريكا الجنوبية فيقع المنخفض العظيم على حانبي خط الاستواء ويقوم نهر الأمازون وروافده بصرف مياهه وله عنق ضيق يتجه إلى الشرق بين هضبتى غيانة والبرازيل — ونحو الجنوب يمتد سهل في محاذة جبال الأنديز من الغرب وهضبة البرازيل من الشرق ، على حين أنه في الشمال نجد سهلاً أصغر كثيراً من هذه السهول يمتد بين جبال الأنديز حيث تفتحى نحو الشمال الشرقى وبين هضبة غيانة ويجرى فيه نهر الأورينوكو .

ولهذا كان للتضاريس أثر في تحديد مدى اتساع الأقاليم المناخية في أمريكا الجنوبية نتج عنه نتائج عدة نلخصها فيما يلي :

ذلك أن الغابات الاستوائية التى تغطى سهل الأمازون الحار الرطب تشغل مساحة واسعة عبر القارة وتمتد حتى السفوح الشرقية لجبال الأنديز . هذا من ومن ناحية أخرى أصبحت منطقة الصحراء في أمريكا الجنوبية ضيقة جداً بطبيعة الحال بعد أن تحدد امتدادها بين جبال الأنديز والبحر ، أما الأفليم الذى يقابل الأفليم السودانى فهو أرض السفانا فى حوض الأورينوكو وهى صغيرة نسبياً فى مساحتها ويختلف مناخها عن مناخ السودان الأفريقى من عدة نواحى هامة . ينطبق هذا القول أيضاً على مناطق السفانا فى المرتفعات الداخلية للبرازيل وهى إلى جانب ذلك مكونة من صخور قديمة صلبة إذا ما سقطت عليها الأمطار فسرعان ما تنصرف عنها .

أما فى أمريكا الشمالية فإن أشد الأقاليم جفافاً يقع على المرتفعات الممتدة إلى الغرب من القسم الجنوبى من جبال روكى — ولهذا كانت الأنهار التى تسيل غرباً وتنبع من هذه المرتفعات الجافة ضيقة وعميقة فى مجاريها وتنخفض كثيراً عن المستوى العام للأراضى المحيطة بها وهى بهذا تساعد على جعلها أكثر جفافاً مما لو لم يقدر لها أن تجرى على هذا النحو . وإلى الجنوب من هذه الصحراء تضيق الكتلة اليابسة برمتها وتقرب حافتا الجبال من بعضهما حتى تتلاقيا فى

القمة العالية لجبل أورزبا ، وتستقبل الحافة الشرقية أمطار الرياح التجارية فتصبح رطبة كثيفة الغابات على حين تظل الهضبة المكسيكية فيما بين حافتي الجبال جافة نسبياً وأمطارها الشتوية قليلة جداً ومقصورة على بضعة شهر فقط .

وهناك أيضاً إقليم جاف وهو السهول المرتفعة الممتدة إلى الشرق من جبال روكي وتكسو سطحها الأعشاب وهي تقابل مناطق الأستبس في آسيا . ومن البديهي أنها لا تضارعها اتساعاً ، لأن الغابات كانت تغطي البلاد الواقعة إلى الشمال . وإلى الشرق منها وهي غابات صنوبرية في الشمال ، معتدلة بالقرب من المحيط الأطلسي وشبه مدارية على طول ساحل خليج المكسيك . إما في أمريكا الجنوبية فأى الإقليم الوحيد الذى يمكن أن نقول عنه أنه يقابل مناطق الأستبس فهو الأراضى التى تمتد إلى الشرق من جبال الأنديز حيث تقوم الآن جمهورية الأرجنتين .

وهكذا نجد أن الإقليم الذى تناظرها في العالم القديم دفعت بسكانها منذ البداية لأن يبذلوا الجهود طوعية أو اضطراراً حتى يحصلوا على مقومات الحياة بينما خلا العالم الجديد من أمثال هذه الدوافع التى تخلق مهاداً للحضارات كوجود نهر عظيم يحترق صحراء شاسعة يفيض بالماء الوفير في فصل من فصول السنة ويوفر الماء اللازم لنمو المحاصيل ، ثم يغيب مائه في فصل آخر فتذبل النباتات وتصبح هشيماً . كذلك خلا العالم الجديد من بلاد تستمتع بالدفء فتسهل فيها الحياة نسبياً ويجسد الناس فيها حافزاً قوياً يدفعهم إلى التفكير في أمر مستقبلهم وفي اختزان القوت وغيره من موارد الثروة الطبيعية وحيث تكفلت الطبيعة بحمايتها وحالت دون وصول أهواج الطامعين في اغتصاب مخزون ثروتها .

وحتى أراضى الأستبس هنا أصبحت صغيرة المدى ، كما خلا المسرح من سكان المراعى الذين تميزت بهم مناطق الأستبس . في العالم القديم ، وهذا يرجع في بعض أسبابه إلى نقص آخر يقاسيه العالم الجديد على عكس العالم القديم ، فلم يستوطن أمريكا الشمالية أو الجنوبية حيوان واحد من الحيوانات آكلة العشب التى استأنسها الإنسان في أوروبا وآسيا وأفريقيا . ولم توجد هنا الجبال أو الخيول

أو الحجير أو الأغنام أو الماعز ، وأهم من ذلك كله أن أمريكا خلت من الماشية قبل أن يستقدمها الإنسان من أوربا — مع أن الماشية تمثل مظهراً من أقدم مظاهر اختزان الطاقة . ولم تكن هناك دواب للحمل قط توفر على الإنسان جهوده بدلا من أن يسرف في بذلها في نقل الأشياء من مكان إلى آخر — كما غاب عنهم اللبن وجميع الأعذية التي تصنع منه . وقد يحتاج هذا القول إلى بيان ولسكنه بديهي ، إذ أن الجاموس البري كان يمرح في طول المراعى وعرضها في قطمان لا حصر لهما ، ولا يبدو هناك سبب عويص يحول دون استئناسه إلا أنه يقال أحيانا أنه حيوان لا يستأنس بطبعه ، وسواء كان هذا صدقا أم كذبا تبقى حقيقة راهنة وهي أن الجاموس البري لم يستأنس قط . والحيوانات المستأنسة وحدها هي التي تسمح بوجود الشعوب الرحل الرعوية التي تمتاز بقوة احتمالها وصبرها على المشقات وهزم الشعوب حين تنتقل تؤثر في سكان المناطق البعيدة المتناثرة على حافات أراضى الاستس ، ومع هذا الانتشار الواسع فإنها تحتفظ دائماً بقوة كامنة بفضل امتلاكها تلك الطاقة المخزونة من رأس المال المقتصد . أما رعاة العالم الجديد فتحتم عليهم الضرورة الانتقال خفافا وقد تهيج لهم خفتهم سرعة الحركة ولسكنهم لزودهم بقوة قاهرة لا تقاوم ، فلا ينتظر بعدئذ أن نرى في تاريخ العالم الجديد هجرات بشرية عظيمة تسكتسح ما يعترض سبيلها كما رأينا في هجرات العالم القديم — أضف إلى ذلك أن طراز الحضارة الذي ابتدعه الزنوج في أفريقيا وقام على أساس الماشية كان قيامه مستحيلا في أمريكا الجنوبية لأنها خلت حتى من الجاموس البري .

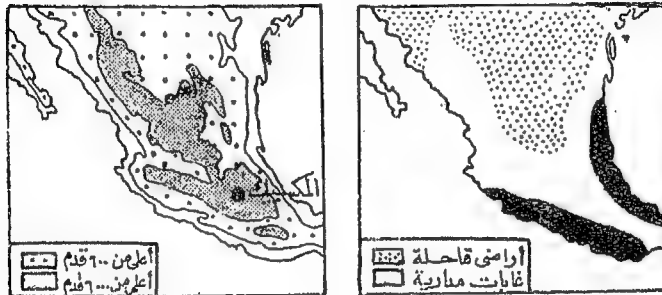
ومن ذلك يتضح أن العالم الجديد افتقر إلى الظروف المناسبة التي ساعدت على سرعة نمو الحضارات القديمة المريقة على النحو الذي بدأ في العالم القديم .

ففي أمريكا الشمالية تقع أكثر الأراضى جفافاً وأقربها إلى جذب الصحراء . بالتقريب من الشمال الغربى لخليج المكسيك إلى ما وراء رأس خليج كاليفورنيا . والإقليم هنا دافئ في جميع فصول السنة وإن كان حاراً حقاً في فصل الصيف ، غير أنه يسمح للحياة أن تقوم في سهولة ويسر متى كان قيامها في بقعة من البقاع ( م — ١٧ الجغرافيا )

ممكناً وميسوراً — وعلى الرغم من أن الأنهار عموماً في هذا الإقليم تجري في مستوى منخفض كثيراً عن المستوى العام للبلاد إلا أن جماعات صغيرة من السكان قد تجتحت في استخدامها لأغراض الري في بعض البقاع المتناثرة هنا وهناك ، وترتفع هضبة المكسيك في الجنوب وهي جافة نسبياً ، يصعب الوصول إليها عبر الأراضي الجافة في شمالها كما يصعب الاتصال بها من خلال الغابات الكثيفة التي تغطي السفوح السفلى للهضبة من الشرق ومن الجنوب ، فالبلاد بهذا الوضع دافئة في مناخها تستمد ماءها من المجارى المنحدرة إليها من المرتفعات والتي تكمل كميات الأمطار التي تسقط عليها بغزارة نوعاً ما صيفاً وتقل شتاءً ، وقد تهيأ لها قدر من الحماية الطبيعية — وفي المنطقة الصحراوية الواقعة إلى شمالها لا تكفل موارد الماء فيها الحياة إلا لعدد محدود من السكان ينتشرون انتشاراً واسماً — غير أنه في الهضبة المكسيكية يحتمل أن تتصل ببعضها الجماعات الصغيرة التي تعيش على سفوحها في مناطق متباعدة ، وهكذا يبدو أنه لم يتوافر لهذه البلاد الأخيرة القدر من الحماية الذي توافر لمصر ولا الأسس التي تصلح لتعمل عدداً كبيراً من السكان كما هو الحال في مصر .

وكيفما كان الأمر فهذه المنطقة هي أقرب الأقاليم شبيهاً بمصر من بين أقاليم العالم الجديد الواقعة في شمال خط الاستواء .

الخريطة رقم ٦٦



التضاريس والنباتات في المكسيك

ويتبين مما نعلمه عن تاريخ المكسيك أن الصحراء والغابات لم تكونا بحال من الأحوال



سحاجزين منيعين — وعلى الرغم من ضآلة معلوماتنا عن تاريخ المكسيك إلا أنه يبدو أن شعوباً محاربة جاءت إليها من الشمال الجاف في موجات متتالية ، وكل منها تدمر في أول الأمر تدميراً جزئياً كل ما تجده من مظاهر الحضارة التي تفوق حضارة الغزاة ثم يحملون من أنفسهم ورثة لها — ومن الجائز أن تكون بعض هذه الموجات ممن جاءوا كصيادين رحل انتقلوا إلى المكسيك من السهول الجافة المترامية في شرق جبال روكني أو ممن جاءوا من الأراضي الصحراوية ونقلوا معهم بعض ألوان المعرفة في فنون اقتصاد الطاقة واستغلالها ، والتي سبق لهم كسب خبرتها في مجتمعاتهم الصغيرة المنعزلة كبناء المنازل من الطوب اللبن وكزراعة الأذرة ليتخذوا منها غذاءهم أو كزراعة القطن لبيع ملابسهم من شعيراتهم ، وعلى أى الأحوال فإننا نجد في المكسيك جماعات صغيرة قوامها القبيلة يعيش أفرادها معيشة جماعية في مستعمرات دائمة أو في مساكن ريفية مبنية من الحجر ، ويتخذون من القطن كساء لهم ويعتمدون في غذائهم على الحبوب التي كانوا يخزنونها في غازن أو أهراء<sup>(١)</sup> خاصة في محلاتهم ، فإذا تحالف أهالي محلتين أو ثلاث سيطروا لفترة من الزمان على من يقطنون بالقرب منهم ويفرضون عليهم جزية من الحبوب والقطن ، وقد يضطر هؤلاء بدورهم إلى الاعتراف بسيادة اتحادات أقوى وهكذا .

وهنا نرى تقدماً محسوساً من ناحية ، إذ لا يمكن اختزان الطاقة واستغلالها بطريقة تختلف عن تربية الماشية إلا بالحياة المستقرة الثابتة . ولما استقرت هذه الناقوام أخذت تجمع ألواناً من الطاقة الغذائية وأنواعاً من الطعام مما يسهل حفظها مدداً أطول عن غيرها حتى في تلك الأيام — وإن كان ذلك يتطلب جهداً كبيراً في إعدادها — فإن الثمار التي يأكلها الرجل الهمجى لا تتطلب منه مجهوداً أكثر من جمعها والتقاطها واستهلاكها في نفس اللحظة . غير أن الإنسان الهمجى يصيب تقدماً لو أنه حفر الأرض بحثاً عن جذور النباتات ومعظمها يتطلب جهداً لمعالجتها حتى تصبح صالحة لتناولها . كذلك البذور من أنواع

الحبوب الغذائية تتطلب جهوداً مختلفة قبل أن تصبح طعاماً سائماً، فقد تمر أجيالاً بعد أجيال والفلاحون يفتنون في انتخاب أنواعها وتحسين نتائجها حتى تجود بأوفر محصول بل ولا يقتصر إعدادها على العناية بها أثناء نموها حتى تأتي بأفضل المحاصيل، بل تتطلب بعد حصادها معالجة طويلة حتى تصبح في أحسن أحوالها صلاحية للغذاء — ولنفكر قليلاً في عدد العميات التي يمر بها القمح قبل أن يؤكل ولنتقارنها بعد ذلك بالخطوات اللازمة للفتح أو الموز أو الفت أو البطاطس حتى تصبح صالحة للطعام — هذا ولم يعرف سكان العالم الجديد شيئاً عن القمح، ولكنهم عرفوا الذرة الهندية وهي الغلة الرئيسية في العالم الجديد، ومن مميزاتها أنها تتطلب مجهوداً أقل في زراعتها وفي إعدادها، وقد عرفت بجميع أنواعها في أنحاء القارة، ومن الجائز أن قامت بزراعتها قبائل استقرت في مكان ما حيناً من الدهر بعد أن تمكنت من قطع الغابات وزراعة أرضها حبوباً — ثم تعود إليها حين يتم نضج المحصول فتحصد ما زرعته وتستهلكه. وليس في هذه الحالة اقتصاد كبير في الطاقة. وعلى أية حال فقد نزرع الذرة أيضاً في الأراضي الجافة بالاستعانة بوسائل الري فيقتصد منها بعض المحصول — وكان هذا أسلوب أهل المكسيك القدماء ولم يقتصروا على اختزان جزء من مواردهم من الأيام السمان لاستنفاده في الأيام العجاف ولكنهم استطاعوا أيضاً حماية أنفسهم بفضل ما جمعوه من ألوان الطاقة الغذائية — فإن هذه المحلات التي أنشأوها كانت في واقع الأمر حصوناً يلجأ إليها جميع السكان إذا ما تعرضوا لهجوم عليهم معتمدين على ما اختزنوا من مؤن وأغذية مما يهيء لهم الفرصة لأن يقاوموا الهجوم أطول مدة من الزمان. ولما كانت مطالب الحياة الأساسية لا تستغرق منهم كل وقتهم ونشاطهم بقي لديهم بعض الفراغ والنشاط يفيدون منه في اقتناء بعض كاليات الحياة وفي القيام بأعمال الحفر البسيطة واقتناء التحف الذهبية والفضية التي كانوا يصنعونها.

غير أن هذا التقدم الذي أصابه أهل المكسيك في السيطرة على الطاقة لم يكن قدما من الطراز الأول فإن الظروف الجغرافية التي عاشوا فيها والأحوال التاريخية التي سادت زمانهم جعلت الوحدة الاجتماعية الصغيرة ذات أهمية كبرى فلم يك ثمة

«داع للتسكتل في اتحادات كبرى وإن سيطرت مجموعة من القرى على مجموعة أخرى فإن سيطرتها كانت مجرد سيطرة حكومية أو ملكية ليس التوسع من أغراضها بل أن مقصدها الأول هو اغتصاب الجزية اغتصاباً تتبع فيه ألوان من التهديد والتشهير.

ولم يرق الفاتحون نظير هذا الابتزاز بواجب الدفاع عن الأراضي المفتوحة حتى يمكن توفير قسط أكبر من الطاقة — ولم تظهر عندهم أية فكرة للقومية كما لم يكن حكمهم مجرد استبداد عسكري في أبسط معانيه كما كان الحال إبان الحكم الأشوري بل احتفظت القرى الحاكمة بسيطرتها طالما بقيت القرى الأخرى مستضعفة تسودها الفرقة والانقسام، وكانت تدفع الجزية لمجرد الخوف من استئصال شأفتها إن هي منعت الجزية عن الفاتحين، ومما أضفى على المكسيك أهمية خاصة أنها كانت المهـد الذي تطورت فيه وسائل اختزان الطاقة في المجتمعات الصغيرة فبلغت حدّاً من الكفاية لم تبلغه في أي مكان آخر، ولأن النظم الاجتماعية أو الحكومية لم تتعد في غيرها حد الطور البدائي. فلم يقتصر الأمر على أننا نرى تغييراً مستمراً في القرى الحاكمة فحسب بل ولم تبذل محاولة تذكر للاتحاد في وجه عدو مشترك يغير عليهم من خارج حدودهم وذهبوا في تصرفاتهم إلى النقيض من ذلك، وكان الأتراك هم العنصر الوحيد الذين وجدهم الأسبان يسيطرون آنئذ على المنطقة سيطرة حديثة لا يرجع بها العهد إلى أكثر من بضعة أجيال فقط وهذا يفسر لنا السهولة التي سيطر بها الأسبان عليهم بعدد قليل من الرجال كما يفسر السرعة التي فرضوا بها سلطانهم على جميع هذه البلاد.

وقد ازدهر هذا الطراز من الحضارة المكسيكية في منطقة أخرى، ومن الممكن حقاً أن يقوم بعض الاتصال بين المنطقتين، إذ لا نعلم في الوقت الحاضر إلا القليل عن الجـاعات التي سكنت شبه جزيرة يقطان المنخفضة الواقعة إلى الشرق من المكسيك والتي فصلها عن بعضها غابات كثيرة وقد بلغ سكان هذه المنطقة درجة من الرقي لم يصل إليها أي شعب من شعوب هذه القارة، كما أن مناخ يقطان يشهد عن مناخ بقية سواحل الخليج بغزارة أمطاره في شهور الصيف فقط على حين تجرد المنطقة الباقية بأسرها تسقط عليها أمطار غزيرة على مدار السنة، ولهذا

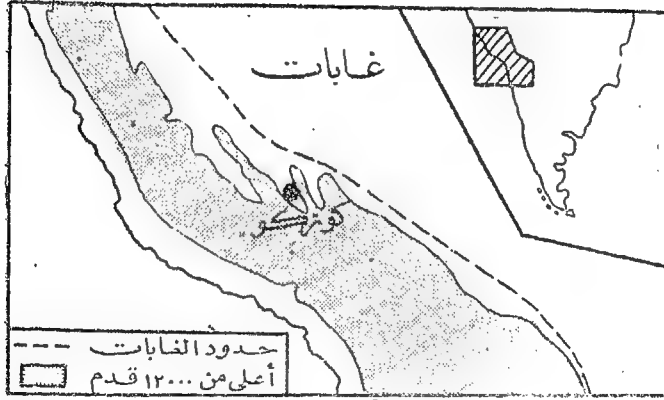
اكتست بالغابات بينما أصبح شبه جزيرة: يقطن أراض عشبية ولحاء فيها شأن كبير .

والظروف الجغرافية في المكسيك وبقطان لا تختلف اختلافاً كلياً عما سود مواطن الحضارات العريقة في العالم القديم ، غير أنه يجب أن نلاحظ أنه على الرغم من وجود هذا التشابه الملحوظ فيما يسود العالمين في الظواهر الأساسية إلا أنهما يختلفان اختلافاً بيناً في أحوالهما الظاهرة .

ففي أمريكا الشمالية نجد الأراضي العشبية صغيرة المساحة إذا قورنت بالأراضي العشبية في أوروبا وآسيا وكان الجاموس البري في أمريكا الشمالية هو الحيوان الوحيد الذي كان يجوز أن يستأنسه الإنسان — وإن لم يستأنس قط — فخلت البلاد من شعوب تماثل القبائل الرعوية الرحل في العالم القديم . أما أمريكا الجنوبية فقد حوت مساحة أصغر من الأعشاب المعتدلة — بينما اتسعت رقعة أعشابها المدارية اتساعاً عظيماً ورأيناها تخلو من أى حيوان يصلح للاستئناس حتى من الجاموس البري الذي كان لم يستوطن هذه القارة قط ، كما أن مساحة الصحراوات فيها ضئيلة المدى ، فبقى معظم القارة تغطيه الغابات الاستوائية الكثيفة ، ولا غرو بعدئذ ألا نجد سبباً واحداً معقولاً يبعث على تقدم المدنية في أمريكا على النحو الذى سارت عليه في العالم القديم .

غير أن أمريكا الجنوبية تنفرد بمجموعة من الظروف لا توجد في مكان آخر على ظهر الكرة الأرضية ، إذ ترتفع هضبة الأنديز ارتفاعاً فجائياً في غرب سهل الأمازون العظيم الذى تكسوه الغابات — ويتراوح عرض الهضبة بين مائتى وثلاثمائة ميل وتصل في إرتفاعها إلى نحو المليون وتريد حافتها الجبلية في إرتفاعها عن مستوى الهضبة بنحو الميل تقريباً .

وتغطى الغابات حافتها الشرقية وتطل من الغرب على سهل جاف مرتب أما الأجزاء المنخفضة من الهضبة الوسطى فهي جافة دافئة نوعاً وتميل لئاليها إلى البرودة — وهذا الطراز من المناخ هو نتيجة طبيعية لارتفاع التضاريس بالقرب من خط الاستواء ، وكلما ابتعدنا عن خط الاستواء اشتد برد الأراضي التى تصل



تتسع المرتفعات الغربية في أمريكا الجنوبية

إلى نفس هذا المستوى من الارتفاع وحتى في هذه العروض فإن البلاد التي تعلو سطوحها عن ذلك كالحافات الجبلية يشتد بردها لدرجة لا يحتملها الأقوام البدائية ، وليست الهضبة الوسطى بهضبة واحدة متصلة الأوصال فالجبال الواقعة على حافتها تعمل على تقسيم الأرض الصالحة للسكنى إلى أحواض مختلفة يمكن الاتصال بينها ولو أنه عسير إلى حد ما وأرض كل حوض منها ليست مستوية إطلاقاً ولكنها عبارة عن مجموعة من الجبال والوديان تتعاقب على التوالي .

هنا إذن منطقة أخرى ، وإن لم يوجد غيرها في أمريكا الجنوبية حيث يتيسر النمو لحضارة من طراز أكثر تقدماً وأرفع شأنًا ، وهنا وجد الأسبان قبائل الأنسكا كما وجدوا قبائل الإزتك في المكسيك وهم شعب نجح في فرض سيطرته حديثاً على البلاد برمتها وورثوا تراثاً تضافرت على بنائه أجيال مختلفة لعدة قرون مضت ، ومما لا شك فيه أنه قد اعتزته فترات من التأخر .

ولكنهم في الحقيقة تناولوا بالتنظيم أمور الدولة جميعاً ، الأمر الذي لم يحاوله الأزتك ، وكانوا أسبق زماناً من الأزتك في بناء محلاتهم وقراهم . ومن الجائز أن يكون هذا التطور قد اتخذ مجراه في أبسط أشكاله ، واستغرق زمناً طويلاً ، خصوصاً وإن هذه المنطقة برمتها معروفة بتمرضها للتعثيرات السريعة في مستوى ارتفاعها . ومن الجائز إنها كانت في تلك العهود السحيقة تقل في مستوى

ارتفاعها ببضعة آلاف من الأقدام عنها في الوقت الحاضر وإن الحياة كانت ميسورة في بعض بقاعها التي يشتد فيها البرد الآن ، ولم تعد تصلح لنمو الحبوب ونضجها . وهكذا نجحت جماعات في اكتشاف طرق استغلال الطاقة وتحسين وسائل هذا الاستغلال ، وعاشت في الأحواض المختلفة المبعثرة بين شعاب الهضبة ، وقد وفرت لها الطبيعة درجة ما من الحماية بما أحاطتها به من حافات جبلية غير مأهولة امتازت ببردها وبارتفاعها إلى جانب غيرها من المرتفعات التي تندخل في بعضها فتزدها تحصيلنا ، وقد استمد الأهالي المياه اللازمة لرى هذه الأراضي الخصيبة من الجبال ذات المناخ البارد ، وزرعوا البطاطس والذرة واحتزنوها ، وكانت الأولى نباتاً أصيلاً من نباتات المنطقة ذاتها ، أما الأخيرة فقد أدخلها بدون شك إلى البلاد الغزاة الذين جاءوا إليها من الشرق ، والذين طعموا العناصر الأصلية من السكان بدماء جديدة رغم أنهم ربما اتجهوا في بادئ الأمر نحو التدمير — ولكنهم استطاعوا أن يفيدوا من الطاقة واستغلّوها بعدة أساليب لم تتيسر لغيرهم من الجماعات ، وذلك باستخدامهم اللاما ، وهو الحيوان الوحيد في العالم الجديد الذي نجحت في استئناسه شعوب لم تتخذ الصيد حرفة لها . واللاما حيوان من نوع الجمل يقطن كمنظيره المناطق الجافة ، ولكنه يختلف عنه في أنه يتخذ موطنه على سفوح الهضاب العالية ، وفي أنه ذو طبائع خاصة ، فهو وإن كان دابة من دواب الجمل إلا أنه لا يصاح لجر الأثقال ، وهو وإن كان مصدراً للغذاء إلا أنه ليس حيواناً لبونا — وهو في الوقت عينه مصدر من مصادر الكساء — كل هذا جعله صاحب الفضل الأول في نمو الحضارة الأنديزية ، وبعد أن أتمت فبائل الأنكا تنظيم الاقليم الطبيعي الذي تتوسطه عاصمتهم كوزكو ، تناولوا بالتنظيم المؤسسات الاجتماعية المختلفة التي تطورت في الأحواض المتشابهة الواقعة إلى الشمال وإلى الجنوب منهم وخلقوا منها وحدة كبرى ، ولا غرو فهم لم يكونوا مجرد إرهابيين مقصدهم السلب والنهب كقبائل الآزتلك ، وكانوا أكثر نجاحاً حين نزلوا إلى الساحل الصحراوي الواقع إلى الغرب منهم وفرضوا سيطرتهم على المجتمعات العديدة المنزلة التي وجدوها تستخدم مياه الأنهار التي تنبع من المرتفعات وتنحدر إلى السهول ،

كما رووا وزرعوا الأراضى الممتدة إلى جوار أنهارهم وهكذا سيطروا على الطاقة ، وكان أسلوبهم فى هذا العمل يقرب من أسلوب قدماء المصريين ، ومع هذا فإن هذه المجتمعات كانت أكثر تعرضا للفزو الخارجى من المجتمعات التى نشأت فى مصر ، وكانت أيسرأ أكثر عزلة عن بعضها وتتحد فى دفاعها عن نفسها ضد الغزاة الذين جاءوا إليها بقوات منظمة .

وقد يبدو عجيباً أن الشعوب التى قطنت سلاسل جزائر الهند الغربية لم تبني حضارة من طراز الحضارة الأفرقية ، ذلك أن ظروف البيئة البحرية كما هو المتوقع دائماً ليست عديمة الأثر تماماً ، غير أن هذه الجزائر كان يسكنها عنصران على الأقل انتقلا إليها فى سهوله من جزيرة إلى أخرى واستمر سيل تدفق العنصر الكاريبى متصلا حتى أوقفه الأسباب عند وصولهم وقد سعى باسمهم البحر الذى نشأت فيه هذه الجزائر ، غير أن هذه المنطقة بنقصها شرطان أساسيان كى تقوم بها حضارة على طراز الحضارة الأفرقية فن ناحية جاء السكان هنا من إقليم حضارته من نوع بدائى منحط وهم أصلا من ساكنى الغابات الممتدة بين الأورينوكو والأمازون أو ما بعدها إلى الجنوب ، وما أغرام باحتلال هذه الجزائر خطوة خطوة سوى أن الجزيرة الأولى إلا وهى ترنداد تقع على مدى البصر من مصب نهر الأورنوكو ، وقد عرف الأهالى إلى حد ما الملاحه فى النهر — ومن ناحية أخرى — فإن شواطئ بحر الكاريبى سواء منها سواحل القارة أم سواحل الجزائر كلها بلاد مطيرة تغطيها الغابات فى أغلب أجزائها أى تسودها ظروف لا تبعث على التقدم إلا قليلا ، على حين أن الأمر جد مختلف فى بلاد الأفرق لأن الاراضى التى تقع حول البحر المتوسط فى معظمها أوطان لأفوام تعلمت كيف تعيش عيشة راضية ، وأيا كان العنصر الذى انحدر منه الأفرق فقد جاءوا من عناصر أصابت تقدما فى الماضى ، وربما يبدو من حديثنا عن الحضارة المصرية إنها نشأت وتطورت حتى نضجت وهى فى موطنها ، ولكن يجب ألا يغيب عن الذهن أن وراء المصريين عصورا طويلة من النمو والتقدم .

أما أهالى جزائر الهند الغربية فقد جاءوا إليها من بلاد أبعد من أن تكون

موطن حضارة عريقة ، ولم تصب حضارتهم إلا تطوراً ضئيلاً عندما أغرتهم الظروف بعبور البحر ، كما أن الجزر اليونانية لم تكن جافة مشمسة فحسب وتسودها ظروف تحفز على التقدم بل أن شواطئ الحوض الشرقى للبحر المتوسط كانت كلها مواطن أقوام تقدموا في وسائل معيشتهم ، وقد اختلفت ظروف بيئاتها ، فإني سافر اليونانيون كانوا يرون شعوباً تؤدي أعمالاً مختلفة بأساليب تختلف عن أساليبهم .

أما الشعب الكاريبي وأسلافهم فقد تعرضوا في جزائر الهند الغربية لظروف تشبه كثيراً الظروف السائدة في القارة التي جاءوا منها ، باستثناء ما خبروه في بيئتهم البحرية التي كان لها بعض الأثر ، وكان الجديد عليهم ضئيلاً في رحلاتهم التي قاموا بها ومن ذلك يتبين أن جزائر الهند الغربية لم تصب تقدماً يستحق الذكر .

وعلى ذلك لم يكن بالعالم الجديد إلا منطقتان فقط لهما أشباه ونظائر في العالم القديم ، تحضر الناس فيهما فجاوزوا مرحلة الهمجية والوحشية ذلك أن الشواهد تظهر أن الحياة فيهما كانت سهلة نسبياً كما أن مجتمعاتهما الصغيرة كانت محمية من هجوم الجماعات المتبربرة وتهيأ لها الحافز الذي يدفعها إلى استغلال الطاقة واقتصادها — وبعبارة أخرى نستطيع أن نقول أن البلاد التي أصابت تقدماً في العالم الجديد كانت شبيهة بنظائرها في العالم القديم في كونها دفيئة نوعاً ما ، جافة نسبياً ولكن الظروف مجتمعة لم تكن مواتية تماماً حتى تجعل التقدم سريع الخطى .

ومن الطبيعي إذن أن يستكشف شعوب العالم القديم شعوب العالم الجديد لا العكس — لأن الأجناس التي سكنت الهضاب المرتفعة وهي الشعوب الوحيدة التي تقدمت فتجاوزت حد الهمجية لم تكن على اتصال بالمحيط . ولقد عاشت في بيئة لم تعمل على الازدهار المبكر للحضارة كما عملت البيئة المصرية ، فضلاً عن أنها تبدت وأقل ملاءمة لأي نوع من أنواع التوسع فإن الانتقال عسير في الهضاب العالية في المكسيك والأنديز بين الأقاليم المرتفعة المدبدة المتقاربة وأشدّ عسراً بينها وبين الجهات المنخفضة على كلا الجانبين ، وبينها وبين البحر وراءها — فحرت التجارة بمقادير ضئيلة ، هذا إن وجدت إطلاقاً — ولم يفكر القوم في شكل الكرة الأرضية ولا يحتمل البتة .



إن كان المسألة عندهم أى قيمة عملية أو أنهم ظنوا أن هناك بلاد أخرى يمكن الوصول إليها عبر المحيط بأى طريق كان وأنها تحتوى على ثروات عظيمة .

ولم يصل المحيط فى ذهنهم إلى المرحلة التى يحشى فيها القوم خطره، إذ لم يكند يدخل فى نطاق معرفتهم . وهكذا ظلت هذه المرتفعات فى عزائها وصعوبة الاتصال بها — حتى فى المصور الحديثة — وطناً لأقوام عدمت الحافر الذى يدفعها إلى البحث عن طرق مختلفة تؤدى بها إلى بلاد أخرى تحمل وجودها كل الجبل حتى وأن توافرت فى إجزاء أخرى من القارة ظروف موانية لكي تكون مهاداً لحضاره متقدمة إلا أنها فقدت الحافز الأول الذى دفع بأوروبا إلى أحراز قصب السبق فى المدنية . هلو أننا أخذنا موضع الاعتبار لك اليهود السحبة التى استفرقتها الإنسان فى تقدمه ووزناً مساوياً العالم الجديد بمقارنتها بمساوئ العالم القديم لم يدهشنا أن المدنية فى العالم الجديد كانت متخلفة عنها فى العالم القديم بقدر ما يدهشنا الآن أن الفارق بينهما ليس كبيراً . فإن الظروف التى سادت العالم الجديد لم تسمح بتطور أى مدنية راقية ولكن هذه الظروف بعينها كانت من الأهمية بمكان سواء بصفة مباشرة أو غير مباشرة فى تحديد نمو المظاهر المختلفة للحضارة التى نبتت بذورها الأولى فى أوربا ثم نقلت إلى تربة العالم الجديد ، وكان أثرها مباشراً فى أن ظروف البيئة من تضاريس ومناخ حددت للهاجرين طرق الانتقال بأقل مجهود ممكن — وأما أثرها غير المباشر فيتمثل فى ذلك التراث التاريخى الذى فرض على الشعوب المهاجرة تصرفات معينة دون غيرها ، وقد لاحظنا حتى الآن كيف تم اكتشاف العالم الجديد تحت رعاية أسبانيا وكيف كانت جزائر الهند الغربية أول أجزائه اكتشافاً دون غيرها من الأراضى الممتدة الواقعة إلى شمالها وذلك بفضل وقوعها على نفس خطوط العرض التى تقع عليها البلاد المصدرة للبهارات والتوابل وإليها تتجه الرياح التجارية فى هبوبها من شمال إفريقيا .

وهناك فارق كبير بين جزائر الهند الغربية التى جاء إليها الأسبان وبين جزائر الهند الشرقية التى ظنوا أنفسهم وصلوا إليها ، وكان الوصول إليها من حظ البرتغاليين،

فإن الجزائر الشرقية يقطنها أقوام ذو مجتمعات منظمة وإن لم تصل في رقيها إلى المدى وصل إليه أهل أوربا — وكانت مورداً لسلع تجارية ثمينة في حد ذاتها أو ظنها الناس كذلك — فحصل البرتغاليون في الحال على ما جاءوا يبحثون عنه ونقلوه إلى أوطانهم في سفنهم ، وعلى العكس من ذلك كانت جزائر الهند الغربية تسكنها عناصر ذات مستوى منخفض في حضارتها ، وقد خلت من الموارد التي تعري المسكتشفين بارتياحها وقد سارت محاولات الأسبان الأولى في استثمارها سيراً وبيداً ، وربما كانوا يتابعون تقدمهم في ببطء شديد وربما كان الفشل نصيبهم في استثمارهم لولا أنهم وجدوا المجتمعات التي ذكرناها آنفاً والتي كانت أكثر تحضراً من باقي مجتمعات أمريكا والتي تعيش في هضبة المكسيك وسهول يقطان وهضاب الأنديز والمنخفضات الصحراوية التي تقع إلى الغرب منها — وفي كل حالة من هذه الحالات كان استكشاف الحضارة القائمة في المنخفضات يؤدي بعد ذلك إلى التعرف على الحضارات القائمة في الهضاب ، وقد أسرع الأسبان إلى فرض سلطانهم على مساحات من الأراضي التي لو كانت مسكونة بقبائل هجينة لاستغرق منهم تنظيمها سنين عديدة إن لم تكن قروناً . وقد تناول الاستعمار الأسباني في أساسه تلك الأراضي التي أصابت بعض التقدم في مدينتها على الرغم من خلوها من التوابل والبهارات وما إلى ذلك ، غير أنها احتوت على الذهب والفضة وهما من المغريات التي ظنها الأسبان خطأ موارد ثروة وغنى . وامتد الحكم إلى البقية الباقية من الأراضي في أمريكا الوسطى وشمال أمريكا الجنوبية وجزائر الهند الغربية لأن هذه الأجزاء بطبيعتها مكتملة للأجزاء الرئيسية التي سبق لهم استثمارها ، وبعد أن انتهى الأسبان من بحثهم السريع الجشع عن الذهب ظلوا يحتلون هذه الأقاليم احتلالاً عسكرياً فقط بسبب وقوعها بين الأجزاء الهامة وتركوها في معظم الأحيان على حالتها الفطرية أحياناً عديدة .

ولما انهارت القوة الأسبانية نفضت تلك البلاد عن نفسها قيود الحكم الأسباني وتفتت أجزاء وإن بقيت تحمل طابعاً أسبانياً — أما في جزائر الهند الغربية ، فلكونها خالية من الذهب وليست في موقع تستلزمه السيطرة على البلاد ذات

الذهب المخزون لم يبذل الأسباب جهداً ليحتفظوا بأكثر من بضعة جزائر فيها  
وسمّحوا لغيرهم من الدول البحرية أن تفرض سيطرتها على الجزائر الأخرى  
وتستعمرها وتنظم شؤونها .

الخريطة رقم ٦٨



بيرو والمكسيك

كانت بيرو والمكسيك أهم فتوح أسبانيا

أما باقي الأراضي فقد فرضوا سيطرتهم عليها وإن لم تعد عليهم بالمنفعة

وأما الهضاب فقد ظلت تسكنها شعوب من سلالة العناصر التي وجدها  
الأسبان فيها، وهي بطبيعتها صعبة الاتصال بغيرها فظلت منقسمة إلى وحدات، ومن  
الغريب أنها احتفظت بأحوالها الماضية التي كانت تسودها قبل أن يأتي إليها الأسبان،  
فهي لا تزال بعيدة الصلة عن مؤثرات الحضارة الحديثة قليلة السكان على الرغم من  
اتساع مساحتها، تنتابها الثورات من آن لآخر وتعكس الميول التي تنزع إلى  
الانقسام إلى وحدات أصغر . فالمكسيك، وهي هضبة تحدها الصحراء من الشمال

والغابات من الجنوب هي وسهول بقطان الجافة التي تطل على البحر من جانبيها ، وهما أعظم المستعمرات الأسبانية تمثيلاً للطابع الأسباني . أما بيرو فقد اشتملت على المرتفعات التي أحاطت بعاصمة ألانكا الأصلية ، وكذلك على الصحراء إلى الغرب منها والتي يتبع الرى في زراعتها فلا يزال نصف سكانها من هنود ألانكا أما بوليفيا التي خضعت لحكم ألانكا أثناء تقدمهم نحو الجنوب وقد حرمت من السهول الساحلية ، فلا يزال ثلاثة أرباع سكانها من الهنود المحر الخالص ومن بين هذه الوحدات اكوادور وقد خضعت بدورها لسيطرة ألانكا في أثناء تقدمهم نحو الشمال قبل اكتشاف أمريكا بنحو نصف قرن فقط . ولا تزال أغلبية سكانها من الهنود — رزى أن كلومبيا وهي التي لم تخضع قط لحكم الانكا — وأن سادتها حضارة من الطراز عينه — كانت أكثر تعرضاً للنفوذ الأسباني البحرى السائد في بحر الكاريبي — عن طريق وادي ماجدلينا وكوكا ، وقد أصبحت لهذا السبب تفوق في صبغتها الأسبانية غيرها من دول أمريكا الجنوبية .

ولا تزال مدينة المكسيك عاصمة للدولة الحديثة ، وهي المدينة التي قامت إلى جوار بحيرة واعتبرها الآزتك حصناً منيعاً للدفاع عن قراهم ، ولا تزال كوزكو مركزاً كبيراً لدولة بيرو الحديثة وقد سبق أن اتخذها الأنكا مركزاً استراتيجياً هاماً يوجهون منه غزواتهم ، وعلى الرغم من أن الفاتحين الأسبان أنشأوا مدينة ليا في الصحراء الغربية الجافة التي حكمتها بيرو فترة من الزمان إلا أن الوضع أصبح معكوساً لأنها أضحت هي العاصمة التي تحكم بلاد بيرو — وأما مديننا فيرا كوز وكالاو فتدينان بموقعهما إلى رغبة الغزاة الأسبان في إنشاء مينائين للاتصال بالبلاد الواقعة فيما وراء المحيط الذى لم يحلم السكان الأصليون قط بركوبه .

وأما دويلات أمريكا الوسطى التي تغطيها الغابات والتي لم تستعمر استثماراً حقيقياً ولم تسكد تتناولها يد التنظيم ولم تستمع بوحدة صحيحة كاملة — هذه الدويلات أقل في أهميتها من الدول القائمة على الهضاب ، ولولا أنها أكثر اتصالاً بمياه المحيطين العظيمين اللذين يحفان بها — ولولا أن الضرورة تحتم أن تمر بها شعوب أكثر نشاطاً من الوطنيين أو المولدين وهي تسعى سعيها في سبيل الحصول

على الطاقة بوسائل هي آخر ما وصل إليه العقل البشرى ، لولا هذه الظروف لما كان لتلك البلاد الأهمية التي لها الآن .

وقد أخذت تنمو أهم دولتان جمهوريتا شيلي والأرجنتين في أقصى الجنوب حيث لم يبذل الأسبان الأوائل جهوداً صادقة في الاستعمار أى أنهم اتخذوا فيهما نفس موقفهم في أمريكا الوسطى ، ولكنهما تدينان بفضل وجودهما إلى النشاط الأسباني الحر وهما تتكونان في أساسهما من المنخفضات الممتدة على جانبي ذلك الحاجز المرتفع البارد الخالي من السكان ، وقد ضمتا أراضى شبيهة بنظائرها في بلاد أوروبا الغربية — هنا وجدت العناصر الأوروبية المهاجرة نوعاً من المناخ تألفه من قبل فاستفادت من جميع المزايا التاريخية التي هيأها لها ماضيها .

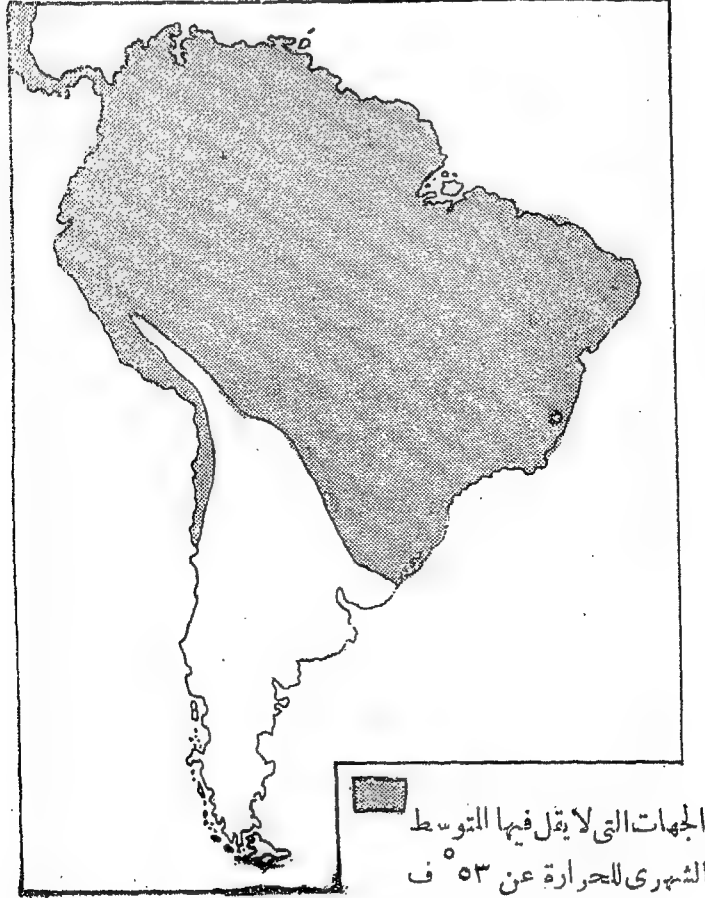
وأخذ المهاجرون يستعمرون الأراضى التي عجز الوطنيون عن استغلالها وهم في حالتهم البدائية . وامتد تنظيم هذه البلاد من العاصمتين بونس إيرس وسانتياجو نحو الشمال ونحو الجنوب تدريجياً — وقد احتفظت نظم الحكم فيهما بأكثر من مجرد طابع أصلهما الأسباني وأفاد البشر من احتلالها واستغلالها تدريجياً في تزويد العالم الحديث بالمزيد من الطاقة — وقد جمعت هاتان الدولتان (شيلي والأرجنتين) مزايا الاتصال السهل بالعالم الخارجى ومزايا سكنى جماعات كانت أقدر على التحكم في الطاقة بأحدث الوسائل اقتصاداً في استغلال الموارد وهكذا زودت العالم بطاقة أكبر في أفيد أشكالها .

فمن الطبيعي إذن أن تفوقا في أهميتهما بالإضافة إلى أرجواى دول الأنديز الواقعة إلى الشمال منهما .

كما يجب ألا ننسى أن البرتغاليين في طريقهم إلى الهند وجزائر الهند الشرقية اكتشفوا جزءاً من أمريكا الجنوبية واقتسموا مع الأسبان الحقوق التي قررها البابا لهم بحكم إعلانه السابق وقد أنشأوا هنا وهناك محطات في بعض أماكن متناثرة على طول سواحل البرازيل وعلى ضفاف نهر الأمازون العظيم ، واتسع ادعائهم حتى وسع مساحة ظنهم الناس ضئيلة القيمة فلم ينازع البرتغاليين فيها أى

منازع - وهكذا وضعت الأسس لدولة حديثة ذات إمكانيات عظيمة ولا يزال.  
أكثر أجزائها أهمية هي المناطق الساحلية الشديدة الانحدار في الجنوب الشرق.  
منها والتي تمتاز بسهولة اتصالها بالبحر وباعتدال مناخها نسبيا .

الخريطة رقم ٦٩



أمريكا الجنوبية وتوزيع الحرارة فيها

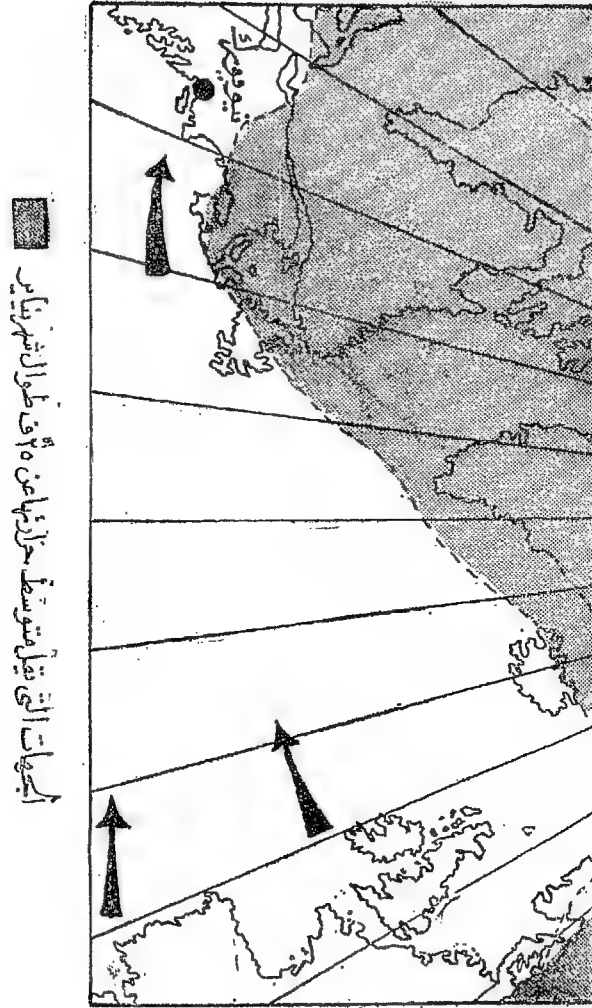
وهكذا نرى مرة أخرى كيف أن التاريخ في مجراه والظروف الحديثة في  
قيامها يضمنان أسس تاريخ المستقبل ، وهي تخضع لأثر الجغرافيا التي تحفز  
الإنسان إلى العمل من ناحية ثم تحدد له من ناحية أخرى كيف وأيان يقوم  
بأعظم أعماله .

## الفصل السابع عشر

### الفهم — الولايات المتحدة

لم يكن العالم الجديد كالعالم القديم ملأماً كل الملازمة في ظروفه لنمو حضارة مبكرة أصيلة في مهدها ولم تظهر فيه بيئة شبيهة بمصر ، وعلى الرغم من ثبات العوامل الجغرافية إلا أن أساليب تحكمها في التاريخ تختلف من عهد إلى عهد تبعاً لمقدرة الناس على الاستفادة من الطاقة أو تبعاً لعجزهم عن استغلالها بطرق معينة . ولقد ظل المحيط أجيالا طويلة حائراً يمنع اتصال الناس القاطنين على جانبيه ثم أصبح طريقاً مفتوحاً يصل بينهم — ولهذا نرى على الجانب الأمريكي من المحيط الأطلسي منطقة لم تصلح لنمو حضارة قديمة ، ولكنها اليوم مقر دولة من أكبر دول العالم حضارة ، أمكنها استغلال موارد الطاقة بطريقة أكثر اقتصاداً بعد أن تيسر لسكانها فرصة التعرف على وسائل هذا الاستغلال . ولم تبشر المراحل التاريخية الأولى بأن هذه البلاد ستكون على مثل هذا القدر من الأهمية . فلم يقتصر النجاح في عبور المحيط على الأسبان وحدهم إذ تتابع بعدهم الفرنسيون والهولنديون والبريطانيون كل منهم في أعقاب الآخرين ، وكانوا مدفوعين في محاولاتهم بأسباب تتصل بجغرافية العالم الجديد — واقتصروا على نشاطهم الرئيسي على الشمال فقط ، وفي غالب الأحيان كان همهم الأول البحث عن الطريق البحري إلى الهند — فسار الفرنسيون متتبعين بحاري نهري السنت لورنس والميسيسي وتعمقوا في داخل البلاد وفرضوا نفوذهم على أقاليم واسعة عبر المسهول العظيمة التي تصل إليها هذه المجموعة من الأنهار . واستقر الإنجليز في الأراضي الساحلية الشرقية قبل أن يُطرد منها الهولنديون ، وكذلك بعد طردهم منها — خاصة وقد انفصل هؤلاء عن قواعدهم في أوروبا ، بما جد عليهم من أحداث تاريخية في القارة ذاتها .

الخريطة رقم ٧٠

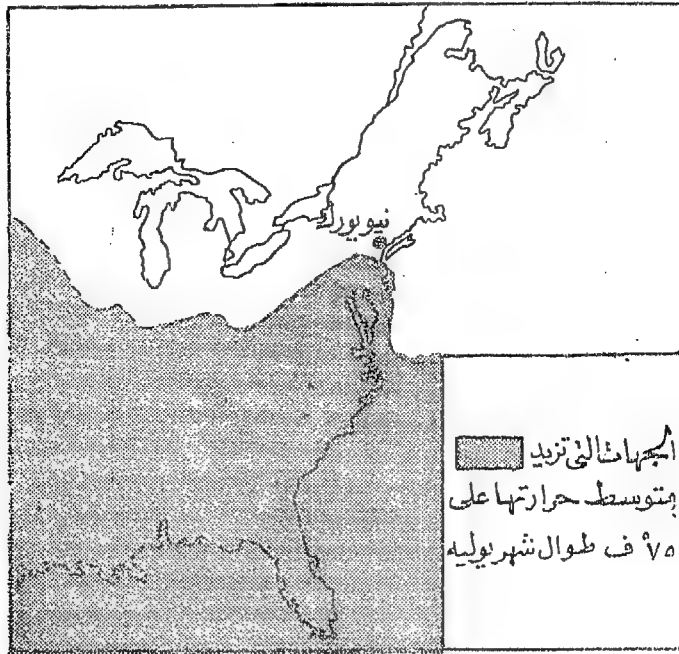


ثم وقفت أمام توسع الانجليز عقبات كؤود ، منها مرتفعات الابلش ونيوانجلند بما يغطيها من غابات ، ومن ورائها امتدت السهول التي سيطر عليها الفرنسيون في غرب هذه المرتفعات . فكانت هذه في واقع الأمر عقبتين ، إحداهما سياسية والأخرى طبيعية أعاقا اتداد المستعمرات الإنجليزية غربا ، ولم يدر بخلاف أحد وقتئذ أن هذه المنطقة هي النواة المتواضعة لما ستمخض عنه الأيام في خلال



تقرن أو قرنين من الزمان فتصبح دولة من أعظم دول العالم . هذا النمو مرجعه الأول الظروف الجغرافية وبالأحرى العوامل الجغرافية التي تحكم في التاريخ الأوربي ، ثم ما جد بعد ذلك من اكتشاف في وسائل الإفادة من الطاقة على خير وجه .

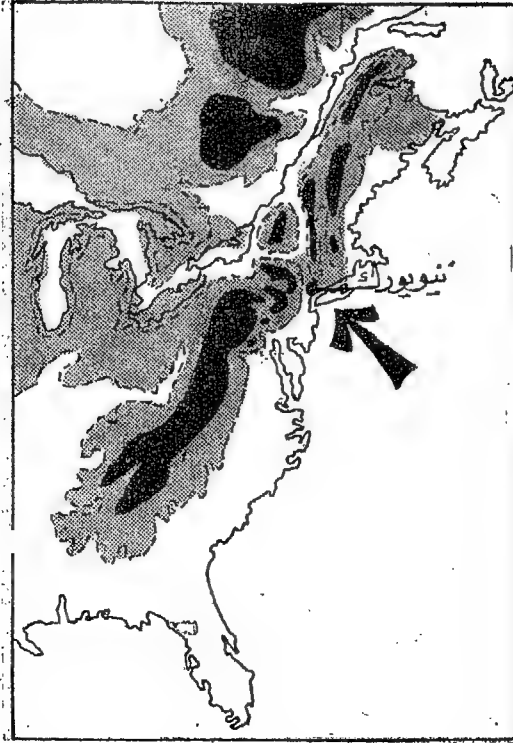
الخريطة رقم ٧١



توزيع الحرارة في بوليه في شمال شرق الولايات المتحدة

قامت هذه المستعمرات الانجليزية في وسط يبعد بها عن نطاق البرد القارس في الشتاء والحر القائل في الصيف . حقا ليس على شاطئ أمريكا الشرق منطقة يمكن أن يقارن مناخها بمناخ بريطانيا ، غير أن الأراضي التي استعمرت هنا فعلا كانت أقرب شهاً بالموطن الانجليزي مما يمتد وراءها إلى الشمال أو إلى الجنوب . وأن الحقائق المناخية لتفسر لنا إلى حد كبير أهمية مواقع المدن الأمريكية العظيمة ، وعلى الأخص مدينة نيويورك .

الخريطة رقم ٧٢



موقع نيويورك بين نهر هدسون ونيويورك

هكذا وقفت مرتفعات الابلش بغاباتها عقبة في سبيلهم ، وكان هذا خيراً وبركة فتمت مجتمعات صغيرة في ولايات نيوا انجلاند وقرجينا متصلة ببعضها ، تنص بسكانها الذين فرضوا سيادتهم عليها فعلا بعكس ما حدث للمستعمرات الفرنسية فقد امتدت حتى شملت مساحات واسعة من مصب نهر المسيسيبي حتى مصب نهر المسنت لورنس وبقيت على حالها الفطرية الأولى خاوية من السكان ، تبعثر فيها الفرنسيون حتى لنجد رحالة هنا وصياداً أو مبشراً هناك .

غير أنه يوجد عبر هذا الحاجز طريق سهل يتصل اتصالاً مباشراً بأحد خليجان المحيط ، الذي تدخل فيه موجات المد فتعمق إلى نحو مائة وخمسين ميلاً . وهنا في هذه المياه المأمونة أبحر هنري هدسون ورجاله من أهل هولنده يبحثون

عن طريق بحرى يؤدى بهم إلى جزائر الهند الشرقية ثم اتبعوا الوادى الذى سعى باسمه  
مكتشفه الأول ، وبعثا بعة السير بحذاء رافده الموهوك وجد المستعمرون فى المناطق  
الشرقية طريقاً يؤدى بهم إلى السهول الغربية ، فلما آن الأوان أخفى المستعمرون  
البريطانيون قادرين على أن يضربوا ضربتهم وأن يحطموا الخط الفرنسى من  
داخله ، وأن يستعمروا بنجاح منطقة السهول الوسطى .

ولست هذه الحقائق وحدها سبب هزيمة الفرنسيين فربما اختلفت النتيجة  
لو أن فرنسا عززت قواتها فى السنت لورنس تعزيزاً قوياً . ولكن السياسة  
الاستعمارية الفرنسية كانت سياسة مضطربة — كما رأينا — متأثرة بالظروف  
الجغرافية فى فرنسا فمجزت عن الاحتفاظ بمستعمراتها ، وقد أفاد البريطانيون  
من انتصارهم فائدة كبرى ، وسرعان ما صبغوا البلاد بالصبغة البريطانية ولو أنه  
لا تزال إلى الآن على سواحل السنت لورنس الشمالية جالية تتكلم الفرنسية  
وتحتفظ بتقاليد وعادات تشف عن أصلها الفرنسى ، ولو أنها لا تدين  
بالولاء لفرنسا .

وقد اختلفت البلاد الواقعة على الشاطئ الشرقى لأمريكا الشمالية عن تلك  
التي افتتحها الأسبان بسبب اختلاف الظروف الجغرافية ، فكانت الوحدات  
السياسية فيها أكثر ثباتاً واستقراراً . حقاً أفلح المستعمرون رجالاً ونساء فى  
زراعة الأرض وامتازوا بحماسهم وغيبتهم على العمل — واستقروا واستثمروا  
خيرات البلاد بفضل ما بذلوا من جهود — وكانت أجناسهم فى أول الأمر  
عناصر أوروبية خالصة ليس فيها مولدون ، ولم يقم بوضع نظم الحكم والتقاليد  
الاجتماعية فيها رجال عسكريون أو كهنة وقساوسة همهم الأول المجد والذهب  
أو نشر الدين — بل امتازوا بعبقرية الابتكار والابداع . وإن الاستعمار  
الاستغراق زمتاً أطول مما يستغرقه الفتح ولكنه أفعال أثراً وأدوم نجاحاً . فلما  
جاءت إليهم فيما بعد عناصر مختلفة تتكلم لغات مختلفة تمثلهم المجتمع الأول  
واحداً بعد واحد وأضافوا إلى المجموع قوة على قوة .

غير أن هذه المزايا نفسها لم تكن لتنتج آثاراً جليّة سريعة لولم توفّق الإنسانية إلى كشف عظيم من بين ألوان الكشوف التي أصابها العالم ، كشف يقف ندّاً لند مع كشف المحيطات أو مع استخدام الحديد أو النار — وقد سبب ثورة شاملة لأنه كان كشفاً لأسلوب جديد من أساليب التحكم في الطاقة — ذلك هو اكتشاف البخار

قد افترضنا قبلاً أن الغذاء والكساء هما أهم حاجات الإنسان الأساسية لحفظ حياته ، فإن الطعام بعد تمثيله يتحول إلى طاقة تمكّن الإنسان من القيام بأعماله . وفي الأقاليم التي نحن بصددّها كان الكساء مساعداً كبيراً على الاقتصاد في الطاقة الفردية — وفي العصور السحيقة مثلاً أو بين الجماعات المتوحشة كان الحصول على الغذاء والكساء يتم بوسائل قد تختلف عما جرت عليه العادة خلال جميع العصور التاريخية وعند جميع الشعوب التي لها أهمية تذكر ، كان الحصول على الغذاء والكساء يجري على نحوين اجتماعيين إما عن طريق استئناس الحيوان وإما بزراعة الأراضي . وكان من واجب كل فرد وكل أسرة وعلى الأكثر كل جماعة صغيرة من الناس — أن توفر لنفسها جميع ما تحتاجه من غذاء وكساء فاستقلت كل جماعة من هذه استقلالاً عملياً عن باقي أفراد العالم باستثناء الأماكن التي تعرضت لألوان من التدخل الخارجي شنه عليها من طمعوا في الاستيلاء بالقوة على ما اختزنته تلك الجماعات من غذاء أو كساء .

وبعبارة أخرى — كان الأفراد هم الذين يقومون باستغلال الطاقة يؤدون هم وحيواناتهم جميع الأعمال الآلية — وأصبحت كمية العمل محدودة بالقدر الذي يستطيع أدائه عدد ضئيل من الرجال أو الحيوانات، وشذ عن هذه القاعدة استثناء واحد أو استثناءان ولكن شذوذهما يؤكد عموم هذه القاعدة وهي أن الزراعة والرعي كانتا الحرفتين السائدتين وإن أقصى ما يستطيع الإنسان بذله من مجهود فهو دائماً محدود بقدرته على أداء عمله . أما الاستثناءان فهما أن الإنسان في العصور الأخيرة سخر الماء والهواء في إدارة الطواحين اللازمة لطحن الحبوب لإعداد الغذاء ، ونرى اليوم في أنحاء الريف طاحونة هنا وأخرى،

هناك وننظر إليها على أنها تحفة أثرية جميلة أكثر من اعتبارها آلة ذات قيمة بارزة — ولو رأيناها تدور وبهمة نشاط فآخر ماتوحي، به هذه الآلات العتيقة المتداعية أنها كانت وظلت مئات من الأعوام وهى أعظم الآلات التى توصل البشر إلى صنعها وقد أعطت أكبر قسط من الطاقة عرفه الإنسان — فالطاحونة على صفرها كانت الآلة الوحيدة التى تزود الإنسان بطاقة أكبر من طاقته الجسمية ، وهى الآلة الوحيدة أيضاً التى سخرها الإنسان لخدمته وتعتمد على طاقة ليست مستمدة من طاقته الغذائية ولقد كانت ثورة أو انقلاباً جاعاً عندما استغنى الإنسان بسببها عن عمله الشاق اليوى فى طحن ما يلزمه من حبوب ، فطحنت الجماعة الواحدة جميع الكميات اللازمة لأفرادها دفعة واحدة فى الطاحونة العامة وقد سخرت لإدارتها قوة فد تكون فى نظرنا ضعيفة بمقارنتها بما يقوم فى أذهاننا من أفكار عن القوى .

ولقد كان الطحان شخصية هامة فى تلك الأيام كما كانت الطاحونة مركزاً رئيسياً . وكـم من مدينة وكـم من قرية تدين فى أصل نشأتها إلى وجود طاحونة إلى جوار مجرى مائى — ولم تكن هذه الظاهرة قاصرة على بريطانيا فحسب ، ولكنها شملت جميع أنحاء العالم القديم وأجزاء من العالم الجديد التى استعمرت قبل هذا الأوان بأكثر من مائة عام .

وقد أعار الناس فى تلك الأيام أهمية بالغة لهذا الأسلوب الضعيف من أساليب استخدام القوى ، وهو يظهر لنا مدى ضآلة المنشآت الآلية الكبرى التى يمكن إقامتها — لقد أغنت الطاحونة الإنسان عن بعض عمله المنزلى اللازم لإعداد طعامه غير أن كل ما يتعلق بالسكساء وهو ضرورى لحفظ الطاقة الحرارية فى جسم الإنسان ظل فى جميع مراحل صناعته عملاً يدوياً خالصاً سواء كان ذلك فى سالخ الجلود أو جز الأصواف أو زراعة الكتان أو خياطة الملابس ذاتها فقام الأفراد بجميع هذه العمليات . وكان يقوم بها الفرد الذى يعد لنفسه جلباباً أو يقوم بإعداد له عضو من أعضاء أسرته .

وقد حدث تقدم عظيم حين ظهرت حرفة النساجة وكانت في مرحلتها الأولى تعتمد على طاقة الإنسان بعد أن وفق إلى استخدام النول وهنا نرى لم اكتسبت نقابات النساجين في القرون الوسطى في شمال إيطاليا أهمية بالغة . . ولم اشتهرت بريطانيا كدولة تربي الأغنام . .

وقد كانت التجارة قليلة جداً ، لأن التجارة تنطوى على إمكان الحصول على بعض السلع بأثمان أكثر رخصاً ، بمعنى أنها أقل كلفة فيما تتطلبه من طاقة في مكان عنها في الآخر ، ثم أنها تنطوى على إمكان نقل الساع نقلاً رخيصاً من مقر الانتاج إلى موطن الاستهلاك . وفي جميع العصور الوسطى بل وفي جميع العهود التي مرت بعد ذلك إلى منذ مائة عام قبل زماننا هذا كانت البضائع الكبيرة الحجم لا تنقل إلا في ظروف استثنائية جداً لأن تكاليف نقل الأشياء الكبيرة الحجم أو الثقيلة الوزن أى الطاقة التي تلزم لنقلها إلى أية مسافة كانت بالإضافة إلى الطاقة اللازمة لانتاجها — كانت كبيرة بحيث تستنفد كل ربح منتظر مهما قلت تكاليف انتاجها في موطنها الأول ، وحتى بعد أن عرف البرتغاليون الطريق البحري إلى الهند كانت جميع التوابل المنقولة إلى أوروبا على مدار السنة لا تزيد في حجمها عما يملأ مقدمة سفينة حديثة من سفن البضائع الشاطئية . والتوابل هي السلع الوحيدة التي كان نقلها حينئذ يدر ربحاً ما .

وقد جرت هذه التجارة المصغرة استثناء من القاعدة السائدة وقتئذ وهي أن كل طاقة يسخرها الإنسان لخدمة كان مصدرها الوحيد قوته البدنية أو قوة الحيوانات التي استأنسها . فسخر الرياح لتدفع بأثره سفن ذلك العهد ، على صغرها وعدم رشاقة حركاتها في عبور المحيطات — وبهذا كانت الرياح والقوى المائية هي الطاقة الوحيدة التي نجح الإنسان في استغلالها على نطاق ضيق لطحن الغلال في البر ولتسيير السفن في البحر . كما خلت البلاد من وجود الطرق بالمعنى الذي نفهمه من كلمة طرق ، بعد أن انهار ما أنشأه الرومان منها واقتصر الأمر على بضعة مسالك ودروب معينة، ولهذا جرى معظم النقل التجاري المحلي في ذلك العهد بطريق الملاحه النهرية لأن تسيير قارب على الماء أيسر جهداً من جر عربة على اليابس

أما المدن الجديدة بتسميتها مدناً فكانت تتصل اتصالاً وثيقاً بالحكم والإدارة أو بالقدرة الضئيل من التجارة الذى يجرى نقله . فلو اتخذنا مثلاً أية وحدة سياسية لرأيناها تضم مدينة واحدة — واحدة فقط — هى العاصمة ومقر الحكم فيها حيث نمت نظمها وأصابت قدراً من النجاح كبيراً أو صغيراً فى الدفاع عن البلاد وهيات للناس فرص الاشتغال بالزراعة والرعى وغيرها من الحرف التى أمكن مزاوتها فى أمن ودعة دون تدخل خارجى . كما قامت بضعة موانئ حيث كانت تسهيلات الشحن والتفريغ للسفن التى تزور الميناء تدر ربحاً ما ، ولا نجد فى الدولة بعد ذلك سوى قرى صغيرة ظلت على حالها عهداً طويلاً دون أن تصيب ازدهاراً أو انحطاطاً فقد ظلت ليغربول مثلاً قروناً عديدة وعدد سكانها لا يتجاوز كثيراً أسبعمائة نسمة وفى هذا دليل أى دليل على جميع الظروف السائدة — وبقيت هذه المدن سنة بعد سنة وقرناً بعد قرن لا يطرأ عليها أى تغيير طفيف وظل الناس يولدون ويقضون وهم يعيشون فى عالم يعتمد فى أساسه على المهن الزراعية والرعية — عالم يعير القوة الجسدية للانسان أهمية كبرى لأن المرء بقوة عضلاته ، والقوى من يستطيع أداء ما يعجز عن أدائه شخص ضعيف بل وبأى وسيلة كانت .

ثم بدت بوادر الانقلاب الصناعى منذ أكثر من قرن مضى — فى عالم يقوم على الزراعة والرعى حيث اقتصر العمران فيه على بعض الموانئ الصغيرة بأسواقها التجارية وعلى بعض المدن الكبيرة التى أضحت عواصم لولاياتها السياسية ، وحتى ذلك الأوان كان استعمال الفحم قاصراً على الأغراض المنزلية ، ثم أمسى مستعملاً فى إدارة الآلات التى تؤدى من الأعمال أكثر مما يستطيعه الإنسان أو الحيوان . بل أكثر مما يستطيعه عدد منهم لو اجتمع بعضهم إلى بعض ظهيرا . وهكذا ظل الإنسان لخدمته طاقة أخرى غير طاقته لتقوم بما كان يؤديه من قبل واستطاع أن يستخدمها على نطاق يتسع كثيراً عما مضى — فتغيرت الحال بعدئذ وأصبح فى الامكان استيراد المواد الأولية اللازمة للغذاء والكساء من أقصى بقاع الأرض . ولم تقتصر التجارة على نقل الكماليات كالتوابل والشاى — ولكنها تناولت المواد الأساسية التى يتكون منها طعام الإنسان وملابسه ، وفى بريطانيا مثلاً لا يزرع

من القمح إلا خمس ما تستهلكه ولم تعد الخضروات التى تلزم البريطانى فى غذائه تنمو فى الحقل المجاور لمنزله — وجاءت إلى البلاد أنواع من الفاكهة لم يسمع عنها أجداده من البريطانيين — كما لم تعد مواد الكساء تنتج إنتاجاً هو الكفاف بعينه بل أصبحت تستورد فى كميات هائلة من القارات البعيدة فيما وراء البحار والمحيطات، ثم بات من الميسور إعداد الملابس الجاهزة إعداداً كاملاً فقلت بالتالى عملية صنع الملابس فى المنزل — كما أمكن إعداد معظم الطعام ليوضع فوراً على المائدة، وقت بالتالى العمليات المنزلية اللازمة لإعداده وأمسى إعداد الطعام فى المدن العظمى صناعة زاهرة يمكن للمرء فى أى ساعة من ساعات الليل أو النهار أن يحصل على وجبة من الطعام تناسب ذوقه ومقدرته المالية .

هذا التطور الجديد كل الجدة الذى طرأ على الإنتاج والتجارة ترك أثراً بعيداً فى نواحي الحياة الاجتماعية وهو قين بأن يتناولها بالتغيير والتبديل فى مستقبل الأيام .

وسرعان ما استفادت بريطانيا من هذا الكشف . وكان طبيعياً أن يتم هذا الكشف فى بريطانيا وهى التى طالما استخدمت فحم نيوكاسل ( الفحم البحرى ) فى الأغراض المنزلية البحتة .

وهناك من القرائن ما يدل على أن فحم نيوكاسل كان ينقل إلى لندن فى عهد مبكر جداً يرجع إلى القرن الثالث عشر — وقد انفردت مناجم نيوكاسل من بين حقول الفحم فى العالم بقربها الشديد من البحر حتى بذت جميع الموانئ الأخرى فى رخص نفقات الشحن فيها — وبدأ الأهالى فى استعماله فى حرق الجير أوفى كور الحداد أوفى صهر النحاس والرصاص وعمل الفخار وفى تخمير الجمعة أى أن استعماله كان قاصراً على طاقة الحرارة المباشرة ولهذا كان طبيعياً جداً أن تبدأ فى بريطانيا لافى غيرها الخطوات الأولى البسيطة التى أدت إلى اكتشاف طرق استخدامه فى إدارة الآلات — ومن الطبيعى أيضاً أن يكون لهذا التوفيق فيها — لافى غيرها — هذه النتائج البعيدة الأثر فحيت يبدأ الناس اكتشافاتهم الأولى كان حرياً بهم أن يتابعوا بحوثهم وأن يحققوا نتائجها .



فلما استخدم الفحم في توليد البخار نقلت أشياء كان من العسير نقلها قبلاً وتحركت أشياء في سرعة لم يحلم بها الناس من قبل — ولما خرجت بريطانيا ظافرة من الصراع الطويل الذي انتهى بهزيمة نابليون في سبيل السيادة البحرية كانت أوضاعها مهيأة للافادة على أحسن وجه من مزايا هذا الكشف الجديد الذي أخضع لها كميات هائلة متزايدة من الطاقة، بينما ظلت الدول الأوربية الأخرى تعاني ألواناً من الارتباك في جميع مؤسساتها ومن ثم عجزت عن أن تجارى بريطانيا في هذه المرايا، فازدادت أهمية بريطانيا كبلاد تتحكم في مقادير هائلة من الطاقة. ولما كانت جميع الطرق تؤدي إلى لندن أنشئت أيضاً خطوط السكك الحديدية لتتخنى فتقابل فيها أيضاً. ونظراً لما كان للندن من مكانة مرموقة ولما لها من تراث ماضيها التاريخي ونظراً لما تجمع لها من قوة سيطرت بها على هذه الطاقة الهائلة فضلاً عن أنها في الأصل العاصمة التجارية لبريطانيا، تضافر كل هذا فزاد مركزها توطيداً وأصبحت المركز الرئيسى الذى يؤدي خدمات البنوك للعالم بأجمعه.

وتبع ذلك تقدم جديد، ذلك أن تنظيم تجارة السلع المختلفة التى يسهل نقلها في اليابس والماء بالوسائل الحديثة قد ازداد يسراً وسهولة إذ أمكن للدولة التى تنتفع بخدمات البنوك في لندن أن تقتصد في طاقتها، وكانت بريطانيا بالطبع أكثر الدول انتفاعاً بهذا كله.

ولقد قدر أن القوى التى يهيئها استخدام الفحم في المصانع الإنجليزية وحدها بعد استبعاد جميع نواحي استخدامه الأخرى تبلغ في جملة طاقتها ١٧٥ مليون رجل<sup>(١)</sup>. يعملون جدياً وبأسلوب نافع يمز على البشر القيام به. وأن قوة اليونانيين التى أتاحت لهم بناء تلك الحضارة المجيدة في جميع نواحي التقدم البشرى كانت تقوم في أساسها على طبقة من الرقيق — إذ كان لسكل رجل أغريقى من الأحرار أى لسكل عائلة أغريقية خمسة من الرقيق، وقد يغيب عن أذهاننا دائماً تقدير أعمالهم عندما

---

(١) هذا في وقت تأليف هذا الكتاب أى في عام ١٩٢٧.

تتناول الإغريق بالحديث مع العلم بأن هؤلاء الرقيق كانوا يقومون بأكبر قسط من الطاقة اليونانية .

وقد نقول أن لكل أسرة في بريطانيا أكثر من عشرين رقيقا يمدونها بالطاقة اللازمة لأعمالها — ولا تحتاج إلى إطعامهم وإعاشتهم ولا يشعرون بهموم حياة الذل والعبودية وبؤسها . ففي بريطانيا يسكنها البالغ عددهم ٤٥ مليون نسمة من رجال ونساء وأطفال تدور مصانعها بقوة ١٧٥ مليون رجل فضلا عن الطاقة التي تستعملها السكك الحديدية والبواخر البريطانية والتي تصل قوتها إلى نحو ٩٠ مليون رجل .

ولو أننا وازنا بين القوة الجسدية التي يملكها أقل من عشرين من الرجال والنساء وبين نفس القدر من القوة الآلية التي تتيحها الوسائل الميكانيكية المختلفة — لو أننا وازنا بين القوتين لاتضح لنا تفاهة القوة الإنسانية بالنسبة للقوة الآلية — ولقد أصبح الإنجليز أمة من المهندسين يضغطون بأصابعهم على أزرار مختلفة أو يحركون روافع آلية أو يعمالون في تشحيم الآلات وحفظها ، الأمر الذي يجعل الآلة الاجتماعية الكبرى تعمل في سهولة ويسر بقدر الإمكان .

فأصبحت تلك القوى الآلية تقوم بطحن الغلال وصناعة الملابس ونقل الأطعمة من أقصى جهات الأرض وحمل المسافرين هنا وهناك وهم يسعون في مناكبها يبعثون لها أو عملا كما تقوم بنشر الأخبار ويطبع الكتب المملوءة بالحكمة والمعرفة وتؤدي خدمات لا حصر لها ولم يحلم بها الإغريق قط .

ثم أخذ استغلال الفحم يمتد شيئا فشيئا إلى البلاد الأخرى ، خاصة وأن نطاق الفحم في أوروبا يمتد في فرنسا وألمانيا والنمسا والروسيا حيث الأحوال الجغرافية فيها تختلف الآن عما كانت عليه منذ أحقاب مضت تقدر بمئات من ملايين السنين — فقد كانت شواطئ الفارة القديمة بمناخها الحار الرطب تنخفض بالتدريج وكانت خير بيئة لنمو الأشجار الغابية السرخسية العظيمة في كثرة وكثافة ملحوظتين ثم طمرت وظلت بقاياها محفوظة بين طبقات الطين والرمل التي أرسبتها

المحيطات أو جانبها الأنهار حتى لجأ الإنسان إلى هذه الطبقات حديثا لتزوده بالطاقة التي اخترعها له الكيمياء العضوية واحتفظت له بها بين أنسجة الأشجار النامية . ولم يتكون الفحم في كل مكان من هذا النطاق ، وأن تكون ، فقد يحدث أن تكون عوامل التعرية والالتواء قد أزالته تماما خلال العصور الطويلة التي مرت به حتى وقتنا هذا . وفي مناطق أخرى من أوروبا تكون الفحم في عصور متأخرة ولكنّه في الغالب ضئيل القيمة قليل الكمية ردى النوع .

ومن ثم استطاعت هذه الدول المختلفة تحت ظروف مختلفة أن تستغل الطاقة التي تيسرت لها بدرجات متفاوتة ، وفي فرنسا مثلا يوجد الفحم في ركنها الشمالى الشرقى حيث ينحني نطاق الفحم ويدور ليعبر مضيق دوفر وليتصل بحقل الفحم في كنت بانجلترا وهو حقل طالما عرفه الناس وأن لم يستغل إلا أخيراً — حقا يوجد بعض الفحم في المرتفعات الجنوبية في فرنسا ولكنّه في كميات قليلة — وبينما تجنى فرنسا الزاى التي هيأتها لها معرفة أهلها وهم ذوو مهارة وذوق وخبرة بأحسن الأساليب الحديثة فضلا عن مقدرتهم على استيراد الفحم من البلاد الأخرى إلا أن فرنسا على الرغم من كل هذا بقيت دولة زراعية في أساسها .

غير أن ألمانيا أسعد حظا نسبياً ولو أن نطاق الفحم فيها يجرى ملاصقاً للحافة الجنوبية للسهل — وفي هذا عيب بعده عن البحر — ويرجع أكبر الفضل فى تقدم ألمانيا الحديثة إلى وجود موارد عظيمة من الطاقة فى داخل حدودها — فلما بدأت إنشاء الطرق الحديدية رسمت سياستها بأن عمدت إلى جعل برلين مركز تقابلها لأنها أضحت عاصمة الدولة وقت إنشاء الخطوط الحديدية مما زاد فى أهمية مركزها كعاصمة للبلاد وحقق لها قسطا من الاستقرار رغم أن السكان يتجمعون فى مناطق الفحم البعيدة عن هذا المركز المتوسط .

وتتقاسم ألمانيا والنمسا حقول الفحم الموجودة فى أعالي نهر الأودر <sup>(١)</sup> ويضاف إلى ذلك ما تمتلكه النمسا من كميات صغيرة مبعثرة رديئة ، ولروسيا حقول واسعة من الفحم تمتد شمال البحر الأسود ، ولكنها كما يتضح من تاريخها الماضى لم تمنح فى استغلالها شوطا بعيدا .

---

(١) هذا قبل أن تصبح النمسا دولة صغيرة .

الخريطة رقم ٧٣



حقول الفحم في الولايات المتحدة

أما بلاد الهند والصين فإن ماضيها التاريخي لم يهيئ لهما فرصة استغلال الفحم الموجود بهما استغلالاً سريعاً ، ولا تستحق كميات الفحم في البقاع الأخرى من العالم أى اعتبار باستثناء أمريكا الشمالية فقط ، التي بذت جميع البلاد الأخرى في مدى استفادتها من اكتشاف طاقة الفحم ، وقد قدرت موارد الفحم في العالم بمقدار ٧,٣٩٧,٥٣٣ مليون طن ويقدر ما تمتلكه كندا منها بنحو ١,٢٣٤,٢٦٩ مليون طن ويقدر نصيب الولايات المتحدة من هذه الكمية بنحو ٣,٢١٤,١٧٤ مليون طن ، وسواء صدق هذا الزعم أم لم يصدق فإنه من الجلى أن كميات الفحم الموجودة في أمريكا الشمالية تمثل نسبة عالية غير عادية من جملة كمياته الموجودة في العالم أجمع ، ولوإننا تناولنا بالبحث والتحليل مواضع حقول الفحم في الولايات المتحدة لرأينا أن الفحم فيها يقع في ثلاثة أرباع عدد الولايات التي تدخل في نطاق الاتحاد تحت لواء الحكومة الاتحادية في واشنطن — على حين أن أكبر كمياته تقع مباشرة على طول الطريق الذي امتد فيه العمران الطبيعي بحذاء وادى الهدسن والموهوك .

وتختلف أمريكا الشمالية عن القارات الأخرى في أن الجزء الأكبر منها درج في حضارته من أول الأمر مستخدماً الوسائل الحديثة ، وقد نما عدد سكان أمريكا الشمالية نمواً كبيراً حتى لم يكن أن يقال أن سكان الجزء الواقع شمال المكسيك قد تضاعفوا مائة ضعف منذ بداية القرن التاسع عشر ، وقد سخرت الطاقة على

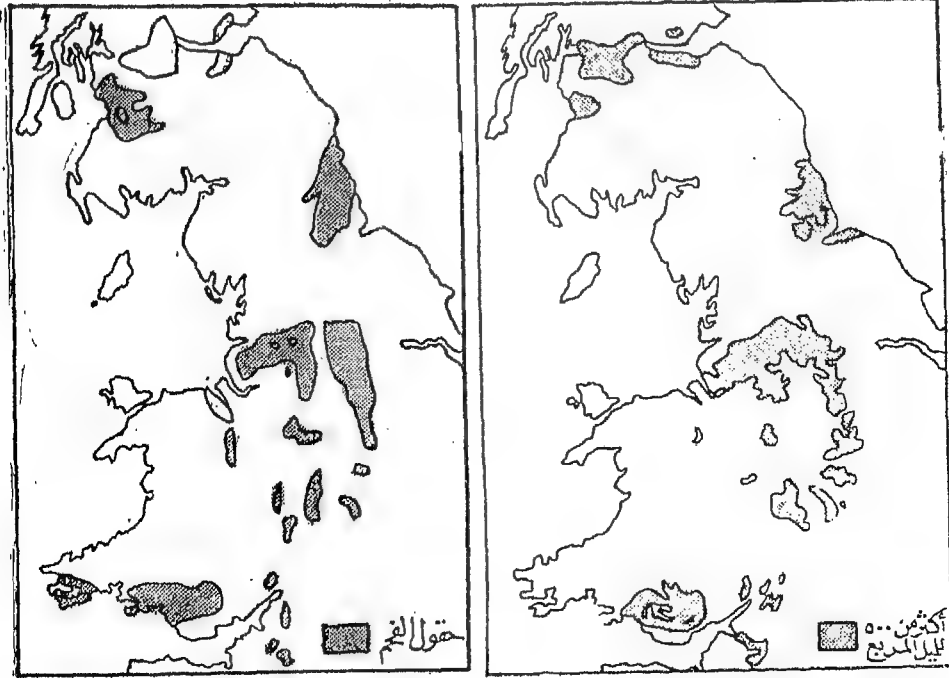
نطاق واسع جماعات ألقت الجدي في العمل ونفضت عن أنفسها قيودا كثيرة من التقاليد البالية وبدأت تعتنق أفكارا جديدة دون أن تتعصب لهذه أو لتلك . فليست المسألة إن سلاسل أوربية أغرتنا الهجرة إلى أراضى فيها كثير من الشبه بأوطانها الأولى وليست بذات قيظ لافح في الصيف ولا بذات برد زمهري في الشتاء حتى يحولا دون العمل ، بل هى بلاد بلغت حدا من الحرارة يكفى لنمو النبات وبلغت من البرد حدا يحفز على إعمال التفكير . حقا لم تكن توائم نمو حضارات مبكرة ولكنها كانت الطراز المطلوب الذى يصلح لنمو حضارة يقيمها رجال من شمال أوربا بالإضافة إلى ما توافر لها من مزايا امتلاك كميات هائلة من طاقة الفحم .

\* \* \*

وظلت عمليات الهجرة والاستيطان والتكتل تجرى مجراها على الساحل الشرقى خلال ثلاثة قرون ، فتم بذلك تشكيل الطابع العقلى والأخلاقى للمجتمع الأمريكى كما نحدثت لغته أيضا ، وقد بدأ الناس فيها يشعرون بقيمة الكشف الجديد ( أى استخدام الفحم فى توليد البخار ) فى نفس الوقت الذى توصلوا فيه إلى معرفة طريق المهندسن والموهوك وغيره من الطرق الجنوبية التى تصل الشرق بالسهول الوسطى ، وإن كانت تزيد فى وعورتها عن طريق الموهوك . وفى عام ١٨٠٧ أى قبل افتتاح قناة إيرى بثمانية عشر عاما أبحرت أول سفينة بخارية من نيويورك إلى ألبانى فقطعت مسافة ١٥٠ ميلا فى أربع وعشرين ساعة ، ومن السخف أن نتساءل ماذا يكون مصير الولايات المتحدة لو لم يدركها الانتقالات الصناعى ؟ والجواب يسير ومعروف إذ لم يكد الانقلاب الصناعى يؤثر أثره حتى قفزت الولايات المتحدة واكتسبت أهميتها ، فست يد السحر جمع مرافق الحياة فيها من تحسين فى زراعتها إلى استخدام آلات حديثة أقدر على أداء أغراضها ، فازدادت غلة الأرض عما كانت قبلا ، وإلى هذه التطورات عينها يرجع الفضل فى تسكدس رؤوس الأموال فى بريطانيا وبفضلها استطاعت الخروج ظافرة من الحروب النابوليونية ولا شك أنه كان لهذه التطورات أثرها المباشر فى غرب المحيط الأطلسى كما كان لها أثرها

في شرقه . ونستطيع أن نعرف على مدى التغيير الذي أصاب أمريكا لو قارناها  
بما حدث لبريطانيا .

الخريطة رقم ٧٤



توزيع الفحم وتوزيع السكان في بريطانيا

فلما بدأت بريطانيا في استخراج الفحم من مناجمها المتناثرة في المراسي الممتدة  
على جانبي جبال البنين ظهرت في الوجود إنجلترا أخرى جديدة أحدث عهدا من  
ولايات « نيوانجلند » التي أسست، على الشاطئ الشرقي لأمريكا قبل الانقلاب  
الصناعي بقرنين من الزمان ، وحتى ذلك الأوان كانت مقاطعات يوركشير  
والمراسي المحيطة بها جميعها خالية من السكان تقريبا والناس يتكاثرون على الأراضي  
الخصيبة الممتدة إلى الجنوب منها . أما الآن فالناس يتزاحمون فيها بالمناكب وكل يبذل  
جهده في توجيه طاقة الفحم الوجهة التي تجود بأحسن الثمرات . هذا وتختفي  
في الولايات المتحدة أهمية التطور الجديد تحت سستار من التطور الزراعي  
فيها وما التطور الزراعي نفسه في واقع الأمر إلا أحد مظاهر هذا التغيير الشامل .

كان الهندي الأصل من سكان أمريكا يتجول في قاربه الصغير في الأنهار والبحيرات بينما أخذ المهاجرون الأوروبيون يجوبون في قواربهم البخارية — التي بنيت على طراز سفينة فولتون — الأنهار والبحيرات ثم القنوات فانتشرت الزراعة في البلاد على أيديهم أسرع مما لو قدر لها إنباع وسائل أخرى .

ومنذ افتتاح قناة إيري في عام ١٨٢٥ توطن مصير نيويورك نهائياً كمركز تجارى للدولة ، ثم أنشئت السكك الحديدية فجرت أولابحذاء البحيرات والأنهار ثم ابتعدت عنها لتتخترق البقاع المتناحية — مما هيا للإنسان فرصة الاقتصاد في الطاقة وسمحت له باستخدام طاقته البدنية على خير وجه ممكن . غير أنه حتى منتصف القرن التاسع عشر لم تكن تبشر الدلائل بما تمخض عنه هذا التطور في نهاية هذا القرن ، فقد كانت باكورة النتائج لاستخدام الفحم في صناعة الغزل والنسيج وفي طرق المعادن وسحبها قاصرة على استقرار السكان حيثما وجدوا ، وفي ولايات نيوانجلند أمكن استخدام القوى المائية في إدارة الطواحين ثم اتخذ الفحم بديلاً عنها نظراً للعديد الكبير من السكان الذين تجمعوا فيها أكثر من أى مكان آخر ممن اكتسبوا مهارة خاصة في استخدام الآلات حتى وإن كانت من نوع بسيط . ثم تجمع السكان من ذوى المهارة شيئاً فشيئاً في حقول الفحم الممتدة على طول الحافة الغربية لجبال الأبلاتش ثم في المنطقة المتوسطة جنوبى بحيرة ميشيجان ولا تزال تمتد هذه الحقول نحو الجنوب الغربى — ولا تزال المناطق الحديثة في نموها غير قادرة على الوقوف ندّاً لند مع تلك التي اكتسبت مهارة خاصة أما بتوارثها جيلاً عن جيل وأما لأنها نقلتها إليها أو اقتبسها عن غيرها — ولا يهمننا أيا كانت الوسيلة التي توسلت بها إلى اكتساب تلك المهارة بقدر ما يهمننا أنها قد بدأت تنافس تلك البلاد ذات السبق في الحضارة — والتي تستمتع بقوة القصور الذاتى التاريخية . وقد أمكن الآن إقامة الصناعة القطنية بنجاح في مقاطعة ألباما ، ولوسار إنتاج الفحم في زيادته بالمعدل الذى يسير عليه الآن — فلن يمضى طويل وقت قبل أن يبلغ الطرف الجنوبى لجبال الأبلاتش في إنتاجه للفحم قدر ما تنتجه مقاطعات نيوانجلند .

وليس التقدم كله وليد استخدام تلك القوى الضخمة المتولدة من الطاقة الفعّية

ولكن هناك حقيقة تكمن في أن كل تقدم في مرفق من مرافق الحياة يحفز على تقدم في المرافق الأخرى، فدعت الضرورة بعدئذ إلى صناعة آلات جديدة تتناسب والظروف الجديدة المتطورة واستحدثت آلات تهيب<sup>\*</sup> للإنسان فرصة الانتفاع بطاقةته البدنية وطاقته ما يستأنسه من حيوان لكي يكون أكثر انتفاعاً عما كان قبلاً . ومنذ أن نجح الإنسان في أن يستبدل بيده عصا أو آلة حجرية ، والآلات تسير نحو السكال كلما تقدمت العصور . فلما حدثت الثورة الصناعية انتشرت عملية الاستبدال هذه انتشاراً واسعاً فشملت بلاداً أخرى بالإضافة إلى البلاد التي نتحدث عنها الآن ، غير أنها لم تبلغ من الظهور والوضوح في أى قطر ما بلغت في الولايات المتحدة .

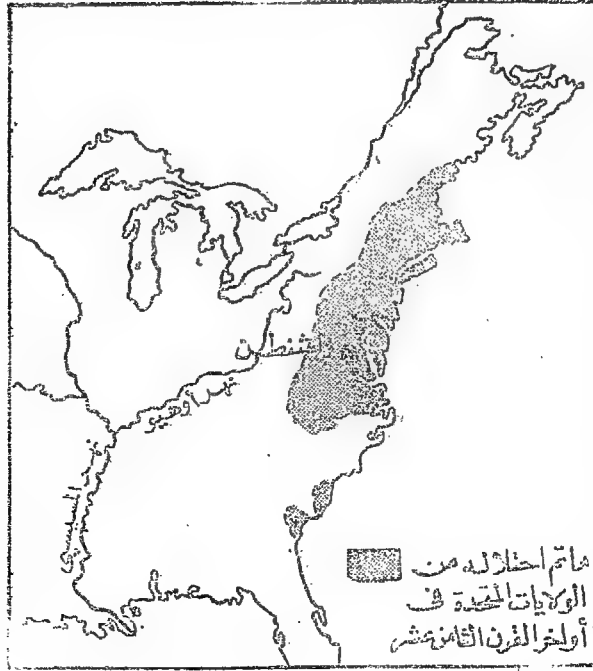
وطبق الأمريكيون الدرس الذى تعلموه من الصناعة على الزراعة فاستخدموا الآلات بقصد الاقتصاد فى الطاقة واستغلالها ، فاخترق المنجل اليدوى ليحل محله المنجل الآلى وقد أدى استخدام الآلات إلى تخفيض تكاليف الزراعة للمحاصيل بنحو ١٧٠ مليون جنيه فى مدى خمسين عاماً — وفيما بين عامى ١٨٥٥ و ١٨٩٤ نقص تباعاً الزمن الذى يستغرقه الفلاح فى انتاج البوشل الواحد من الذرة الهندية من أربع ساعات ونصف إلى ثلاثة أرباع الساعة ، وبين عامى ١٨٣٠ و ١٨٨٦ نقص الزمن الذى يستغرقه العامل لانتاج البوشل الواحد من القمح من ثلاث ساعات إلى عشر دقائق — وفى عام ١٨٦٩ كان نقل البوشل الواحد من القمح من شيكاغو إلى ليقربول يتكلف ٣٧ سنتياً فأصبح عام ١٩٠٥ يتكلف نقله خمسة سنتيات وحتى الآن على الرغم من تناقص قيمة النقد فى أيامنا هذه فلا تزيد نفقاته عن هذا الحد إلا قليلاً<sup>(١)</sup> . ولم ينقص القمح أو الذرة فى قيمتهما الغذائية ولكن حدث وفر فى الطاقة واطلق الناس أحراراً يؤدون أعمالاً جديدة فيغيّدون من أوقاتهم فوائد أخرى .

---

(١) كتب هذا فى عام ١٩٢٧ .



الخريطة رقم ٧٥



« المستعمرات البريطانية الأولى في شرق الولايات المتحدة »

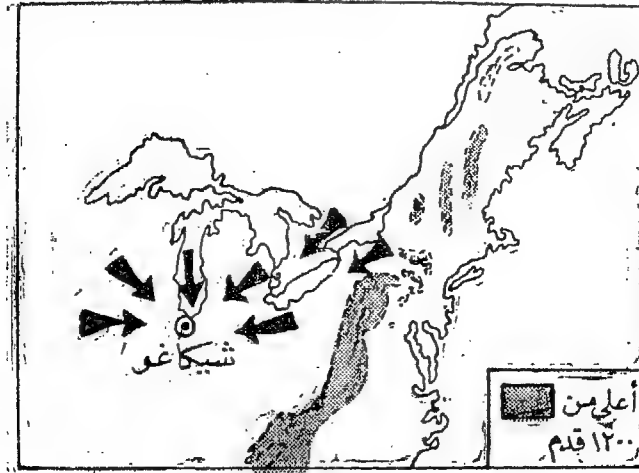
كانت واشنطن مركزاً مناسباً لتكون العاصمة في الوقت الذي اختيرت فيه

ولما أنشئت السكك الحديدية أضحى التنظيم في الأمريكتين أيسر تطبيقاً على نطاق واسع ، أوسع منه في العالم القديم ، واختيرت واشنطن بطبيعة الحال لتكون مقر الحكومة بحكم توسط موقعها بين مستعمرات نيو إنجلاند ومستعمرة نوجينيا حين كان السكان يزدحمون على الشواطئ الشرقية ، ومن الطبيعي بعدئذ أن تظل عاصمة البلاد ويتوقف بقاؤها كعاصمة لها على سهولة اتصالها بالولايات الواقعة في الوسط أو النائية في الغرب وقد كان لإنشاء سكة حديد كندا الباسيفيكية أثرها في ضم كولومبيا البريطانية إلى كندا . كذلك كان إنشاء الخطوط الحديدية الأخرى عبر القارة حائلاً دون نمو وحدات مستقلة على شواطئ المحيط الهادئ .

لقد انتشرت السكك الحديدية في كل دولة أوروبية غير أن انتشارها هنا كان بأوسع نطاقاً — وهاك ظاهرة تستحق الذكر وهي أن السكك الحديدية في أمريكا

الشمالية خلقت مدناً في المناطق التي مرت بها. باستثناء شواطئ المحيط الأطلسي لأنها لم تخطط لتمر بالمدن الهامة ولكنها اتبعت في سيرها الطرق التي تقل فيها المقاومة الطبيعية ما أمكن ، فلم يكن بد من التقيأها. في بعض النقط كواقع مدينة شيكاغو مثلاً حيث وجد الناس هذا المكان أكثر ملاءمة لسكنائهم عن غيره من الأماكن. وهكذا نشأت المدن وليدة التقاء السكك الحديدية .

الخريطة رقم ٧٦



موقع شيكاغو

كذلك نرى في الولايات المتحدة تلك القوى الآلية الجبارة التي سخرها الإنسان لخدمته وتقوم مقام الرقيق في الأزمنة السالفة ، نراها تهيب للإنسان قدراً من الطاقة على نطاق واسع يصل بالتنظيم والاقتصاد إلى أبعد الآفاق. والأمريكيون هنا مهندسون بارعون تفوق عبقريتهم الهندسية عبقرية سكان القارات القديمة ، يضمون الخطط الدقيقة للإفادة على خير وجه من الطاقة التي يسمهم اقتصادها — ويصرفون بعضها في اكتشاف الوسائل المؤدية إلى زيادة الاقتصاد فيها ولا ينفقون ذلك عبثاً أو تعسفاً أو لمجرد هواية عارضة بل يتوخون الضرب في بحوثهم — ولا تجارى الولايات المتحدة بلاد أخرى في السخاء بكرمهم

على البحوث العالمية من جميع أنواعها سواء بطريق مباشر أو غير مباشر فتسير حضارتها قدماً..

غير أن الأراضي الجنوبية في الولايات المتحدة رطبة وتختلف أحوالها عن تلك التي يألفها الأوروبيون فاضطر سكانها في أول مراحل استقرارهم في البلاد إلى استقدام الزوج من أوطانهم الأفريقية ليقوموا بالعمل اليدوى الشاق في الحقول. وعلى الأخص لإنتاج القطن لمصانع لنكشير، والزوج عادة يتناسلون في سرعة، ويكونون جماعات متماسكة وقد بلغ تعدادهم عشرة ملايين نسمة<sup>(١)</sup> لا يختلطون بغيرهم من السكان بل ويتعذر على المجتمع تمثيلهم وهضمهم — وليست هناك صحراء هامة لتفصل بين الجنس الأبيض والأسود — ولم تقاس أمة أخرى ما قاسته الولايات المتحدة من مثل هذه المشكلة ولم تصل بعد إلى حل لها.

---

(١) تعداد الزوج الآن في الولايات المتحدة يصل إلى ١٦ مليون نسمة.

## الفصل الثامن عشر

### توزيعات اليابس الكبرى - العالم كما هو

لقد تحدثنا حتى الآن عن دول مختلفة وكل واحدة منها كانت تزيد في مساحتها عن سابقتها ، حتى الامبراطورية الرومانية وهي تكاد تعادل في مساحتها الولايات المتحدة لا يمكن مقارنتها بها إطلاقاً في عدد السكان ، ولقد زادت طرق المواصلات سهولة خلال الجيل أو الجيلين الأخيرين ، وبفضلها أصبح العالم الآن مجموعة اقتصادية واحدة ، ولم يعد جزء منه يقادر على الاستغناء عن الأجزاء الأخرى . حقاً أن هذا العالم أصبح الآن وحدة حية ولو أن تنظيمه لا يزال بعيداً عن حد الكمال حتى من الناحية المادية .

ومن ثم ينبغي علينا في دراستنا اعتبار العالم الحديث وحدة واحدة أكثر من اعتباره أجزاء منفصلة وهو كالسكان الحى معقد كل التعقيد في تركيبه حتى ليصعب التعبير عنه بتعريف بسيط غير أن هناك طريقة أو طريقتين للنظر إليه ، وقد نظهران لأول وهلة كيف قام التنظيم في العالم أجمع وكيف وفرت الطاقة تبعاً لذلك كما نظهران الخطوط التى سوف يجرى عليها التقدم فيما بعد ، ولكل نظرة قيمتها .

ولعل أبسط الطرق عند النظر إلى توزيع اليابس هي أن نأخذ الجزء اليابس على أنه جزيرتان عظيمتان هما جزيرة متوازية الأضلاع تمثل العالم القديم وجزيرة أخرى هي عبارة عن الأمريكتين وكلتا الجزيرتين تقعان في محيط عظيم . . ولم يجر ذكر الأمريكتين في قصة العالم إلا حديثاً ، بينما نشأت في العالم القديم ثلاث حضارات عريقة مستقرة هي الحضارة الأوربية وقد انتشرت في النطاق المنخفض والذي تغمر بعض أجزائه مياه البحر عبر الكتلة اليابسة ، ثم الحضارتان الهندية والصينية وقد ازدهرتا على حافة المحيط ..

وينقسم متوازى الأضلاع الذى يكون العالم القديم إلى قسمين غير متساويين. تفصلهما الصحراء أكثر من أن يفصلهما نطاق البحر الممتد بينهما ، وهما القسم الأفريقى ولا تاريخ له والقسم الأوروبى الآسيوى . كما يقع فى قلب الكتلة الأوراسية السهل الأعظم بمراعيه الاستبسية فى جنوبه ، تستند فى ظهرها إلى الغابات فى الشمال ثم إلى المحيط الشمالى الذى تميز الملاحة فيه ، هذا السهل هو الآن سهل روسيا وإن ظل طويلا موطن الرعاة الرحل الذين طامسوا اندفعوا منه إلى البلاد التى تحف به .

وقد عرفنا أن البلاد الساحلية تحيط بهذا السهل وإن فصلتها عنه فى بعض المناطق هضاب عالية أو سلاسل جبلية ، وقد تطورت هذه البلاد فى نظمها حتى نصبت فأصبحت دولا مختلفة تتبعنا تاريخها فيما سبق من فصول واحتتمت إلى حد كبير بحاجز الصحراء الكبرى فأمنت شر الخطر الزنجى .

أما الجزء الأوسط من هذه المنطقة فبعضه سهول وبعضه هضاب ، بعضه قد تناولته المدنية بأسبابها وبعضه بقى على الفطرة — وهو بحكم توسط مركزه ، وبحكم اتساع مساحته ذو موقع فريد فى العالم قديمة وحديثة — ويمكن ربط أطرافه بالطرق الحديدية بسهولة كبرى ، لا لأنه بعيد عن المحيط ، ولا لأنه مستقل عنه ؛ بل بسبب حقيقة واقعة وهى أن قلب هذا السهل أميل فى طبيعته إلى بيئة المراعى إن لم يكن إلى بيئة الصحراوات ، وتوحيد أجزائه أمر طبيعى لو قامت به قوة من القوى المستقرة فى أحد أطرافه أى بالقرب من حافته فى الشرق أو فى الجنوب أو فى الغرب . وفى الواقع أن هذا القلب قد شمله التنظيم مرة بعد أخرى مدداً خالت أو قصرت بوسائل مختلفة ، وكانت جميع المحاولات استبدادية خالصة فى نظم حكمها — سواء خرجت تلك المحاولات من جبال التاي فى الشرق أو من هضبة طوران فى الجنوب ، أو تلك المحاولة التى بذلتها مقاطعة موسكو فى الغرب أخيراً ، وكانت أكثرها توفيقاً .

وتوجد فى متوازى أضلاع أوراسيا أراض تقع على حافة المحيط وتتأثر بالبحر فى تاريخها ، وسكان معظم هذه البلاد فى القطاع الأوروبى سادوا البحر زماناً كالعرب

والفينيقيين والاغريق والإيطاليين القدماء منهم والمحدثين والأسبان والبرتغاليين والبريطانيين والهولانديين والرومانيين كلهم دانت لهم سيادة البحر أو سيادة المحيط معتمدين جل الاعتماد أو بعضه على سهولة النقل المائي ورخصه وأمنه ، وعلى ما يشعرون به من ميل جارف نحو البحر نشأ عندهم من جراء طول ألفتهم له وركوبهم ظهره ، وأما في القطاع الآسيوي فالإبانيون هم الذين انفردوا من بين سكان آسيا في تقرير مصائرهم على متن البحار . أما الهند والصين فقد ظلتا تحتلفان اختلافاً أساسياً عن البلاد الغربية — وإن بقيتا معرضتين للمؤثرات المحيطية ، إلا أنهما لم تحاولا قط أن تلعبا دورهما على مسرح البحر .

ولم تصادف السيادة البحرية البريطانية أى تحد لها تقريباً منذ موقعة الطرف الأغرق كانت سفن الأسطول البريطانى تمخر عباب البحار جميعا وتتجمع بكثافة في بحر المانش أو بحر الشمال حين يحتمل ظهور الخطر فيه عن غيره من البحار وتسير في دوريات منفردة في المحيطات وفي شرق أفريقيا مثلاً حيث لا يوجه لها أى تحد ، وكانت النتيجة الواضحة لهذا التفوق البحري تكوين مجموعة الأمم البريطانية التي تعتمد على أمها بريطانيا فضلاً عما يتبعها من ملحقات وحميات ودول وضعت تحت انتدابها ومحطات متفرقة بعضها على حافات أوراسيا وتبعثر بعضها الآخر في أنحاء المياه التي تحيط بالكرة الأرضية أو اشتط بها النوى إلى ما وراء الصحراء الكبرى ، ولكنها جميعا اشتركت في صفة واحدة هي الاعتماد على البحار كلية في اتصالها ببريطانيا ، وكذلك قامت السفن التجارية في جميع البحار بدور لا يقل حيوية عن دور الأسطول فقد كانت واسطة الاتصال لجميع مواطن الاستعمار البريطانية وبجميع المواضع التي استغلت فيها الأموال البريطانية ، وتعاونت مع بريطانيا دول بحرية أخرى كفرنسا مثلاً وهي التي ظلت عدوة لها حقبة طويلة وكإيطاليا بعد أن أعيد تنظيمها حول روما وأصبحت وريثة للتقاليد الرومانية ، وكالبرتغال وهي حليف قديم لبريطانيا وكاليابان وهي أحدث حلفائها فكانت هذه الدول مجموعة من القوى البحرية سيطرت عملياً على جميع الأراضي التي تحيط بقارتي أوروبا وآسيا .

ولما شمل التنظيم قلب أوراسيا والدول البحرية كان من الضروري أن تظهر بالتدرج منطقة تتقابل فيها القوتان وأن تقوم بالتدرج في هذا النطاق مجموعة من الدول الصغرى هى فى أغلبها بقايا تاريخية لعهود غابرة ، حين كانت التنظيمات السياسية والاقتصادية محدودة ضيقة النطاق فاكتمست كل دولة منها خصائص حميزة لها ، بعضها طبيعى وبعضها موروث من العهود القديمة ، وأصبح لها من شخصيتها ما يعصمها عن الذوبان فى غيرها — وظلت فى هذا الوضع التمس كدول مانعة للتصادم أما لأنها عجزت أو لأنها عرفت عن الاتحاد مع غيرها لتندمج فى وحدة كبرى ، فهى من الناحية السياسية مستقلة استقلالاً مقللاً مضطرباً ولكنها تلحق بغيرها دون شك من الناحية الاقتصادية . وقد اختلف نطاق الدويلات القليلة السكان من آن لآخر تبعاً لتطور الظروف ، ولكنه ظل يحتوى على فنلندة والسويد والنرويج والدانمرك وهولندة وبلجيكا ولكسمبرج وسويسره وبولندة ودول البلقان وإيران وأفغانستان وسيام وكوريا . وفنلندة مثلاً على بعد موقعها ليست سوى قطاع ساحلى يصلح للزراعة يستند ظهره إلى غابات ومستنقعات تسكنها جماعات تختلف اختلافاً أساسياً عن جيرانها . وتشترك اسكنديناوه والدانمرك فى كثير من الخصائص غير أنهما مسكونتان بشعوب تتباين وتختلف فى تاريخها وعاداتها ، وتشعر شعوراً قوياً بهذا الاختلاف . أما الأراضي الواطئة فيسكنها الهولنديون والبلجيكيون وهم قلة غير أنهم يقدرون الفروق التى تميز بعضهم عن بعض تقديراً خاصاً ، فأهل هولندة رجال بحر وزراعة بينما نحا أهل بلجيكا نحو الأعمال التجارية والصناعية . والأراضي الواطئة بالاشتراك مع لكسمبرج والألزاس واللورين وسويسرة تمثل الجزء الأوسط من امبراطورية شارلمان أى مملكة لوثرنجيا التى كانت تقع بين الجزأين الشرقى والغربى وانفردت سويسرة بكونها البلاد الوحيدة التى احتفظت باستقلالها من بين سكان جبال الألب . وقد نشأت فى بادئ الأمر نتيجة لتحالف أربع مقاطعات سيطرت على ممرات الطرق الكبرى عند تقاطعها بين شعاب جبال الألب فيما وراء قمة أندرمات *Andermatt* وكان موقع هذه الولايات أكثر

ملاءمة للدفاع عن استقلالها ، وتفضل غيرها من الولايات الألبانية الأخرى ، إذ هيأت الطبيعة لسكان الوديان الجبلية فرصة لقاء المهاجرين في الأراضي المنخفضة الواقعة إلى الشمال منهم مع احتمائهم في نفس الوقت بسلاسل جبال الجورا وبيصيرات جنيف وكنستانس . أما الدول البلقانية فسكانها مجموعة من رعاة الجبال وفلاحى الوديان وتجار البحار وهم خليط من السلاف واليونانيين ينتمون في دياناتهم إلى المذهب الكاثوليكي وإلى الكنيسة اليونانية وإلى الدين الإسلامى ، كل فئة حسب ماضيها التاريخي ، ولكنهم يشعرون جميعاً شعوراً قومياً ، ويحنون إلى التجمع في وحدات قومية تتصل اتصالاً وثيقاً بظروف بيئاتهم الجغرافية ، وإلى الشمال منهم نشأت دول من شعوب تقطن السهل ، حدودها مائمة ولبعضها مواقع جغرافية هيأت لها تاريخاً مستقلاً قد يمتد إلى قرون مضت وقام بعضها الآخر في أحضان الغابات فلم تستطع أن تقف على قدميها قط وبالأحرى لم تسنح لها فرصة الاستقلال .

وإلى الشرق تقع تركيا وقد مرت في تاريخها بعهود مختلفة بدأت بعهده ما قبل الإغريق وتتابعت عليها عهود الإغريق والرومان والبيزنطيين والأتراك ولم تستقر حدودها على حال واتخذت مدينة القسطنطينية كعاصمة لها واعتمدت في أساسها على إقليم آسيا الصغرى — وقد استوطن الأرمن المرتفعات وسكن الفرس الهضاب ولكل شعب من هؤلاء ذكرياته عن أمجاد غابرة سواء عسكرية أم فكريّة أم روحية إلا أن إيران الآن بلاد تكاد تخلو من كل سلطة معترف بها حتى يصعب على المرء أن يطلق عليها لفظ دولة<sup>(١)</sup> . أما أفغانستان وغيرها من دول الهمالايا فعلى الرغم من تأخرها في الحضارة عن الدول الصغرى إلا أنها تستمتع بقسط حقيقى من الاستقلال أوفر حظاً من تلك الدول الأوروبية الصغرى نظراً لبعدها مواطنها ولأنها أصعب منالاً على القوات النازية ، ولكنها في الواقع أقل مقدرة على المقاومة لو أنها تعرضت لهجوم منظم .

---

(١) كتب هذا في عام ١٩٢٧ قل أن تستقر أمور الحكم في إيران .



ويجوز لنا اعتبار ألمانيا ، بمعنى ما ، داخلية في هذا الفطاق ، وكذلك الصين ، ذلك أن أوروبا الوسطى تعتبر من منطقة التصادم هذه ما دامت بعيدة عن التنظيم مقطعة الأوصال تتنازع جماعاتها عوامل النداء ، غير أنها لو نظمت في إطار من الوحدة لاختلف مركزها كل الاختلاف ولأصبحت قوة لا يستهان بها . وتعتبر ألمانيا دولة بحرية كبرى لما لها من الاتصال بالبحر الذى يغريها بالملاحة البحرية وموقعها على الحافة الغربية للقلب أوراسيا مع ما امتازت به هذه الحافة من ازدحام فى السكان يجعل منها على أية حال مركزا تنبعث منه محاولات لتنظيم هذا القلب .

أما الصين فهى عالم فى حد ذاتها — عظيمة جدا فى مساحتها متجانسة جدا فى سكانها إلى حد يجعلها اتممة عسيرة الهضم على فاتحها على الرغم من أن بعض أجزائها قد ينتجج فى استغلاله أقوام آخر يجيئون إليها من بلاد أخرى . وقد رأينا أن أهل الصين بطبيعتهم يمزفون عن الاشتغال بالأعمال البحرية فى إعداد وفيرة إلا أن اتصالهم بالبحر يهيج لهم مزاياهم حريصون على الاستفادة منها والصين شأنها

الخريطة رقم ٧٧



اتساع الامبراطورية الصينية

كشأن ألمانيا بل هي أجدر من ألمانيا في موقعها الذي يبيح لها السيطرة على قلب أوراسيا دون أن تتعرض لاحتمال أى تدخل أجنبي . ويجب ألا يغيب عن الذهن أن الصين سيطرت في زمن ما على جزء كبير من هضاب الاستبس يمتد غربا حتى كاشغر وزنجاريا — وسادته الثقافة الصينية في عهد من العهود ولا يخفى الآن أن بعض جنود البلاشفة هم من المرتقة الصينيين . فالصين ولو أنها دولة قليلة الحركة إلا أنها ذات موقع فريد في أهميته .

والهند نفسها ذات مركز أكثر تفردا من الصين ، ولو أن القليل من سكانها يعملون في الملاحة البحرية والنهرية إلا أنها تستمتع بمزايا الاتصال البحري السهل وتمتع بسلامة مواصلاتها البحرية بحكم أنها جزء من مجموعة الأمم البريطانية . والواقع أن الهند لا تجمعها وحدة حقيقية بل تتكون من ولايات عديدة مختلفة متعادية في أغلب الأحوال . والهند بهذا الوضع حلقة من حلقات منطقة التصادم بين القوتين إلا أنها وهي تستظل بالحكم البريطاني أقرب إلى الوحدة منها في أى عهد من عهود تاريخها<sup>(١)</sup>، فهي من بين البلاد الساحلية التي تحف بالحيط أقربها إلى حافة قلب أوراسيا العظيم . وطبيعى أن تلعب الهند دورها في السيطرة على هذا القلب ، غير أنه يلاحظ أنه منذ فجر التاريخ استمرت موجات الهجرة تدفع بالناس من قلب آسيا نحو الهند ، ولم يعرف قط أنه كان لهذه العملية رد فعل عكسى . هذا باستثناء ما حدث في العصور السحيقة عند انتشار الإنسان على ظهر الأرض فهناك من الفروض ما يؤيد انتشار الهجرة البشرية في إعداد وفيرة من الهند إلى داخل القارة .

وإن هذه الآراء عن قلب أوراسيا وما يحيط به دول بحرية وما بينهما من مناطق تصادم هي نتيجة مباشرة للحقائق الجغرافية الراهنة ، وقد نشأ هذا الوضع القائم الآن ثم تطور على مر الزمن ، وكلما تغيرت الظروف تفاعل ميراث الماضي مع عناصر الحاضر وهكذا تنتظم الأمور في مرونة توائم تغير الظروف .

---

(١) كتب هذا في عام ١٩٢٧ قبل أن تستقر دولنا الهند والباكستان .

الخريطة رقم ٧٨



أراضى القوى البحرية  
منطقة الصراع  
قلب اليابس

قلب العالم القديم والمراكز التي سادته

ولا يعيش العالم القديم وحده في هذه الكرة فإن العالم الجديد يحتل مكانه في محيط أوسع مجالا ، وليس للظروف الجغرافية أو الماضي التاريخي للعالم الجديد ما يؤثر بطريق ما في دول العالم القديم . ذلك أن الأراضي في قلب العالم الجديد والدول البحرية فيه لا تنفصلان عن بعضهما بل تمتزجان ، ومن ثم انعدم ظهور نطاق التصادم بين القوتين ، والولايات المتحدة هي سيدة المسرح الأمريكي لأسباب ربما نكون قد تتبعنا بعضها حتى الآن ، حقا قد تصبح الولايات

للمتحدة دولة بحرية كبرى ، وتلعب في التاريخ دوراً أكبر مما لعبته بريطانيا في الأزمنة السابقة غير أنها بعيدة — وإن لم تبعد كثيراً — عما قد يقوم في العالم القديم من حروب ومنازعات وما يتمخض عنها من نتائج ، وقد عاشت في عزلتها محمية وراء محيطاتها وزودتها الطبيعة بأنواع من القوى المادية والاقتصادية والمعنوية مما يجعلها جديرة بحق بأن تكون مناط الزعامة والتحكيم في المنازعات الدولية .

وقد ظهرت أحوال عالمية جديدة بظهور الولايات المتحدة وارتفاع مكانتها إلى دولة عظمى إذا كتسب كشف كولبس مغزى جديداً — فما من شك في أن فكرته عن كروية الأرض هي التي أدت إلى كشف طريق آخر من غرب العالم القديم إلى شرقه ، كما أن كرويتها الآن تجعل الولايات المتحدة واقعة بين غرب العالم القديم وشرقه أيضاً ، وأن المسافة بين غرب الولايات المتحدة إلى شرق آسيا هي أقرب من غرب أوروبا إلى شرق آسيا وإن لم تقرب كثيراً . ولو نظرنا إلى الكرة الأرضية وتحققنا من المسافة عبر المحيط الهادى خصوصاً من جنوبه الشرق إلى شماله الغربى لرأينا أن هذه المسافة بالذات هي التي حالت دون استخدام الطريق الغربى من أوروبا إلى جزر الهند والشرق الأقصى استخداماً يعود بالفائدة الحقة ، وإلى أن نهضت الولايات المتحدة لم يكن العالم الجديد سوى أرض مترامية تقع على مسافة ما إلى الغرب من أوروبا وليس لها كبير وزن .

والولايات المتحدة تخرج من نطاق مجموعة الدول التي كان لها أثر حتى الآن<sup>(١)</sup> وهي كتلة متماسكة متجانسة هيأت لها الطبيعة موارد ضخمة من الطاقة لانهاية لها وتواجه المحيط الهادى والأطلسى في وقت معاً ، وتتصل بكل من شرق أوراسيا وغربها ، وبفضل قناة بنما المحصنة أصبح في قدرتها أن تنقل أسطولها من محيط إلى محيط — وقد حاولت أن تؤمن المنافذ المؤدية إلى تلك القناة بإعلانها مبدأ منرو الذى يحرم على دول العالم القديم جميعاً أن تبسط نفوذها على أى جزء من من أراضي العالم الجديد ، وقد اقتصر نجاحها في الوقت الحاضر على حماية الدول الصغيرة الثانوية المحيطة بالبحار المؤدية إلى قناة بنما ، والولايات المتحدة تمتاز بميزة

(١) كان هذا قبل شوبوب الحرب العالمية الثانية وتغير أساليب الحرب .

أخرى فهمى ليست كأوربا مكونة من دول متشاحنة منقسمة على بمضها، يتكلم أهلها لغات متعددة ويذكرون دائماً المداوة والبنضاء التى سادت بينهم فى خلال تاريخهم الطويل، فهنا نرى بالاداً متسمة الأرجاء يتكلم أهلها لغة واحدة وایس لهم ماض مى بالجزازات والاختلافات . هذه هى الولايات المتحدة .

غیر أن هذه النظرة فى توزيع السكتل اليابسة الكبرى لا تزال ناقصة إذ لم ندخل فى اعتبارنا كثيراً من الظاهرات الهامة فى هذا التوزيع — فإن أفريقيا فيما وراء الصحراء الكبرى وأستراليا تعتبران إطاراً ضخمًا للعالم القديم تتحكم فيه إلى حد كبير الدول البحرية العظمى ، كذلك يمكن اعتبار أمريكا الجنوبية كإطار ينفذ إليه نفوذ الولايات المتحدة ، وقد بسطنا فى الفصول السابقة لهذا المؤلف الأسباب التى فرضت على جنوب أفريقيا وأمريكا الجنوبية أن تكونا محرد إطار للدول الكبرى غير أنه يمكن إدراك وضع هذه البلاد بالإضافة إلى وضع أستراليا بشكل أكثر وضوحاً لو أننا نظرنا إلى نظام توزيع اليابس نظرة أخرى . والواقع أننا لا نصدق كل الصدق عندما نقول أن هناك مجموعتين من اليابس هما العالم القديم والعالم الجديد .

ذلك أنه بظهور الولايات المتحدة اكتسب توزيع السكتل اليابسة الكبرى حول العالم معنى آخر وأهمية أخرى ، حقاً ظلت روسيا تستمتع بأهميتها كما ظلت الدول الساحلية فى أوضاعها غير أن المسألة أصبحت أبعد من ذلك أثراً — وعلى الرغم من أن اليابس يبدو فى توزيعه وكأنه لا يسوده نظام إلا أنه فى واقع الأمر يتبع نظاماً خاصاً، فهناك قارة عظيمة تحيط بالقطب الجنوبى كما تحيط مياه المحيط المتجمد الشمالى بالقطب الشمالى وتحيط بالقارة الجنوبية حلقة متصلة من المحيطات تحيط بها إحاطة السوار بالمعصم وتدور حلقة أخرى من اليابس متصلة تقريباً فتلتف حول المحيط الشمالى ويتبدل من هذه الحلقة اليابسة ثلاث مساحات من اليابس تمتد جنوباً وتفصلها ثلاثة محيطات تضيق تدريجياً نحو الشمال .

ولما كان الجزء الأعظم من اليابس يقع فى نصف الكرة الشمالى كان هذا

بعض السبب في أنه امتاز بتلك الصحراوات الواسعة حيث بدأت فيها المدينيات القديمة وما يتبع ذلك من ازدهار المدينيات الأخرى فيما بين خطى عرض ٣٠°، ٦٠° شمالاً ، وقد امتاز سكان المناطق الواقعة إلى الشمال من خط عرض ٣٥° شمالاً بأنهم أكثر الأجناس البشرية نشاطاً. وخلال النصف الجنوبي من الصحراوات الواسعة، كما خلا من مساحات اليا بس الصالحة لاستقرار شعوب سبق لها اكتساب خبرتها في اقتصاد الطاقة في مواطن أخرى ، ومن ثم نرى أن جميع البلاد الهامة تقع تقريباً في نطاق متصل يدور حول مركز لها في منطقة الأراضي القطبية الشمالية التي لا تصلح لسكنى الإنسان بسبب بردها القارس — هذا باستثناء قليل من الجماعات المنعزلة التي قطنت جنوب أفريقيا وجنوب أمريكا الجنوبية وأستراليا — ونظراً لما عليه هذه الشعوب الشمالية من مدنية كان من الضروري أن تسودها رغبة طبيعية في الاتصال ببعضها البعض — فلما نهض الجزء الأنجلو السكسوني من أمريكا الشمالية أى الولايات المتحدة وكندا — واكتسب أهميته أصبح لازماً أن تنشأ خطوط مواصلات ذهاباً وإياباً عبر المحيط الأطلسي وعبر قارتى أوروبا وآسيا ، بل وأن تؤسس خطوط دائرية متصلة ، جيدة في بعض الأماكن ، رديئة في البعض الآخر ، تهين لسكان هذا النطاق في كل مكان منه تسهيلات للانتقال بنفقات أقل مما لو لم يتهين لبلادهم ذلك الموقع ، وأصبح كل مكان في هذا النطاق حلقة في سلسلة المواصلات الدائرية فقل بذلك عدد نهايات الخطوط والأماكن التي لا تؤدي إلى ما بعدها ، وأصبح كل مكان يؤدي إلى غيره .

وإننا نرى الآن خطوطاً حديدية تجرى عبر أمريكا الشمالية وسيبيريا وقد اكتسبت أهميتها لا لمجرد أنها تحتل الطريق البحري اختزالاً عظيماً ولكن لأنها تمثل عدة حلقات من سلسلة الطريق الدائري الذي ليس له بداية أو نهاية — بينما يظل الطريق المقترح إنشاؤه بين مدينة السكاب والقاهرة لمنافسة النقل البحري على الجانبين لا يؤدي بعد نهايته الجنوبية إلى مكان ما ، ومدينة السكاب كمحطة نهائية لخط برى هي نهاية مغلقة بينما الأمر عكس ذلك في الشمال فنرى مدناً كنيويورك ومنترال وفانكوفر وسان فرانسيسكو مثلها تماماً كممثل طوكيو

وتجازاكي وأمسك وموسكو وشانغهاي وكولومبو والاسكندرية وبرلين وباريس  
ولندن كلها تقع على الطرق الرئيسية بـحراً وبراً وجواً .

الخريطة رقم ٧٩



« منطقة الانتقال والاستقرار في النصف الشمالي »

غير أنه بدخول اليابان في المركب العالمي بعد منتصف القرن التاسع عشر  
ببضع سنين اتبضلت الحلقة الأخيرة في سلسلة خطوط المواصلات حول العالم —  
وبلاد اليابان ذات مناخ بارد في الشمال جبلية في معظمها رطبة دفيئة في جنوبها

( م — ٢٠ الجغرافيا )

الغربي حيث تحيط ببحر شبه مقفل ، وحيث تقترب كثيراً من بلاد الصين ذات الحضارة العريقة — واليابان بطبيعتها مهد من المهاد التي تربى رجال البحر ولتاريخها شبه عجيب بتاريخ بريطانيا وأن ظل التاريخان يختلفان اختلافاً كبيراً .

بقى شمال اليابان فترة طويلة مسرحاً لجماعات بربرية همجية ، في حين أن الجنوب دخل في حيز المدنية مبكراً في العهد المسيحي وأسست مقاطعات الجنوب الغربي في القرن الثاني الميلادي وكانت اليابان تستقبل دائماً إشعاع الحضارة الصينية كما شمعت بريطانيا بأثر الحضارة الأوروبية — تتسرب إليها الأفكار إبان السلم كلما انتقل إليها اللاجئون من كوريا ومعهم خبرتهم بالفنون الحديثة كما نقل لاجئو أوروبا خبرتهم إلى بريطانيا ، ومارست اليابان الطباعة قبل أن تعرفها أوروبا بمائة وخمسين عاماً — ووصلت المهارة الفنية فيها درجة عالية من الكفاية والاتقان حتى أنه حين نقل البرتغاليون الأسلحة النارية إلى اليابان في عام ١٥٤٥ سرعان ما قام صناع الأسلحة اليابانيون بمحاكاتها .

غير أن هذا الحافز لم يشبه تماماً نظيره الذي تعرضت له بريطانيا فالحضارة الصينية تختلف عن الحضارة الأوروبية وقد تتابعت الدول البحرية في أوروبا واحدة أثر الأخرى في خلال القرون المتوالية وقد تأثرت بريطانيا بكل منها من وجوه مختلفة — بينما وقفت اليابان وحيدة في شرق آسيا ولم يطرأ على المؤثرات الحضارية الصينية تغيير يذكر ، فلم تواجه اليابان هجوماً جدياً غير تلك المحاولة التي قام بها المغول في عام ١٢٨١ بعد أن أغرتهم ثروة اليابان المتراكمة . حقاً عانت اليابان بعض الحروب الأهلية من طراز الحروب الأهلية التي عرفت في بريطانيا باسم حروب الوردتين — غير أن الشعب الياباني أفراداً وجماعات ظل في معظم تاريخه يصوغ مستقبله بنفسه دون أن يتدخل في شئون القارة ودون أن يعانى تدخلا من أحد .

وربما كان من آثار هذه العزلة أن اليابانيين سلبكواتبعوا لذلك مسلكاً رجعياً إزاء الحضارة الغربية أبان موسم الاكتشافات البحرية ، وظلت البلاد أكثر من قرنين من الزمان وهي مغلقة في وجوه الأجانب . ويجب أن نذكر أن اليابان



لم تكن كالكسليك خالية من السلطات ، بل أن حكومتها تمكنت من أن تجعل هذه العزلة ناجحة ، ومن ناحية أخرى كانت تلك السياسة تمثل عهداً أو ظاهرة خاصة فقد كان البحر هو نسيم الحياة بالنسبة لليابانيين ، وكم ذكروا البحر في قصصهم وأساطيرهم منذ أقدم العصور كما ذكره الأغريق في قصصهم وأساطيرهم ، وكان صيادو السمك اليابانيون يخرجون دائماً بنصيب وفير ، وحتى في القرن الرابع عشر . وما رست اليابان التجارة مع سيام ، فلما تخلت عن سياسة العزلة فجأة لم يكن ذلك سوى استئنافاً للسير في مصيرها الطبيعي ، ويرجع هذا التغيير المفاجئ إلى حقيقة واحدة وهي أن كروية الأرض في ذلك الحين فقط أصبحت ذات أثر عملي محسوس في تكييف حياتهم .

فلما نهض غرب الولايات المتحدة واكتسب أهمية في منتصف القرن التاسع عشر وشعر العالم برغبة في سهولة الاتصال بين سان فرانسيسكو والصين بدت الحاجة ملحة لمحة لتمون السفن بالفحم في رحلتها الطويلة بينهما ، والتي تبلغ من الطول ستة آلاف ميل . ولما كانت أقصر الطرق لا بد وأن تمر باليابان فقد أصبحت هي الموقع المختار الذي يصلح لأن يكون محطة تموين — وقد نزل الستار فجأة ، فاختمت مسرحية العزلة اليابانية حين ظهر في خليج يدو الياباني أسطول أمريكي حديث يطلب أن تقدم له اليابان بعض التسهيلات ، عندئذ زلزل النظام الياباني من أساسه فجأة وبسرعة ، كما لو كان زلزالاً حقيقياً من بين الزلازل التي تعودتها البلاد من آن إلى آخر ، فلم يمض عليها عشرون عاماً إلا ووجدت نفسها تقع في الطريق الشمالي الذي يدور حول العالم ، ووجدت نفسها معدة لأن تأخذ مكانتها كدولة في عالمنا الحديث ، ولما تم لها النصر على روسيا أخذت مكانتها كدولة عظمى وأصبحت السفن اليابانية الآن تبحر في أركان المعمورة ، والنفوذ الياباني ينتشر إلى أبعد من النطاق الجزري لشرق آسيا .

وهكذا نجد في نصف الكرة الشمالي طريقاً للمواصلات تتصل حلقاته لأن اليابس متصل إلى حد ما ، ولأن مساحات كبيرة تقع شمال خط عرض ٣٠° شمالاً تقلب نمو المدن الحديثة ، بينما قلت مساحات اليابس في نصف الكرة الجنوبي

وترداد قلة جنوب خط عرض ٣٠° جنوباً . والجماعات التي تسكن حافاتها الجنوبية ليست إلا سلاسل تفرعت عن الأجناس التي تقطن إلى الشمال منها .

وبالبلاد الجنوبية تتشابه في تركيب صخورها ، تشابهاً عجيباً ربما كان ذلك راجعاً للتكوين الأول لقارات نصف الكرة الجنوبي ، فما هي سوى بقايا قارة قديمة ، هضبية في تضاريسها ، ولا تزال بقاياها ممثلة في جنوب أفريقيا وفي شرق أمريكا الجنوبية وفي غرب أستراليا تحف بها في القارتين الأخيرتين جبال التوائية هي جبال الانديز في أمريكا والسلسلة الشرقية في أستراليا ، وتفصلهما البقاع المغمورة في المحيطين الأطلسي والهندي .

كما تتشابه بلاد النصف الجنوبي تشابهاً عجيباً في مناخها فلا تميزها تغيرات مناخية عظمى بسبب عدم وجود الكتل اليابسة الكبرى والمساحات التي تصلح لسكنى الرجل الأبيض هي مساحات أغلبها صحراء في غرب القارة يقابلها نطاق ساحلي في شرقها — ويبدو هذا واضحاً بصفة خاصة في أستراليا — وبهذه الظروف تتشابه القارات الجنوبية في منتجعاتها فقلت بذلك فرص تبادل التجارة فيما بينها كما أنها أكثر عزلة عن بعضها من عزلتها عن الأراضي الشمالية ، وليس هناك في الحقيقة طريق مواصلات دائري في النصف الجنوبي ؛ فنجده مثلاً جزيرة ترستان دي كونا تقع مباشرة بين بيونس أيرس ومدينة الرأس ، كما تقع جزيرة كرجولن مباشرة بين مدينة الرأس وملبورن ، غير أنه من أندر الحوادث أن تمر سفينة بإحدهما ، كما يقع بين أمريكا الجنوبية وأستراليا بضعة جزائر تحمل أسماء لا نسمع بها إطلاقاً .

وقبل أن تشق قناة السويس وقناة بنما كانت حركة النقل العالمي التي تجري في البحار تمر فعلاً بمضيق ماجلان وجول رأس الرجاء الصالح ، وهي تحمل بحارة غالية الثمن صغيرة الحجم فاستتمت أمريكا الجنوبية والطرف الجنوبي لأفريقيا فترة من الزمن مميزة وقوعهما على الطريق الرئيسي ، غير أنه لما أنشئت السكك الحديدية عبر القارات وافتتحت القنوات الكبرى فقدت كل منهما شيئاً من أهميتها النسبية . ولم تهبط أستراليا قط تلك الميزة التي توافرت لهذه البلاد أي جنوب أفريقيا وأمريكا الجنوبية لأنه تفصلها عن الأراضي

الاسيوية مناطق شاسعة من البحار ولم يكتشف ضرورة إلى الدوران حولها إذا دعا. داع إلى الملاحه حول العالم ، ولهذا لم تكتشف إلا حديثاً وظلت بعيدة عن جميع الطرق التجارية الهامة ولا مناص من بقاءها كذلك — ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا أن بلاد أمريكا الجنوبية واستراليا ونيوزيلند تقع في أطراف العالم بكل ما تشمله الكلمة من معنى حرفي — ومن الجائز أن تكون هذه الحقيقة متصلة اتصالاً وثيقاً بقله سكان أستراليا الأصليين وبكونهم يمثلون حساً بدائياً تماماً .

وكان جنوب أفريقيا أكثر تعرضاً للمؤثرات المختلفة ، فضلاً عن أنه لا يمتد كثيراً نحو الجنوب فيقتصر في امتداده حتى عرض ٣٥° جنوباً . ويقطن هذا الجزء أجناس وطنية . أما استراليا فقد تركت في سباتها حتى جاء عهد تفوق السيطرة البريطانية على البحار فأصبحت بعدئذ مستعمرة بريطانية خالصة تعصب لسياستها البيضاء وربما كانت العلة في تعصبها هي أنها بلاد قليلة السكان يسهل الوصول إليها من الأراضي الواقعة إلى شمالها وهي أقرب منالاً لأهل تلك البلاد عنها بالنسبة للقادمين من الجزر القاصية الواقعة في المحيط الأطلسي ( يقصد بريطانيا ) . أما جنوب أفريقيا فقد تم احتلاله حديثاً في زمن متأخر نسبياً ، على الرغم من أن اكتشافه قد تم مبكراً وتحكمه الآن دول بحرية وتقطنه أعداد وفيرة من الوطنيين . بينما تم احتلال أمريكا الجنوبية إبان عهد الاكتشافات الأولى وقد أصبحت أسبانية أو برتغالية في ثقافتها وتتبع في نظامها الاقتصادي النطاق الشمالي .

يتضح من ذلك أن أجزاء العالم الهامة هي التي انتظمت دولاً تقع في الإطار الشمالي للاستيطان والحركة ، ويتصل بهذا الإطار حواف تقل في أهميتها نسبياً — وسواء انتظم الناس في دول أم قسموا تبعاً لحرفهم ، وسواء كان نظام تقسيمهم أفقياً أم رأسياً وسواء كان توزيعهم قومياً أم دولياً فسوف يظل التوزيع الأساسي ذاته صحيحاً إلى الأبد .

أضف إلى ذلك أن العالم الآن بنطاقه الشمالي وما يتصل به من شعب هو وحدة اقتصادية واحدة ولكل شعب على سطح هذا الكوكب مكانه داخل هذه الوحدة بما في ذلك الشعب الأمريكي القاطن في الولايات المتحدة مهما بعدت به الدار ونأت

عن خطر الاشتباك العسكري — وما دام سكان هذا الكوكب يعتمدون على جهود بعضهم بعضاً وما دام ساكني بريطانيا يفيد في يوم واحد بطريق مباشر أو غير مباشر من جهود عشرات الآلاف من الناس لامن مواطنيه فحسب يل ومن السكان المنتشرين في كل أنحاء العالم — وما دام رجل الانسكيمو يعتمد في الحصول على آلاته على مصانع البلاد الصناعية كما يعتمد عليها الرجل الزنجي في أواسط أفريقيا في سبيل الحصول على ملابسه — ما دام كل هذا جارياً أضحي من المستحيل أن نعتبر استقلال الفرد مثلاً أعلى في حد ذاته . ولم تعد المشكلة الحقيقية كيف نميش منفصلين عن بعضنا بعضاً ، بل أضحت كيف نعيش معاً ، ولا تزال غايتنا هي الحصول على أكبر قدر من الطاقة سواء كانت طاقة بشرية أم طبيعية . وإذ كان الإنسان بمجهوده الفردي قد يبطيء في استئصال الطاقة حتى ولو اشترك مع غيره فقد يمكن أن تسره الجماعة أو الفرد في استخدامها فتضيئها هباء منثوراً ، ولا يكاد المرء يصدق ذلك الإسراف الهائل في موارد الطاقة التي ذهبت سدى في الحرب العالمية الأولى — من فحم ومحاصيل وما توافرت على انتاجه للدن والصناعات المختلفة وتلك القوى البشرية الهائلة كلها ذهبت جفاء وقد يتطلب إصلاح ما أفسدته الحرب قدراً يقرب من خمس كميات الفحم الموجودة في العالم — وهناك إسراف في الطاقة حتى في السلم يجعل عن الوصف بسبب الاحتكاكات المختلفة بين الدول . أليس عجباً بعد ذلك أن يرغب العالم في إقامة نوع من الحكومة العالمية ليحرس تلك الوحدة العالمية ؟ . . ولو أن العالم قد وفق إلى هيئة أم قوية ناجحة لكان ذلك بمثابة بدء مرحلة جديدة في سبيل التقدم واقتصاد الطاقة فيتجنب بعض النواحي التي تضيع فيها الطاقة هباء منثوراً .

## الفصل التاسع عشر

### احتمالات الغد

لقد تتبعنا في الفصول السابقة الخطوات الهامة التي مر بها العالم الحديث في أثناء تطوره تدريجيا — ونظرنا إلى هذه الظروف باعتبارها أثراً من آثار تحكم الجغرافيا في الإنسان وتوجيهها آياه في أثناء محاولاته للحصول على قدر أوفر من الطاقة واستغلالها . وقد عرفنا ما هي هذه الضوابط الجغرافية الهامة ولا حظنا أنها تعمل عملها بطرائق مختلفة عديدة تبعاً لمدى معرفة الإنسان وخبرته المكتسبة كما ونوعاً — ويبقى علينا الآن أن نقوم بمحاولة لكشف النقاب عما يمكنه المستقبل من تطور محتمل وعما إذا كانت الدنيا أوستتغير ستقطع شوطاً آخر من أشواط التقدم .

ومهما كان الأمر ، يتضح من دراساتنا السابقة أن هناك احتمالاً لأن تسير المدنية في طريقين اثنين ، فقد تعتمد تلك العوامل التي درسناها إلى العمل بأسلوب يختلف عن أسلوبها السابق ، وقد تصبح موارد الطاقة التي لم تستغل في الماضي ميسورة في متناول الإنسان ، وقد يصبح الانتقال سهلاً في أقاليم يتمسر فيها هذا الانتقال الآن ، وقد يجد الإنسان نفسه قادراً على استخدام موارد من الطاقة في أقاليم يتمذر عليه الآن استغلالها . وسيصاحب هذه التغيرات في استخدام الطاقة تغييرات في أهمية الأقاليم بمقارنتها بغيرها — ومن ثم سوف تظل الجغرافيا تتحكم في التاريخ وتوجهه في مجراه غير أن توجيهها سوف يتبع أسلوباً مختلفاً .

وأكثر من ذلك ، قد يكون هذا التغيير راجعاً إلى نفاذ موارد الطاقة التي يعتمد عليها الإنسان الآن وقد يزداد جفاف بعض البلاد بشكل محسوس فيعز ذلك نمو المحاصيل وزراعتها وتعجز موارد الغذاء عن الوفاء بمحاجات السكان —

ولو أن ظاهرة الجفاف هذه شملت مساحة واسعة من الأراضي لتأثر التاريخ تأثراً كبيراً — حقا بذل بعض العلماء محاولات لإثبات أن قلب القارة العظمى أخذ في الجفاف شيئاً فشيئاً وقال بعضهم أن هناك نظاماً ثابتاً يقضى بمرور فترات منتظمة من الجفاف أو من الرطوبة ولكنها لا تطرد في جفافها — وسواء صحت هذه النظرية أو تلك — فإن هذا لا يعيننا البتة ، فإننا نعلم علم اليقين أن فترات الجفاف طارئة في التاريخ سواء كانت ذبذبتها دورية أم لا ، وقد أثرت في التاريخ بأكثر من طريقة واحدة — وسواء تطورت المساحات القارية فازدادت جفافاً أم لم تتطور فإن هذا التغيير بطيء جداً في حدوده مما يجعل التطورات الأخرى أعظم أثراً .

وقد سبق أن تكلمنا عن حقول الفحم التي يستمد منها الإنسان أكبر مورد من موارد القوة ، ولا بد يوماً من أن تصاب هذه بالعجز فتنفد مواردها ويصبح التغيير في تلك الحالة من الخطورة بمكان ، لأن الفحم الذي يحترق مرة يقف إلى الأبد ولا يمكن تعويضه أبداً ، ومن البين أن هناك قدراً محدوداً من الفحم فإذا استهلك لم نجد له عوضاً ، وقد يظن البعض أن كميات الفحم في العالم ضخمة بدرجة تطمئننا إلى استغلاله أحقاباً لاحصر لها ولا تنذر بنفادها ، غير أن الحقيقة ليست كذلك . فقد تم مسح الكرة الأرضية الآن وإن كان مسحاً غير تام في بعض أجزائها تعوزه التفاصيل في أجزاء أخرى ، وتم ذلك في دقة تجعل من المستحيل تقريباً أن تختبئ موارد عظيمة من الفحم لم تكتشف بعد ، وعلى هذا الأساس لو ظل الاستهلاك الحالي على معدله لن يلبث الفحم الموجود في بريطانيا وألمانيا أكثر من فترة تتراوح بين خمسمائة عام وألف عام ولن يستغرق استهلاك الفحم في الولايات المتحدة أكثر من ستة آلاف عام ، ولو فرض واستمر الاستهلاك يزيد بمعدل زيادته في السنين الأخيرة فإن جميع الفحم الذي يصلح للاستغلال في هذه البلاد ( أي بريطانيا ) بظروفها الراهنة سوف ينفد في مائة وخمسين عاماً ، وقد لا يكون هذا النفاد في حد ذاته خسارة كبرى ، وقد يصبح حافزاً يدفع إلى زيادة الاقتصاد واستمرار التقدم . أما الدافع إلى الاقتصاد فقد بدأ فعلاً في محاولات تجعل الآلات تفيد بأكثر قدر من

الطاقة المتولدة عن احتراق الفحم، ولا يبدو ما تستخدمه آلة بخارية جيدة أكثر من ١٢٪ من طاقة الوقود الذي تحرقه وهو تقريباً نفس النسبة التي يستخدمها الإنسان في أداء أعماله من مجموع الطاقة المتولدة من غذائه . غير أن نسبة ما يستخره الطوريين فعلاً قد تبلغ ٣٠٪ من طاقة وقوده وقد تعلو هذه النسبة قليلاً في الآلات التي تستخدم غاز الاستصباح . ومع هذا فهو تبذير لو قارنا ذلك بالطاقة التي تستهلكها حشرة اليراع لتعطي ضوءها فإن كفاءتها الضوئية لا تقل عن ٩٩ ½٪ من مجموع طاقتها .

ومهما كان الأمر وحتى لو فرض واستخدمت كل الطاقة الكامنة في جميع موارد الفحم الموجودة في العالم كله في أغراض نافعة فمن الواضح أننا واصلون إلى مجاعة في الفحم بعد حين من الزمان قد يبدو بعيداً ، باعتبار مقاييسنا العادية ولكنه قصير بلا شك باعتبار المجهود التي تقيس بها الأزمنة التاريخية . وإذا ما نفذت حقول الفحم ضاعت أهمية البلاد التي تمتلكها ، وكلما أمكن للدولة أن تستخرج الفحم من باطنها عهداً أطول كلما زادت أهميتها بقدر مناسب ، هذا على فرض بقاء الظروف الأخرى على حالها . ولهذا نكتسب حقول الفحم الشاسعة في الصين أهمية خاصة كلما رتونا بنظرنا إلى المستقبل .

كما أن البترول مصدر هام من مصادر الطاقة ، ولو أن معلوماتنا عن منابعه تقل عن معلوماتنا عن مناجم الفحم إلا أنه يكاد يكون من المؤكد أن هذه الموارد لا تتجدد على مر الأيام وأن مجموع الكميات التي تصلح للاستغلال لا تقارن البتة بكميات الفحم وأنها سوف تكون أسبق في النفاد — ويلاحظ أن كميات البترول في الولايات الشرقية من أمريكا تتناقص تناقصاً سريعاً — هذا على الرغم من أن الناتج في ازدياد في الولايات الواقعة في غرب نهر المسيسيبي ، ومع هذا فلو سار الحال على هذا المنوال لنفدت كميات البترول في الولايات المتحدة في مدى قرن من الزمان ولو ظل معدل الاستهلاك في زيادة لرأى هذا الجيل بعينيه نفاد كمياته . فماذا يتبقى لنا من موارد الطاقة الأخرى ؟ لقد ظل أهالي شمال غرب أوروبا يستخدمون لمدى ألف عام أو يزيد القوة المتولدة عن ارتفاع المد مرتين يومياً

فحملت موجات المدالسفن في داخل الخليجان الممتدة إلى مسافات بعيدة في اليابس ضد اتجاه الرياح وعكس تيارات الأنهار ، وكانت الطاقة المتوفرة عن هذا الاستغلال ذات فائدة كبرى — وقد يبدو يمكننا استخدام هذه القوى التي تضيع هباء فتستغل في جميع الوجوه النافعة غير أنه لا يمكن أن تحمل محل الفحم في جميع البلاد باستثناء بعض مواضع محظوظة — وقد لا يبدو محتملا — حتى مع فرض نفاد الفحم — أن يلجأ إليها الإنسان إلا باعتبارها الملاذ الأخير أن عزت عليه موارد القوى الأخرى . وحتى في ذلك الزمان فسوف يكون ضائعا أكثر من ناتها — وربما دمرت الزوابع المؤسسات الكبرى التي يتطلبها استغلال مثل هذه القوى .

أما طاقة الرياح والمياه الساقطة فهي شبيهة بالمد والجزر في أنها تتجدد دائما بعكس طاقة الفحم . وقوى الرياح شأنها كشأن المد والجزر يقل ناتجها عن ضائعا وأما مجموع القوى المائية فهو لا يوازي اطلاقا القدر اللازم لتأخذ المسكنة التي تحتلها طاقة الفحم اليوم هذا إذا عجزت موارد الفحم في يوم من الأيام . وتقدر القوى المائية في الولايات المتحدة مثلا بأنها تتراوح بين ٣٦ و ٦٦ مليون حصان وهذا القدر على فرض تسخير جميعه يقل بكل تأكيد عن نصف الطاقة التي يوفرها الفحم المستخرج الآن من مناهجه في الولايات المتحدة ، وقد يقل عن هذا كثيرا ، وتقدر جميع القوى المائية على سطح الكرة الأرضية بمائتي مليون حصان تقريبا ، وهو قدر أقل بكثير مما يهيئه الفحم اليوم ، فإذا غاب الفحم عن الوجود فلن تستطيع القوى المائية أن تسد جميع احتياجاتنا ، وإن أصبحت ذات نفع عميم — وعلى العموم فإن طاقة المياه الساقطة تمتاز بأنها أكثر اقتصادا من الطاقة المستمدة من الهواء أو المد والجزر ، وبعبارة أخرى أن أى كمية معينة منها تعطى من ضاى ناتجها قدرا أوفر من أيهما ، وربما نرى في مستقبل الأيام الأقاليم المرتفعة الغزيرة الأمطار أرفع مكانة وأبعد شأوا في ركب الحضارة العالمية .

ويحتمل بطبيعة الحال أن يكتشف عامل جديد يهيئ لنا استخدام صور من الطاقة التي تصدر عن بعض المواد كالراديوم مثلا وهو أهمها أو نتحكم في الطاقة التي تصدر عن الحرارة الكامنة في باطن الأرض ، ولكن هذا لا يزال فرضا بعيدا



فلن يستخدم أى قدر معقول من الطاقة المتولدة عن أى من هذين المصدرين .

ولهذا يبدو أن أقرب التطورات احتمالا تلك التى تقول بنفاد كميات الفحم ، وانتشار استخدام القوى المائية والقدرة المتزايدة على الإفادة من موارد الطاقة بأساليب أكثر اقتصادا . أى أنه على فرض تساوى الظروف جميعا ربما بلغت الأقاليم التى تحتفظ بفحمها دون نفاد أطول أجل ممكن والتى تتوفر لها موارد كبرى من القوى المائية ، من المحتمل أن تبلغ هذه الأقاليم منزلة كبرى بين أقاليم العالم الأخرى التى حرمت مثل هذه المزايا .

ولنأخذ بمين الاعتبار التوزيعات الأساسية الأكثر أهمية فنقول أن موارد الفحم والبترولى هى فى طبيعتها رأس مال تجمع لنا فى عهود سحيقة ماضية وباستهلاكنا إياها لا نجمع طاقة إطلاقا ، وهى تختلف فى أساسها عن طاقة الإنسان البدنية والتى هى طوع وإرادته والتى يولدها فى جسمه بعد تناوله الغذاء المستمد من الطاقة الشمسية والتى وفرت للنبات أو الحيوان فرصة النمو قبل ذلك بأيام أو شهور ، وقد كانت هذه هى وسيلة الإنسان الوحيدة الممكنة فى أداء أعماله حتى مائة وثلاثين عاما خلت ، ولهذا فإن استخدام طاقة الفحم والبترولى ضرب من قبيل الصدفة العارضة التى لا تلبث أن تزول بآثارها ، ولكننا ونحن فى زهوة الانقلاب الصناعى وما تستتبعه من تطور وتغيير لا نشعر بخطر نسيان أنه أمر حادث وإن الإشعاع الشمسى هو المصدر الأخير للجزء الأعظم من الطاقة التى نستخرها على ظهر الأرض وعلى الأخص فإن النباتات النامية تهى لنا موارد من الطاقة فى أحسن أشكالها ملائمة للإنسان ، ولا شك أن فلاحه الأرض سواء زرعت بساتين أو محاصيل أو أشجار وسواء كانت هى أقدم الحرف الإنسانية أم لم تكن . هى بلا شك الأساس الأول لطاقة الإنسان .

وقد أصبنا تقدما فى اقتصاد الطاقة باستخدام أحسن الآلات واتباع خير أنواع التنظيم حتى يقل الضائع ما أمكن وحتى نصل إلى أحسن النتائج ، كما أصبنا خطوات أخرى من التقدم بحصولنا على زيادة فى المحاصيل كنتيجة للبحوث التى نجريها على المشكلات المختلفة والتى لا يبدو حلها لأول وهلة مؤديا إلى اقتصاد فى الطاقة ، فنتج مثلا عن الدراسات التى أجريت فى علم الوراثة أن ربيت أنواع

من القمح تقاوم الأمراض أو تستغرق وقتاً أقصر في نموها مما تمنحخص عنه ظهور سلالة من القمح أفضل مما وجد حتى الآن ، وأدت البحوث التي أجريت على الطفيليات التي تعيش في التربة وفي غيرها من الأماكن ، أن عرفت وسائل للقضاء على الكائنات الحية التي تعيش في التربة وتفترس أنواعاً خاصة من البكتيريا تمتاز بأنها تزود النباتات بغذائها في شكل صالح لها ، كما أنه بفضل الأبحاث التي أجريت على الظواهر الجوية في الطبقات العليا وسقوط الأمطار في أماكن متفرقة كجنوب أمريكا والساحل الشرق لأفريقيا — وهي ملاحظات في حد ذاتها ذات طابع علمي بحت — أصبح في الإمكان أن تزود فلاحي الهند مثلاً ببيان عما يحتمل سقوطه من الأمطار بفضل الرياح الموسمية . ولهذا نرى بعض البلاد تحرز الآن تقدماً في مقدرتها على الحصول على قسط أوفر من الطاقة المستمدة من التربة وتحرص أشد الحرص على ألا تفقد منها إلا أقل قدر ممكن — مثل هذه البلاد تجمع أعظم قسط من الطاقة حيث نرى أكثر سكانها قادرين على بناء الحضارة وهم أكفأ الناس على استخدام وسائل العلم الحديث . مثل هذه المساحات في أغلبها توجد حيث يعظم القدر المخزن من الطاقة فيستطيع أهلها أن يخصصوا جانباً منها لإنفاقه على ترقية هذه البحوث . وبعبارة أوضح هي البلاد التي تحوى أكبر قدر من الفحم ، ومن ثم نرى في الوقت الحاضر أن نتائج التقدم في زراعة التربة قد تحتفي ببعض الشيء تحت قناع من التقدم الذي طرأ على البلاد من جراء استخدام الفحم .

ولولا تصدير الفحم أو المصنوعات التي تم صنعها بفضل طاقته لفقدت أراضى الدول الكبرى خصوصيتها فعلاً — فمثلاً حقول القمح في أيسر انجلترا تحتفظ بخصوبتها بسبب استخدام الأسمدة الكيميائية أو العضوية ، ويدفع ثمن الأسمدة الكيميائية مما تحصله البلاد من ثمن صادرات الفحم ومما تصنعه من مصنوعات ، كذلك يدفع ثمن المواد العضوية بنفس الطريقة حيث أن الماشية تعتمد في غذائها على المواد المستوردة . ولو أن بريطانيا أو ألمانيا أو فرنسا أو حتى الولايات المتحدة اعتمدت على نفسها بمفردها لقلت قدرتها الانتاجية شيئاً فشيئاً ، وتنفرد الصين وحدها بقدرتها على الاحتفاظ بخصوبتها دون مساعدة خارجية .

ويبدو محتملاً أن أعظم تقدم قديم حدث في المستقبل حين يتناول العالم بالتنظيم البلاد التي تكون فيها النباتات أسرع في نموها عما في غيرها بفضل الطاقة الحرارية وبفضل وجود نسبة كافية من الرطوبة والأمطار ، وقد رأينا حتى الآن أن الغابات الاستوائية ظلت بعيدة عن التنظيم العالمي ، ولم يقدر لأية حضارة قديمة أن تنمو بها لأن نمو النباتات فيها أسرع من أن يتحكم فيه البشر — غير أن الإنسان ازداد خبرة وعلماً بما تيسر له من تحكم في قوى عظمى وضعها الفصح تحت تصرفه ، فأصبح الآن قادراً على استخدام مصادر أخرى عظيمة من موارد الطاقة ، ففي الأقطار الشمالية لا ينمو بها إلا محصول واحد في العام ونموه يسير فيها بطيئاً بالنسبة لغيرها من البلاد ، بعكس أحواض الأمازون والكنغو وجزائر الهند الشرقية حيث ينمو النبات على الدوام وفي سرعة كبيرة ، وفي هذا ينبوع من الطاقة يتجدد دائماً فهل نستطيع الاستفادة منه ؟ نحن في البداية الآن — وتنظيم هذه الأماكن يأخذ مجراه ، ذلك أن العالم يستمد من غاباتها احتياجاته من المطاط ، ولكن هذا أمر تافه على أهميته لأن المطاط ليس مصدراً من مصادر القوى ، وفائدته محصورة في أنه يهدف إلى اقتصاد الطاقة فقط ونتوقع لهذه الأقاليم أن تصبح يوماً ما مصدراً مباشراً يزود الإنسان بالوان من الطاقة — سواء كانت مستمدة من مواد تصلح وقوداً للاحتراق — وهذا مشكوك فيه — أو من الكحول المفطر من النباتات أو بأي شكل كان فهذا أمر ليس بندي بال بالنسبة لتلك الحقيقة الراهنة وهي أن الطاقة موجودة بها فعلاً ويمكن استغلالها .

الخريطة رقم ٨٠



النطاق الذي تشتد فيه الحرارة  
وتتكرر فيه الأمطار وتنمو به الغابات

وهناك في الحقيقة سببان يحولان دون نجاح الإنسان في استغلال هذه الأقاليم حتى الرجل الأبيض على ما عرف عنه من عبقرية في التنظيم — ولعل السبب الذي يأتي في المقام الأول هو أن أحوالها الجغرافية تختلف اختلافاً بيناعن تلك الأحوال التي ترعرع الرجل الأبيض فيها في الأقاليم الشمالية ، ولهذا عرّف عن أن يبذل محاولات ليحل المشاكل التي تواجهه أو أن يحاول تكيف نفسه ليعيش فيها عيشة راضية . وبمعنى آخر من الصعوبة بمكان أن نجعل الناس يغيرون عاداتهم التي نشأوا عليها أو أن يغيروا أساليبهم في تأدية أعمالهم لأن القصور الذاتي السكّان في نفوسهم أقوى من أن يناله أى تغيير . وقد عرفت أفريقيا وجنوب أمريكا قبل أن تُرتاد الولايات المتحدة وكندا بزمان طويل ، ولكن الناس في الدولتين الأخيرتين يعيشون فيها بطرائق لا تختلف كثيراً عن تلك التي اعتادوا عليها في بلادهم الأولى ، بينما كل شيء غريب عليهم في البلاد الأخرى ويجب تدبير الحياة فيها على أساس مختلف . ولهذا لا تهاجر العناصر البيضاء إليها في أعداد وفيرة لتستقر فيها — وعلى أحسن الفروض فهم يرغبون في المهاجرة إليها في أعداد صغيرة ولبضع سنوات فقط كما يذهبون إلى الهند مثلاً .

ولهذا فلن يبعث على الدهشة أن رأيناها تصيب تقدماً قليلاً ثم يأتي في المقام الثاني أن الظروف الجغرافية فيها ليست مختلفة فحسب ولكنها تهدد الحياة بالخطر . وقد رأينا اليونانيين والرومانيين يظهران بمظهر من فقد الحيوية والقوة في عهودهم الأخيرة لوقارناهم بتاريخهم الأول — وربما كان هذا راجعاً لانتشار الملاريا بينهم بعد أن انتقلت إليهم من البلاد الدفيئة التي سيطروا عليها . وسواء كان هذا الزعم صحيحاً أم لم يكن ، فمن الثابت أن الأمراض غير المعروفة في البلاد الباردة تصبح شديدة الفتك في ضحاياها لو أنهم انتقلوا إلى البيئات ذات الحرارة المرتفعة . وفي هذا خسارة في الأرواح لا يقابلها أى اقتصاد — غير أنه يبدو في هذا الميدان أن الإنسان أصاب تقدماً، فقد بحثت هذه الأمراض وعللها وتوصل الإنسان ببعض الشيء إلى اكتشاف وسائل الوقاية منها . ولم تبشر هذه الأبحاث في أول الأمر بأنها ستنقذ الإنسانية من بعض آلامها ، ولم يساورنا أمل في إمكان اقتصاد الطاقة عن

طريقها . فنذ جيل مضى لم يتنبأ إنسان بأن هذه المعرفة بمقاومة الأمراض تكتسب عن طريق دراسة الحشرات بأنواعها المختلفة وعاداتها وعن طريق جمعها وفحصها تحت المجهر — إلا أن هذا كان الواقع بعينه — فقد ثبت أن الأمراض تنتقل من إنسان إلى إنسان بواسطة أنواع خاصة من الحشرات كالبعوض مثلاً — مثل هذه الأمراض نقصت كثيراً أو أمكن القضاء عليها بإغناء الحشرات النافلة لها ، ومثلاً انتشرت الحمى الصفراء في ريودي جانيرو في عام ١٨٩٨ ومات بسببها ١٠٧٨ شخصاً إلا أن ضحاياها في عام ١٩٠٨ كانوا أربعة — وفي هائانا مثلاً فيما بين عامي ١٨٥٣ و ١٩٠٠ كان معدل الوفيات السنوي من الحمى الصفراء يصل إلى ٧٥٤ نسمة بينما نجده فيها في عام ١٩٠٧ يقتصر على حالة واحدة فقط وفي عام ١٨٨٧ مات في إيطاليا ٢١٠٣٣ من جراء فتك الملاريا إلا أن هذا العدد تناقص حتى أصبح ٤١٦٠ في عام ١٩٠٧ وفي الإسماعيلية بلغت الإصابات بالملاريا ٢٠٠٠ إصابة في عام ١٩٠٢ ثم اختفت فيها تماماً في عام ١٩٠٥ كذلك ظهرت بور سعيد أيضاً من الملاريا .

ولنتخذ النقود مقياساً ، فنجد فيها أدلة على اقتصاد الطاقة . ففي عام ١٩٠٣ كلف انتشار الملاريا شركة قناة السويس مبلغ ٣٨,٢٠٠ فرنك بينما لم تتكلف مقاومتها عام ١٩٠٨ إلا نصف هذا المبلغ . وإن حفر قناة بنما نفسها لم يصبح ميسوراً إلا بعد اكتشاف الإجراءات اللازمة للتغلب على الأمراض فطهرت المنطقة من مرض الطاعون والحمى الصفراء كما نقصت إصابات الملاريا نقصاً كبيراً . وقد هبط معدل الوفيات بين الموظفين في قناة بنما من ٤٠ في الألف في عام ١٩٠٦ إلى ١٠,٦٤ في الألف في ١٩٠٩ وهي نسبة أقل بكثير مما يوجد في أغلب مدن العالم المتحضر . كما نقصت في منطقة بنما إصابات الملاريا من ٨٢١ في الألف في عام ١٩٠٦ إلى ١٣ في الألف في عام ١٩١٧

هذا ويقال أن مناخ الأقاليم الاستوائية ليس مؤذياً في حد ذاته وكل ما يؤخذ عليه أنه يسبب ضربة الشمس لمن يخرج في العراء إبان حرارة النهار دون أن يكسى رأسه بمطاء واق لها . كما أنه يسبب للإنسان رغبة في النوم بعد تناول وجبة الغذاء ويقال أن السل والحمى الروماتيزمية والأنفلونزا أمراض لا وجود لها هناك وأنه

لو أمكن للإنسان تجنب ذبابة التسي تسي لنجا من مرض النوم، ولو تجنب البعوض لخلص من الملاريا — ويُنصح دائماً بعدم النوم على الأرض الموحلة وألا تنصب الخيام على مواضع المعسكرات القديمة تحاشياً للبق والقراد — وعلى الإنسان إبعاد الفيران عنه ليكون بئامن من الإصابة بالطاعون — كما قيل أنه لو اتخذ الحرص والانتباه ديدناً له لكانت الحياة في البلاد المدارية أقل تعرضاً للأمراض منها في البلاد المعتدلة ذات المناخ البارد والتي تنتشر فيها الإنفلونزا انتشاراً ذريعاً .

قد يصعب على الإنسان اتباع هذه النصيحة وإنه لمن الرق أن يعرف المرء النصيح الذي يسديه وإلى أن يتيسر للبشر أن يتبعوا هذه النصائح وأن يفيدوا من نتائج علمهم ومعرفتهم حينئذ فقط يمكن استغلال موارد الطاقة الهائلة المخزنة في الغابات الاستوائية ولن تجرى بعدئذ أنهار الكنفو والأمزون في أقاليم خاوية من سكانها .

ثم أن هناك احتمالاً آخر — فقد خلت من النباتات فيافي الصحراء الكبرى بسماؤها الصافية وأمطارها المدمومة التي لا تسقط فيها سنين متوالية حتى عجز الإنسان عن الحياة فيها . ولو قدر للإنسان أن يستخر خدمته بطريقة مباشرة الطاقة المستمدة من إشعاع الشمس التي تظل تلفح الأرض بأشعتها باستمرار من مطلعها حتى مغيبها بدرجة تقل قليلاً عما تسديه الشمس لأراضي العروض الاستوائية ، لو أن الإنسان وفق إلى شيء من هذا لتحول أقليم آخر لا يزال خاوياً من سكانه إلى أقليم يعول عدداً كبيراً من السكان وبلغت منزلته شأواً عظيماً .

لو أننا اتخذنا في الصحراء مساحة تقرب من مساحة لندن على أوسع حدودها لوجدنا أنها تستقبل من الطاقة الشمسية في كل عام ما يوازي الطاقة المتولدة عن احتراق الفحم المستخرج من جميع مناجم بريطانيا بأسرها ، وقد أجريت تجارب على بعض الآلات التي تعطى كفاية حرارية عالية ، ولكن التجارب لا تزال في مهدها والوقت لم يحن بعد لنقول أنه قد اتخذت الخطوات الأولى في سبيل ثورة صناعية كبرى .

ومن الثابت أنه كلما اقترب الإنسان من خط الاستواء كلما زادت إمكانيات الاقتصاد في الطاقة ، ومن المؤكد أيضاً أن تلك المناطق تحوى موارد من الطاقة سنلجأ إليها حتماً إذا ما نفذ الفحم وأتينا سنستخدمها إن عاجلاً أو آجلاً . وإذا اتخذنا الماضى قياساً للمستقبل فلا بد وأن يقرن استخدامها بتغيير - آت لا ريب فيه - فى توزيع سكنى البشر وفى أساليب الحياة وفى جميع الأمور مما يؤثر أثراً عميقاً فى مجرى التاريخ . وسيكون للتاريخ الماضى دوره فى تعديل هذا التطور فتظل فى الوجود أشياء لا سبيل إلى تغييرها لأنها وجدت وأصبحت من صميم الـكون .

والآن وقد آن الأوان لـكى نترك رواية القصة فنختم الكتاب بهذه النظرة إلى المستقبل ، وقد لا يكون المقام مناسباً لأن نسبق الزمن فنقول أن الأحداث تجري نحو غاية معلومة فى خلال مراحلها العجيبة وأن النواميس الآلهية تؤدى رسالتها فى دقة بالغة وأن كانت تسير سيراً بطيئاً .

## فهرست

الاسم	الصفحة	الاسم	الصفحة
الأزورس ١٢٢		( ١ )	
أسيانيا ٧٨، ٩٤، ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩،		شهر لبرو ١١٩	
١١٧ — ١٢٦، ١٢٧، ١٣٠، ١٣١،		جبال الابنين ٦٧، ٦٨، ٩٥	
١٣٢، ١٣٨، ١٤٣، ١٤٨، ١٥٠، ١٥٥،		أبو قبر ١٦٣	
١٥٧، ١٥٨، ١٦٨، ١٧٣، ١٩٥، ٢٧٧،		آيس كلوديس ٧٢	
اسبرطه ٤٩، ٥٢، ٥٤، ٥٦،		الأتراك ٢٦، ٣٦، ٩٦، ٩٧، ١٠٨، ١٤٣،	
استراليا ١٢٩، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٩،		١٨٥، ١٩٢، ٢٣٢	
الاسرائيليون ( انظر اليهود )		الأتريال الساجوقيون ٩٧	
اسكنديناوه ١٧٢، ١٨١، ٢٢٠، ٢٩٧،		الأتراك العثمانيون ٩٧	
الأسكندر ٥٤، ٥٦، ٥٧، ٦١، ٢٢٦،		أتريخت ١٥٣	
الأسكندرية ٥٧، ٥٨، ٦١، ١١٢، ١٢٢،		الأتريون ٧١	
٣٠٥		اتشاي ٢٠٧	
الاسكوديون ٢٢٩		أتلا ٩٥	
الاسكيمو ٣١٠		أتو ١٩٤	
الاسماعلية ٣١٩		أثينا ٤٩، ٥٢، ٥٣، ٦٩، ٧١،	
أسوان ١١٢		أجرا ٢٣٤	
آسيا ٨٥ — ٩٩، ١٠١، ١١١، ١٧٤،		أجريكولا ١١٣	
١٨٨، ١٩٩، ٢٢٥، ٢٣٤، ٢٥٣،		اجزيسيس ٥١، ٥٢، ٥٤، ٢١٢،	
٣٠٢، ٣٠٦، ٣٠٧،		أجيسالوس ٥٤	
آسيا الصغرى ( الأناضول ) ٤٧، ٥١،		إدنه ٢٨، ٢١٢،	
٥٣، ٥٦، ٥٨، ٥٩، ٨٨، ٩٦،		ادواسر ٩٥	
١٠٧، ١٠٩، ١٧٦، ٢٩٨،		إراتوستينس ١١٢	
أشور ٣٣ — ٣٦، ٤٠، ٤٥، ٦٤، ٧٣،		أراجون ١١٩	
٩٢، ٩٧، ٢٠٩، ٢٢٥، ٢٦١،		الأراضي الوطئة ١١٧، ١٣٠، ١٥٠، ٢٩٧،	
الأشوريون ٢٦، ٩٤، ١١٤، ٢٢٦،		( أنظر بلجيكا وهولند )	
الآفار ٩٥، ١٧١،		بحر أرال ٨٧	
افريقيا ١٥، ٦٣، ٨٥، ٨٦، ٨٧، ٨٩،		الأردن ٣٨	
١٠٧، ١٠٨، ١١١، ١١٣، ١١٤، ١١٩،		الأرجنتين ٢٥٦، ٢٧١،	
١٢١، ٢٣٦، ٢٤٠ — ٢٥١،		أرجوليس ٤٩	
٢٥٢، ٢٥٦، ٢٩٥، ٢٩٦، ٣٠٣،		الأرمادا ١٤٨	
٣١٦، ٣١٨،		أرمينيا ٢٥، ٢٩٨،	
أفغانستان ١٧٥، ٢٣٢، ٢٣٨، ٢٩٧، ٢٩٨،		الآزتك ٣٦١، ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٧٠،	



الاسم	الصفحة	الاسم	الصفحة
الأقاليم القطبية الشمالية ١٣ ، ٢٨٠		أمز ٦١٤	
آد ٣٢		أمسك ٣٠٥	
أكبر ٢٣٥		أمنحتب ٢٥	
اكتيوم ٨٠		الأمير الأسود ١٣٧	
اكوادور ٢٧٠		أميين ١٦٤	
اكوتانيا ١٣٥		أتورب ( انقرس ) ١٣٠	
الاباما ٢٨٩		أندرمات ٢٩٧	
جبال الألب ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٨ ، ٩٥ ، ١١٥ ،		جبال الانديز ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢١٢ ، ٢٦٦ ، ٢٦٨ ،	
١٣٥ ، ١٩١ ، ٢٩٧		٣٠٨	
نهر الإلب ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٩٥		أمجشن ١٤٦	
ألباني ٢٨٧		انجلترا ١٠ ، ١٢ ، ٣٩ ، ٩٥ ، ١٢٨ ، ١٣٧ ،	
ألتاي ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢٩٥		١٣٨ ، ١٤٢ — ١٤٩ ، ١٧٢ ، ١٨٣ ،	
إلرك ٩٤		١٨٤ ، ٢١٢ ، ٢٧٣ ، ٢٨٩	
الانزاس واللورن ٢٩٧		الأنجلز ١٤٦	
اللمانى ٩٤		أنجولا ٢٤٩	
ألمانيا ٨٧ ، ١٧٧ ، ١٣٣ ، ١٤٣ ، ١٧٢ ،		أنطاكية ٥٨	
١٧٥ — ١٩٧ ، ٢١٥ ، ٢٥٠ ، ٢٨٤ ،		أقرنس شير ١٢	
٢٨٥ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣١٢ ، ٣١٦		الانقلاب الصناعى ١٩٦ ، ٢٨١ ، ٢٨٧ ، ٢٩٢ ،	
البصايات ٢٣٥		٣١٥	
نهر الأمازون ٢٥٥ ، ٢٦٢ ، ٢٦٥ ، ٢٧١ ،		الانكا ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٧٠	
٣١٧ ، ٣٢٠		نهر الأودر ١٩٥ ، ٢٨٥	
الإمبراطورية البريطانية ١٥٧		جبال أورال ٩٦	
امبريا ٧٠ ، ٧١		أوريا ١٥ ، ١٦ ، ٨٥ — ٨٩ ، ٩٢ ، ٩٣ ،	
أمريكا ١١٣ ، ١١٨ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٣٢ ،		٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١١٢ ، ١٢٢ ، ١٢٧ ،	
١٤٣ ، ١٤٧ ، ١٥٥ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ،		١٢٨ ، ١٤٨ ، ١٦٣ ، ١٦٧ ، ١٧٩ ، ١٨٨ ،	
٢٤٠ ، ٢٥٢ — ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٩٤ ،		١٩٠ ، ١٩٤ ، ١٩٨ ، ٢٢٤ ، ٢٣١ ،	
٣١٣		٢٤٠ ، ٢٤٩ ، ٢٥٢ ، ٢٥٦ ، ٢٦٧ ،	
أمريكا الجنوبية ١٢٤ ، ١٢٦ ، ٢٥٣ ، ٢٥٥ ،		٢٩٩ ، ٣٠٢ ، ٣٠٦ ، ٣١٣	
٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٨ ، ٣٠٣ ،		أورجواى ٢٧١	
٣٠٤ ، ٣٠٨ ، ٣١٦ ، ٣١٨		أورليانز ١٣٥	
أمريكا الشمالية ١١٣ ، ١١٨ ، ١٢٣ ، ١٣١ ،		أورنجزيب ٢٣٥	
١٥٦ ، ٢٥٢ — ٢٨٦ ، ٢٦٤ — ٢٩٣ ،		أوريزابا ٢٥٦	
٣٠٤		نهر الأورينكو ٢٥٥ ، ٢٦٥	
أمريكا الوسطى ١٢٤ ، ٢٥٤ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ ،		الأوثرن ١٣٥	
٢٧١			

الاسم	الصفحة	الاسم	الصفحة
البحر، أدرياتي ٦٨ ، ١٦٢		أيجيا ٧٠ ، ١١٨ — ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٣١ .	
بحر الأرخبيل ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٩ ، ٦١		١٣٣ ، ١٦٨ ( انظر أيضاً أسيايا	
البحر الأسود ٥٢ ، ٥٩ ، ٧٨ ، ٢٨٥		والبرغال )	
البحر الأصفر ٢٠٣		إيران ٣٠ ، ٣٢ ، ٥١ ، ١٠٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢٥ ،	
بحر البلطيق ٩٥ ، ١٤٣ ، ١٦٣ ، ١٧١ .		٢٢٢ ، ٢٢٨	
١٧٤ ، ١٨٧ ، ١٩٣		إيرانده ٨٧ ، ١٤٣ ، ٢١٢	
بحر الشمال ١١٨ ، ١٤٢ ، ١٤٦ ، ٢٩٦		إيسلند ١١٣ ، ١٢٢	
بحر العرب ١٢٢		إيطاليا ٤٧ ، ٦٦ — ٨٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ١١٥ ،	
البحر الكاريبي ٢٢٦ ، ٢٦٧ ، ٢٧٠		١٢٣ ، ١٣٦ ، ١٣٨ ، ١٤٨ ، ١٦٢ .	
بحر المانش ١٣٧ ، ١٤٢ ، ١٤٥ ، ١٦٧ ، ٢٥٠ .		١٦٤ ، ١٧٦ ، ١٧٩ ، ١٩٥ ، ٢١٥ ،	
٢٩٧ وانظر القتال الانجليزى		٢٢١ ، ٢٨٠ ، ٢٩٦ ، ٣١٨	
بحر قزوين ٨٧		النبي إيليا ٣٩	
بحيرة بيكال ٢٠٠ ، ٢١٦		ايوكسين ( انظر البحر الأسود )	
البرازيل ١٢٦ ، ١٣٢ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٧١ .		(ب)	
٢٧٢		بابل ٣٠ — ٣٦ ، ٣٨ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٧ ، ٥٨ ،	
براغ ١٨٩		٥٩ ، ٧١ ، ٩١ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٩٩ ،	
براندبرج ١٨٥ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٦		٢٢٠ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥	
جبال، البرانس ٧٨ ، ١١٩ ، ١٣٥ ، ١٣٨ .		البابلون ٢٦ ، ٩٨ ، ١٠٢	
١٤٦ ، ١٧٣ ، ١٨١		الباتريثاك ٩٦	
البربر ٦٣ ، ٦٤ ، ١٠٧ ، ١٠٨		باريس ١٣٥ — ١٣٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٨ ،	
قبائل البربر ٨٨		١٧٧ ، ١٨٣ ، ١٩٦ ، ٣٠٥	
البرغال ١١٧ ، ١١٩ — ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٣٠ .		بافاريا ١٧٩	
١٣١ ، ١٣٢ ، ١٤٤ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ،		بال ١٧٦	
١٥٣ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ٢١٥ ، ٢٣٥ ،		بتروغراد (لنجراد) ١٧٤	
٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٧١ .		بتشيلي ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٦	
٢٨٠ ، ٢٩٦		البحر المتوسط ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٦ ،	
البرجنديون ١٧٩		٤٩ ، ٥٧ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٧٦ ، ٧٨ ،	
برجنديا ١٣٩ ، ١٨١		٧٩ ، ٨٠ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ،	
برست ١٦٦		٩٩ ، ١٠٩ — ١١١ ، ١١٢ ، ١١٤ ،	
برستول ١٤٧		١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٣٨ ،	
برلين ١٧٧ ، ١٩٥ — ١٩٧ ، ٢٨٥ ، ٣٠٥		١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٦٢ ،	
برنر ١١٥		١٦٧ ، ١٧١ ، ٢١٤ ، ٢٢٠ ، ٢٤٠ ،	
برنزيك ١٨٧		٢٤٤ ، ٢٤٧ ، ٢٦٥	
البرنس هنرى الملاح ١٢٠ — ١٢٣		البحر الأحمر ٤١ ، ٤٢ ، ١١٠ ، ١١٤ ، ٢٤٦	
البروتستانت ١٢٧ ، ١٨٥ ، ١٩٤			

الاسم	الصفحة	الاسم	الصفحة
بوسني ٧٦		بروسيا ١٦٣ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٨٣ ، ١٨٥ ،	
بومرانيا ١٨٩		١٩٠ ، ١٩٣ — ١٩٧	
بوهيميا ١٧٧ ، ١٨٩		بروفانس ١٣٩	
بين ١٨١		بريتاني ١٣٥ ، ١٣٩ ، ١٦١	
بيرجن ١٨٧		بريطانيا ١٢ ، ٦١ ، ٨٧ ، ١١٣ ، ١١٧ ،	
بيرو ١٣١ ، ٢٦٣ — ٢٧٠		١١٧ ، ١٣٩ ، ١٤٠ — ١٦٨ ، ١٧٩ ،	
بيروت ١٢٣		١٨٣ ، ١٨٥ ، ١٩٦ ، ٢١٥ ، ٢٣٥ —	
بيرا ١١٠ ، ١١٦ ، ١٢٢ ، ١٣٠		٢٣٨ ، ٢٤٣ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٧٥ ،	
بنزطه ٥٨ ، ٥٩ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ١٧٢ ، ١٧٥ ،		٢٧٩ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٨ ، ٢٩٦ ،	
١٧٧ ، ١٨٨ ، ٢٩٨		٣٠١ ، ٣٠٦ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١٢ ،	
بيكين ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٦ ، ٢١٧		٣١٦ ، ٣٢١	
بيونس ايرس ٢٧١ ، ٣٠٨		بغداد ٢٩ ، ١٠٧ ، ١٠٨	
(ت)		البلاشفة ٣٠٠	
تابتي ٢٢٢		بلاد العرب ١٠٠ — ١٠٢ ، ١٠٦ — ١١١	
تارنم ٧٠		بلجيكا ١٢٩ ، ١٣٠ ، ٢٥٠ ، ٢٩٧	
نهر تاريم ٢٠٩ — ٢١٠		البغار ٩٤ ، ١٤٣	
تايغ ٢١٠		بلويزنر ٤٦	
التبت ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٣ ،		بلوخستان ٢٢٢	
٢١٤ ، ٢٢٠		البندقية ١١٠ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١٢٢ ، ١٢٧	
التتار ٩٢ ، ٢١٠ — ٢١٣ ، ٢٢٩ ، ٢٣٤		البنجاب ٢٢٢ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٣٢ ، ٢٣٥ ،	
تنار كيئان ٢١١		٢٣٦	
تخمس ٢٥		بنغال ٢٢٨	
تراقيا ٤٧		بنما ١٢٤ ، ٣٠٢ ، ٣٠٨ ، ٣١٩	
تركيا ٩٦ ، ٩٧ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ٢٩٨		حبال البنين ٣٨ ، ٢٨٨	
ترنداد ٢٦٥		بواتيه ١٣٥ ، ١٤٣	
ترواده ٥٩		بورت ماهون ١٥٣	
ترستان دي كونا ٣٠٨		بوردو ١٣٧ ، ١٦١	
تساليا ٥٤		بور سعيد ٣٢٠	
تسن ٢٠٥ ، ٢٠٨		البوسفور ١٧٤	
تسن لن ٢٠٤		البوشن ٢٤٦ ، ٢٥٠	
أسرة تسنج ٢١٣		بولامه ٩٦ ، ١٨٩ ، ١٩٤ ، ٢٩٧	
مضايق تشوشجا ٢١٢		بولونا ٦٨	
تلال أرفالي ٢٣٣		بولونيا ١٦٥	
توري ٧١		بوليفيا ٢٧٠	
تونس ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣		بومباي ٢٣٦ ، ١٣٧	

الاسم	الصفحة	الاسم	الصفحة
جان تيان شان ٢٠٩ ، ٢١٦		حرب الوراثة الأسبانية ١٥٢	
نهر التيبير ٦٨ — ٧٠		المروء الصليبية ٩٧ ، ١١٠ ، ١٨٦ ، ٢٣١	
التبرول ٧٧		حلف اجز برح ١٥٢	
نهر التيمس ١٤٥		الحياذ المسلح ١٦٣	
تيمورانك ٩٦ ، ٢٣٥		(خ)	
التوتون ، ٨٢ ، ٨٨ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ٩٩ ،		الخزر ٩٦	
١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٦		خط الاستواء ١٢ ، ١٥ ، ١٧ ، ٢٨ ، ٨٤ ،	
التوتون ( فرسان ) ١٨٦ ، ١٩٣ ، ١٩٤		٩٠ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٨ ،	
(ج)		٢٦٢ ، ٣١٦ ، ٣٢٠ ، ٣٢١	
نهر الحارون ١٣٥		خلقيد به ٥٦ ، ٥٩	
جاسون ٥٤		خليج بنغال ٢٢٢	
جبل طارق ١٠٧ ، ١١٨ ، ١٢٨ ، ١٥٣ ،		خليج بسكاي ١٤٣	
١٦٧		خليج سوشما مبتون ١٤٦ ، ١٩٦	
جرينلند ١١٣		الخليج الفارسي ٤١ ، ٤٢ ، ١١٠ ، ١١٤	
الجزائر ١١٠		خليج كاليفورنيا ٢٥٧ .	
جزر القنال الانجليزية ١٤٥		خليج المكسيك ٢٥٦ ، ٢٥٧	
جزر الهند الشرقية ١٢٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧		خليج هدسون ٢٥٤ .	
جزر الهند الغربية ١٢٥ ، ١٥٥ ، ١٦٦ ،		خليج يدو ٣٠٧	
٢٥٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨		(د)	
الجمعية التأسيسية الفرنسية ١٦١		الدائرة القطبية الشمالية ١٤	
الجمعية الوطنية الفرنسية ١٦١		نهر دجلة ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٤١ ،	
جنكينزخان ٩٦ ، ٢١٢		٦٣ ، ٢٠١	
جنوا ١١٠ ، ١١٦ ، ١٢٢		الدانرك ٧٠ ، ١١٧ ، ١٦٣ ، ١٦٧ ، ١٧٢ ،	
جنوب أفريقيا ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩		٢١٥ ، ٢٩٧	
جندف ٢٩٨		الدانوب ( الطونة ) ٩٤ ، ٩٥ ، ١٧٩ ، ٢٠٨	
جوجارات ٢٢٢		داود ٤٠	
جبال الجورا ٢٩٨		دالماشيا ٩٥	
جورجيا ١٥٦		دبلن ٣١٢	
جيمس الأول ١٥١ ، ١٨٣		الدردنيل ( انظر هلسنبوت ) ٥٣ ، ٥٦ .	
(ح)		دريك ١٤٨	
الحبشة ٢١ ، ١٠٥ ، ٢٤٥		الدكن ٢٢٤ ، ٢٢٨ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٤٣	
حرب سبع السنوات ١٥٦		دهلي ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٨	

الاسم	الصفحة	الاسم	الصفحة
روما ٦٥ — ٨٣ ، ٨٦ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٨ ،		دمشق ٣٨ ، ١٠٧	
١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٣٦ ، ١٦٠ ، ١٧٧ ،		دوفر ١٤٢ ، ١٤٥ ، ٢٨٥	
١٨٨ ، ١٩٤ ، ٢٩٦		الدول البلقانية ٢٩٧ ، ٢٩٨	
نهر الرون ٧٩ ، ١٣٤ ، ١٦١ ، ١٧٩		جبال دونز ١٤٦	
ريشليو ١٣٩ ، ١٤٩		الديانة الإسلامية ١٠٤ ، ١٠٥ — ١١١ ،	
ريودي جنيرو ٣١٩		١١٩ ، ١٣٤ ، ١٤٣ ، ١٦٩ ، ١٨٦ ،	
( ز )		٢٠٩ ، ٢١٢ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ ،	
زاجرس ١٢١		٢٩٨ ، ٢٤٧	
نهر الزميرى ٢٥١		الديانة البوذية ٢١٦	
بوابة زنجاريا ٢١٦		الديانة المسيحية ٨٣ ، ١٠٣ — ١١٠ ، ١١٩ ،	
زنبار ٢٤٤		١٢١ ، ١٢٣ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٤٣ ،	
الزولو ٢٣٦ ، ٢٥٠		١٧٩ ، ١٨١ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ،	
( س )		١٨٩ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ٢٣١	
تلال ساين ٧٠		الديانة الهندوكية ٢٣١	
سارجون ٣٢ ، ٣٩		الديانة اليهودية ١٠٣ ، ١٢٨	
سالونيك ٥٩		دياز ١٢١ ، ١٢٥	
سافوى ٧٧		( ر )	
نهر الساون ١٣٤ ، ١٦١ ، ١٧٩		راجبوتانا ٢٣٠	
( وانظر الرون أيضا )		رأس الرجاء الصالح ٢٢٦ ، ٢٤٠ ، ٢٤٥ ،	
ستتن ١٨٧		٢٤٦ ، ٢٥٠ ، ٣٠٨	
ستشوان ٢٠٦ ، ٢٠٧		رأس سنت فنسنت ١٢١	
سردينيا ٦٣		رأس فينستر ١٥١	
جبال الشن ١٣٥		رأس نو ١٢١	
سكة حديد كندا الباسيفيكية ٢٩١		رأس هورن ١١٣ ، ١٣٢	
السكسون ١١٨ ، ١٤٥ ، ١٧٩ ، ١٨٢ ، ١٨٤ ،		رالى ١٤٨	
١٨٦ ، ١٩٣ ، ٢١٤		نهر الراين ١٢٩ — ١٣٢ ، ١٤٣ ، ١٦٣ ،	
سكسونيا ١٧٩ ، ١٩٤		١٧٦ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٩٤ ، ٢٠٨	
سكوتلند ٣٨ ، ١١٣ ، ١٤٣ ، ١٤٦ ، ١٨٣ ،		روسييس ٢٥	
٢١٢		رودس ٧٦	
السلاف ٩٥ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٩ ، ١٨٨ ،		روسيا ٨٧ ، ٩٦ ، ١٦٣ ، ١٦٧ — ١٧٦ ،	
١٨٩ ، ٢٩٦		١٩٣ ، ١٩٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٢ ، ٢١٦ ،	
سلاميس ٥١ ، ٢١٢		٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٣٠١ ، ٣٠٣ ، ٣٠٧ ،	
سليمان ٤٠		جبال روكي ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٩	

الاسم	الصفحة	الاسم	الصفحة
شارلمان ١٣٤ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٩٦ ، ٢٩٧		ممرقند ٢٣٤	
شارل الخامس ١٩٠		سمتيام ٧٠	
شارل مارتل ١٨٠		سان فرنسيسكو ٣٠٧ ، ٣٠٤	
شالون ٩٥		سنت لورنس ١٥٦ ، ٢٥٥ ، ٢٧٣ ، ٢٧٦	
شبه جزيرة البلقان ٤٥ ، ٨٨ ، ١٧١ ، ١٩٣ ، ٢٢١		سنتياجو ٢٧١	
شركة الهند الشرقية البريطانية ١٤٩		سنجارب ٢٦	
شركة الهند الشرقية الفرنسية ١٥٥		بلاد الهند ٢٢٢ ، ٢٢٨	
شنغهاي ٢١٦ ، ٣٠٥		نهر الهند ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٣٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣	
شيكاغو ٢٩٢		السنغال ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥١	
شيلي ٢٧١ ، ٢٧٢		سنغمايا ٢٤٨	
شيلتون ١٤٦		السهل اللورنسي ٢٥٤	
شقيوت ١٤٣		سهل الايطاني ٣٨	
(ص)		سوابيا ١٧٩ ، ١٨٢ ، ١٨٤ ، ١٨٦	
الصحرء الكبرى ٢٨ ، ٨١ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١٢١ ، ١٩٩ ، ٢٠٨ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦ ، ٢٩٣ ، ٣٠٣ ، ٣٢١		السودان ٢٤٤ ، ٢٤٥ — ٢٥٠ ، ٢٥٥	
صحراء كاهاري ٢٤ ، ٢٤٨ ، ٢٥١		سورات ٢٣٦	
صحراء النفود ٣٠		سور الصين ٢٠٨ ، ٢١٠	
الصربر ٩٥		سوريا ( الشام ) ٣٠ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٥٩ ، ١٠٥ ، ١٠٧	
صقلية ٤٧ ، ٥٣ ، ٦٣ ، ١٠٩ ، ١٤٣		السويد ٨٧ ، ١٦٣ ، ١٦٧ ، ١٧٢ ، ١٩٤ ، ٢٩٧	
صور ٤٢ ، ٤٣ ، ٦٣ ، ٧١		السويس ٢٣٦ ، ٣٠٨ ، ٣٢٠	
صيدا ٤٢ ، ٤٣ ، ٦٣ ، ٧١		سويسره ٧٧ ، ٢٩٧	
الصين ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٥ ، ١١٣ ، ١٢٦ ، ١٩٨ — ٢٢٠ ، ٢٢٤ ، ٢٣١ ، ٢٨٦ ، ٢٩٥ ، ٢٩٩ — ٣٠٢ ، ٣٠٥ ، ٣٠٧ ، ٣٢٠ ، ٣١٣		سوين ١١٨	
(ط)		سميام ٢٩٧ ، ٣٠٧	
الطارف الأغر ١٦٧ ، ٢٩٦		سيان ٢١٦ ، ٢١٨	
طريق آيبا ٧٢		سبيرييا ٣٠٤	
الطريق الشمال العظيم ٣٨		السيخ ٢٣٨	
الطوب الابن ٢٥٩		نهر السيكيانج ١٩٩ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢١٢	
		سيلان ١٠٥ ، ١١٠ ، ١٣٢ ، ٢٣٠	
		نهر السين ١٣٦	
		سينين ( أنظر أسوان ) ١١٢	
		(ش)	
		شاتي ٩٤	
		شارل الثاني ١٥٠	

الاسم	الصفحة	الاسم	الصفحة
طوران ١٠٧ ، ٢٩٥		طاشوده ٢٥٠	
جبال طوروس ١٠٧		فالباريزو ١٩٩	
طوكيو ٣٠٤		فاندال ( الواندال ) ٨٢ ، ٩٤ ، ١٧٩	
طولون ١٦٦		فانديه ١٦١	
طبيبة في مصر ٢٥ ، ٥٧		فانكوثر ٣٠٥	
طبيبة في اليونان ٤٩ ، ٥٣		فايكنج ( قرصان البحر ) ١١٣ ، ١١٨	
(ع)		الغرات ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٥ ، ٣٨ ، ٤١ ، ٥٨ ، ٦٣ ، ٢٠١	
نهر العاصي ٣٨		فرجينيا ١٤٨ ، ١٥٦ ، ٢٧٦ ، ٢٩١	
العراق ٣٣ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٥٤ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٩٦ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ، ٢٠١		فردريك ١٨٤	
( أنظر بابل وكلدان وأشور أيضا )		فرنسا ٩ ، ٧٨ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ١١٧ ، ١٣٢ —	
العرب ٢٦ ، ٣٦ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ١٠٠ — ١١١ ، ١١٣ ، ١١٧ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ٢٣١ ، ٢٤٦ ، ٢٩٥ ، ٢٤٧		١٣٩ ، ١٤٢ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٩ —	
عكا ١٦٢		١٦٨ ، ١٧٩ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٩٤ ، ١٩٦ ، ٢٢١ ، ٢٣٥ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٧٣ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٨٤ ، ٢٩٦ ، ٣١٦	
عهد النهضة ١٢٨		فرنسكفورت ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١	
الغيلاميون ٣٣ ، ٣٥		فضيحة البحار الجنوبية ١٥٤ ، ١٥٥	
(غ)		فلبين ١٢٥	
الغابة السوداء ١٧٦		فلسطين ٣٩ ، ٤٠ ، ١٠٢ ، ١٠٤	
الغال ٩٤ ، ١٣٣ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١		فلورنسة ١٣٩	
غاته ٢٢٢		قليب المقدوني ٥٤ ، ٥٦	
غاته الغربية ٢٢٢		فنلند ١٧٤ ، ٢٩٧	
الغرب فيما وراء البحار ١١٩		فورموزا ٢١٥	
غرناطة ١٠٨ ، ١١٩		فوكين ٢١٣ ، ٢١٦	
غمبيا ٢٤٨		فيكتون ٢٨٩	
غيانة ١٣٢ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥		نهر الفولجا ٩٦	
غمينا ١٢٢ ، ١٣٢ ، ٢٤٤		فيراكروز ٢٧٠	
(ف)		فيلينف ١٦٦ ، ١٦٧	
فارس ٥١ ، ٥٢ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٧٤ ، ١٠٥ ، ١٧٥ ، ٢٢٥ ، ٢٩٨		فيتا ١٧٧ ، ١٩٢ ، ٢١٢	
فاسكودي جاما ١١٣ ، ١٢٢		(ق)	
		القاصيون ٣٣ ، ٣٥	
		قادس ١٦٦	

الاسم	الصفحة	الاسم	الصفحة
كلديا ٦٥ ، ٩٢ ، ١٦٠ ، ٢٠١		قارون ٥١	
كلسكنا ٢٣٦		القاهرة ٢٥٠ ، ٣٠٤	
كلوقس ١٨٠		القدس ٤٠	
كنت ٢٨٥		قرطاجة ٤٣ ، ٥٩ ، ٦٤ ، ٧٠ ، ٧٣ ، ٧٤ ،	
الجبيل الكتيرية ١١٩		٧٥ ، ٧٦ ، ٨٦ ، ١٠٩	
نهر الكنج ٢٢١ ، ٢٢٣		القرطاجينيون ٦٦ ، ٧٠ ، ٨٥ ، ١٤٣	
كندا ١٥٥ ، ١٥٦ ، ٢٨٦ ، ٢٩١ ، ٣١٨		قسطنطين ٨١	
كنوت ١٨٨		القسطنطينية ٨٠ ، ٨١ ، ٩٤ ، ٩٧ ، ١٠٥ ،	
الكنيسة اليونانية ١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٨٨ ،		٢٩٨	
٢٩٨		قشتاله ١١٩ ، ١٢٢ ، ١٢٣	
كوبنهاجن ١٦٣		قشغر ٣٠٠	
كوت دور ١٣٥ ، ١٣٦		القطب الجنوبي ٣٠٣	
كوردليرا ٢٥٣ ، ٢٥٤		القطب الشمالي ٣٠٣	
كورسيكا ٦٣		قناة ليري ٢٨٧ ، ٢٨٩	
كورنواليس ١٦٦		النقال الإنجليزى ١٣٧ ، ١٤٢ ، ١٤٥ ، ١٦٧ ،	
كوريا ٢٩٧ ، ٣٠٦		٢٩٧ ، ٢٥٠ انظر بحر الماش	
كوزكو ٣٦٣ ، ٣٦٤		قوانين الملاحة ١٤٩	
كوكا ٢٧٠		القوط ٨٢ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ١٧٩	
كوكسهافن ١٦٤			
كولبير ١٥٠ ، ١٥١		(ك)	
كولومبس ٩٠ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١٢٣ —		القوس الكارياتى ٢٣٦	
٣٠٢ ، ١٤٧ ، ٢٤٠ ، ٣٠٢		كارنثيا ٩٥	
كولومبو ٣٠٥		كارولينا ١٥٦	
كولومبيا ٢٧٠		كالوا ٢٧٠	
كولومبيا البريطانية ٢٩١		كاليفورنيا ٢٥٧	
كومان ٩٦		كانتون ٢١٦ ، ٢١٨	
كوستانس ٢٩٨		كبلاى خان ٩٦ ، ٢١٢	
الكوتغو ٢٤٤ ، ٢٤٨ ، ٣١٧ ، ٣٢٠		الكتابة الهيروغليفية ٣	
		كشاي ٢١١	
(ل)		جبال الكربات ٩٦ ، ١٨٨ ، ١٩١ ، ١٩٣	
لايم ٦٩ ، ٧٥		كرجولن ٣٠٨	
لانجدوك ١٣٤		كرواتيا ٩٥	
لاون ١٨٣		كروميل ١٤٩	
لبرادور ١٢		كربت ٤٦ ، ٤٧ ، ١٠٩	
لسان ٣٨			



الاسم	الصفحة	الاسم	الصفحة
جبال لبنان الداخلية ٣٨		مجدد برج ١٨٧	
لتوانيا ١٨٩		الحجر ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١٨٥ ، ١٨٩ ، ٢١٢ -	
لشبونة ١٢٧		الحجرون ٩٦ ، ١٩٢	
المبارد ٨٢ ، ٩٥ ، ١١٥ ، ١٧٩		(انظر الهنغارين)	
سهل المبارديا ٦٧ ، ٩٥ ، ١١٥ ، ١٢٧ ، ١٣٤ ، ١٧٩		النبى محمد ١٠٦ ، ١٠٧	
لندن ٩ ، ٣٨ ، ١٤٥ ، ١٥٤ ، ١٧٧ ، ١٨٣ ، ١٩٦ ، ٢١٢ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٣٠٥ ، ٣٢١		الحيط الأطلسي ١١٠ ، ١٢٤ ، ١٤٢ ، ١٤٧ ، ١٥٢ ، ١٩٦ ، ٢٤٠ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٣٠٩ ، ٣٠٨ ، ٣٠٤	
لنكشير ٦ ، ٢٨٨ ، ٢٩٣		الحيط المتجمد الشمالى ٢٥٥	
الوار ١٣٥		الحيط الهادى ١٩٤ ، ١٤٢ ، ١٧٥ ، ١٩٩ ، ٢٩١ ، ٣٠٢	
لوبك ١٨٧		الحيط الهندى ١١٠ ، ١٤٢ ، ٣٠٨	
لوثرنجيا ٢٩٧		مدراس ٢٣٦ ، ٢٣٧	
ليديا ٨٠		مدن الهندى ١٨٧ ، ١٩٦	
ليبتنز ١٥١		مدينة الرأس ١٣٢ ، ٢٩١ ، ٢٩٣ ، ٣٠٨	
ليفربول ٢٨١		مراكش ١١٠ ، ١٢١ ، ٢٤٨	
ليما ٢٧٠		مرتفعات الابلاش ٢٥٤ ، ٢٧٤ ، ٢٨٩	
مقاطعة ليون ١١٩		مرج ابن عامر ٣٨	
( م )		المساي ٢٤٧	
الماتالى ٢٤٧ ، ٢٥٠		نهر الميسسي ١٥٦ ، ٢٥٤ ، ٢٧٣ ، ٢٧٦ ، ٣١٣	
ماجديلينا ٢٧٠		مضيف دوفر ١٦٥ ، ١٦٦ ، ٢٨٥	
ماجدو ٣٨		مضيف ماجلان ٣٠٨	
ماجلان ١١٣ ، ١٢٥		مصر ٢٠ — ٣٣ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٦٥ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٨٠ ، ٨٦ ، ٨٨ ، ٩١ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١١٠ ، ١١٢ ، ١٥٢ ، ١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢٢٠ ، ٢٢٤ ، ٢٤٠ ، ٢٤٥ ، ٢٥٨ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٧٣	
مارسيليا ١٣٤ ، ١٣٨		الغول ٩٦ ، ٩٧ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧	
ماركوبولو ١١٤		مقدونيا ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ١٩٧	
نهر المارن ١٣٥		المكسيك ١٢٥ ، ١٣١ ، ٢٥٨ — ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٨٦ ، ٣٠٧	
الماشونا ٢٤٧			
ماكنزى ٢٥٥			
ماهندي ٢٢٣			
مبدأ منرو ٣٠٢			
مديجوان ٢٩٠			
متورس ٦٨			

الاسم	الصفحة	الاسم	الصفحة
النورسمن ١١٨ ، ١٣٧ ، ١٤٥ ، ١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٨١ ، ١٨٦ ، ٢١٤ ، ٢١٥		ملبار ١٠٥ ، ١٠٦	
البورمانديون ٩٥ ، ١٣٧ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٧٢		مليورن ٣٠٨	
نوفا سكوشيا ١٥٣ ، ١٥٦		ملقا ١٢٥	
نوفجورد ١٧٢		سمرا سربيد ١١٧	
نهر النيجر ٢٤٩ ، ٢٥٠		منج ٢١٣	
نهر النيل ٢٠ — ٢٣ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٤١ ، ٥٨ ، ٦٣ ، ٢١٨ ، ٢٥٠		المنشو ٢١٣ ، ٢١٦	
نينوى ٣٤ ، ٥٠		منشوريا ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٦	
نيوامستردام ١٣٢		منغوليا ١٩٨ ، ٢١٣	
نيوانجلند ١٥٦ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩١		المنغوليون ٩٢ ، ١٠٨ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢٣٥ ، ٣٠٧	
نيوزيلند ٣٠٩		منف ٢٥ ، ٥٧	
نيوفونلند ١٥٣		جزائر موريس ١٩٢	
نيوكاسل ٣٨ ، ٢٨٢		موسكو ١٧٣ ، ١٧٤ ، ٣٠٥	
نيويورك ١٥٦ ، ٢٧٤ - ٢٧٦ ، ٢٨٩ ، ٣٠٤		مونتريال ٣٠٤	
( ه )		نهر الوهوك ٢٧٧ ، ٢٨٦	
هابسبرج ١٨٢ ، ١٩٢ ، ١٩٤		الميديون ٣٦ ، ٥٠ ، ٥٤	
هاقانا ٣١٨		مين ١٧٩	
هامبورج ١٤٢ ، ١٨٧		ميتز ١٧٩	
هان ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧		ميونخ ١٧٧	
هانكو ٢١٧		( ن )	
هاتوثر ١٦٤ ، ١٧٩ ، ١٨٥		نابليون ٨٠ ، ١٦١ — ١٦٨ ، ١٩٢ ، ٢٤٩ ، ٢٨٣ ، ٢٨٩	
هايموس ٩٥		نابادا ٢٢٢	
ثغرة الهندسون والموهوك ٢٧٦ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧		ناقار ١١٩	
هرقلو پوليس ٢٥		نانكين ٢١٣ ، ٢١٦	
الهكسوس ٢٥		نجازاكي ٣٠٥	
هلاس ٤٥		النرويج ٨٧ ، ١١٧ ، ١٤٣ ، ١٥١ ، ١٧٢ ، ٢١٤ ، ٢٩٧	
الهلينيين ٤٥		نارينو ٨٠	
هاسبونت		نلسون ١٦٢ ، ١٦٥ ، ١٦٦	
( أنظر الدردنيل )		النمسا ١٣٩ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٨٢ ، ١٨٥ ، ١٩١ — ١٩٤ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥	
نهر السمير ٣٨		النهر الأصفر	
		( أنظر هوانج هو )	

الاسم	الصفحة	الاسم	الصفحة
وسى ١٨٧		ألهند ٦١ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ،	
واشجنجون ٢٨٦ ، ٢٩١		١١٠ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١٢٢ ،	
ولاية وسكوف ١٧٣ ، ١٧٤ ، ٢٩٥		١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ،	
الولايات المتحدة ١٩٨ ، ٢١٥ ، ٢٨٦ — ٢٩٤ ،		١٤٨ ، ١٥٥ ، ١٦٢ ، ٢١٩ — ٢٣٩ ،	
٣٠١ — ٣٠٤ ، ٣٠٧ ، ٣١٠ ، ٣١٢ ،		٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٦٧ ،	
٣١٨ ، ٣١٦		٢٨٠ ، ٢٩٦ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ،	
وليم الصامت ١٣١		الهندوس ٢٢٩ ، ٢٣٤ ، ٣١٧	
وليم الفاتح ٩٦ ، ١٤٥		هنرى السكسونى ١٨٤ ، ١٩٣	
ونشستر ١٤٦ ، ١٨٣		هنرى هندسون ٢٧٦	
نهر الويزر ١٦٣ ، ١٦٤		الهود البحر ٢٨٩	
ويلز ١٤٦		نهر هوايچ هو ١٩٩ — ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ،	
نهر وى هو ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤ ،		٢٠٤ ، ٢٠٨ — ٢١٢	
٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٣ ،		هولند ١٢٨ — ١٣٣ ، ١٣٩ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ،	
٢١٦ ، ٢٢٠ ، ٢٢٤		١٦٣ ، ٢٩٧	
(ى)		الهولنديون ١٢٨ — ١٣٣ ، ١٤٩ ، ١٥٣	
اليابان ٢١٢ ، ٢١٥ ، ٢٩٦ ، ٣٠٦ — ٣٠٧		هوتنتوت ٢٤٦ ، ٢٥٠	
نهر اليانج تسي كيانج ١٩٩ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ،		الهون ٩٥ ، ٢٢٩	
٢٠٧ ، ٢١٢ ، ٢١٨		هوهنزلرن ١٩٤	
يقطان ٢٦٢ ، ٢٦٨		هوهنشتوفن ١٨٢ ، ١٨٤	
يورك ٣٨		جبال الهمالايا ٢١٣ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٥ ،	
يوركشير ٢٨٨		٢٣٣ ، ٢٩٧	
نهر اليون ١٣٥		(و)	
اليهود ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠		وارسو ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١	
اليونان ٨ ، ٤٥ — ٥٩ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٧٠		نهر الوار ١٣٥	
٧٢ ، ٧٦ ، ٨٠ ، ٨٧ ، ٩٢ ، ٩٧ ،		نهر وترو ١٧٩	
١٠٢ ، ١٧٦ ، ٢٨٣			

## تصويب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٥١	٢١	مقلية	قلبية





## صدر من كتب العلوم الإنسانية في مجموعة الألف كتاب

( اجتماع ، اقتصاد ، عربية ، علم نفس ، تاريخ وتراجم ، جغرافيا  
رحلات ، دين ، سياسة ، فلسفة ، قانون ، معارف عامة )

- ١ — تفسير القرآن
- ٢ — حضارة الإسلام تأليف جوستاف جروينبادم
- ٣ — الفكر الخوالد تأليف مولاي محمد على
- ٤ — اتجاهات الفلسفة المعاصرة تأليف اميل برهيه
- ٥ — البوليس والكشف عن الجريمة اليوم تأليف ريجنالد موريش
- ٦ — سكتلنديارد تأليف سير هارولد سكوت
- ٧ — الحياة العامة اليونانية تأليف ا . ا . زمين
- ٨ — فلسفة الخير تأليف لويس دكنسن
- ٩ — رجال ذلوا الصحراء تأليف رتشي كولدر
- ١٠ — حركات الشباب للصاغ الدكتور محمد فتحي
- ١١ — بلاد ما بين النهرين تأليف ل . ديلاپورت
- ١٢ — بسمرك تأليف اميل لدفيج
- ١٣ — آثار حضارة الفراعنة للأستاذ محرم كمال
- ١٤ — الحياة الناجحة تأليف اوستاس تشمس
- ١٥ — كيف تقرأ الجريدة تأليف ادجار ديل
- ١٦ — الحياة اليومية في مصر القديمة تأليف الن شورت
- ١٧ — الديانات في أفريقيا السوداء تأليف ه . ديشان.

- ١٨٠٠ — الطفل من الخامسة إلى العاشرة تأليف ارنولد جزل  
١٩٠ — علم نفس الاقتصاد تأليف س . ايغلين توماس  
٢٠ — تاريخ الملاحة تأليف ا . تومازى  
٢١ — تاريخ العالم من ١٩١٤ — ١٩٥٠ تأليف دافيد تومسون  
٢٢ — التاريخ الجغرافى للقرآن تأليف السيد مظفر الدين  
٢٣ — نحو مجتمع أفضل تأليف برتراند رسل  
٢٤ — الأحلام والجنس تأليف فرويد  
٢٥ — تاريخ طابع البريد تأليف يوجان فاييه  
٢٦ — تاريخ الجيوش تأليف جورج كامستان  
٢٧ — الجغرافيا والسيادة العالمية تأليف چيمز فيرجريف
-



## ألوان وأرقام مجموعة الألف كتاب

لكل كتاب رقبان . الأول ، الرقم العام ويدل على رقم الكتاب في السلسلة وهو مكتوب على الصحائف الأولى وعلى كعب الكتاب ، بين اسم الكتاب واسم المؤلف . والثاني الرقم الخاص ويدل على رقم الكتاب من حيث الموضوع وهو مكتوب على الغلاف عند أسفل الكعب . والمجموعة كلها مقسمة إلى أربعة موضوعات رئيسية لكل منها لون خاص .

١ — الأدب (أخضر) ويشمل . الأدب العام ، تاريخ الأدب ،

النقد ، الشعر ، القصص

٢ — العلوم (أزرق) وتشمل . الزراعة ، الصناعة ، الطب ،

الكيمياء ، الفلك ، الحيوان ،

الرياضيات .

٣ — العلوم الإنسانية (أحمر) وتشمل . الاجتماع ، الاقتصاد ، التربية ،

علم النفس التاريخ والتراجم ،

الجغرافيا ، الرحلات ، الدين ،

السياسة ، الفلسفة ، القانون ،

المعارف العامة .

٤ — الفنون ( بنى ) وتشمل . الإذاعة ، التصوير ، الرسم ، المرح ،

الموسيقى ، الرياضة البدنية .









## أهداف هذه المجموعة

✳ تكوين مكتبة عربية متكاملة ، يجد القارئ العربي فيها كل ما هو بحاجة اليه من المعلومات في شتى الموضوعات ، معروضة عرضا سهلا ، يتقبله القارئ العادي ، ويجد فيه التخصص الجفائق والنظريات والآراء مبسطة بفاية الدقة ، متمشية مع آخر ماوصل اليه العلم في تلك الموضوعات .

✳ نشر هذه الكتب في أوسع نطاق ممكن ، وذلك بتخفيض السعر قدر الامكان ، واشراك أكبر عدد من الناشرين في نشرها .

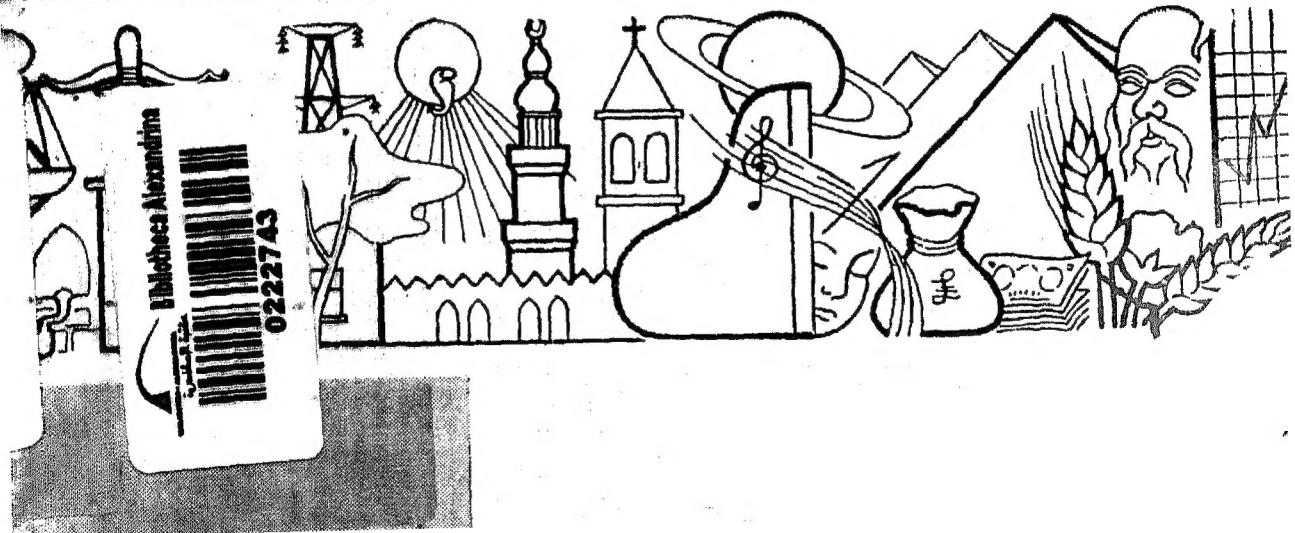
✳ النهوض بالكتاب العربي من حيث الشكل والموضوع . تشجيع عادة اقتناء الكتب وقراءتها .

✳ الافادة بصورة عملية من جهود العلماء والادباء في شتى الأمم ، باناحة الفرصة أمام القارئ العربي للاطلاع الواسع على ما عندهم .

✳ افساح المجال أمام الشباب الطامح الى الاشتغال بالعلم والادب للمساهمة بصورة ايجابية في النهضة العلمية والادبية .

✳ تشجيع الناشرين في مصر والدول الشقيقة على الاقبال على نشر كتب العلم والثقافة العالية ، وتمويصهم تعويضا مجزيا .

✳ تجديد النشاط الفكرى في العالم العربي عن طريق الكتب القيمة التى تحمل اليه العلم والمعرفة .



Bibliotheca Alexandrina



0222743